يحيى حسين عمّار

تاريخ وادي التّيم

والأقاليم المجاورة

(ثلاثة أجزاء في كتابٍ واحد)

الطبعة الأولى

ينطا - ١٩٨٥

يحيى حسين عمّار

A
956.92
A518t
c.1

تاريخ وادي التّيم والأقاليم المجاورة

(ثلاثة أجزاء في كتاب واحد)

الطبعة الأولى

ينطا - ١٩٨٥

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م

توطئة

لا تعني الكتابة في تاريخ وادي التيم التزام بإقليمية محلية ضاق مداها وقصر مرماها، في زمن تلاشت فيه المحليات وتقلصت منه المسافات، فأصبح الشمول من نهجه والوحدة أمنيته ومطلبه، وقصدي من ذلك تدوين ما أهملت الأقلام تدوينه من جليل تاريخنا وإظهار بعض ما خفي من جميل تراثنا ولو بالقدر المستطاع، فبحجم تراثها الوطني تقاس الأوطان، لا بسعة رقعتها وعظيم مساحتها. من هنا كانت جبيل واسبارطة وصور وأثينا، مدن لا تزيد مساحة الواحدة منها عن بضعة أميال مربعة. أسماء مضيئة في عالم التراث والتاريخ أغنت تاريخ العالم بما خلفته من جميل الآثار وروائع الأسفار.

يقول الدكتور العلامة فيليب حتي أن تاريخ لبنان أطول من تاريخ الولايات المتحدة الأميركية، عملاقة العصر، بثلاثين مرة، نحن لا نقول (وأغنى) ولكن نسأل هل هناك عمل أجل وعطاء أخلد من ابتكار الحرف وصياغة الكلمة؟؟

أهمية وادي التيم من تاريخ لبنان تتناسب مع أهمية لبنان من تاريخ العالم المتوسطي، ضئر الحضارات العريقة ومهدها الدافىء. مجال كان لقدامى اللبنانيين فيه القدح المعلى والوجود المتألق.

اكتسب وادي التيم أهميته في التاريخ من موقعه في مركزية تربط بين كل من سوريا ولبنان وفلسطين، ومن طريقين دوليتين تخترقانه، أولهما أفقية تربط

بين الساحل وعالم المياه والسفن والداخل وعالم الرمال والجمال، والأخرى عامودية وهي ثاني طريقين هامين يخترقان لبنان من شماله إلى جنوبه على موازاة سلسلة جباله الغربية، تربط بين شمالي سوريا والأناضول وما ورائها، بجنوبي سوريا ومصر وافريقيا، أما دمشق وصيدون وكلكيس والآبلية ومدن الشمال الفلسطيني كلها حواضر لا تبعد عن وادي التيم أكثر من مسيرة يوم واحد.

بحكم هذا كله وبالإضافة لقربه من سهل البقاع الخصيب مطمح الأنظار كان وادي التيم محطة للهجرات البشرية الآتية من منابعها الأولى ـ أعماق شبه جزيرة العرب ـ باتجاه سواحل المتوسط الشرقية ملتقية مع أمواجه المتدافعة من جهة الغرب والمنتهية بزبد أبيض على صخور الشاطىء الشرقي لبحر (أمورو الكبير. .)، أشهر هذه الهجرات وأشدها تأثيراً على تاريخنا المعاصر الفينيقيون والمسلمون العرب، وحيناً آخر للأقوام الجوابة والجيوش المتحركة بين مصر وبلاد الرافدين أو محطات لتلك الجماعات النازحة من مختلف الاتجاهات إلى داخلية البلاد السورية، وأشهرها النزف القضاعي العربي في أعقاب حرب هذه الجماعة مع الملك الفارسي سابور وما أعقبها من هجرات تنوخية ولخمية اتخذت من وادي التيم محطات لها قبل أن تتصعد الجبال اللبنانية، وابتغاء للفائدة جرت فهرسة هذا الكتاب وأشير إلى المصادر التاريخية التي أخذت عنها على النحو الذي نراه، فعسى أن أكون قد وفقت لما يفيد، والله ولي التوفيق.

ينطا ـ في أول أيلول ١٩٧٣. المـؤلف

الجزء الأول

الفصل الأول

وادي التيم.. موقع وواقع

قطاع من الأرض مستطيل يمتد على شكل شريط بمحاذاة السفوح الغربية للجبل الشرقي وحرمون على امتداد يبلغ حوالي الخمسين كيلومتراً من جبل يبوس في الشمال[1] حتى العرقوب في الجنوب، ويتضمن حاضرتي: راشيا وقراها في قسمه الشمالي، وحاصبيا وقراها في قسمه الجنوبي، تفصله عن البقاع الجنوبي ووادي الليطاني سلسلة تلال تمتد شمالاً حتى عنجر، يضيق هذا المستطيل في وسطه ويتسع عند طرفيه وله إجمالاً شكل واد يبدو وكأنه امتداد طبيعي لوادي الأردن. وهو سهل في أقسامه المتصلة بالبقاع، أشهر هذه الأقسام ما يدعى بسهل وادي التيم الذي يخترقه طولياً طريق عام راشيا ـ عنجر، ووعر في أقسامه المتصلة بحرمون. أما أقسامه الوسطى فيتخللها فسحات من الأرض شبه مغلقة منها ما يعرف بسهل منسيا وسهل الكنيسة وسهل كفرقوق وسهل عيحا، ذلك الفحت الكبير المهيأ ليكون أجمل بحيرة اصطناعية في العالم، ثم فسحات ضهر الأحمر والفاقعة والجورة التحتا ومجموعة الأحواش في الوسط، ثم سهل حاصبيا، تحيط بهذه الفسحات حزون مغلقة إجمالاً ومسالك صعبة، قال في وصفها الدكتور لورتيه: إنها منطقة شوشتها الثورات البركانية في القديم[2].

(١) يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان أن جبل يبوس من جبال الشام، يقع في وادي التيم، وفي إشارة لصالح بن يحيى في تاريخ بيروت أن جبل يبوس هو أحد الجبال العالية التي كانت توقد فوقها النار البريدية بين بيروت ودمشق.

(٢) كان أستاذ للتاريخ الطبيعي بجامعة ليون فرنسا، زار بلادنا في أواخر القرن التاسع عشر وكان لما كتبه عنها فائدة كبرى.

من السقوف الثلجية العالية، الصخرية المتحدرة، ومن التلال الجميلة المتفاوتة الاتساع والارتفاع، إلى الأودية السحيقة ذات الاتجاهات المتعاكسة التي تجعل مجاري المياه في وادي التيم تسير في ثلاثة اتجاهات رئيسية مختلفة كأغرب مكان في بلادنا، وهي على النحو الآتي:

١ ــ **مياه أقسامه الشمالية**: تجري عبر وادي القرن ووادي بكا وأودية أخرى مجاورة. ثم تلتقي في نقطة على الحدود اللبنانية ــ السورية في محلة تدعى (عقبة الطين) وهناك يتوحد مجراها وتتجه شمالاً شرقاً لترفد نهر بردى، وينتهي نهر بردى في بحيرة العتيبة شرقي دمشق.

٢ ــ **مياه أقسامه الغربية**: تتوحد مجاريها المتعددة المصادر والهابطة من جهات قرى: ينطا ــ مذوخا ــ عيثا الفخار في وادي الفالوج، وتجري غرباً عبر الوادي لترفد نهر الليطاني قريباً من بلدة جب جنين، وينتهي الليطاني في البحر المتوسط.

٣ ــ **مياه أقسامه الوسطى والجنوبية**: وهي الأوفر والأهم، لأنها تتضمن منابع الأردن العليا ــ نهر الحاصباني ــ وتزود الأردن بكميات كبيرة من المياه خاصة في فصلي الشتاء والربيع، وينتهي الأردن في البحر الميت في فلسطين.

تصلح الأراضي في وادي التيم لزراعة الحبوب والخضار والأشجار والكرمة على اختلاف أنواعها، ومناخه قاري جاف، يشتد البرد شتاء في أقسامه الشمالية والمتصل منها بحرمون، حيث تبلغ درجة الحرارة هناك، أحياناً، حوالي الخمس درجات تحت الصفر بميزان السنتيغراد، وتنخفض فيه نسبة الرطوبة صيفاً لذلك يعتبر منطقة اصطياف مثالية، أما المعدل العام للأمطار التي تتساقط فيه سنوياً فهي أقل مما يتساقط على الساحل اللبناني والسلسلة الغربية، وأكثر مما يتساقط في داخلية البلاد السورية، وطبيعة امتداد وادي التيم على موازاة السلسلتين الكبيرتين وانفتاحه نحو الجنوب يجعل أفقه مشحوناً بالغيوم في أكثر أيام السنة لذلك يتداول الناس مثلاً مفاده «وادي التيم ملفى الغيم».

يقول العارفون أن تربة وادي التيم غنية بمختلف أنواع المعادن خاصة الحديد الذي تظهر فلزاته على عمق قليل جداً وفي أماكن كثيرة خاصة في وادي التيم الأعلى، أما في وادي التيم الأدنى ــ حاصبيا وما حولها ــ فقد اشتهرت بمناجم الحمّر الذي ظل العمل جارياً فيها حتى الأمس القريب بالرغم من أسلوب التعدين البدائي المحفوف بالأخطار، وفي الستينات من هذا القرن أخذت إحدى الشركات الألمانية تجمع التراب من مواقع معينة بالقرب من ينطا وترسله إلى أوروبا للاعتقاد بوجود عينيات من الكوبالت فيه، حسب ما تناهى إلى أسماعنا في حينه، واستمرت عملية نقل التراب حوالي أربعة أشهر دون أن يكلف أي مسؤول نفسه بالاستفسار عن النتيجة، ترى هل تختزن تربة وادي التيم هذا المعدن الثمين؟

وادي التيم، منطقة غابات زاهرة:

كان وادي التيم في أمسه البعيد منطقة غابات زاهرة ضرب المثل باتساعها وعظيم شجرها، وتتواتر إلينا أخبار، منها المعقول ومنها المنقول، عن تلك الغابات الكبيرة التي أتى عليها الإهمال لأسباب عدة. فجبال الأسود والنمور التي أشير إليها في التوراة كانت مليئة بجميع أنواع الشجر الذي كان ولا يزال بعضه ينمو ويتواجد فيها حول حرمون، منها السنديان والملول والبطم والزعرور والعجرم والقيقب والبرقوق واللوز البري والعليق، ثم الزيزفون والسماق والحور والصفصاف. أما المغروسات فتكون عادة من الجوز واللوز والإجاص والتين والتفاح والكرز والتوت والمشمش والخوخ والرمان والدراقن والجنارك والفستق والكرمة، على اختلاف أنواعها.

كانت للأخشاب أهمية كبرى عند الإنسان القديم ولا تزال.. فهي تشكل أهم المواد الأولية التي يحتاجها في صناعات كثيرة، فمنها كانت تصنع السفن ومعظم أدوات الحرب والقتال، وبها تزين القصور والهياكل والمعابد والمنازل. وفي كتب التاريخ ما يشير إلى أن أخشاب لبنان عامة وحرمون ووادي التيم خاصة، كانت تمون دور الصناعة في العالم القديم. وفي مراسلات تل

العمارنة[١] الشهيرة ما يؤكد أن حاجة دور الصناعة للأخشاب اللبنانية لم تكن مقتصرة على البلاد الفينيقية فحسب، بل تعدتها إلى العالم القديم كله تقريباً.
وذكرت المراسلات المومى إليها أن جالية مصرية كانت تقيم في مدينة جبيل أوفدها الفراعنة إلى بلادنا لتزويد مصر بالأخشاب اللبنانية وقدرت شحنة الخشب الواحدة في عهد الفرعون (سنفرو) بحمولة أربعين سفينة[٣] ووجد من بقايا خشب الأرز في قبور الفراعنة المكتشفة حديثاً، وتقول التوراة أن أحيرام ملك صور الفينيقي زود سليمان بالأخشاب اللبنانية لبناء الهيكل في أورشليم، كما وجدت كتابة في قصر الملك داريوس الفارسي في مدينة سوسة. تقول الكتابة[٤]: «الخشب الذي يدعى نورينا ــ الأرز ــ مصدره جبل يدعى لبنان، من هناك جلبت الخشب».

ففي حدود القرن الخامس قبل الميلاد استن الفرس الحاكمون القوانين لحماية الغابات اللبنانية واحتفظوا لأنفسهم بأقسام كبيرة منها أسموها (جنة الملك)[٥]، ثم ورث عنهم الإغريق هذا النظام فيما بعد، وكذلك فعل الرومان، فأوقفوا خراب الغابات اللبنانية بحيث اعتبروها من أملاك الدولة واحتفظوا لأنفسهم بحق استثمار أربعة أصناف منها، ووجدت في الجبال اللبنانية كتابات في هذا المعنى تعود إلى زمن الامبراطور أدريان[٦]، ومن غابات وادي التيم في القديم اشتهرت غابة الملول القريبة من راشيا، حيث لا تزال تلك المحلة تعرف بـ(الملول)، وقد أشار إليها الشيخ الاشرفاني في مؤلفه عمدة العارفين عندما قال: إن خيالة الأمير معضاد تخفت عن الأعين فيها، ولا تزال إلى الآن تتواتر بين الناس أخبار تلك الغابة التي ظلت قائمة إلى ما بعد القرن الحادي عشر

(١) اكتشف هذه المراسلات المنقب الأثري العالمي (فلاندرز بتري) سنة ١٨٧٥م.
(٣) جبيل أم الحرف، من مقال للأستاذ فرحات في مجلة الإذاعة، عددك/١، ١٩٧٣.
(٤) لبنان في التاريخ، ص ١٨٧.
(٥) نفس المصدر، ص ١٦٤.
(٦) منشورات الجامعة اللبنانية ــ ١٨، ص ٣٨١ و ٣٨٢.

بكثير، وربما كانت غابة الملول من أشهر غابات وادي التيم وأضخمها شجراً، وقد أخبرني أحد الشيوخ من قرية كفرقوق أنه حضر بنفسه وهو صبي، في أوائل هذا القرن، عملية احتطاب حرش كبير كان موقعه بين الكنيسة وقرية بكا، كانوا يصنعون منه الفحم ويبيعونه للتجار الدمشقيين، وظل هذا عمل الكثيرين من التيامنة حتى الأمس القريب، وقد أضر هذا العمل كثيراً بالأحراش التيمية وقضى على معظمها بسبب عدم توفير الحماية للنبت الجديد، ويقول الرحالة روبنصون، الذي زار بلادنا في منتصف القرن الماضي، أنه شاهد في عيحا وعلى ضريح أحد الأولياء (على مقام مولاي بهاءالدين) أضخم شجرة رآها في البلاد، وأنه، أي روبنصون ومن معه، نصبوا خيامهم في كفرقوق قرب بركة القرية تحت أشجار الجوز الباسقة. كل هذا لم يبق له من أثر يذكر في أيامنا الحاضرة، غابات كثيرة في وادي التيم قضى عليها الإهمال وخربت تماماً، أما الأشجار الضخمة فاقتصر وجودها في الوادي حول أضرحة الأولياء والمزارات الدينية فأصبحت تلك الأشجار الضخمة بمثابة الدليل على وجود هذه الأماكن المقدسة، وتلك على أي حال عادة قديمة في التاريخ عرفها قدامى الفينيقيين الذين كانوا كغيرهم من الجماعات السامية القديمة يرون بالشجرة رمز الحياة الخالدة، واستمرت هذه المفاهيم حية متوارثة في وادي التيم وطن التراث القديم وموئل التاريخ الحي.

وادي التيم، جيب بقاعي:

البقاع: ذلك السهل المغلال الذي كونته الطمى والذي دعي يوماً بإهراء رومة، عد من أخصب بقاع الدنيا، كان على الدوام مطمح الأنظار وعامل جذب وإغراء للهجرات البشرية النازحة من مواطن البؤس والجفاف، وعلى وجه الخصوص من شبه جزيرة العرب، كانت تنتهي دائمًا هذه الهجرات على سواحل المتوسط الشرقية، أشهرها الهجرة التي عرفت في موطنها الجديد بالفينيقيين. لذلك نجد في البقاع أهم الآثار التاريخية في بلادنا وأبقاها على الدهر، ألا وهي بعلبك ــ عن الدكتور حتي قوله أن أصل الكلمة هي (بعل

مشاهد طبيعية في وادي التيم ــ مزار وشجرة

البقاع)[١]، وآخرون قالوا أن أهمية وادي البقاع في تاريخ الإنسان القديم يوازي أهمية وادي النيل ووادي الفرات، وعبر حقب تاريخه الطويل عرف البقاع بأسماء كثيرة كثرة الأقوام التي عاشت في بلادنا أو تلك التي سيطرت عليها، دعاه قدامى المصريين (أمورو) نسبة لسكانه من الأموريين وذكرته التوراة بآرام صوبا و(بقعة لبنان) و(بقعة آوون)، ودعاه اليونان سهل مرسياس ولا يزال إلى الآن نهر قرب بلدة عنجر يحمل اسم (نهر مرسيا)، ودعاه الرومان (كيلو سوريا)، أي سوريا المجوفة، وعرف العرب قسمه الشمالي باسم البقاع البعلبكي وقسمه الجنوبي باسم البقاع العزيزي. ويقول الدكتور حتي[٢] أن هذه التسمية تعود بنسبتها إلى إله سامي يدعى (عزيزو) كانت تعبده الجماعات السامية في البقاع ودمشق وتدمر، واستمرت عبادة هذا الإله رائجة وقتاً طويلاً، ودعي من العرب أيضاً ببقاع كلب نسبة لقبيلة بني كلب العربية التي كانت تقيم في أرجائه ذات يوم.

نرى أن وادي التيم يؤلف من الناحية الجغرافية جيباً من البقاع العزيزي يربط بين السهل التاريخي المغلال والجبل المقدس (حرمون)، ويشكل بذات الوقت منفذاً عبر الهضاب الجنوبية يصل هذا المنفذ بين شمالي سوريا وجنوبها ــ دعته التوراة قديماً بـ(منفذ حماة) لذلك نرى لوادي التيم شهرة وميزة استراتيجيتين ليست لسواه من أقاليم بلادنا في أي من سوريا ولبنان وفلسطين، فهو، كما سبق وذكرنا، يقع وسطاً بين الساحل والداخل. في موقع متوسطي بين ثلاث دول، تخترقه طريقان دوليتان، الأولى من شماله إلى جنوبه، وهي ثاني طريقين رئيسيتين تربط بين شمالي سوريا وجنوبها، وتصل شرقي الأناضول والقوقاز بمصر وافريقيا، والثانية من شرقه إلى غربه، تربط الساحل الفينيقي ذات المدن الآهلة والحضارة الزاهرة بالداخل المغلال ودمشق والعربية وماوراءها، حيث كان يجلب الحرير والبخور والتوابل والأفاويه والبضائع المشرقية الأخرى.

---

(١) لبنان في التاريخ، ص ١٨.
(٢) ذات المصدر، ص ١٩.

كانت هذه الطريق تأتي قريبة من صيدا وتتجه شرقاً نحو القرعون في البقاع الغربي عبر وهاد قليلة التصعد نسبياً، ومن القرعون تتابع اتجاهها شرقاً نحو ينطا، ثم تعبر وادي بكا باتجاه دمشق، أما الطريق المعتمدة حالياً (بين بيروت ودمشق عبر وهدة ضهر البيدر) لم تكن في الماضي كما هي اليوم نظراً لصعوبة مسالكها وتصعدها الشديد في الجبال اللبنانية، ولم يصلح أمرها إلا منذ زمن قريب، وكانت المسافة بين دمشق وصيدا يومذاك يومان ونصف اليوم.

على هذين الطريقين سارت جيوش الفتح التي طرقت أبواب بلادنا منذ القديم من أيام مصر الأولى، وآشور وبابل وفارس والإغريق والرومان والمسلمين العرب والفرنجة والتتار والعثمانيين وغيرهم من الوجوه الغريبة والقريبة التي عرفتها أرضنا في قديمها وحديثها، بالإضافة إلى القوافل التجارية التي عبرتها على امتداد عصور التاريخ، وتشاهد بوضوح تام في ربوع وادي التيم آثار كثيرة وبارزة لطرق قديمة في مختلف الأماكن والاتجاهات، كثيرها كان صالحاً لسير المركبات التي تجرها الجياد، وقف روبنصون على أثر واحدة منها بين قريتي عيحا ورخلا متجهة شرقاً نحو دمشق أسماها (طريق رومانية)[١]. ومن أشهر الطرق القديمة في وادي التيم والتي ظلت سالكة حتى أواخر الحرب العالمية الأولى وفترة العهد الفيصلي، هي تلك الطريق القادمة من فلسطين إلى حاصبيا، فضهر الأحمر، فالكنيسة، فوادي بكا نحو دمشق، ولم تزل هذه الطريق واضحة الأثر قرب ينطا، وتدعى من الناس حتى يومنا، بالسكة السلطاني، ولما شُقت طريق دير العشاير في الستينات من هذا القرن اعتقدها الناس فتحاً جديداً في تلك المفازة الوعرة ـ ولكن الأقدمين سبقونا بزمن بعيد وعبدوا طريقاً مماثلة لهذه الأخيرة ولكنها أكثر أماناً وأقل تعقيداً من الطريق الجديدة، ولا تزال آثارها واضحة المعالم تتصعد السفوح بتقاطع عرضي قبالة ينطا باتجاه المرتفع ١٧١٣ ولكنها لم تتخطاه كما هو واقع طريق اليوم، بل تتجه شمالاً حتى موازاة مدخل وادي الغار ومنه تتجه شرقاً عبر الوادي حتى تصل دير العشائر من أكثر الأماكن أماناً.

(١) يوميات في لبنان، ج ٢ ص ١٧٠.

وهناك طريق أفقية أخرى تصل الشوف وغربي البقاع ووادي التيم بإقليم البلان وحوران تخترق حرمون عبر (عقبة الفرس) من أقصر الطرق وأكثرها صعوبة، ونستدل من آثار هذه الطرق القديمة أنها كانت في الماضي البعيد أكثر تواجداً مما هي عليه الآن في وادي التيم، معظم هذه الطرق والآثار القديمة تنسب مجازاً أو حقيقة إلى العهد الروماني. والطرق هي الأقنية الطبيعية التي تجري فيها التجارة.

كان للتجارة أهمية كبرى في حياة الإنسان خاصة الفينيقي الذي احترفها بشغف وبز جميع شعوب العالم القديم في مضمارها، ولعل ذلك من أهم الأسباب التي صرفت الفينيقيين عن بناء امبراطورية ضخمة كغيرهم من الشعوب الذين كانوا دون الفينيقيين مقدرة من جميع الوجوه، وانصرف الفينيقيون للتجارة فكانت تفتح لهم المدن والحصون أبوابها سلمًا ودون خوف، بل رغبة بمشاهدة ما يحمله أولئك التجار القادمون من فينيقيا وكان لهم في البلاد التي يؤمونها وكلاء ورواد لبضاعتهم شأن الوكلاء التجاريين في أيامنا الحاضرة، من هؤلاء قبيلة كانت تقيم في حوران تدعى (قيدار)[١].

ومثلما تنبت الأشجار على مجاري المياه وتخضل الواحات كذلك كانت التجمعات التجارية وطرق القوافل بمثابة منتجعات حضارية قامت عليها الدول ونشأت عليها الحضارات، ويكمل الدكتور زيادة قوله أن الطريق بين آيلة والبتراء[٢] كانت تغص بالمسافرين وكانت القوافل التي تجتازها أقرب إلى الجيوش من حيث ضخامتها، ويخبرنا الرحالة الدكتور ويلسن[٣] أنه شاهد في أوائل شهر حزيران من سنة ١٨٤٣ قافلة تجارية قادمة من بغداد إلى دمشق وصلتها في الصباح ولم تكن المدينة قد فتحت أبوابها بعد، فأناخت القافلة جمالها في السهل خارج بوابة دمشق الشرقية، ثم أنزلت أحمالها. كانت القافلة مؤلفة

(١) الدواني، ص ٤٣ و ٤٤.

(٢) الجغرافيا والرحلات عند العرب، ص ٢١٥.

(٣) يوميات في لبنان، ج ٢ ص ١٧٠.

من أربعة آلاف وخمسماية جملاً وكانت حمولتها بهارات وأطياب وتبغ وتشكيلة من البضائع الهندية، فلو قدرنا أن الجمل الواحد كان يحمل ما زنته مائتي كيلوغرام فقط، لبلغ وزن المنقول من البضائع الآنفة الذكر ما وزنه تسعماية طن.

كان وادي التيم، بحكم موقعه الجغرافي واستدلالاً من الآثار المتواجدة على أرضه، كان أكثر ازدهاراً وعمراناً مما هو عليه الآن، وكان سكان تلك الربى الجميلة التي تشكل اليوم الاحتياط السكني للبنان المكتظ، يعدون في الماضي أضعاف ما هم عليه الآن بنسبة قد تبلغ خمسة أمثال تعدادهم الحالي تقريباً.

التنظيمات الإدارية للبلاد السورية واللبنانية على المدى التاريخي المعلوم، ومكان وادي التيم منها:

تغيرت كثيراً وتبدلت التنظيمات الإدارية لبلادنا، إن بتغير الدول المسيطرة أو لتغيير الولاة في تلك الدول، وأقدم ما نعرف لهذه التنظيمات، هو ما كان عليه الحال في زمن الآشوريين. كان الآشوريون يطلقون اسم ولاية (ما وراء النهر) على البلاد الواقعة بين الفرات والبحر الأحمر ويبدو أن المقصود بالقول هو نهر الفرات، وعند مجيء الكلدانيين وبعد أن ورثت بابل نينوى استمر هذا التنظيم الشامل لبلادنا معمولاً به.

وفي زمن الفرس كانت بلادنا تدعى (الستربية السورية) وكان تصنيفها الستربية الخامسة من مجموعة الستربيات التي كانت تؤلف الامبراطورية الفارسية الضخمة، وكانت هذه الستربية تشمل (سوريا وفينيقيا وفلسطين وقبرص) كانت عاصمتها المركزية دمشق وقد بلغت الضريبة ـ الجزية ـ السنوية المترتبة عليها للخزينة الفارسية ١٥٠ وزنة من الفضة.

وهناك تحديد جغرافي لهذه الستربية يقول أنها كانت تمتد من بابل شرقاً

حتى البحر المتوسط غرباً. ومن أرمينيا شمالاً حتى جزيرة العرب جنوباً. وعند مجيء اليونان إلى البلاد المشرقية وضعوا لها ترتيباً جديداً، والمعروف أن الاسكندر المكدوني هو أول من جعل سوريا الطبيعية بحدودها المعروفة ولاية واحدة وجعل عاصمتها دمشق. وبعد احتلاله بلادنا أبقى الاسكندر على نظام المدن الفينيقية وثبت ملوكها باستثناء مدينة صور التي قاومته، فجعل عليها حاكماً عسكرياً مكدونياً، وبعد موت الاسكندر تقاسم قادة جيشه الأربعة الكبار تركة سيدهم في مؤتمر عقدوه في بابل عرف بمؤتمر بابل.

كانت بادىء الأمر سوريا الوسطى والجنوبية بما فيها فينيقيا من أملاك بطليموس ولكن السلوقيين أعادوا وحدة البلاد السورية وطردوا البطالسة نحو الجنوب وجعلوا عاصمة البلاد أنطاكية بدلاً من دمشق، كان وادي التيم في تلك الفترة تحت حكم أمرائه المحليين من عيطوريين أو أنباط. وفي العهد الروماني جعل الرومان المتنصرون من سوريا إقليمًا رومانياً موحداً تضمن مجموعة الامارات السورية الشبه مستقلة، وقد تم ذلك على مراحل وبهدوء، على حد قول مؤرخ تاريخ حمص:

- في أيام الامبراطور كلوديوس وسنة ٤٨م انضمت الآبلية.
- في أيام الامبراطور فسباسيان وسنة ٧٢م انضمت كوماجنة(١).
- في أيام الامبراطور تيطوس بن فسباسيان وسنة ٧٩م انضمت منطقة حمص.
- في أيام الامبراطور دميتيان سنة ٨١م انضمتُ كلكيس.
- وفي أيام الامبراطور تراجان سنة ١٠٦م انضمت دمشق وتدمر.

وكانت أبرز التنظيمات الإدارية التي حددها الرومان للبلاد الواقعة تحت

(١) تاريخ حمص، عيسى أسعد، ص ٢٢٨؛ وتاريخ اليونان، منشورات الجامعة ـ ١٥، ص ٥٩. كوماجنة هذه لم نعلم من أمرها شيئاً. أما الآبلية فهي مدينة، وقيل: المحلة كلها القريبة من مقام النبي آبيل (هابيل) في وادي بردى.

سيطرتهم، تلك التي وضعها الامبراطور قسطنطين وقسم الامبراطورية بموجبها إلى أربع (برايفكتورات) هي التالية:

(غاليا ـ إيطاليا ـ إيليريا ـ المشرق).

واشتملت كل برايفكتورة على ذيقوسيات، وتضمنت برايفكتورة المشرق الذيقوسيات التالية:

(الشرق ـ مصر ـ آسيا ـ البنط ـ تراقيا).

وشملت ذيقوسية المشرق الولايات التالية:

(سوريا الأولى ـ سوريا الثانية ـ فلسطين الأولى ـ فلسطين الثانية ـ قيليقيا الأولى ـ قيليقيا الثانية ـ قبرص ـ فينيقيا اللبنانية[1] ـ الفرات ـ الرها ـ ما بين النهرين ـ سوريا العربية). وعن الدكتور حتي قوله أنه «لا تزال حتى الآن هذه الولايات محفوظة في ألقاب أحبار الكنيسة الأرثوذكسية».

أما البيزنطيون فقد اعتمدوا التقسيم الإداري التالي:

١ ـ **فينيقيا الساحلية**: قاعدتها صور وتشمل طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وعكا.

٢ ـ **فينيقيا الداخلية**: قاعدتها دمشق وتشمل البقاع وحمص وحماه.

أما فلسطين فقد أقيم فيها ثلاث إيالات.

كان وادي التيم بحكم موقعه الجغرافي القريب من دمشق تابعاً لها في غالب الأحيان وعندما افتتح المسلمون العرب سوريا، عقد أولو الأمر في الدولة الجديدة الناشئة مؤتمراً برئاسة الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، دعي بمؤتمر الجابية لأنه عقد في محلة الجابية الواقعة في الجولان، واستمر ثلاثة أسابيع تقرر فيه تقسيم البلاد السورية إلى أربعة مناطق عسكرية أو أجناد، هي التالية:

١ ـ جند الشام.

---

(١) كانت فينيقيا اللبنانية تشمل دمشق وحمص وتدمر وبعلبك، أمراء غسان، ص ١٦.

٢ ـ جند الأردن.

٣ ـ جند فلسطين.

٤ ـ جند حمص.

وفي زمن الأمويين أضيف إلى هذه الأجناد جند خامس هو جند قنسرين.

أما العباسيون فقد اعتمدوا التقسيم الإداري التالي:

١ ـ حلب، وتتضمن قنسرين ـ إنطاكية ـ والاسكندرونة.

٢ ـ حمص، وتشمل ما بين تدمر وساحل اللاذقية.

٣ ـ دمشق ومعها الساحل اللبناني من طرابلس إلى صيدا (وادي التيم ضمناً).

٤ ـ طبريا، وتتضمن الأردن وصور وعكا وبيسان.

٥ ـ الرملة، وتتضمن غزة ـ القدس ـ يافا ـ أريحا ـ عمان والشراة.

وفي زمن الفاطميين كان لوادي التيم حكام محليون هم الجنادلة البقاعيون الذين امتد نفوذهم إلى البقاع وبيروت، وفي فترة المد الصليبي أو الغزوة الصليبية للمشرق كانت حاصبيا، حاضرة وادي التيم الكبرى، واقعة تحت نفوذهم وتابعة لبارونية صيدا، وكانت بارونية صيدا تمتد من الدامور شمالاً حتى عدلون جنوباً، ومن البحر المتوسط غرباً حتى آخر امتداد لنفوذ الصليبيين شرقاً، ولم يكن هذا الامتداد ثابتاً، بل كان يتسع ويتقلص تبعاً لواقع الحال يومذاك، لأن الداخل قاوم هذا الخطر المتمركز على الساحل واستمر يتجاذب معه طرف الحبل حتى أزاله نهائياً، ويستدل من مجريات الأحداث التاريخية أنه في زمن الملك العادل نورالدين محمود بن زنكي كان للصليبيين وجود في وادي التيم وظل هذا الوجود قائماً حتى أواخر عهد الدولة النورية حوالي العام ١١٧٤م، تاريخ نزول الشهابيين العرب في ضواحي راشيا ودحرهم الفرنجة وتخليص وادي التيم منهم.

ولما تولى المماليك قسموا سوريا إلى ست نيابات على كل منها نائب يتولى

الأحكام باسمهم، كان وادي التيم يومذاك تابع لنيابة دمشق التي كانت تشمل:

البقاع العزيزي ـ البقاع البعلبكي ـ بيروت ـ صيدا.

وجاء العثمانيون بعد المماليك في العام ١٥١٦م فأبقوا على التقسيمات الإدارية للبلاد باستثناء حلب نظراً لقربها من بلادهم، وكان وادي التيم تحت حكم أمرائه المحليين من آل شهاب وكانت ولاية دمشق تمتد من تدمر شرقاً حتى حاصبيا غرباً، ومن منتصف الطريق بين حماه وحلب، عند قرية تدعى مرة(١)، شمالاً، حتى القدس والخليل جنوباً. وفي سنة ١٧٨٣م كانت مرجعيون تابعة لإيالة صيدا، ووادي التيم تابعاً لإيالة دمشق. فكان والي حاصبيا يدفع لوالي صيدا عن مرجعيون ستة آلاف قرش كل سنة بدل ضمانها(٢).

كان وادي التيم يظهر على الخرائط الجغرافية العثمانية كإقليم له حدوده المميزة، شاهدت بعض هذه الخرائط وهي من وضع اللجنة العثمانية الألمانية التي تولت الأعمال الجغرافية في البلاد العثمانية حوالي العام ١٩١١، وتعذر علينا تصويرها نظراً لسوء طباعتها فاكتفينا بالإشارة إليها.

انتهت السيطرة العثمانية على بلادنا بانتهاء الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وبتاريخ السابع من آذار سنة ١٩٢٠ عقد في دمشق مؤتمر وطني ضم مندوبين من مختلف المناطق في سوريا ولبنان وفلسطين نادى فيه المؤتمرون بفيصل ملكاً على سوريا، ولكن العهد الفيصلي لم يعش طويلاً لأن الدولتين الكبيرتين آنذاك، بريطانيا وفرنسا، كانتا قد اقتسمتا البلاد السورية فيما بينهما بموجب اتفاق سايكس ـ بيكو، فكانت سوريا ولبنان لفرنسا وفلسطين وشرقي الأردن لبريطانيا. وفي أول أيلول من سنة ١٩٢٠م أعلن قيام دولة لبنان الكبير بعد أن ضمت إليه أقضية الجنوب والبقاع والشمال، وكان وادي التيم من جملة الأقاليم التي ضمت إلى دولة لبنان الكبير الوريثة الطبيعية للامارة

(١) يوميات في لبنان، ج ٢ ص ٢٠١.

(٢) الدواني، ص ٢٥٣.

الشهابية، وأصبح وادي التيم الرئة اليمنى للوطن اللبناني. وأعلن لبنان جمهورية في ٢٣ من أيار سنة ١٩٢٦، وطبقاً للتقسيم الإداري المعمول به في الجمهورية اللبنانية وزع وادي التيم بين محافظتي البقاع والجنوب، بحيث أصبحت حاصبيا وقراها من محافظة الجنوب، وراشيا وقراها من محافظة البقاع. ولم تعد تلك التسمية الإقليمية والتراثية (وادي التيم) تعني للإنسان اللبناني أكثر ما يعنيه تقويم قديم مرّ عليه الزمن.

هل كان وادي التيم يدعى في أوائل القرن الأول الميلادي بإقليم (زينودوروس)؟؟؟

بعض المصادر التاريخية الموثوقة(١) أشارت إلى إقليم موقعه في ضواحي حرمون يدعى (إقليم زينودوروس)، وزينودوروس هذا كان والياً رومانياً على اللجاة ـ تراخونيتس ـ توفي في العام ١٩ قبل الميلاد وقد ورد ذلك على النحو التالي:

لما رجع هيرودس من مرافقة القيصر أوغسطس إلى البحر، شيد له هيكلاً جميلاً من المرمر الأبيض في إقليم زينودورس بالقرب من مكان اسمه (بانيوم)، وبانيوم هذه هي الأصل لكلمة بانياس ـ اسم المدينة السورية القريبة من وادي التيم لجهة الجولان ـ والشهيرة بقلعتها والتي كانت تعرف يوماً باسم قيصرية فيلبوس، كانت يومذاك المغارة القريبة من بانياس والتي يتدفق منها الماء مكرسة للإله بان إله البراري والغابات عند اليونان وقيل إله الحظ، وزينودوروس هذا آلت إليه مدينة كلكيس عنجر اليوم بعد مقتل صاحبها ليسانياس بن بطليموس الذي قيل فيه «سيد كلكيس المنخفضة»، وكان على ما يبدو أن هذا الإقليم ـ إقليم زينودوروس ـ يمتد في هذا المدى الحيوي الواقع بين بانياس، الآنفة الذكر، في الجنوب، وكلكيس في الشمال (عنجر) وادي التيم اليوم تقريباً ـ أما ليسانياس بن بطليموس، الآنف الذكر، فقد قتله أنطونيو القائد الروماني الشهير

(١) يوميات في لبنان، مصادر توراتية، ج ٢ ص ٥٣ و ٢٣٧.

بعلاقته الغرامية بكليوباترا، وسنرى ذلك فيما سنقرأه عن كلكيس. وما نود قوله الآن، أنه بعد موت زينودوروس، وقيل قبل موته، انتزع منه أوغوسطس قيصر تركة ليسانيوس المغدور وأعطاها إلى هيرودوس الكبير، ثم آلت كلكيس إلى اغريباس الأصغر ابن شقيق هيرودوس، ثم غابت أخبار كلكيس عنا حتى العام ٦١ للميلاد السنة التي ضمت فيها إلى الاتحاد السوري، وعلى النحو الذي بيّناه آنفاً.

□ □ □

الفصل الثاني

حرمون في التاريخ

«حرمون ووادي التيم توءمان كل منهما يعيش في كنف أخيه ويعرّف به».

«أقدم هذه المطالعة التاريخية عن حرمون إلى أرواح الشهداء من المقاتلين العرب الذين قضوا في الدفاع عنه في الحرب العربية ـ الإسرائيلية».

(المؤلف)

حرمون.. أو جبل الشيخ:

حرمون أو جبل الشيخ والإسمان لمسمّى واحد، بهما عرفته الموسوعات الجغرافية الشهيرة وعرّفته للعالم بالمصورات والخرائط الصادرة عنها، «وأشير إلى أن أقسامه الغربية تتبع لبنان. وأقسامه الشرقية تتبع سوريا» ـ يفصل بينهما خط الذرى ـ يؤلف حرمون الجزء الأكبر من الجبل الشرقي (انتيليبانوس) الممتد (بطول يبلغ حوالي الستين كيلومتراً) من جبل المازر القريب من قرية دير العشاير في الشمال حتى مدينة بانياس السورية في الجنوب، أما السلسلة الشرقية ككل فتعد «المنطقة الرابعة من مجموعة التضاريس السورية حيث يتقابل فيها لبنان الشرقي مع لبنان الغربي على امتداد واحد وارتفاع واحد تقريباً» وتبلغ السلسلة الشرقية ذروة ارتفاعها عند حرمون ثم تنحدر نحو الجولان، يفصله عن السلسلة الغربية وادي البقاع الضيّق، وتتألف أعالي الجبل من ثلاث قمم منفصلة عن بعضها تبدو للناظر إليها من بعيد (وكأنها قمة واحدة)، تبعد

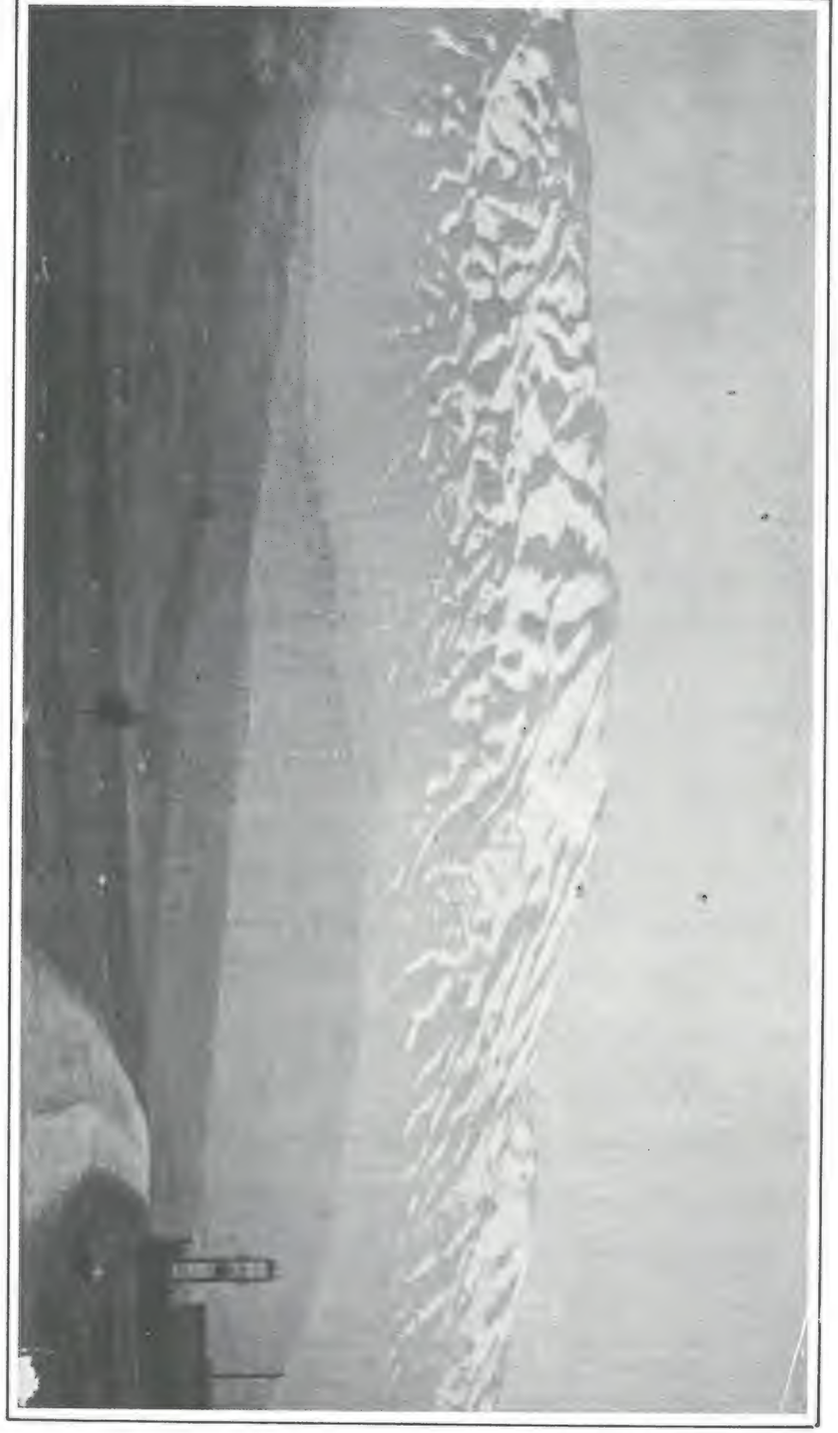

جبل الشيخ والقمة ٢٨١٤ متراً

الواحدة عن الأخرى حوالي الثمانماية متراً تقريباً وأعلاها القمة الجنوبيـة ـ الشرقية علوها ٢٨١٤ متراً عن سطح البحر، فيكون حرمون ثاني جبل في بلادنا من حيث العلو بعـد جبل المكمـل الذي تعلو فيـه قمة القـرنة السـوداء ٣٠٨٣ متراً.

إن ما سببته العوامل الطبيعية من إنجرافات عن أقسام الجبل العليا العارية والخالية من النباتات إلى حد ما. نزلت به إلى هذا الحدّ من العلو، وتدل الحجارة البركانية المتواجدة على سطحه والتي تبرز جلياً من بين الصخور الكلسية في ثنايا قممه على أنه كان في الماضي بركاناً مشتعلاً «وتبدو فيه الآن جميع التكوينات الطبيعية من الصخر الناري إلى المتحول فالرسوبي».

يتميّز حرمون بموقعه الفريد بجماله «بين الصحراء السوريـة والبحر الأبيض المتوسط». الذي يبعد عنه حوالي خمسين كيلومتراً، وبواقعه الرائع حيث يتعالى شكله الهرمي بتصاعد مطرد. من الأودية السحيقة حتى الأعالي المكللة بالثلوج التي تبرز متألقة ناصعة، من الأفق الأزرق الرطب في الغرب، حتى الأفق الأحمر الجاف في الشرق.

«من أعالي البحر إلى جوف الصحراء يطل عليك كيفما نظرت ويلحق بك ظله أينما اتجهت». يشرف على بقاع كثيرة من لبنان وسوريا وفلسطين والأردن، ويشاهد من قبرص، أما أردافه المتوهجة البيضاء فتتألق ألوانها وتتغير على اختلاف ساعات النهار والليل بفعل نور الشمس وضوء القمر وتتنوع تبعاً لزاوية وقوع الضوء على أقسامها العليا.

«يختار زواره الأيام الصيفية ذات الليالي المقمـرة ليستمتعوا بمشـاهدة الشمس وهي تغرب والقمر وهو يشرق بروعة لا يجدها المرء في أي مكان من الدنيا»، فيشعر وكأنه سابح في أجواز الفضاء.

أخذ قدامى الكنعانيين بروعة هذا الجبل وتأثروا بهيمنته المطلقة على بلادهم فاتخذوه إلهاً يعبدونه باسم (بعل حرمون) وأقاموا على سطحه هياكلاً ومعابداً ما زالت آثارها ظاهرة للعيان حتى اليوم، وكانت الجماعات السورية

القديمة تصعد إلى قمته بحجة سنوية موعدها أواخر فصل الصيف من كل سنة، حاملة إليه جراراً ملأى بالماء(١) يدحونها فوقه. تلك كانت قرابينهم إليه، أما المشقة العظيمة التي كانت تنال الحجيج من جراء تسلقه الجبل فكانت قرباناً من نوع آخر.

تذكر المصادر اليونانية والرومانية أن الأقوام المحيطة بحرمون كانت تعبده واستمرت حتى حدود القرن الرابع الميلادي، وهذا ما لم نسمع عن حدوثه بين الإنسان، وبين أي جبل في العالم، أما الأولومب فقد جعلتها الميثولوجيا اليونانية القديمة مكاناً تأوي إليه الآلهة وليست آلهة بحد ذاتها، ويقول العارفون إن البعل كان يعبد على قمة الجبل وكانت الجماعات السورية تقيم مناسكها وفروضها الدينية في هيكل هناك، ولا يخفى ما للكلمة (بعل حرمون) من دلالة روحية في معناها السامي الأصيل. مجمل القول أنه كان لحرمون من القدسية في نفوس قدامى السوريين. ما للقدس ومكة من قدسية في نفوس مؤمني اليوم.

أما طيب هوائه وعذوبة مائه وكثرة الينابيع المتفجرة من سفوحه وتحت أقدامه الصخرية، مثل نبع الجوز والوزاني وعين المغارة والحاصباني وينابيع بانياس واللدان ومجدل شمس وبيت جن والمغر وعرنا وينابيع كثيرة أخرى يصعب عدها ويستحيل حصرها بالإضافة إلى الينابيع التي تتفجر بعض السنين في سهل عيحا وبحيرة دير العشاير ووادي الفاقعة قرب راشيا، كل هذا جعل من حرمون بنظر عابديه إلهاً يهب الخير والبركة للأقوام المحيطة به.

الآثار التاريخية على حرمون:

الآثار الموجودة على سطح الجبل، هي بقايا لهيكل موغل في القدم، بني على الطريقة الكلاسيكية التي اعتمدها الوثنيون القدامى ببناء هياكلهم ومعابدهم، والتي لم يزل من أثرها الفني على ما نبتنيه الآن من معابد. القسم الذي يحيط بالهيكل. ثم الهيكل بحد ذاته. ثم قدس الأقداس، فالهيكل الذي

(١) عن مجلة الأخبار البيروتية من مقال للمحامي ماير سعد.

كان قائماً على سطح حرمون تدل قياساته أنه كان عبارة عن استدارة قطرها حوالي الستين قدماً يحيط به سور بيضوي الشكل لم تزل حجارته المنحوتة «متماسكة في بعض أقسامها مهدمة في البعض الآخر»، ويقول العارفون إن هذه الحجارة مدقوقة (دقة البوشارد)(١) التي لا يزال البناؤون في لبنان وسوريا يكررون نقشها على حجارة البيوت حتى يومنا هذا، وقدس الأقداس في الهيكل المذكور عبارة عن صخر ارتفاعه نحواً من خمسة عشر قدماً مكانه داخل المستديرة الآنفة الذكر في وسطه حفرة عمقها ثمانية أقدام ويقول روبنصون إن الهياكل كانت على ما يبدو تحيط بالجبل من جميع أطرافه أما الأجران المتواجدة يقول الدكتور حتي إن الرومان كانوا يشعلون فيها النار فتشاهد من قبرص، مكان هذه الآثار في محلة تدعى (المطابخيات) قرب تلة تدعى تلة الجراجة هذا اسمها منذ قديم الزمان. ومكان الآثار هو القمة الجنوبية ـ الشرقية النقطة الجيودوزية ٢٨١٤م وتدعى هذه الآثار من العامة طوراً بقصر شبيب والمقصود بهذا الاسم هو قيل يمني تقول الأسطورة إنه قتل في إحدى حجرات قصره على يد أبو زيد الهلالي.. وطوراً بقصر عنتر..، ولكن لا قيمة تاريخية لأي من القولين على ما نعتقد وأن الآثار الآنفة الذكر تعود لأزمنة موغلة في القدم، وأحدث ما نعرفه من بناء قام هناك هو قصر أشاده الأمير نجم الشهابي حوالي العام ١١٩٥م لغرض الراحة والاستجمام في فصل الصيف وقد استدلينا على ذلك من شعر قاله في هذا الموضوع:

ومنزلاً فوق قن الشيخ بت به
معانق الأنس واللذات والطرب
أهدى لنا من ربي نجد معطرة
ومنظراً من ديار العجم والعرب

(١) ذات المصدر.

نحن، وحرمون، والتاريخ:

كان حرمون منذ أن كانت هذه الأرض التي نعيش عليها والتي تستبدل ترابها بأجسادنا جيلاً بعد جيل بمسيرة لا تتوقف بين مد الحياة وجزر الفناء، فإنساننا القديم عبده وقدم إليه القرابين وبنى فوقه هياكل أقام فيها طقوسه أيام وثنيته الأولى وأوصلته روعتها وعظمة إبداعها لمعرفة ربه الحقيقي ثم لجأ إلى مغاوره وكهوفه الموحشة هرباً من الدنيا وسعياً وراء الآخرة عندما اهتدى إلى خالقه، حتى اشتهر الجبل بكثرة ما لجأ إليه من عباد وزهاد، فكان بيننا أقدم تاريخ معروف، وقد ربط الإنسان بين حرمون وبين آدم أبي البشر، يقول ابن العبري: إن شيت ابن آدم لما شوّق ولده إلى الحياة السعيدة التي كانت لأبويه في الجنة. انقطعوا إلى جبل حرمون معتكفين على العبادة والنسك، فسموا بذلك بني الوهيم ـ أي الإله ـ وهناك من يعتقد أن حرمون «هو الجبل العالي الذي تصعده السيد المسيح يوم التجلّي» مسحة روحية عريقة ومتوارثة بين حرمون وبين إنساننا القديم والحديث.

ذكر العهد القديم حرمون مراراً، في سفر يشوع. وسفر التثنية. وسفر الأيام. والزبور، ومما يجدر ذكره أن حرمون ارتبط اسمه بلبنان في أقدم مخطوطتين تاريخيتين.

الأولى في نشيد الأنشاد ٨:٤ «هلّمي معي من لبنان أيتها العروس معي من لبنان أنظري من رأس أمانة من رأس سنير وحرمون من مرابض الأسود من جبال النمور».

والثانية مخطوطة عهدها حدود القرن التاسع قبل المسيح دوّنها الملك شلمنصر الآشوري يصف فيها إنجازاته وأعماله الحربية بقوله[1] «في السنة الثالثة من ملكي عبرت الفرات للمرة السادسة عشرة وكان الملك حزائيل

(١) لبنان في التاريخ، ص ١٧٥ ـ **ملاحظة**: اكتشف هذه الكتابة الأثري البريطاني جورج سمث سنة ١٨٦٦، مجلة الآثار ١٩١٢.

الآرامي الواثق من قوته قد حشد جيشاً عظيّا وتمركز عند جبل سنيرو عند مداخل لبنان حصنه القوّي» وسنيرو اسم قديم لحرمون.

مرابض الأسود وجبال النمور في حرمون كانت يومذاك ولا شك غابات كثيفة دغلة من أشجار الصنوبر والشربين والشوح والسنديان والملول وغيرها حمتها قداسة الجبل وصانها إيمان قدامى السوريين بهذا المرتقى السماوي. أما الآن فقد ذهبت كلها ولم يبق إلا خبرها، ولعل أكبر كارثة تعرض لها حرمون، هي عندما خُربت تلك الغابات التي كانت تكلله، فجرد منها وأصبح بشكله الحالي أجردَ.

الأسماء التي عرف بها الجبل عبر حقب التاريخ المدوّن:

لما كان موقع حرمون في قلب البلاد السورية أغنى بلاد الله الواسعة بالأحداث التاريخية لكثرة ما ازدهر بها من حضارات وما تعاقب عليها من فاتحين وغزاة من مختلف الأمم والاتجاهات جميعهم ذهبوا وبقي إنساننا وهذه الأرض، هو يحمل ملامحها ويحيا بقدسيتها وهي تمده بأسباب البقاء وتحمل تراثه، وبتغير اللغات التي تواترت تغير كثيراً اسم الجبل وتبدل فقدامى السوريين أعطوه اسم أحد آلهتهم (بعل حرمون) وهذا أقدم أسمائه وأبقاها على الدهر «والصيدونيون يدعون حرمون سيريون والأموريون يدعونه سنير» تثنية ٣ : ٩.

«من عروعير التي على حافة أرنون إلى جبل سيئون الذي هو حرمون» تثنية ٥ : ٤٨.

وذكر في المزامير باسم سيريون وبهذا الاسم عرفه الفينيقيون القدامى، وعرفه الأموريون باسم شنير، وعرفه العبران باسم سعير ويقول العارفون أن سعير اسم أمير شهير من قبيلة الحويين[1] أشارت التوراة إلى هذه القبيلة أنها كانت تقيم حول الجبل لناحية البتراء، اشتهر من هذه القبيلة أمير يدعى سعير

(١) الدواني، عيسى اسكندر المعلوف.

فأعطى الجبل اسمه، وعرفه الآشوريون باسم سنيرو طبقاً لما ورد في مخطوطة ملكهم شلمانصر، ودعاه الآراميون (طور ثلجا)(١) ودعاه قدامى الكتبة من اليونان والرومان باسم (انتيليبانوس) أي القائم إزاء لبنان، «وبهذا الاسم ذكرته الترجمة السبعينية للأسفار المقدسة» أما بطليموس فدعاه جبل هور وآخرون اعتبروا أن جبل هور هو الجبل الأقرع القريب من مدينة أنطاكية وقال روبنصون أن بعل جاد وبعل حرمون اسمان لمسمى واحد أما العرب فقد عرفوه بأسماء عدة: جبل الثلج وسنير وجبل الشيخ ويقول الدكتور فيليب حتي: إن الكلمة الصحيحة هي الجبل الشيخ. وإن أقدم شعر عند العرب ذكر فيه الجبل. هو في قول لحسان بن ثابت في مدحه أميرين من آل جفنة الغساسنة:

ملكاً من جبل الثلج إلى
جانبي آيلة من عبد وحر
ثم صاحا بين غسان اصبرو
أنهم يوم مصاليت صبر

وفي كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» عرّف أبو الفداء مدينة بانياس بقوله: «إنها من لحف جبل الثلج والثلج لا ينعدم عن رأسه صيفاً أو شتاء».

وقال البحتري في وصفه مدينة دمشق:

وتأملت أن تظلّ ركابي   بين لبنان طلّعا والسنير

ومر معنا قول للأمير نجم الشهابي الذي ابتنى منزلاً على سطح الجبل لغرض الراحة والاستجمام:

ومنزلاً فوق قن الشيخ بت به
معانق الأنس واللذات والطرب

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج ١، ص ٤٣ ـ ٤٤.

أما القول بأنه (الجبل الشيخ) فهذا ما يجد المرء مبرراته الواضحة ومعطيات هذا الاسم البيّنة عندما ينظر إلى الجبل الشامخ على ما حوله من جبال.

وهو مكلل الهام بالثلج الأبيض الناصع. وعن حرمون قيل أنه أعلى قمم جبال سوريا، إذ يبلغ ارتفاعه ٩٣٨٣ قدماً(١).

التيميّ وحرمون:

ذكرنا قدم العلاقات الروحية بين إنساننا وحرمون، والآن نذكر أثر هذه العلاقات في معناها الماديّ، فالتيمي أصدق مثل لهذا الإنسان. لأنه نشأ على طيب هوائه وعذوبة مائه وترعرع على أكتاف صخوره البيضاء فنمت مشاعره في ظل هيمنة الجبل اللامحدودة، كيف لا وهو يطل على كل بيت، ويرى من كل نافذة، فكان لهذا التلازم أثره الكبير في نفوس الناس، يتساوى مع أثر الهملايا العظيمة في نفوس سكان هضبة التيبت وأثر الألب في نفوس سكان القرى الألبية المدلاة على سفوحها أو المتربعة بين شعابها الباردة، وكأن حرمون يشاطر الناس حياتهم العامة فترانا نسمع الكثير من الأمثال والحكم تتناوله وصفاً وتشبيهاً: فحسن السيرة يوصف بأن «سمعته مثل ثلج الجرد» أي لا غبار عليها، وسيئها يوصف بأن ذنوبه أثقل من جبل الشيخ ـ وآخر مهموم عانٍ وكأنه يحمل جبل الشيخ على ظهره، ورابع يضرّ بقوم ويفيد بآخرين مثل جبل الشيخ: برده لنا وخيره للإقليم. والمقصود إقليم البلاّن الواقع على سفوحه الشرقية حيث تكثر الينابيع ويعمّ الخصب، أما الكافر: فأبديّ العذاب جبل الشيخ يزول وعذاب الكافر لا يزول: ويشرك التيمّي حرمون كثيراً في القصص والأساطير الشعبية ويذكره في أشعاره وأغانيه التي يطلقها في أفراحه وأتراحه.

بحياة من كوّن ترابك يا جبل
أنك تحيّد تانشوف حبابنا

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، حتي، ج ١، ص ٤٣ ـ ٤٤.

بالإضافة إلى كل هذا فللتيميّ في قمم حرمون تقويمه السنوي المفضل أنه يعرف شيئاً عن أحوال الطقس المتوقعة بمجرد مشاهدته الظواهر والتغيّرات الطارئة على سطح الجبل، فعندما تلتمع ثلوجه نهاراً على شكل توهّج فضيّ. دليل عواصف لا يتأخر مجيئها كثيراً، وعندما تتلبّد الغيوم فوقه عند غياب شمس يوم من أيام الشتاء فدليل على صباح يوم جديد ممطر وعندما تتقلص ثلوجه وتتجزأ خلال فصل الذوبان الذي يبتدىء في أوائل فصل الربيع يرى الناس في ذلك موعداً لحصاد قمحهم أو موعداً لنضوج العنب في كرومهم فهناك ما يسمّونه بكاف العنب والكاف عند التيميين هو قطاع مستطيل من الثلج يتكوّن بفعل مسارب الرياح الثلجية في فصل الشتاء ثم يتجزّأ إلى أقسام صغيرة في موسم الذوبان إلى أن يتلاشى، وعندما ينشطر هذا القطاع الثلجي إلى شطرين ويحدث هذا عادة في منتصف شهر آب فيرى به التيامنة دليلاً على نضوج العنب في كرومهم لذلك يدعونه بكاف العنب.

إن ما أوردته من أمثلة تتناول حرمون ومن مدلولات مناخية يعول عليها التيميون ليست إلاّ غيضاً من فيض وقليلاً من كثير.

ثلوج حرمون ترطّب موائد الملوك:

الوجه الآخر لشهرة حرمون التاريخية هو أن فراعنة مصر القدامى كانوا ينقلون من ثلجه إلى مصر وكذلك كان حال ملوك صيدا وصور ودمشق وفلسطين وتدمر «كان ينقل الثلج من حرمون إلى مصر بطريق البر إلى صور. ثم يشحن منها بحراً إلى مصر، ويقول القلقشندي في (صبح الأعشى) إن حمولة الثلج إلى مصر كانت مؤلفة من ثلاثة مراكب. ثم زيدت إلى أحد عشر مركباً في زمن الظاهر بيبرس.

كانت المراكب المحملة (بالذهب الأبيض) تصل دمياط ثم تسير في النيل إلى ساحل بولاق «ثم تنقله البغال السلطانية» إلى الشرابخانة، وكانت هناك طريق بريّة تسلكها الهجن على النحو التالي(١):

(١) الجغرافيا والرحلات عند العرب، زيادة.

دمشق ـ الصنمين ـ أربد ـ بيسان ـ جنين ـ اللدّ ـ غزة ـ العريش ـ المطيلب ـ قطية ـ الصالحية ـ بيلبيس. وكان يوجد في كل مركز ستة هجن خمسة منها للأحمال. وواحد للهجّان. كان هذا في زمن الدولة الناصريـة وحرمون هو المكان الوحيد: في سوريا الجنوبية التي يوجد عليه الثلج صيفاً وبالكميات المطلوبة ويقول الرحالة بوكوك إنه عندما زار دمشق سنة ١٧٣٨م وجد أن الثلج والجليد التي كانت تستعمله المقاهي الدمشقية كان كلّه من حرمون ولكنه جهل طريقة نقله من الجبل إلى المدينة، مما لا شك فيه أن صور وصيدا والمدن الساحلية الجنوبية والقدس وتدمر كانت كلها في العصور السابقة تأتي بالثلج من حرمون. مثلما كانت بيروت تأتي بالثلج من صنين، وكانت تجارة رابحة لها أربابها من التجار المتمرسين(١).

أتذكر جيداً ونحن صبية أننا كنا نشاهد في ليالي الصيف الدافئة أضواء خافتة كأنها الحباحب تسير في منعطفات حرمون العليا ببطء شديد وكان يقال لنا إنهم (الثلاّجي) الذين يصعدون بدوابهم إلى سطح الجبل نهاراً ويعودون منه ليلاً بأحمال الثلج ليبيعوها من أصحاب المقاهي في المدن، ولم نكن نعلم يومذاك أن ما نشاهده على حرمون هو استمرار لعمل باشره الناس منذ أيام الفراعنة، وأن اليوم ابن الأمس ووريثه.

□ □ □

(١) يوميات في لبنان، ص ١١٢.

الفصل الثالث

سوريا وطن الإنسان القديم

«جميع الشعوب والحضارات التي عاشت على هذه الأرض آلت إلى نتيجة واحدة هي: نحن وحضارتنا».

(المؤلف)

تؤكد الشواهد العلمية الثابتة، أن بلادنا كانت موطناً للإنسان القديم. تثبت ذلك آثاره وبقاياه الممثلة إما بأدوات حجرية كانت يستخدمها منذ آلاف السنين فيما يسمونه بالعصور الحجرية. أو بهياكل عظيمة متحجرة أو غير متحجرة لها مثل هذا التاريخ أو أكثر يقول الدكتور زيادة إن ما نعرفه من تاريخ للإنسان أو للجماعات البشرية بصورة عامة هو لمدة قصيرة حدودها الألف الثالث قبل الميلاد[1] وهذا جزء يسير من تاريخ طويل مجهول بمعظمه، نستدل على مجهوله طوراً بالتقديرات والظن، وتارة بالمقارنات والتخمين والشيء الآخر هو أن ليس كل ما نعلمه من الأحداث التاريخية

(١) مجلة الإذاعة اللبنانية، عدد شهر كانون الأول لسنة ١٩٧٤ من مقال للدكتور نقولا زيادة، في السنة ١٩٢٨ نشرت المجلة السورية لصاحبها الأب بولس قرأ لي العدد ٢٧٩ خبراً مفاده أنه في السنة ذاتها كانت تجري حفريات أثرية شرقي مدينة حمص فعثر على جثة متحجرة لإنسان غريب الشكل طوله نحواً من ثلاثة أمتار وطول قبره يزيد عن أربعة أمتار وتوازي جمجمته قدر جمجمتين مما هو معروف الآن أما نابه فكان بطول الأصبع، قيل في هذا الأثر أنه من أقدم الآثار البشرية المعروفة في التاريخ.

صحيحاً بوقائعه ثابتاً بتسلسله الزمني ودليلنا على ذلك الأحداث الهامة التي عشناها وشاهدنا وقائعها بأم العين، فترانا نسمعها من أفواه المذيعين ونقرأها في أخبار المؤرخين والناقدين بأشكال وصيغ مختلفة وأحياناً متباينة فما بالك بأحداث جرت منذ آلاف السنين، والإنسان هو الإنسان دائمًا لم يتغير. . . ، وما يجوز قوله «إن الأحداث التاريخية حقائقها دائمًا نسبية، والحكم فيها أولاً وآخراً للعقل والمنطق».

أما الحقيقة الثابتة فهي أنه ليس هناك شعوب أو جماعات بشرية انقرضت تماماً من هذه الدنيا ولم يبق لها من أثر. والصحيح أن خصائصها العرقية استمرت، وسلالاتها بقيت حية متوارثة ومتفاعلة أيضاً في الجماعات والشعوب التي جاءت بعدها وأخذت عنها رسالة الاستمرار في بناء هذا الكون، إن عجز أعيننا الحديثة العهد بالحياة عن تحديد ماهية هذه الخصائص المتوارثة عن سابقينا من أهل الأرض والمشاركة في تكويننا جسمًا وروحاً وفكراً، لا ينفي وجودها، وإنسان اليوم يدرك تماماً أن ليس هناك حضارة سادت إلا في أعقاب وعلى أنقاض حضارة بادت تكمل الثانية ما بدأته الأولى بمسيرتها عبر الدهر وبتوقيت مرحلي متشابه، شروق يمثل البدء، وظهر يمثّل التألق، وغروب يمثل الانحطاط والتلاشي، ومفهوم الإنسان في قديمه وحديثه للموت والحياة والنور والظلام والخير والشر دليل حيّ على وحدة المضمون والمدلول والمرتقى للفكر المتعاقب والمتوارث بين إنسان الأمس وإنسان اليوم في مختلف مواقع تواجده على سطح هذا الكوكب، أما الذي كان يضمحل ويتلاشى هي تلك الكيانات المادية الممثلة بالسلطان والدولة ليس إلا.

عن هيرودوتس قوله: إن أكثر الأمم التي كانت في سالف الأزمان عظيمة. أصبحت صغيرة والأمم العظيمة في يومنا هذا كانت في سالف الزمان صغيرة لأن أقدار البشر عرضة للتغيير الدائم»[1].

في قرية مذوخا الواقعة على تخوم وادي التيم الشمالية عثر على أدوات

(١) لبنان في التاريخ، ص١٢.

في وادي التيم، منطقة شوشتها البراكين

حجرية يقول العارفون إن الإنسان كان يستعملها منذ مايتي ألف سنة قبل الميلاد(١) وفي وادي التيم نجد الكثير من آثار الإنسان ولمختلف العصور والأزمان. من المغاور الطبيعية المحسّنة إلى الاصطناعية منها والمحفورة في الصخر بحذق ومهارة، من آثار القرى والدساكر الزراعية الدارسة إلى القلاع والحصون القديمة المبنية فوق المرتفعات وعلى التلال العالية بطريقة فنية تشهد لبناتها الأول بطول الباع والخبرة في شؤون الحرب والحصار، من المطاحن والمعاصر والمنشآت الزراعية الأخرى إلى المعابد والهياكل المتقنة البناء التي نستدل بواسطتها على أن إنسان الشرق في قديمه كما هو في حديثه يستهويه التعبد وتتسم حياته بمسحة عريقة من الروحانيات استدل بها على خالقه الحقيقي، ولهذا كانت بلادنا منبت الأديان وموطن الأنبياء.

الدول التي قامت على أرضنا، الوطنية منها والأجنبية:

الأقوام والجماعات التي عاشت في البلاد السورية كثيرة متعددة، نختار منها من تناول تاريخها الخاص وادي التيم أو مجاورتها له استناداً لتحديد موقعه للفترة التي لم يكن قد تسمّى فيها بعد بهذا الاسم، وكذلك نتناول بإيجاز تاريخ الدول الوطنية التي قامت في بلادنا، أو تلك الأجنبية التي بسطت سلطانها عليها بفعل الغزو والاحتلال، وأشهر من ذكرناهم:

الكنعانيون:

الكنعانيون أقدم الشعوب التي عاشت في بلادنا التي عرفت قديماً ببلاد كنعان، وقد نشأت فيها كيانات وإمارات كنعانية تاريخها أقدم ما ذكره التاريخ المكتوب، وينتسب الكنعانيون إلى كنعان بن حام بن نوح من سلالاتهم الفينيقيون سكان السواحل اللبنانية أصحاب المدنية الخالدة والتاريخ المجيد، وبناة مدن صور وصيدا وبيروت وجبيل وأرواد وغيرها من المدن ذات الماضي

(١) نفس المصدر، ص٥٣.

المشرق. ثم **الحثيون** الذين سكنوا فلسطين قرب حبرون (الخليل) وهم على ما يبدو «غير الحثيين الذين قدموا من الشمال وأصحاب المواقع المشهورة مع المصريين ــ معركة قادس ١٢٩٤ ق.م». ثم اليبوسيون أصحاب القدس القدامى. والجرجاشيون الذين ينتسبون إلى جرجاش بن كنعان وهؤلاء سكنوا مناطق الجليل والكرمل وطبريا ودمشق وورد ذكرهم في الآثار المصرية القديمة. ثم **المؤابيون** الذين يقال إنهم ينتسبون إلى مؤاب ابن لوط من ابنته الكبرى ومن مشاهير ملوكهم عجلون وبالاق وميشاع الذي حارب العبرانيين، ويقول صاحب دواني القطوف إن صحيفة هذا الملك قد اكتشفت سنة ١٨٦٩م في قرية ذيبين(١) من أعمال جبل الدروز ومنهم راعوث صاحبة السفر المشهور ــ جدة الملك داود لوالده. ثم **العمونيون** الذين ينتسبون أيضاً إلى عمون ابن لوط من ابنته الصغرى ومن ملوكهم ناحاش الذي حارب العبرانيين أيضاً، ومنهم الرفائيون وهم عشيرة سامية من أنسباء الأموريين وقيل يافثيون نسبوا إلى جدهم رافا الجبار عاشوا أول أمرهم في شرقي الأردن اشتهروا بسطوتهم وشجاعتهم وكانوا شديدي الكره للعبرانيين. من الأماكن الأثرية التي تحمل اسمهم حتى اليوم واد قرب مدينة القدس يدعى وادي الرفائيين وكان جبل حرمون الحدود الشمالية لبلادهم. من أشهر مدنهم ما يدعى (عشتروت قرنائيم)(٢) من قائل أنها قرية الصنمين الحورانية وقيل قنوات ويرجّح صاحب دواني القطوف أنها في الجولان وهي ما يدعى اليوم (تل عشترة) وبرأي المؤرخ الفرنسي (لينورمان) إنهم أقدم سكان بلاد باشان (حوران) من مشاهير ملوكهم (عوج) وطول ناووسه المحفوظ في (عمان) تسعة أذرع وعرضه أربعة، حاربهم العيلاميون وانتصروا عليهم والعيلاميون من قبيلة الكلدان الأول التي عاشت من سنة ٢٢٠٨ق.م حتى ٢٠٥٢ق.م.

الحويتون ــ هم أقدم ما نعرف من أقوام سكنوا وادي التيم «سكنوا

(١) دواني القطوف، للعلامة عيسى اسكندر المعلوف.
(٢) نفس المصدر.

نواحي جبل الشيخ ولبنان وامتدوا إلى جبعون وشكيم» وقيل أيضاً «... وجميع الكنعانيين والصيدونيين والحويين سكان جبل لبنان من بعل حرمون إلى مدخل حماة» قضاة ٣:٢٨٣ «وقد سكن على سفوح جبل الشيخ قوم عرفوا بالحويين وامتدوا منه إلى نابلس في الفترة التي كان فيها الجرجاشيون شرقي طبريا واليبوسيون في القدس والأموريون عبر الأردن وكانوا من أقوى القبائل الكنعانية»[١].

تشير التوراة إلى أن سكان تلك المحلة ـ سكان بعل حرمون ومدخل حماة ـ وقفوا بوجه شاوول الاسرائيلي عندما حاول التوسع بإتجاه شمالي سوريا ومما لا شك فيه أن الحويين كانوا رجال حرب أشداء منهم الطفرة السامية التي غزت مصر نحو السنة ٢٢٠٠ق.م باسم الملوك الرعاة (الهكسوس) كانت هذه الطفرة بغالبيتها من الحويين[٢] وللحويين قصة مع العبرانيين ذكرتها لنا التوراة فيها الكثير من العبر والدلالات هي:

أن شكيماً ابن حامور الحوي تعلق قلبه بفتاة عبرية هي دينا ابنة يعقوب وجرى بين الشاب والفتاة ما جرى.. ثم جاء شكيم ومعه والده يطلبان الفتاة من أهلها ـ قال حامور رئيس الأرض «ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم أعطوه إياها زوجة وصاهرونا تعطونا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها ـ وقال العريس لوالد الفتاة وأخوتها «دعوني أجد نعمة في أعينكم فالذي تقولون لي أعطي كثروا علي جدا مهراً وعطية فأعطي كما تقولون لي وأعطوني الفتاة زوجة» تكوين ٣٤:٥٦.

أجاب ذوو الفتاة بمكر: لا نستطيع أن نعطي أختنا لرجل أغلف[٣]، أما إذا اختتنتم كل ذكر فيكم وصرتم مثلنا تنالون مطلبكم، فصدّق الحوّيان ذلك وعادا إلى مدينتها وقالا للناس فيها، هؤلاء القوم مسالمون لنا والأرض تسعنا

(١) مجلة الآثار، العدد الأول تموز سنة ١٩١١.
(٢) المشرق، ج ١، ص ٨٨٤.
(٣) الأغلف هو الذي لم يختتن.

وتسعهم، وطلبوا إلى الذكور في قومهم أن يختتنوا، ففعلوا، وفي اليوم الثالث وبينما كان الرجال يعانون آلام الختان هجم عليهم العبرانيون وفتكوا بهم لعدم تمكن الرجال من الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم وقتلوا شكيم ووالده ونهبوا المدينة «غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما في المدينة وفي الحقل أخذوه وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت» تكوين ٣٤:٥٧ فقال يعقوب لأولاده: كدرتماني بتكريهكما إياي عند سكان الأرض..».

العبرانيون: ينتسبون إلى إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سام بن نوح قدم إبراهيم إلى بلادنا من أرض ما بين النهرين وحرّان في حدود القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم رحلوا إلى مصر في أعقاب ذهاب يوسف ابن يعقوب إليها وعادوا منها في القرن الحادي عشر ق.م زمن النبي موسى. عرفوا في مصر بالإبريين، اتسم تاريخ هؤلاء الناس بالمادية والقسوة وهذا ما تميز به سلوكهم عبر تاريخهم، اهتدوا إلى الله الحقيقي بفضل كثرة المصلحين بينهم واتصفت عامتهم باضطهاد الأنبياء والمصلحين مثال على ذلك ما نال السيد المسيح منهم عندما جاء ليصلح أمورهم ويهاجم المادية في أنفسهم، واجهوا سلسلة من الحروب مع الجماعات الفلسطينية التي حلت في فلسطين منذ أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد كما حاربتهم الجماعات الكنعانية صاحبة البلاد، وقد سباهم البابليون إلى بابل ثم أعادهم الفرس وسمحوا لهم بإعادة بناء الهيكل وما بين سنة ١٣٢ و١٣٥م تلقوا ضربة قاضية على يد الامبراطور الروماني تيطوس ابن فسباسيان لأنهم قاموا بثورة دامية في القدس وسقط منهم فيها ١٨٠ ألف قتيل ودمّر الرومان القدس وغيروا اسمها وشتتوهم في جميع الأنحاء. قسّم المؤرخون تاريخ العبرانيين إلى ثلاثة أدوار هي: دور الآباء ـ إبراهيم ويعقوب وغيرهم، ودور القضاة ـ منهم شمشون وجدعون ويفتاح. ودور الملوك ـ ومنهم:

ـ شاوول (١٠٢٥ ـ ١٠١٠ق.م)، وقد جرت معارك شديدة بينه وبين العمونيين والعماليق والأدوميين والفلسطينيين.

ـ داود (١٠١٠ ـ ٩٥٥ق.م)، واشتهر بانتصاره على اليبوسيين وانتزاعه

مدينتهم أورشليم منهم وبالمعارك التي نشبت بينه وبين الآراميين أصحاب دمشق وكان النصر فيها سجالاً بين الفريقين.

ـ سليمان بن داود (٩٥٥ ـ ٩٣٣ق.م)، وقد بلغت المملكة في عهده ذروة ازدهارها واتصف سليمان بالحكمة وبناء الهيكل في أورشليم وبعلاقاته الطيبة مع ملك صور وملكة سبأ بلقيس ولكن نفقاته الكثيرة أرهقت الشعب بالضرائب وبعد موته تملك ابنه يربعام.

تشير التوراة إلى واقع البلاد الفلسطينية (بلاد كنعان) أثناء مجيء العبرانيين. إليها بقولها في سفر القضاة: ٣ «فسكن بنو إسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين» كل هذه الجماعات أنكر الإسرائيليون وجودها كما أنكر تجمعهم على الأرض الفلسطينية باسم اسرائيل على الشعب الفلسطيني العربي حقه في أرضه،

الأموريون:

حدد المؤرخون الدور الأموري في التاريخ أنه ابتدأ حوالي العام ٢٥٠٠ق.م وانتهى بسقوط الدولة البابلية الجديدة (الكلدان) في العام ٥٣٨ق.م وكان قد سبقه ما دعي بالدور السامي أو العصر الثاني من عصور ما قبل التاريخ[1] ينتسب الأموريون إلى أموري رابع أولاد كنعان وكلمة أموري منهم من يقول إنها تعني (جبلي) ومنهم من يقول إنها تعني (غربي) وبهذا الاسم دعاهم السومريون كانت عاصمتهم (ماري) القديمة موقعها شمالي مصب نهر الخابور، استولى الأموريون على فلسطين (أرض كنعان) وحوران (باشان) قبل مجيء العبرانيين إلى بلادنا ودعيت سوريا كلها ببلاد أمورو كما دعي البحر المتوسط في قسمه الشرقي (بحر أمورو العظيم ـ «والأموريون هم موجة من البدو الأشداء الذين أتوا سوريا من شبه جزيرة العرب وانتشروا بين جبال الأمانوس وصحراء سيناء». كانت عاصمتهم ماري منساة تماماً إلى أن جرى

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتي، ص ١.

التنقيب في موقع تل الحريري القريب من بلدة أبو الكمال السورية وعثر في التنقيب فيها على عشرين ألف لوح مكتوب بالخط المسماري تشكل هذه الألواح القيّمة محفوظات الملك الأموري (زمري ليم) آخر ملوك ماري الذي حكم من السنة ١٧٣٠ إلى العام ١٧٠٠ق.م من مضمون هذه الرسائل الملكية «وثائق اقتصادية تذكر العجلات التي تجرها الخيل واستعمال النار لنقل الأخبار»، وقد دلت الحفريات التي أجريت هناك أنه كان للأموريين في ذلك الزمن حضارة زاهرة تضاهي حضارة مصر وما بين النهرين وتشير كتابة من تلك الكتابات الموجودة على إحدى اللوحات التاريخية[1] إلى أنه بين عام ٢٠٠٠ و ١٨٠٠ق.م تسلمت أسرة أمورية زمام الحكم في بابل. وأن مدن ايزن ولارسا وايشنوناه وسيبار وكازاللو والالاخ وآشور وحلبو ـ حلب و ـ جبلة ـ جبيل وقطنا ـ قرب حمص ـ وحرانو ـ حران كان يحكمها أمراء أموريون وقد اشتهرت حلبو وجبلة في ذلك الزمن بالمنسوجات وصناعة الألبسة[2].

كانت هناك إمارات أمورية محلية كثيرة قائمة في المدن السورية وفي عهد الدولتين الكبيرتين قطبي ذلك العصر مصر والحثيين كان ولاء الأمراء الأموريين موزعاً بين هؤلاء طوراً وأولئك تارة حسب فعالية دور ملوكهما، ففي مراسلات تل العمارنة رسائل موجهة من أمراء أموريين يدعى أحدهم (عبد عشرتا) إلى الفرعون امنحتب الثالث ١٣٧٥ق.م يقول فيها[3]: «إلى الملك الشمس (سيدي) هكذا يقول عبد عشرتا عبدك وغبار قدميك عند قدمي الملك سبع مرات وسبع مرات أجثو أنظر إنني خادم الملك وكلب بيته وجميع أمورو أحرسها للملك سيدي» كانت هذه الرسالة مكتوبة باللغة الأكادية لغة ذلك العصر، وعلى سفوح حرمون وفي البقاع كانت هناك إمارات وممالك أمورية، كان الأموريون قوماً صحيحي الأجسام طوال القامات ذكرتهم التوراة «الأموريون

(١) صيدا عبر حقب التاريخ، ص ٣٦.
(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، حتي، ص ٧٠ ـ ٧٥.
(٣) لبنان في التاريخ، ص ١٠٠.

الذين مثل قامات الأرز قاماتهم وصلابتهم كالبلوط» عاموص ٢ : ٩ وكانوا من ألد أعداء الإسرائيليين قاتلوهم مراراً ولا سيما في عهدي موسى ويشوع بن نون تكوين ١ : ١٦ ويشوع ١ : ١٢ كان ملك الأموريين يدعى أدوني صادق وقد امتدحت التوراة حسن أخلاقه وتعبده للإله الصحيح وهو الذي حارب يشوع، ومن ملوكهم سيحون الذي تقول التوراة أن موسى النبي قتله وقد وجد تمثالاً لهذا الملك ويظهر به مصاباً بضربة حربة على نحو ما ذكر ويقول صاحب الدواني إن لهذا الملك ينسب تل شيحان القريب من بلدة الشهباء في جبل الدروز وتخبرنا مراسلات تل العمارنة عن أوضاع البلاد السورية في ذلك العصر منها ازدياد نفوذ الحثيين في البلاد، فعبد عشترا عاد ووالى الحثيين في حين أن «رب أدي» ملك جبيل استمر على ولائه للفراعنة واستمر دون أن يلقى مساعدة منهم إلى أن وقع في قبضة عزيرو وأولاده الموالين للحثيين.

ولما تملك البابليون ساروا على خطى الأموريين، ويقول الدكتور حتي: «من الواضح أن الأموريين كانوا يسيطرون على المدن المحصنة والمواقع الهامة في البلاد الفلسطينية وهذا ما مكنهم من الوقوف في وجه الإسرائيليين» فأوقفوا تقدمهم وتذكر التوراة شيئاً عن ذلك «جميع الملوك الذين في عبر الأردن في الجبل والسهل وفي جميع ساحل البحر الكبير اعتصبوا معاً لقتال يشوع وإسرائيل» وفي مكان آخر تقول أنه في عهد الملك سليمان تغلب على الأموريين وكلفهم شق الطرق وتعبيدها ويقول صاحب الدواني أنه من الامارات الأمورية في فلسطين تلك التي كانت قائمة قرب البحر الميت على الجبال لجهة الشرق ومدينتهم كان اسمها (حصاصون تامار) ومعنى الكلمة مدينة النخيل ويعتقد صاحب الدواني أنها هي المعروفة الآن بعين جدي القريبة من أريحا.

الآراميــون:

الآراميون في أصلهم مجموعة كبيرة من القبائل البدوية السامية الجوّابة، كانت هذه الجماعات البدوية تتحرك فيما بين العراق ومصر (بين بابل وسيناء) في حدود العام ٢٠٠٠ قبل الميلاد، ويشير الأستاذ جواد بولس إلى أن هذه

الجماعات (الآراميون التائهون) أو (الأخلامو) انقسمت فيما بعد إلى قسمين كبيرين:

١ ــ **آراميو الشرق**: تمركزوا على ضفاف الفرات في بلاد بابل وهم جدود الكلدانيين[١] أعطت هذه الجماعة اسمها للأرض التي تقيم عليها فدعيت (بلاد كلدة).

٢ ــ **آراميو الغرب**: وهؤلاء استقروا في بلاد أمورو (سوريا) التي أصبح اسمها في عهدهم بلاد آرام.

كان تغلغل الآراميين في بلاد الهلال الخصيب «على أثر تصدع وبلبلة عامة حدثت في البلاد» من جراء اقتتال الأموريين والكنعانيين في حدود العام ١٢٠٠ق.م هذا الاقتتال أضعف الفئتين المتحاربتين وسهَّل بالتالي للآراميين احتلال البلاد السورية، لذلك لم تلق الجماعات الآرامية الغازية مقاومة تذكر إلّا في المدن الفينيقية الساحلية الحسنة التنظيم، من هذه المدن جبيل وصيدون وصور، «وقد أوقفت هذه المدن المد الآرامي وجمدت اندفاعه نحو البحر»[٢].

من الآراميين الغربيين موجة بشرية تدعى الخبيرو[٣] (العبرانيين) قدموا من جهة حران ونزلوا في الأرض الفلسطينية (أرض كنعان) وباشروا الاستيلاء عليها وانتزاعها من يد أصحابها الأصليين الضعفاء والمنقسمين على انفسهم. أنشأ الآراميون في البلاد السورية (بلاد آرام) عدة ممالك محلية صغيرة ولكنها على شيء من القوة، ويبدو أنهم أخذوا ذلك عن سابقيهم الأموريين من هذه الممالك مملكة في كل من حمص وحماة وحلب ودمشق وكانت هذه الأخيرة أقوى الممالك الآرامية وملكها هو السيد المطاع النافذ الكلمة بين جميع ملوك الآراميين، وهذا ما كان عليه الحال أيام الأموريين[٣].

---

(١) لبنان والبلدان المجاورة، ص ١١٥.

(٢) ذات المصدر، ص ١١٦.

ملاحظة: هذا التحديد عن جماعة الخبيرو للأستاذ جواد بولس يلاقي اعتراضاً من قبل مؤرخين معاصرين بمعنى أن لا علاقة للعبرانيين بهذا الفصيل من الآراميين الغربيين.

(٣) لبنان والبلدان المجاورة، ص ١٢٠.

اصطدم الآراميون بمملكة إسرائيل الناشئة، فتوحد العالم الآرامي بقيادة ملك دمشق الذي قاد الحرب ضد الإسرائيليين، وقد أشارت التوراة إلى تلك الحروب وأن ما دعته بملك آرام هو (ملك دمشق الآرامي)، وقيل في هذه الحروب، أن القائمين بها «ملأوا العالم الشرقي بضجيج معاركهم» ومثلما أدى التناحر الأموري ـ الكنعاني إلى إضعاف الفئتين المتخاصمتين وسهلّ للآراميين احتلال البلاد السورية كذلك أدى التناحر بين المملكة الإسرائيلية وجيرانها الآراميين إلى إضعاف الفريقين ووقعا فريسة سهلة بيد النمر الآشوري الشرس(١).

يشير المؤرخون إلى دور دمشق الكبير والمؤثر في الحروب الآرامية ـ الإسرائيلية بحيث كانت تحارب على جبهتين ـ الجبهة الشرقية ضد الآشوريين والجبهة الغربية ضد الإسرائيليين(٢).

انتشرت اللغة الآرامية انتشاراً كبيراً في البلاد المشرقية بحيث أصبحت اللغة الرسمية ولغة التجارة في كل من سوريا وآشور وبابل وما عتمت أن أصبحت لغة التخاطب لجميع البلدان المشرقية (من مصر إلى الهند)(٣).

الفينقيـون:

الفينقيون هم كنعانيو الساحل، والفينيقي مجرد لقب أطلقه اليونان على أولئك التجار الكنعانيين الذين كانوا يتجرون بأقمشة وألبسة مصبوغة باللون الأحمر ـ الأرجواني، فونيكس ـ والمستخرج من صدف الموريكس الذي تفرد الصوريون بصنعه بين جميع الناس في العالم القديم، وقال مؤرخو اليونان القدامى إن الفينيقيين هم موجة سامية جاءت أول الأمر من شبه جزيرة العرب «ذلك المعين الذي لا ينضب من البشر» وهذا ما قاله مؤرخون معاصرون أشهرهم شرودر الالماني وسايس الانكليزي والدكتور أسد رستم.

(١) ذات المصدر.
(٢) ذات المصدر.
(٣) ذات المصدر، ص ١١٦.

كان الفينيقيون بحّارة مهرة استفادوا من وفرة الأخشاب في بلادهم فصنعوا السفن القوية وجابوا بها سواحل البحر الأبيض المتوسط الغربية وما هو أبعد منها ومارسوا التجارة بحذق ومهارة تجلت فيها مواهبهم الفردية العظيمة ولكن الفينيقيين لم يقيموا مملكة كبرى كما كان متوقعاً لهم أن يفعلوا، بل اكتفوا بسيادة مدنهم ذات النظام الاجتماعي الراقي وأشهر هذه المدن هي: صور ـ صيدا ـ بيروت ـ جبيل وأرواد. ومن قول أن بلادنا كان اسمها القديم نيغا وكان اسم مدينة جبيل يومذاك كيبين ثم دعيت كنعان ثم زاهي ثم فينيقيا ثم لبنان(١).

الآشوريـون:

ينتسب الآشوريون لآشور الابن الثاني لسام بن نوح سكنت قبائلهم أول الأمر فيما بين النهرين، وهناك أنشأوا دولتهم التي وصفت بأنها «أعظم مملكة أقامها الساميون في التاريخ القديم»، كانت عاصمتهم مدينة نينوى العظيمة. أقاموا مملكتهم على أنقاض الدولة البابلية التي احتلوا عاصمتها بابل في العام ١٣٠٠ قبل الميلاد وكان لبابل من المجد والغنى الحضاري ما يعادل مجد باريس في عالم اليوم. اتصف الآشوريون بالقسوة البالغة والعنف الشديد، وقد لقبهم بعض المؤرخين المعاصرين (برابرة آسيا) «كانوا يسلخون جلود أسراهم ويفقأون أعينهم وهم أحياء كما كانوا يجرّون ملوك أعدائهم المغلوبين من شفاههم بسنانير حادة. تدل على ذلك الرسوم واللوحات التي خلّفها فنانوهم»، بسط الآشوريون سلطانهم على بلادنا في أواسط القرن الثامن قبل الميلاد بعد معركة قرقر الشهيرة التي انتصر فيها ملكهم شلمنصر على الدويلات الآرامية الوطنية مجتمعة. ومن مشاهير ملوكهم: تغلت فلاسر الأول والثالث وأود نيراري وسرجون وأسرحدون الذي دمّر مدينة صيدا في العام ٩٧٩ق.م، ثم أسماها باسمه (عير أسرحدون) كانت الشعوب المغلوبة تتذمر من ثقل نيرهم وتسعى للتحرر من ربقتهم. وما نال صيدا على يد ملكهم أسرحدون كان ثمناً لتلك المحاولات

(١) لبنان والبلدان المجاورة، ص ٢٢.

التحررية، واستمرت الدولة الآشورية حتى العام ٦١٢ق.م حيث أسقطها وقضى عليها الكلدان ويشير هيرودوس إلى أن العالم أخذ عن الآشوريين استعمال الخوذات الحديدية كما سبقوا العالم باستعمال الموسيقى في جيشهم (الذي كان يسير الخوف أمامه..) وقد اتسعت دولتهم جداً الشيء الذي أدى إلى تفككها. من الكلدان الذين أسقطوهم الأكّاديون أصحاب أول دولة في الكلدان من ملوكها المتشّرع الكبير حمورابي الذي تملك ٤٣ سنة واستمر الكلدانيون بمجدهم إلى أن قضى عليهم كوروش الفارسي منشىء الدولة الفارسية.

□ □ □

الفصل الرابع

الحرب الفارسية ـ اليونانية

«انتصار الاسكندر المكدوني على داريوس الثالث ـ الاسكندر يحاصر مدينة صور الفينيقية ـ الايطوريون من سكان وادي التيم ولبنان الشرقي يتصدون للمكدونيين».

كان على رأس العالم في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد دولتان كبيرتان هما: الدولة الفارسية بما لها من أمجاد وحضارة بالإضافة إلى أنها كانت تبسط سلطانها على أهم ثلاث مدنيات في تاريخ الإنسان هي مدنيات: مصر وآشور وفينيقيا. والدولة اليونانية الفتية التي وحدّ أجزاءها وأرسى قواعدها الملك فيلبوس بن امتناس، وكان المجتمع اليوناني ذو البنية الجيدة يملك حضارة زاهرة جعلت منه أول وجه أوروبي ينافس آسيا على زعامة العالم القديم.

كانت الحروب الفارسية ـ اليونانية متصلة الحلقات منذ القرن السادس قبل الميلاد، وكان لها صدى عظيم يتردد في أنحاء العالم كله يوازي ما للحربين العالميتين من صدى في عالمنا الحاضر، وقد أظهر اليونان القليلو العدد شجاعة وتضحية في هذه الحروب أغنت تاريخهم بالمجد، وتألق نجمهم خاصة بعد معارك ماراثون سنة ٤٩٠ق.م[١]، وترمبولي سنة ٤٨٠ق.م، وبلاثيا سنة ٤٦٩ق.م «تحول بعدها اهتمام العالم من آسيا إلى أوروبا».

(١) يعود تاريخ سباق المراثون المشهور في الألعاب الأولمبية الدولية إلى هذه المعركة بالذات، أما مسافته البالغة ٤٢١٩٥ متراً فهي المسافة التي ركضها الجندي اليوناني (فيديبدس) من سهل ماراثون إلى حيث ينتظرن نساء المقاتلين اليونانيين ليعلمهن خبر انتصار اليونان، في حدود وقت

في السنة ٣٣٦ق.م بينما كان البلاط اليوناني يقيم احتفالاً بمناسبة زواج كليوباترا شقيقة الاسكندر من خاله ملك أبيروس، أقدم رجل مكدوني على اغتيال الملك فيلبوس[1]، نادى بعدها الجيش بولده الاسكندر خلفاً له على كرسي الملك، كان الاسكندر يومذاك في العشرين من عمره ولكنه نهض بأعباء الملك بجدارة وضعته في مصاف أعظم رجالات التاريخ.

ماذا عن الاسكندر الكبير؟

هو الاسكندر الثالث من سلسلة ملوك مكدونيا بهذا الاسم، والملك الثاني والعشرين من مجموع الملوك المتعاقبين على كرسي الملك في مكدونيا، والده الملك فيلبوس الثاني المكدوني، ووالدته المبياس، ولد في مدينة بلة في التاسع والعشرين من تموز سنة ٣٥٦ق.م[2].

عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره سلمه والده إلى أرسطو الفيلسوف لتربيته تربية خاصة تخوله حمل التاج اليوناني في المستقبل، فرباه أرسطو وأدبه بأدب هوميروس الذي قيل فيه: شاعر الوطنية ومخلد الأبطال، فنشأ الاسكندر محباً للعظمة توّاقاً للمجد.

في العام ٣٣٤ق.م جهز الاسكندر جيشاً قوامه حوالي ٣٠ ألف ماش وخمسة آلاف خيال واتجه به نحو آسيا الصغرى التي كانت يومذاك تحت السيطرة الفارسية، وكان على رأس الدولة الفارسية يومذاك الملك داريوس الثالث الذي كان بتصرفه من الجيوش والإمكانات الكبيرة أضعاف ما كان لدى الاسكندر.

متفق عليه، كان الاتفاق بين المقاتلين اليونانيين وزوجاتهم، أنه إذا لم يصل إلى النسوة خبر انتصار اليونان في هذا الوقت، معناها أن اليونان خسرت المعركة، عندئذ يتعين على النسوة أن يقذفن بأنفسهن من فوق صخر عال وينتحرن كي لا يقعن سبايا. وعندما انتصر اليونان كان الوقت المحدد قد قارب الانتهاء، فانطلق هذا الجندي يعدو حاملاً نبأ النصر إلى قومه ووصل في الوقت المناسب، ولما وصل رفع يديه وقال: انتصر اليونان...، ثم وقع ميتاً من شدة الإعياء والتعب، فانتحرت زوجته.

(١) منشورات الجامعة ــ ١٥، ص ٢٠.

(٢) ذات المصدر.

وعن المؤرخ يوسيفوس قوله: إن أحداً في آسيا لم يكن يعتقد أن اليونانيين يستطيعون مواجهة الجيش الفارسي[1]. ولكن الاسكندر المتفوق بالدهاء والفن الحربي عرف كيف ينتزع النصر ويقضي على أعدائه في ثلاث معارك هي أكبر معارك الحرب التي قامت بين الفرس واليونان، بعدها تقلص ظل الفرس عن مصر وآسيا الصغرى والمشرق وحل اليونان محلهم بحكمها. وقبل أن نلج في ذكر هذه الحرب نذكر قولاً للعارفين من المؤرخين: إن الحملة المكدونية التي جردها الاسكندر الكبير والتي جاءت بنتائج مذهلة من الانتصارات في الديار المشرقية ومصر، لم تنل نصرها بفضل الآلهة.. بل جاءت عظيمة من موطنها. وقد تميز الجيش اليوناني بوحداته الفنية وتفوق بها فكان «على رأس سلاح الهندسة فيه المهندس الكبير (ذياذوس)[2] يعاونه عدد كبير من رجال الاختصاص فأثار هؤلاء إعجاب جميع المعاصرين بأبراجهم النقالة وأكباشهم الثقيلة ومجانيقهم ذوات العجلات لرشق الحجارة، وكان معه وحدة رجالها من تراقيا لبث الألغام»[3]. واشتهرت بحذقها «واستعان سلاح الإشارة بالأساليب الفارسية بتنظيم البريد، وكان ينقل المعلومات بواسطة الضوء»، بالإضافة لذلك كان لدى الجيش مكتب طوبوغرافي يعنى بالطرقات وينتقي الأماكن الصالحة للمعسكرات، أما مصلحة الصحة فكانت تضم عدداً كبيراً من مشاهير الأطباء والمعاونين[4]، ولم ينس الاسكندر رهط المؤرخين لتدوين أخبار الحملة فكانت أقلامهم بمثابة أضواء بينت للعالم كله ما خفي من تاريخه في تلك الحقبة من عمره، «كان كليثنس الفيلسوف المؤرخ ونسيب أرسطو، وانكسرخوس وتلميذه بيرون، والمؤرخان أرسطوبولس وأونيسيكريتوس، ثم بطليموس بن لاغوس أكثر الجميع فائدة للتاريخ»)[5]. وقبل هذا كله كانت هناك أركان حرب الإسكندر

---

(١) ذات المصدر.

(٢) منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية ــ ١٥، تاريخ اليونان، ص ٢٠.

(٣) ذات المصدر.

(٤) ذات المصدر.

(٥) ذات المصدر، ص ٢١.

المؤلفة من مشاهير القادة اليونانيين المخلصين للعائلة المالكة[1]، أشهرهم برمينيون يمين الإسكندر ورئيس أركانه، وفيلوتاس قائد الخيالة، ونيكانور قائد المشاة، والأثنان أولاد برمينيون)، ثم سلوقس الملك فيما بعد، وكان الجندي اليوناني يمتاز عن غيره بلباقته البدنية لأن اليونان كانت تعتني بالتربية البدنية والرياضة بكل مجالاتها. أما المعارك الثلاث فهي التالية:

□ **المعركة الأولى**: جرت بين الفرس والاسكندر على نهر غرانكوس قرب مضيق الدردنيل[1] في أوائل أيار من سنة ٣٣٤ق.م، وكان النهر بين الفريقين «توقع الفرس هجوماً يونانياً على ميسرتهم ولكن الاسكندر أرسل خيالته وقسماً من مشاته مهاجماً ميمنتهم»، وانقض هو ومن معه عليهم بين الميسرة والقلب. وكانت الخيالة الفارسية في الميسرة «ولما فصلها الهجوم عن القلب شردت. وارتد الاسكندر ومن معه إلى القلب، ثم التقى بكامل جيشه في الساحة»، وبعد انتصاره أرسل ثلاثماية درع من دروع أعدائه إلى أثينا وأمر بأن تودع في هيكل البارثون بعد أن يكتب على كل منها عبارة «الاسكندر والهيلينيون ما عدا اسبارطة» لأن اسبارطة لم تكن قد دخلت بعد في اتحاد المدن اليونانية وكانت تناصبه العداء.

□ **المعركة الثانية**: وهي الأشهر. كان ميدانها ايسوس قريباً من مدينة الاسكندرونة السورية، جرت بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني سنة ٣٣٣ق.م، وكان الملك داريوس على رأس جيش يفوق كثيراً جيش الاسكندر، بدأ الاسكندر الهجوم بميمنته على عناصر فارسية كانت تواجهها، فوفقت وأخلتها عن التلال وتراجع الفرس عن هذا المكان، ثم شن هجوماً بخيالة الميمنة على قلب الجيش الفارسي فتضعضع القلب وكان داريوس يراقب سير المعركة من على مركبة ملوكية تجرها أربعة جياد، فخاف العاقبة وفر منهزماً نحو الشرق، وكان في الميمنة الفارسية مرتزقة من اليونان تصدوا لميسرة الاسكندر بقوة وأكرهوها على التراجع. وكان برمينيون على رأس الميسرة المكدونية المتقهقرة، ولكن عندما علم

(١) منشورات الجامعة، قسم الدراسات التاريخية ــ ١٥، تاريخ اليونان، ص ٢٢.

القائد الفارسي بهزيمة مليكه، أخلى الساحة بدوره وانهزم، ووقعت أسرة الملك داريوس المؤلفة من والدته وزوجته وابنتيه أسيرة بقبضة الاسكندر[1]، «كان داريوس قد اصطحب معه أمواله وحرمه ثقة منه بالنصر».

□ **المعركة الثالثة**: من المؤرخين من يدعوها معركة أربيل، ومنهم من يدعوها معركة غوغمولة. جرت هذه المعركة على شاطىء نهر دجلة قرب أربيل بتاريخ الثاني من تشرين الأول سنة ٣٣١ق.م، بدأ الفرس فيها القتال بهجوم خيالتهم، ثم ألحقوها بالمركبات الحربية. فتصدى لهم الاسكندر بهجوم مضاد قامت به خيالته بقيادة القائد بلاكروس تمكن فيه من تبديد القوة المغيرة بقتله سائقي المركبات الحربية وخيولها، فأفسد خطة الفرس لتطويق المكدونيين، ثم قام الاسكندر ــ على رأس الرفاق ــ بهجوم صاعق على القلب الفارسي فاخترقه، وأذاب الصفوف، وعاد يدعم جناحيه ــ على غرار ايسوس ــ وأسفرت المعركة عن انتصاره «وانتشرت فوق الساحة جثث أربعين ألف فارسي وألف ومايتي مكدوني»[1].

أنهت هذه المعركة قوة الفرس العسكرية وسقطت بعدها بابل وجوشن العاصمتان الكبيرتان بيد الاسكندر. بعد معركة ايسوس لم يلاحق الاسكندر فلول الجيش الفارسي المنهزمة شرقاً كما كان متوقع له أن يفعل لكنه اتجه جنوباً نحو الساحل الفينيقي يحتل مدنه الواحدة تلو الأخرى، وقصده من ذلك كما اتضح، تأمين خلفية آمنة لجيشه الذي سينطلق به عبر آسيا ثم الاستيلاء على مصر وانتزاعها من الفرس، وعلى كل حال كانت العلاقات بين الفينيقيين

(١) بكت الملكة الوالدة (سيريغامبيس) لانكساف مجدهم، فحضر الاسكندر لمؤاساتها ومعه مرافقه الخاص اغاستيون، فلما رأتهما الملكة الأم لم تكن تعرف أيهما الاسكندر وسجدت للمرافق وهي تعتقده الاسكندر، فجاء من ينبهها إلى ذلك، فخجلت واعتذرت، فقال لها الاسكندر: لا تخجلي فهذا أيضاً اسكندر.. وطيب خاطرها وأعلمها أن ابنها الملك داريوس لا يزال حياً وأن الاسكندر ابن ثان لها يقوم بالواجب نحوها ما دام ابنها داريوس بعيداً عنها، وقال لها مرة: اعتبرتك أمي لذلك حلت دون ركوعك أمامي ولم أجلس أمامك بدون إذن منك. تاريخ حمص، ص ٢٢٤.

(٢) منشورات الجامعة اللبنانية ــ ١٥، تاريخ اليونان.

والفرس متدهورة تعوزها الثقة بسبب ما نال صيدا على يد أرتحششتا الثالث[1] وقيل أحشوريوش، كان هذا الملك يحاصر مدينة صيدا زعيمة التمرد الفينيقي ضد الفرس، هذا التمرد الذي دعا إليه ثلاثماية معتمد من المدن الفينيقية في مؤتمرهم العام الذي عقدوه في طرابلس وقرروا فيه استقلالهم التام، وقامت الثورة في المدن الفينيقية ضد الفرس المغتصبين، جاء أرتحششتا على رأس جيش عظيم قدر بمايتي ألف راجل وثلاثين ألف خيال لقمع هذا التمرد المسلح، وقصد صيدا بالذات لتزعمها الحركة، وبعد أن ساءت الأحوال أوفدت المدينة خمسماية من وجهائها إلى الملك الفارسي يطلبون منه الأمان ويحملون إليه رغبة المدينة في التسليم وكانوا يحملون بأيديهم أغصان الزيتون. فقتلهم عن آخرهم، ولما علمت المدينة ما حدث لوفدها آثرت أن تحرق نفسها ولا تستسلم لهذا الطاغية، وكان عديد سكانها يومذاك حوالي الأربعين ألف نسمة، احرقوا مراكبهم ليبعدوا عنهم فكرة الهرب بحراً، ثم أشعلوا النار بأنفسهم وبمدينتهم، ولما دخل أرتحششتا المدينة، دخلها وهي مدينة أشباح سوداء ورماد. كانت هذه الحادثة من أبرز ما في التاريخ الفينيقي من تضحية ومن أوجع ما تلقت المدينة من ضربات منذ الغزو الفلسطيني مروراً بوحشية اسرحدون الآشوري.

والسبب الآخر لترحيب الفينيقيين بالاسكندر هو أن الأفكار اليونانية السامية كانت قد شقت طريقها إلى الشرق، وكان لأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة معجبون وأنصار. كان الاسكندر في صيدا عندما أرسلت إليه مدينة صور وفداً يقدم الطاعة ويحمل إليه تاجاً من ذهب طمعاً بعدم دخوله

(١) الاسم الصحيح لهذا الملك هو أوخوس، تملك سنة ٣٥٩ق.م، وأهلك كل ذكر في أسرته ليأمن لنفسه الملك، وقيل فيه أنه جمع بين قبح العمل وقبح الصورة، فكرهه الناس وقتل في العام ٣٣٨ق.م بعد أن تملك ٢١ سنة. المصدر: تاريخ حمص، ص ١٩٥.

ملاحظة: ورد اسم هذا الملك في «لبنان في التاريخ» للدكتور حتي ــ أرتحتشتا، ولكن الخوري عيسى أسعد، تاريخ حمص، والمطران الدبس في تاريخ سوريا ذكراه أرتحششتا، فاعتمدنا الاسم الأخير. أما تاريخ خراب صيدا، فيقول الدكتور حتي أنه حصل سنة ٣٥٠ق.م، وفي تاريخ حمص: سنة ٣٤٦ق.م.

المدينة أثناء توجهه نحو مصر، ولكن الاسكندر أصر على دخول المدينة وتقديم الذبيحة بيده في هيكل ملكرت ــ ملك القرية ــ وكان اليونان يقرنون ملكرت بإلههم هرقل الذي يدعي الاسكندر الانتساب إليه، وكانت تقاليد المدينة الموروثة تعطي حق تقديم الذبيحة في الهيكل لملوك صور فقط، على اعتبار أنه من يقدم الذبيحة في الهيكل، يستطيع تعيين الملك. أصر الاسكندر على مطلبه وأصرت صور على احترام تقاليدها العريقة فكانت الحرب، بين المدينة الواثقة من نفسها، وبين الاسكندر الظافر.

كانت صور سيدة البحار وأسطولها فخر أساطيل المتوسط الشرقي، تحدّت الآشوريين وارتد ملكهم شلمنصر دون أن ينال منها، وتحدت الكلدان بالرغم من حصار نبوخذ نصر لها مدة ١٣ سنة ــ أطول حصار في التاريخ ــ وكان لها من موقعها الجغرافي حصن طبيعي لا يُنال منه، فهي قسمان: صور البرية، وصور البحرية. وهذه الأخيرة عبارة عن جزيرة طولها ميلان وتبعد عن الشاطىء مسافة نصف ميل، تعلو أسوارها لجهة البر ١٥٠ قدماً ويعتمد دفاعها البحري على الأسطول، من هذا الواقع استمد ملكها ازيمولكس (عز الملك)[1] قوته ولم يرضخ لإرادة الفاتح الجديد.

أعلن الاسكندر حالة الحصار على المدينة وشرع بهدم القسم البري منها وأخذ يردم بأنقاضه البحر في مكان البرزخ محاولة منه لإنشاء طريق عرضها مائتي قدم تصل القسم البري بالقسم البحري من المدينة، كان هذا العمل في أول الأمر ضرباً من الجنون ولكن عندما اتضح قصده، قام الغواصون

(١) لبنان في التاريخ، ص ١٩٩.

ملاحظة: في الجزء الثاني من تاريخ الحضارات العام إشارة إلى منعة صور وقوة حصونها التي برزت في وجه فينيقي آخر. في قرطاجة يقول المصدر: إن حصون قرطاجة كانت بطول ٣٤ كيلومتراً، وارتفاعها ١٣ متراً وسماكتها ثمانية أمتار، يتخللها كل مسافة ٦٠ متراً بروج أو اسطبلات يضم الاسطبل ٣٠٠ فيل و ٤٠٠ حصان. وهندسة التحصينات هذه اقتبسوها عن مدينة صور، وصور أخذتها بدورها عن الآشوريين.

الصوريون يهاجمون هذه الإنشاءات ويهدمون منها بساعات ما بناه المكدنيون في أيام، ولم يكتفوا بذلك، بل أخذوا يرسلون زوارق محملة بالنار لتحرق الأخشاب التي كان يقطعها الجيش المكدوني من غابات لبنان ويبني بها الجسور عبر البرزخ.

في هذه الأثناء كانت جماعات من الأعراب تغير على مؤخرة الجيش المكدوني وتفتك بعناصره المنعزلة وجماعاته العاملة بقطع الأخشاب من الغابات، وكعادتهم يهربون قبل أن تمسكهم القبضة المكدونية، وكان الاسكندر قد استقدم ثمانين مركباً حربياً من سفن جبيل وارواد وصيدون واستخدمهم لحصار المدينة الباسلة من جهة البحر.

ترك الاسكندر الحصار يأخذ مجراه وانبرى لتأديب أولئك الأعراب المتجرئين عليه، فجهز عليهم حملة قادها بنفسه، وانطلق يحاربهم وظل يلاحقهم حتى موطنهم ــ في لبنان الشرقي، فما أولئك الأعراب إلا الايطوريين وما موطنهم لبنان الشرقي إلا وادي التيم والأماكن المجاورة له، وتدلنا الوقائع التاريخية أن الايطوريين كانوا يلجأون إلى هذه الأماكن عندما تواجههم قوة أكبر من قدراتهم ، كما عاد وحدث بينهم وبين الرومان.

من المؤرخين من يقول أن هجوم الايطوريين على جنود الاسكندر كان قد تم بموجب اتفاق بينهم وبين المسؤولين في المدينة المحاصرة لمساعدتها في محنتها وتخفيف الضغط عنها، لأن الصوريين كان بحسابهم المساعدة الخارجية من الشقيقات الفينيقيات ومن قرطاجة، ولا يمكن إلا أن يكون مجلسهم الحربي قد فطن لاستخدام المرتزقة من الايطوريون في حربهم المصيرية مع الاسكندر، أما أن يهاجم الايطوريون جيوش الاسكندر لغرض السلب والنهب، فأمر بعيد الاحتمال بسبب معرفة هؤلاء الجيدة إن من خلال ما سمعوه، أو من خلال ما شاهدوه أن لحم الاسكندر لا يؤكل.

انهارت مقاومة المدينة الباسلة بعد أن ظلت تقاوم الحصار على مدى سبعة

أشهر[١] وكانت مشاركة السفن الفينيقية بالحرب إلى جانب الاسكندر ضد صور كبوة للتاريخ الفينيقي ولطخة سوداء في جبينه.

سقطت صور بيد الاسكندر في منتصف شهر تموز من سنة ٣٣٢ق.م[٢] بعد أن سقط من رجالها ثمانية آلاف مقاتل وصلب المكدونيين ألفي رجل، وباعوا في سوق النخاسة ثلاثين ألفاً من سكانها ولجأ بعض حكامها والحجاج القراطجة إلى هيكل ملكرت فنجوا بأنفسهم، وسار الاسكندر بكامل جنده إلى هيكل ملكرت وقدَّم الذبيحة فيه، ثم استعرض الجيش وأقام حفلة ألعاب رياضية وسباقاً بالمشاعل[٣]. وبأفول نجم صور انتقلت الزعامة في الساحل الفينيقي إلى صيدون.

تابع الاسكندر بعدها مسيرته نحو مصر، وعندما وصل إلى غزة، امتنع صاحبها المدعو باتيس عن تقديم الطاعة له معتمداً بذلك على مناعة حصون غزة وعلى رجاله العرب الذين شدوا أزره ودخلوا معه إلى المدينة ليحموا حصونها، فأقام الاسكندر الأبراج العالية وهجم على الأسوار والأبواب، فقابله العرب بهجوم معاكس شديد. فتراجع المكدونيون وأحرق العرب[٤] الأبراج وأصيب الاسكندر في كتفه وامتنعت عليه غزة مدة شهرين. لكنه تمكن بعد ذلك من افتتاحها فقتل من قتل، وأسر من أسر من سكانها وأمر بربط ملكها باتيس بمركبة حربية ظلت تجره حتى مات. لا المؤرخون اليونان ولا من ترجموا أقوالهم إلى العربية ذكروا لنا أي نوع من العرب هؤلاء الذين قاتلوا الاسكندر في غزة، فهل هم عياطرة؟.

قطع الاسكندر المسافة من غزة إلى مصر بسبعة أيام، فدانت له البلاد المصرية بالطاعة وتوج نفسه ملكاً في معبد فتاح في مدينة ممفيس، وخطط وبنى

(١) لبنان في التاريخ، ص ١٩٨.
(٢) نفس المصدر.
(٣) لبنان في التاريخ، ص ١٩٩.
(٤) منشورات الجامعة اللبنانية ــ ١٥، تاريخ اليونان، ص ٣٠.

مدينة الاسكندرية وزار معبد الإله عمون في واحة سيوه، ذلك المكان النائي في الصحراء الغربية الذي كانت تقصده الحجاج من أثينا واسبرطة والبلاد اليونانية الأخرى، وكان يرمز لهذا الإله المصري (أمون ــ رع) بصورة عليها قرني كبش، وقيل أن الاسكندر أخذ لقبه (ذو القرنين) من هذا الإله[1].

عاد الاسكندر بعدها ليتابع حملته ضد الفرس وكانت قد هيأت الظروف بينه وبينهم للمعركة الثالثة ــ معركة أربيل ــ وانتهت على النحو الذي ورد آنفاً.

لو كنت الاسكندر:

أثناء حصار الاسكندر لمدينة صور وردته رسالة من الملك داريوس، كانت بمثابة عرض للصلح بينهما تتضمن التنازلات التالية[2]:

١ ــ «يعترف بملكيته ويتنازل له عن كل ما وقع غربي الفرات.

٢ ــ يدفع له عشرة آلاف وزنة عن زوجته الأسيرة.

٣ ــ توقيع معاهدة تحالف بينهما وزواج الاسكندر من ابنته ستاتيرا ــ وقيل سائيرا.

٤ ــ بقاء أبيه أوخوس رهينة عنده».

«يفهم من هذا الشرط أن والد الملك داريوس كان من جملة أسرى الاسكندر في ايسوس».

لدى اطلاع القائد برمينيون على هذه الشروط قال: لوكنت الاسكندر لقبلت. . .، فأجابه الاسكندر على الفور: وأنا لوكنت برمينيون لقبلت. . .

(١) ذات المصدر، ص ٣٣.
ملاحظة: عندما استولى الاسكندر على غزة أرسل منها إلى ليونيداس حاكم مكدونيا ما وزنه ٥٠ ألف ليبرة من البخور قائلاً له: مرسل إليك ما لا يبقى معه عذر للضن به على الآلهة، والسبب أنه عندما كان الاسكندر صغير ألقى أمام الذبيحة ملء راحتيه بخوراً، فعاتبه ليونيداس على تبذيره، فقال له الاسكندر الطفل: «يحرص الجبان القليل الثقة بذاته». تاريخ حمص، ص ٢٣٥.

(٢) تاريخ حمص، ص ٢٢٣؛ ومنشورات الجامعة اللبنانية ــ ١٥، تاريخ اليونان، ص ٢٩.

كان الاسكندر يطمح إلى ملك آسيا كلها وقد عبر عن ذلك بقوله لكبار قادة جيشه وهم على أبواب أربيل:

«الهدف هو ملك آسيا فليشعر كل منكم بالمسؤولية الملقاة على عاتقه».

توغل الاسكندر كثيراً في آسيا، فبلغ الهند وسمرقند وحارب مدناً وقبائلاً كثيرة تغلب عليها كلها حتى قيل أنه قتل ٣٥ ملكاً[1] من أعدائه ومناوئيه، وقد آلمه مقتل عدوه داريوس بيد اثنين من أركان حربه الفرس، وعندما وصل إلى جثة داريوس أمر بأن تدفن باحتفال مهيب، وحاول الاقتصاص له من قاتليه، وبعد مدة علم الاسكندر بمحاولة اغتيال دبرت ضده في معسكره وأن القائد فيلوطاس علم بهذه المؤامرة وسكت عنها لمدة يومين، فأمر بقتل فيلوطاس وبقتل والده برمينيون، ثم عاد وقتل بيده أحد قادته المخلصين والأبطال هوكليتوس. ندم الاسكندر بعد ذلك وأغلق الباب على نفسه واستمر ثلاثة أيام يبكيه[2]، وأصبح الاسكندر رجلاً شرساً قليل الثقة بمن حوله، وفي ربيع سنة ٣٢٧ق.م تزوج من روكسانة[3] ابنة نبيل فارسي يدعى أوكسيارتيس وقيل أنها ابنة الملك داريوس وذلك في مدينة بلخ وأمر بعقد عشرة آلاف زيجة في يوم واحد بين مكدونيين ونساء فارسيات سعياً منه لتوحيد الأمتين وكان جيشه في تلك الآونة يضم قادة ومسؤولين من الفرس، مما أثار عليه حفيظة المكدونيين أنفسهم، أما العلاقات بينه وبين مربيه أرسطو، فكانت قد ساءت حتى العداء، وفي الثالث عشر من شهر حزيران سنة ٣٢٣ق.م توفي هذا القائد العظيم وختمت الرواية بهذا الفصل.

(١) ابن العبري، ص ٥٨.

(٢) ذات المصدر الأخير، ص ٣٥.

(٣) ذات المصدر، ص ٣٨. ويقول ابن العبري أن الاسكندر تزوج ابنة داريـوس اوشنك، ص ٥٤.
ملاحظة: ولدت روكسانة ابناً بتاريخ شهر آب سنة ٣٢٠ق.م أسموه الاسكندر الرابع (اسكندراغوس)، قتل هذا الطفل هو ووالدته سنة ٣١١ق.م على يد كساندر. المستند: تاريخ اليونان الآنف الذكر، ص ٤٨ و ٥٤؛ تاريخ حمص، ص ٢٢٨.

الورثة الأقوياء يتقاسمون المملكة[1]:

لم يكن للاسكندر من وارث لهذا الملك الواسع، ولم يعين قبل موته صراحة من يخلفه في الحكم. لأنه عندما سئل وهو يحتضر عن خليفته أجاب: للأقوى فيكم، وقيل للأصلح فيكم، ولكنه خلع خاتمه وسلمه لقائده بردكاس وأوصاه أن تنقل جثته إلى مصر وتدفن في معبد عمون في واحة سيوه[2].

ولم تلبث المنازعات أن قامت بين الورثة وجلهم من قادة الجيش، ثم تطورت هذه المنازعات إلى حروب قتل فيها بردكاس سنة ٣٢١ق.م، واستمرت حتى سنة ٣٠١ق.م، حيث عقد مؤتمر في بابل اقتسم المملكة فيه أربعة من كبار القادة وعلى النحو التالي[3]:

١ ــ كساندر على مكدونيا وسائر بلاد اليونان.

٢ ــ ليسيماس على تراقيا وآسيا الصغرى.

٣ ــ بطليموس على مصر وفلسطين وفينيقيا.

٤ ــ سلوقس على سوريا الشمالية وما بين النهرين إلى الهند.

لم ينه التقسيم على أي حال الحرب بين الورثة الأربعة الكبار، وكانت الحروب بينهم طويلة متوارثة، كل جهة كانت تسعى للحصول على قدر أكبر من التركة على حساب الجهة الأخرى، وعانت بلادنا الكثير من هذه الحروب خاصة تلك التي قامت بين السلوقيين والبطالسة، بالنظر لقرب الموقع وتشابك المصالح.

الدولة السلوقية:

هي الدولة الهيلينية التي سادت بلادنا بعد الفتح اليوناني، مؤسسها سلوقس نيكاتور أحد كبار القادة في جيش الاسكندر، كان الاسكندر يحب

(١) لبنان والبلدان المجاورة، ص ١٩٧.
(٢) منشورات الجامعة اللبنانية ــ ١٥، تاريخ اليونان، ص ٤١.
(٣) تاريخ حمص، ص ٢٢٨.

سلوقس ويثق به ويعتمد عليه في المهمات الصعبة[1]، وكذلك كان الحال بين والد سلوقس والملك فيلبوس والد الاسكندر، ويلاحظ من تقسيم التركة المكدونية أن حصته كانت حصة الأسد.

اشتهر هذا القائد بحبه للعمران فبنى في مدة حكمه ٢٤ مدينة منها اثنتان في سوريا لا تزالان مزدهرتين هما: أنطاكية التي باشر ببنائها بتاريخ ٢٢ أيار سنة ٣٠٠ق.م وأسماها باسم والده أنطيوخوس ونقل إليها عاصمة ملكه من مدينة سلوقيا على الفرات. ثم مدينة اللاذقية وأسماها باسم والدته.

كان للسلوقيين تاريخ خاص بهم ابتدأوا بالتأريخ به في أول نيسان سنة ٣١٢ق.م وهي السنة التي ابتدأ فيها حكم الملك سلوقس الأول[2]، ومن ملوك هذه الدولة الملك سلوقس الثالث الذي نشبت الحرب بينه وبين بطالسة مصر، لسبب: أن والده الملك أنطيوخوس الثاني كان متزوجاً من امرأة غير أمه تدعى برنيكي وهي شقيقة للملك (بطليموس افرجات) ملك مصر. وبدافع غيرتها دست برنيكي لزوجها السم فمات، وتسلم بعده ابنه سلوقس الثالث، فكان أول عمل قام به هو قتله زوجة أبيه، فأهاج الأمر أهلها البطالسة وهاجموا سوريا واحتلوا عدة أقاليم منها، ومن ملوكها الملك أنطيوخوس الثالث الكبير الذي تولى السلطة في العام ٢٢٢ق.م، وكانت المملكة بحالة فوضى فأصلح أمرها وعزز شأنها. إلى هذا الملك لجأ البطل القرطاجي هنيبعل بعد خسارته أمام الرومان في معركة زاما سنة ١٨٣ق.م والتي انتهت بتدمير قرطاجة.

في ذلك الوقت كانت الهيلينية باسطة سلطانها على المشرق وكانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية للحكام وللرسميين ورجال الفكر والكتبة، وامتاز العهد السلوقي بالتقدم الذي أحرزه الإنسان في المشرق، يونانياً كان أم وطنياً،

(١) منشورات الجامعة اللبنانية ــ ١٥، تاريخ اليونان، ص ٧١.
(٢) جعل اليونان بداية التاريخ السلوقي في أول شهر ذيوس (تشرين الأول) سنة ٣١٢ق.م ولكن الوطنيين جعلوه في أول نيسان من العام المذكور. المصدر: منشورات الجامعة اللبنانية ــ ١٥، تاريخ اليونان، ص ٧١.

في حقول الفلسفة والتأريخ والشعر والتمثيل والنحت والتصوير، ولما جاء الرومان فيما بعد. قضوا على سلطان السلوقيين كدولة ولكنهم عززوا ونشروا الثقافة الهيلينية، وتهذبوا بها، لذلك عاشت الثقافة الهيلينية في سوريا ولبنان أكثر بكثير مما عاشه الحكم اليوناني.

بلغ عدد ملوك اليونان الذين حكموا بلادنا واحداً وثلاثين ملكاً أولهم الاسكندر الكبير سنة ٣٣٣ق.م وآخرهم أنطيوخوس الثالث عشر الملقب بالآسيوي ـ الذي انتهى حكمه بمجيء الرومان في العام ٦٤ق.م ـ ويحسب من ملوك هذا العهد الملك ديكران ملك أرمينيا الذي غزا سوريا ولبنان وضمهما إلى مملكته في العام ٨٤ق.م واستمر احتلاله لبلادنا أربعة عشرة سنة وقد ألحق الغزو الأرمني ضرراً كبيراً بالبلاد والعباد.

اشتهر من علماء هذا العصر رهط من المجلين في حقول العلم والتأريخ والفلسفة، إن من الهيلينيين أو من المتهلينين وكانوا بحق البناة الأول للمدنية التي ينعم بها إنساننا اليوم أياً كان جنسه وأين كان موطنه. نذكر منهم على سبيل المثال[١]:

□ **أوقليديس**: ولد في صور وقيل في الاسكندرية، والده دمشقي يدعى (توقراطوس). وأوقليديس رياضي شهير درس هذه المادة في الاسكندرية وكان يحضر دروسه بصفة تلميذ (بطليموس فلادلفيوس). أهم مؤلفاته في هذا الحقل هي «أصول أوقليديس».

□ **أرخميدوس**: سيد المهندسين وأكثرهم شهرة في التاريخ، ولد في سراكوسة سنة ٢٨٧ق.م وهو صاحب النظرية العلمية في الثقل النوعي، اهتدى إلى نظريته بينما كان يستحم فخرج عارياً وهو يصرخ: افركا.. افركا، أي وجدتها.. وجدتها. قال مرة: أعطوني مكاناً أقف عليه غير الأرض لأزحزحها لكم.

(١) تاريخ حمص، ص٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦.

□ **ايبارخوس**: عالم فيزيائي فينيقي، ولد في فينيقيا في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، ضبط ساعات الليل والنهار وعين أوقات الكسوف والخسوف على امتداد ستماية سنة بعد موته، اعتمد بطليموس على أقواله.

□ **ارشيجينيس**: حمصي النشأة، طبيب شهير اختص بالأمراض العقلية. من مؤلفاته كتاب في النبض، شرحه جالينوس.

□ **ابلونيوس**: ولد في آسيا الصغرى (قره حصار) سنة ٢٥٠ق.م، ألف كتباً كثيرة في الهندسة لم يبق من مؤلفاته سوى أربعة منها ـ كان الفضل في حفظها للعرب ـ وكان لقبه المهندس.

□ **ديودوت**: سوري من افاميا، بلغ رتبة جنرال في الجيش السلوقي وثق به الملك اسكندر[١] بالاس وأنابه في تدبير المملكة أثناء غيابه وأسندت إليه حاكمية أنطاكية ـ العاصمة، ثم أصبح وصياً على ابن الملك القاصر، وتسمى بعد ترقيته (تريفون). قتل في افاميا في العام ١٣٨ق.م.

□ **بوسيدون**: سوري افامي أيضاً، من مواليد سنة ١٣٣ق.م، علم في أثينا، كان من طلابه بمبيوس القائد وشيشرون الخطيب، اشتهر هذا العالم في الرياضيات والطبيعيات والفلك وبرع في الفلسفة والتأريخ، وتوفي سنة ٤٩ق.م.

□ **نقولا الدمشقي**: ولد في دمشق سنة ٧٤ق.م، وضع تاريخاً عاماً شغل ١٤٤ جزءاً نال به شهرة واسعة.

□ **فيلون الجبيلي**: «كما يدل عليه اسمه، من مدينة جبيل، طبقت شهرته الآفاق كمؤرخ، من جليل عمله نشره جميع مؤلفات المؤرخ الفينيقي العظيم سنكن يتن الذي عاصر حروب طروادة وكتب التاريخ الفينيقي متحرياً الصدق والحقيقة، وقد ترجم فيلون هذه المؤلفات الهامة من الفينيقية إلى اليونانية».

(١) منشورات الجامعة اللبنانية ـ ١٥، تاريخ اليونان، ص١١٨ و١١٩؛ ثم تاريخ حمص، ص٢٥٧.

ومن هؤلاء المشاهير اسطرابون في الجغرافية، وديودور الصقلي، ويوسيفوس مؤرخ العاديات اليهودية، والطبيعي بيليني ـ عن تاريخ حمص.

الأيطوريون، أو (المملكة العربية الأيطورية):

وقيل العيطوريون ـ هم جيل من العرب يرجعون بنسبهم إلى أيطور ابن إسماعيل ابن إبراهيم الخليل المذكور في سفر التكوين ٢٥ : ١٥ موطنهم الأصلي أيطوريا[١] هي ما يعرف اليوم بالجيذور من أعمال حوران، وهذا التشابه بين الكلمتين ليس من باب الصدفة لأنها اسمان لمسمى واحد في الأصل هو: أيطوريا، وكلمة أيطوري تعني (جبلي) وأيطوريا هذه موقعها (شمالي باشان قريباً من دمشق بين اللجاة وحرمون[٢]) وفي الفصل الثالث من بشارة لوقا الانجيلي ورد ذكر لأيطوريا على النحو التالي:

«في السنة الخامسة عشر من ملك طيباريوس قيصر حيث كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية وهيرودوس رئيس ربع على الجليل وفيلبوس أخاه رئيساً على أيطوريا وكورة انطرخون، وليسانياس رئيس ربع على الآبلية»، «كان هذا الوضع قائماً في بلادنا في السنة الأولى من كرازة السيد المسيح»، وهذه الأقاليم المتاخمة لوادي التيم. منها ما لايزل يحتفظ باسمه حتى اليوم، ومنها ما تغيّر اسمه فأوضح المؤرخون مجهوله على النحو التالي:

□ **كورة أنطرخون**: هي ما يعرف اليوم باللجاة، تلك المفازة الشهيرة بوعرها دعاها اليونان في القديم (تراخونيتس) من كلمة تراخوس (الحجر) ووردت في الكتاب المقدس باسم مملكة أرجوب أما عن حجارتها البركانية فيقول المؤرخ الكبير عيسى اسكندر المعلوف أن مصدرها هو تل شيحان القريب من بلدة الشهباء في جبل الدروز، عندما كان في الماضي البعيد بركاناً مشتعلاً، وبيوتها المسقوفة بصفائح الحجارة الربد. تعد من أقدم البيوت في العالم[٣].

(١) تاريخ سوريا للمطران الدبس، م ٤، ج ٢، ص ١٤٠، والدواني، ص ١٠.
(٢) هكذا وردت في تحديد بلينوس.
(٣) دواني، ص ١١.

□ **الأبلية**: مدينة كانت في المحلة المعروفة اليوم بوادي بردى، القريبة[١] من حاضرة الزبداني الجميلة وقيل أنها المحلة ككل، دعيت بالآبلية نسبة إلى النبي آبيل (هابيل) عليه السلام الذي لا يزال قبره قائماً هناك فوق صخر عظيم.

□ **باشان**: أطلقت هذه التسمية (بعد سبي بابل) على أربعة أقاليم هي الجولان. وأرجوب وحوران والبثنية، أما حوران فقد عرفها قدامى اليونان باسم (هورانيتس) ومعناها (بلاد المغاور). وأشير إلى موقعها بين دمشق وبادية الشام[٢]، ودعاها الآشوريون في أيام دولتهم جورانو.

الأيطوريون يتحركون باتجاه البحر:

تقدم الأيطوريون من موطنهم (أيطوريا) باتجاه الغرب، شأن جميع الهجرات البشرية التي سبقتهم أو التي جاءت بعدهم على هذا الطريق، فامتلكوا الجولان، ومع الزمن اجتازوا الجبل الشرقي وحرمون إلى وادي التيم فالبقاع وعلى أبواب البقاع، أنشأوا لهم حاضرة دعوها (كلكيس) هي عنجر اليوم، أصبح لهذه الحاضرة شأن عظيم فيما بعد كما سيطالعنا، بعد قليل، أصبح الأيطوريون مع الزمن قوة نشطة ونامية، فأنشأوا لهم ملكاً على غرار ما فعله أخوانهم الأنباط[٣] ولكن لم يكن لهم شهرة الأنباط في الزراعة والتجارة كما يبدو. وكان ساعدهم يشتد وسلطانهم ينمو بقدر ما يضعف الحاكم المحلي الممثل يومذاك بالدولة السلوقية المهيمنة على بلادنا.

استقى العالم أخبار الأيطوريين من خلال ما كتبه عنهم مؤرخو اليونان والرومان الذين أشادوا بشدة بأسهم ومقدرتهم القتالية ومهارتهم باستعمال القسّي ورمي النشاب[٤].

بهذه القوة استطاعوا أن يتمركزوا في وادي التيم والبقاع، وأن يثبتوا

(١) تاريخ سوريا، الدبس، ج ٢، م ٤، ص ٣٤٧.
(٢) الدواني، ص ١١.
(٣) منشورات الجامعة، لبنان مباحث علمية، ج ٢، ص ٢٢٦.
(٤) نفس المصدر.

أقدامهم في هذا المدى الحيوي المسيطر على طرق التجارة بين الساحل والداخل وأن يفرضوا الضرائب على التجار العاملين عليها، تقدموا فيما بعد نحو الغرب حتى وصلوا إلى البحر وانتشروا على طول الشاطىء الممتد من طرابلس شمالاً حتى غزة جنوباً[١].

وفي حملة الاسكندر الكبير على البلاد المشرقية في الثلث الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، ظهر الأيطوريون على مسرح الأحداث بتعرضهم للحملة المكدونية أثناء حصارها مدنية صور، وهاجموا عناصرها العاملة بقطع الأخشاب من الغابات اللبنانية، كما هاجموا المفارز المكدونية المنعزلة وقوافل تموينها، وكانت إشارة المؤرخين إليهم، إشارة أعطت مواصفاتهم الصحيحة وأشارت إلى موطنهم بتحديد صحيح، ولم تذكرهم صراحة لغموض واقعهم في ذلك الوقت «الأعراب المغيرون الذين تعرضوا للمكدونيين أثناء حصارهم مدنية صور مما أزعج الاسكندر فجهزّ عليهم حملة شديدة المخاطر قادها بنفسه فحاربهم وظل يطاردهم حتى موطنهم في لبنان الشرقي»، ولكن الدكتور أسد رستم الذي يعدّ أحسن من كتب عن (العيطوريين) أوضح ذلك بقوله: وما هؤلاء الأعراب إلا الأيطوريين أنفسهم أما (لبنان الشرقي) فهو ما يعرف اليوم بوادي التيم. وقد وضحت هذه الصورة أكثر. عندما تكرر الحادث مرة ثانية عند مجيء الرومان إلى بلادنا واصطدموا بالأيطوريين وبقوتهم المقاتلة يبدو وكأن الأيطوريين هم القوة الوطنية الوحيدة القادرة على التصدي للغزاة، وقد دافع الايطوريون عن كيانهم دفاعاً مجيداً سجلّه لهم التاريخ بأحرف من نور، ولكن الكثرة الرومانية استوعبت الشجاعة الأيطورية فانتصر الرومان عليهم أولاً في طرابلس وأمر القائد الروماني بقطع رأس أميرها العيطوري وكان اسمه ديونيسيوس ويقول الأستاذ جواد بولس أن الجحافل الرومانية اتجهت كلها أو بعضها نحو جبيل وتغلبت على المقاومة العيطورية فيها وقتلوا أميراً أو ملكاً اسمه كينيراس، وكانت المعركة الكبيرة متوقعة بين العيطوريين والرومان في البقاع على أبواب العاصمة كلكيس (عنجر).

(١) الأعراب الذين حاربوا الاسكندر مع باتيس صاحب غزة هم على ما يبدو من الأيطوريين.

كان الرومان يعرفون جيداً أنهم بمواجهة رجال حرب أشداء فاحتاطوا للأمر وتفرغوا له ولم تكن الحرب لصالح العيطوريين في نهاية الأمر كما لم تجدهم شجاعتهم فتيلاً أمام كثرة أعدائهم الرومان فانسحبوا إلى شعاب حرمون الجبلية إلى تلك المفازات الوعرة في وادي التيم وغرضهم من ذلك أن يحتموا من السيف الروماني المسلط، وفي نهاية ذلك المطاف الدموي أجبرهم الرومان على دفع غرامة حربية باهظة قدرها ألف وزنة وجعلوا من بلادهم ايطوريا إقليمًا رومانياً ألحقوه بسوريا[١].

من قائل أن الرومان لم يستطيعوا إخضاع الأيطوريين بصورة كاملة، وأن المقاومة الضارية لذلك الشعب الجبلي الباسل استمرت حتى عهد الامبراطور تراجان[٢]، وعلى أي حال فإن جميع الأدلة التاريخية تشير إلى أن بلادنا كانت تقف يومذاك ـ تحت مظلة أيطورية، لأن المعركة التي انتصر فيها الرومان كانت معركة أيطورية ـ رومانية أكثر مما كانت سلوقية ـ رومانية.

بالرغم من تملك الأيطوريون أخصب البقاع السورية، حوران والجولان، ووادي التيم، والبقاع، لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عن نشاطهم في مجال الغرس والزراعة، وكأنهم تركوا لأخوانهم الأنباط هذا العمل، إلا أنه أشير إلى اهتمامهم بتربية المواشي خاصة الخيول مستفيدين من وفرة المراعي في منتجعاتهم الخضراء شأنهم بذلك شأن جميع القبائل ذات الصبغة البدوية ومن هنا كانت شهرتهم بالفروسية وقد تكوّن لديهم قوة ضاربة من الفرسان المغيرة بلغ عديدها ثمانية آلاف فارس[٣] تصدوا بها للغزو الأرمني الذي اجتاح البلاد السورية سنة ٨٣ قبل الميلاد بقيادة الملك ديكران، كما تصدوا للغزو الروماني بقيادة القائد بمبيوس سنة ٦٤ق.م وأشار المؤرخون إلى أمير أيطوري عاش في تلك الحقبة من تاريخهم اسمه بطليموس قيل فيه (بطليموس الرهيب) وقيل

(١) لبنان والبلدان المجاورة، ص ١٩٧.
(٢) لبنان في التاريخ، ص ٢٣١.
(٣) لبنان والبلدان المجاورة، ص ١٩٧.

(بطليموس الثري) ويبدو أن التسميتين في محلهما بالنسبة لهذا الأمير الأيطوري القوي (٨٥ ــ ٨٠) قبل الميلاد، كان بطليموس يتقاضى الضرائب الباهظة عن القوافل التجارية[١] بين الساحل الفينيقي والداخل السوري ويبدو أن الأيطوريين كانوا يمارسون هذا العمل قبل بطليموس أيضاً، وما كانوا يكتفون بما ينالهم من ضرائب بل تعدا الأمر إلى سلب القوافل متاعها، فألحقوا كبير ضرر بالتجارة والتجار، الأمر الذي أزعج الدمشقيين فاستدعوا إليهم الملك الحارث الثالث النبطي وملكّوه عليهم مقابل حمايته السبل التجارية وفرض النظام في البلاد، وكان الحارث محل ثقة الناس به وفي دمشق صك الملك الحارث نقوداً كتب على الوجه الأول منها (الملك الحارث) والآخر (فيلهيلين) أي (محبّ الهيلينية) وبهذا دليل على علو كعب الهيلينية في بلادنا يومذاك. بقي أن نشير إلى أن مجيء الملك الأرمني (ديكران الكبير) إلى بلادنا كان بطلب من بعض السوريين أنفسهم لكثرة ما عانوه من ظلم الحكام السلوقيين وبسبب اختلال الأمن في البلاد[٢] وقيل أن الدمشقيين أنفسهم استدعوا صاحب أرمينيا مثلما استدعوا الحارث النبطي[٣] ويبدو أن الملك ديكران عجز عن قهر الأيطوريين في معاقلهم الجبلية فاكتفى بالسيطرة الرمزية على بلادهم شأن سابقيه السلوقيين، وقد حارب الأيطوريون اليهود حرباً شديدة وقيل أن ارطوبولوس الأول ابن يوحنا هرقيانوس أخضع قسماً من أيطوريا بين العام ١٤٠ و١٠٣ قبل الميلاد، وقد ساعد الأيطوريون اليهود فيما بعد في حربهم ضد الرومان[٤] ولحقهم بعض ما لحق اليهود من أضرار في هذه الحرب.

من مشاهير الملوك السلوقيين الذين تجددت الدولة في أيامهم الملك أنطيوخوس الرابع الملقب بالكبير المتوفي في العام ١٦٤ق.م وكان قد نمي إلى هذا الملك أن بطالسة مصر يعدون العدة لغزو البلاد السورية فاستبقهم

---

(١) نفس المصدر، ص ١٩٦ ــ ١٩٧.
(٢) تاريخ حمص، ص ٢٣٠.
(٣) دمشق، محمد كردعلي، سلسلة إقرأ، ص ١١.
(٤) دائرة المعارف البستاني، ج ١٠، ص ١٢.

وهاجمهم واحتل مصر السفلى وكاد أن يقضي على دولتهم، فأنقذهم الرومان الذين تدخلوا إلى جانبهم في الوقت المناسب[١] ولما توفي الملك أنطيوخوس نشب صراع حاد بين ورثة عرشه الأمر الذي أضعف الدولة السلوقية «وأخذت الآرامية تستعيد مواقعها في البلاد السورية وفيما بين النهرين» فقامت إمارة في الرها[٢] وأخرى في حمص، وكانت تدعى شمسي غراموس وكانت هذه الجماعة العربية تعبد الشمس كما يستدل من اسمها وقامت مملكة الأنباط العرب في نواحي البتراء وتعززت إمارة أخوانهم وجيرانهم الأيطوريين قلنا أن الأيطوريين أقاموا لهم ملكاً لم يعترف بسلطة السلوقيين وكان نفوذهم يشتد وساعدهم يقوى تبعاً لضعف الحاكم الممثل بالدولة السلوقية يومذاك وما يجدر ذكره أن معظم ملوك هذه الدولة كانوا ضعفاء أو مشغولين بمشاكل الحكم ووراثة العرش خاصة بعد موت أنطيوخوس الرابع الذي كثر النزاع بين ورثة عرشه من جهة وبينهم وبين بطالسة مصر من جهة أخرى.

«ولما آنس الأيطوريون من ضعف السلوقيين تقدموا نحو الجبال اللبنانية واتخذوا منها معاقلاً بنوا فيها القلاع والحصون» متخذين منها نقاط انطلاق يغيرون منها على المدن الفينيقية ويعودون وهم محملون بالغنائم والأسلاب ويقول الأستاذ جواد بولس[٣] أن الفينيقيين أطلقوا على الأيطوريين لقب (لصوص محترفون) لما كانوا يلحقوه من ضرر في بساتين بيروت وجبيل وتابع الأيطوريون تقدمهم شمالاً حتى طرابلس واحتلوها كما احتلوا جبيل ونقاطاً هامة كثيرة على الشاطىء الفينيقي منها رأس الشقعة قرب البترون واسمه الفينيقي[٤] (فينو ايل) أي (وجه الله) وكذلك دعاه اليونان والرومان (ثيوبروسوبون)، وبقيت تلك الأماكن المنيعة وقتاً طويلاً في أيدي أولئك المغيرين، ويؤكد الأستاذ فيليب حتي أخبار أولئك القوم بقوله «استطاعت قبائل عربية تعرف بالأيطورية

---

(١) تاريخ حمص، ص ٢٣١.
(٢) لبنان والبلدان المجاورة، ص ١٩٢.
(٣) لبنان والبلدان المجاورة، ص ١٩٣.
(٤) ذات المصدر.

أن تؤسس لنفسها ملكاً مستقلاً في سوريا المجوفة «البقاع» وكانت عاصمتها عنجر»(١) واسمها القديم (Chalcis) واللفظ إغريقي معناه النحاس، كان الأيطوريون قبائل عربية وكانت لغتهم الآرامية أو العربية وكانت بلادهم تتسع أحياناً فتشمل أقساماً من لبنان الشرقي وحوران وفلسطين ولما ابتدأوا «يتسللون غرباً نحو الشاطىء اللبناني احتلوا منه القسم الذي يقع بين صيدا ورأس الشقعة، وعن هؤلاء القوم يقول الأب هنري لامنس(٢) «تولى الأيطوريون على لبنان ولم يغيروا شيئاً من لغته»، كانوا عرباً أصلهم من حوران من الجهات المجاورة لجبل حرمون ومع أن المؤرخين لم يصرحوا بأي لغة تكلمت قبائلهم. لا نشك في أن العربية أو الآرامية هي لغتهم الخاصة وهم من أقارب النبط وقد أدخلوا العربية معهم» ووافق الأب هنري لامنس نولدكه قوله: تناوبت في لبنان لغات ثلاث الكنعانية والآرامية والعربية، ويقول الريحاني(٣) عن هؤلاء القوم «أن الأيطوريين عرب اللجاة أدخلوا اللسان العربي إلى لبنان».

أما عن ديانتهم فالراجح أنهم كانوا صابئة يعبدون الشمس والقمر والنجوم على غرار أخوانهم الأنباط الذين كانت أهم معبوداتهم الزهرة وذي شرى، أما الشمس فكانت عبادتها رائجة تماماً في ذلك الزمان وكان لها هيكل عظيم في حمص ثم في بعلبك هيليوبوليس أي مدينة الشمس، ومن ملاحظة تذكر أن الأيطوريون تصدوا لليهود وقاتلوهم عندما حاولوا مرة أن يتوسعوا في شمال فلسطين (الجليل) ثم تهود بعضهم فيها بعد وعند مجيء السيد المسيح قدموا للنصرانية معظم الرسل من تلاميذ المخلص(٤)، وبعد أن تغلب عليهم الرومان وجعلوا من بلادهم ايطوريا إقليماً رومانياً انخرط شبابهم في الجيش الروماني وحاربوا في صفوفه في البلاد الأفريقية، وحول هذا الموضوع يقول الدكتور أسد رستم أن بعض رجال هذا الليجيون الروماني من الأيطوريين

(١) لبنان في التاريخ، ص ٢٠٩ — ٢١٠.
(٢) المشرق، ١٩٠٣، ص ٧٠٥.
(٣) قلب لبنان، ص ٧.
(٤) منشورات الجامعة، تاريخ اليونان، ١٥، ص ١٢٧.

كتبوا أسماءهم على الصخور في عدة نواح من البلاد التونسية، تبين فيها بعد أنها لجنود أيطوريين منها: نجم علّام ضجعم قمر.. الخ ويكمل الدكتور رستم قوله أن جماعات أيطورية غير قليلة كانت في عداد الحرس الامبراطوري الروماني في زمن يوليوس قيصر مما حدا ببعض شيوخ روما أن يغمزوا من قناة الامبراطور بقولهم: إن بين رجال الحرس الامبراطوري جنوداً أجانب ذو رطانة غريبة(١).

ماذا عن كلكيس؟

جميع من كتبوا عن كلكيس العاصمة الأيطورية في الأصل أخذوا عن المراجع اليونانية أو الرومانية فالكلمة في الأصل (Chalcis) قالها الدكتور أسد رستم خلقيس وكذلك الدكتور فيليب حتي. وقالها الخوري عيسى أسعد في تاريخ حمص خلكيس. وترجمها أسد شيخاني لروبنصون كلسيس، وسمعناها شخصياً من الأستاذ سعيد عقل كلكيس فاعتمدنا التسمية الأخيرة، أما معنى الكلمة فمنهم من يقول «النحاس» ومنهم من يقول «النحاس الأحمر أو الذهب».

ومما تجدر الإشارة إليه أن الدكتور روبنصون نقل عن ريلاند قوله أن المستر تومسون هو أول من أشار إلى هذه الحاضرة القديمة وأن مدينة قنسرين الواقعة على بضعة أميال جنوبي حلب دعيت أيضاً في الزمن القديم باسم كلكيس، أما ما نحن بصددها، فموقعها حيث تقوم عنجر اليوم على الطريق الممتدة بين بعلبك ووادي التيم، وما الآثار المكتشفة هناك إلا آثار كلكيس العظيمة. ربما لم تكن هذه الآثار من عصر واحد. ويقال أن بعضها يعود إلى العصر الأموي، وما يجمع عليه المؤرخون. إن كلكيس العاصمة الأيطورية كانت قائمة حيث هي عنجر اللبنانية اليوم.

ذكر يوسيفوس «مؤرخ العاديات اليهودية» كلكيس بقوله أن بمبيوس الفاتح الروماني أثناء زحفه من جهات أنطاكية باتجاه الجنوب هدم قلعة أباميا

(١) الروم، ج ١، ص ٢٢ و ٢٣.

على العاصي (قلعة المضيق) ومر على مدينة هيليوبوليس (بعلبك) ثم على كلكيس ومنها تابع زحفه نحو دمشق.

كان سيد كلكيس يومذاك بطليموس بن مينايوس الذي قيل فيه أنه «جار دمشق الجبار المزعج»[1] وذلك بحكم امتلاكه الآبلية القريبة من دمشق لا بحكم امتلاكه كلكيس وحسب، وبعد موته تولى ابنه ليسانياس وذلك حوالي العام ٤٠ق.م وقيل فيه «ليسانياس ابن بطليموس سيد كلكيس المنخفضة»[2]، بقي أن نعلم أن ليسانياس هذا قتله أنطونيو الشهير بعلاقته بكليوباترا وبمساعي ودسائس كليوباترا نفسها في حدود العام ٣٤ق.م[3].

بعد مقتل ليسانياس أجّرت الدولة أملاكه إلى والٍ يدعى زينودوروس وكان هذا الوالي الروماني يملك أيضاً على «تراخونيتس «اللجاة» ثم توفي زينودورس في العام ١٩ق.م واستولى أوغوسطس قيصر على تركته وقيل أنه في العام ٢٢ق.م انتزع أوغوسطس قيصر تركة ليسانياس من زينودوروس قبل أن يموت هذا الآخر بثلاث سنوات وأعطاها إلى هيرودوس الكبير.

ومن عودة إلى قول روبنصون ـ دكتور في اللاهوت ـ أن ليسانياس الوارد ذكره في إنجيل لوقا هو ابن أو حفيد لليسانياس المغدور، وفي السنة الأولى من تملّك الامبراطور كلوديوس أنعم على هيرودوس (شقيق هيرودوس الكبير الآنف ذكره) بلقب ملك ووهبه كلكيس ومنحه حق الإشراف على الهيكل في أورشليم وحق تعيين رؤساء الكهنة وبعد موته أفضت كلكيس إلى ابن أخيه أغريباس الأصغر المذكور في أعمال الرسل وظلت كلكيس تحت سلطة هذا الأخير أربع سنوات ـ مباحث توراتية ـ اشتهر من كلكيس وجه مشرق عاش في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي هو الفيلسوف (يمبليخوس العيطوري)[4] كان

(١) يوميات في لبنان، مباحث توراتية، ج ٢، ص ٢٣٦.

(٢) ذات المصدر.

(٣) عن الأستاذ سعيد عقل أن كليوباترا سعت لقتل ليسانياس طمعاً منها بمملكة كلكيس الصغيرة والمدهشة، ولكي تضيف إلى سلسلة لقبها الطويلة... وملكة كلكيس.

(٤) الروم، ج ١، ص ٢٢ ــ ٢٣.

هذا الفيلسوف يدعو إلى الأفلاطونية الجديدة، «وكان تلميذاً لبرفيريوس، درس الرياضيات على أناطوليوس في روما وعاد بعدها إلى بلاده يعلّم في أباميا وكلكيس التي افتتح فيها مدرسة لهذا الغرض». ويقول الدكتور فيليب حتي عن هذا الفيلسوف أنه سبق علماء التوراة[1] بإتباع طريقة النقد التاريخي العلمي، وقد ألّهه تلاميذه بعد موته ولقبوه بالإله (ثيوس).

لم يكن يمبليخوس يتيمًا في محيطه وحيداً في مجالاته، كان له رفاق وأتباع ومريدون، وبالتالي كان لمدرسته (الأفلاطونية الجديدة) تلاميذاً، كل هذا يدعونا إلى التساؤل إلى أي حد تخلص الأيطوريون من بداوتهم؟ وأي مبلغ بلغوه في تقدم معارفهم ورقيّ حضارتهم؟ يصعب تحديد ذلك بالضبط أو التكهن به، لسبب أن جميع رجالات الفكر الذين عاشوا في بلادنا يومذاك، كتبوا باليونانية وتسموا بها فأضاعت الهيلينية ملامحهم الوطنية ومنبتهم الوطني فغدوا وكأنهم جزء من التراث اليوناني المشرقي، كان يومذاك عبدالله يدعى ثاودولس ووهب الله يدعى ثادورس وضجعهم يدعى زوكوموس[2]، والجدير بالذكر أن الفيلسوف الشهير برفيريوس هو سوري الأصل اسمه (مالك) من مواليد البثنية في حوران، تعلم في صور ودرس على لونجينيوص الحمصي السوري، وهذا لقبّه بالأرجواني أي لابس الأرجوان (برفيريوس)، وعلى أي حال إن وجود يمبليخوس ينفي عن الأيطوريين صفة البداوة إلى حد كبير، خاصة في أيامهم الأخيرة.

(١) لبنان في التاريخ، ص ٢٤٩.

(٢) تاريخ النصرانية في بلاد العرب، ص ٣٤.

(٣) لبنان في التاريخ، ص ٢٤٩.

ملاحظة: كثيرون من مؤرخي أخبار تلك الأيام رأوا بالأفلاطونية ديناً وقالوا إن أفلاطون كان يدعى (موسى اليونان) ولد هذا الفيلسوف العظيم في العام ٤٣٠ق.م وتوفي في العام ٣٤٧ق.م، المصدر: المشرق ١٩٠٢، ص ٧٠.

الأنبـــاط[1]:

ينتسب الأنباط إلى نبايوت بكر إسماعيل ابن إبراهيم الخليل[2]، سفر التكوين ٢٥ : ١٥، من الحجاز رحل والدهم إلى أواسط جزيرة العرب فسكنوا جبل شمر، وبعد مضيّ زمن يصعب تحديده بالضبط رحلوا إلى العراق حيث الري الدائم والكلأ الوفير، وفي أواخر القرن السابع قبل الميلاد اضطهدهم الملك آشور بانيبال ملك الأشوريين فأذلهم وصعب الأمر عليهم وكان ملكهم يدعى ناثان، فأخذوا يستعدون للنزوح، ولما غزا نبوخذ نصر البابلي سوريا الجنوبية، رأى فيها الأنباط مجالاً لمعيشتهم فنزحوا إليها ونزلوا منها في مكانين: في أغوار الأردن وعرفوا بأنباط البتراء. ثم في تدمر.

١ ــ **أنباط البتراء**: نزلوا وادي العربة بين البحر الميت ومدينة أيلة على خليج العقبة حيث كان الأدوميون قبلهم، ولما احتل نبوخذ نصر الموانىء التجارية على البحر الأحمر انتشر الأنباط في هذه الموانىء وخالطوا التجار العرب فيها، واتخذوا (سالع) البتراء عاصمة لهم وسالع الاسم عبري يعني الصخر أو الصخرة[3]، وعند مجيء اليونان إلى سوريا دعوها (بطرا) وللكلمة اليونانية نفس المعنى ثم دعاها العرب (البتراء). وفي أيام اليونان اشتد ساعد الأنباط وعظم شأنهم. وقد ذكرهم المؤرخ ديودور الصقليّ بقصة طويلة مفادها[4] أنهم كانوا على علاقة طيبة مع بطليموس الأول ملك مصر الذي أحسن سياسته معهم لما رآه فيهم من عزّة وما لخبرتهم التجارية من فوائد كانت تعود بالنفع عليه وعليهم، وحقق بطليموس من صداقة الأنباط مكاسب سياسية وضحت

(١) نَبَط: تلفظ مثل كلمة حَبَش، تاج العروس، ج ٥.

(٢) تاريخ حمص، ص (٣٤٤ ــ ٣٤٧).

(٣) ذات المصدر، ص ٣٤٩.

ملاحظة: حدثت بينهم وبين شاوول العبراني مناوشات وانتهت دون أن يكون لها أثر كبير (صموئيل ١٤ : ٤٧).

(٤) تاريخ حمص، ص ٣٤٦.

نتائجها فيما بعد، منها كسب صداقة عناصر قوية في جنوبي سوريا وموالاتها له مستفيداً منها في حالتي السلم والحرب على حد سـواء، لذلـك انعكست صداقتهم مع بطليموس عداءً سافراً مع أنطيغون الوريث الآخر للإسكندر، فصمم أنطيغون على إذلال الأنباط والنيل منهم ولكن واجهته صعوبات جمة بمحاربتهم. أولاً: لبطولتهم وعنادهم. وثانياً: لمناعة حصونهم ووجودهم في قفر قاحل، وانتظر لتنفيذ خطته خروج رجالهم من مدينتهم الحصينة، أما للغزو. أو لملاقاة القوافل التجارية العائدة من البعيد كما كانوا يفعلون دائماً، وهاجمهم بجيشه ونهب خزائن البتراء وأموالها (خمسماية وزنة...) (ومستودعات المر واللبـان فيها) علم رجال الأنباط بالأمر فكمنوا لجيش أنطيغون على طريق العودة، وانقضوا عليه وألحقوا به خسائر فادحة وهزموه، وكادوا يقتلون أنطيغون نفسه.

بعد تلك الواقعة عاد أنطيغون وجيّـش عليهم جيشاً كبيراً سلم قيادته لإبنه ديمتريوس.

علم الأنباط بالأمر فاستعدوا له وهيأوا أنفسهم لحصار طويل فجمعوا المؤن واللوازم وملأوا الصهاريج المحفورة في الصخر بمياه الأمطار، وكانت مدينة البتراء من القوة والمنعة بحيث يصعب اقتحامها، ولما وصلت الجيوش اليونانية (السلوقية) حاصرت البتراء وابتدأت تضيق الخناق على الأنباط حتى جزعوا، وفي أحد أيام الحصار الصعبة طلع شيخ نبطي فوق السور وأذاع على ديمتريوس وجيشه ما يلي[1]:

«أيها الملك: إننا رضينا الإقامة في بادية لا مطمع لأهل المدن فيها، لخلوّها من مرافق الحياة فراراً من العبودية فلماذا تحاربوننا؟ وأي نتيجة ترجون من قتالنا؟ إننا نستطيع أن نقدم لك ما تصل إليه أيدينا على أن تدعنا وشأننا أما

(١) منشورات الجامعة اللبنانية، ١٥، تاريخ اليونان، ص (٥٩ ــ ٦٠). ويشير هذا المصدر إلى أن الجيش السلوقي غزا الأنباط بإمرة أثناسيوس قائد أنطيغون.

(٢) عن تاريخ حمص للخوري عيسى أسعد، ص ٣٤٦.

إذا أبيت إلا إطالة الحصار. فكن على ثقة من أنك لن تجني سوى الفشل ولن تجد إلينا سبيلاً ما دمنا ممتنعين في هذا الحصن الحصين وإذا قدر لك الفوز، فإنما تفوزون بجثث أموات وصخور صماء لا تستطيعون مساكنتها».

تأثر ديمتريوس بما سمعه من الشيخ النبطي وفك الحصار عن المدينة ثم قفل راجعاً إلى منطلقه، مكتفياً من الأنباط بالاعتراف بسلطانه[1].

ومن إشارة في سفر المكابيين إليهم «أن الأنباط أمة قوية يمكن الاعتماد عليها» وقد جارى الأنباط اليهود في السياسة والحرب[2] وأقاموا عليهم ملكاً ونظموا أمورهم وقد شهد لهم بذلك مؤرخو اليونان والرومان، بقولهم أن الأنباط أقاموا ملكهم على أسس ثابتة، وكان لملوكهم الوزراء والمساعدون وقال سترابو أن تقشف الأزمنة القديمة زال من المجتمع النبطي ووصفهم «أنهم كانوا يأكلون على موائد مشتركة تتألف المائدة الواحدة من ثلاثة عشر شخصاً وكان يقوم على خدمة كل جماعة (مغنيتان) ومن مظاهر الترف عندهم أن إلههم أو معبودهم ذو الشرى «اتخذ أيضاً مظهراً هيلنستياً وأصبح يدعى ديونيسوس» والصورة العامة عن حياة أولئك القوم أنهم «شعب متفهم الأمور، محب للكسب، منظم ديموقراطي منهمك في التجارة والزراعة ولم يكن في المجتمع سوى عدد قليل من العبيد مع عدم وجود فقراء معدمين وحافظ الأفراد على علاقات سلمية بعضهم مع بعض، حتى أنهم لم يحتاجوا إلى رفع شكاوى، وبلغ من ديموقراطية ملكهم أنه كان يقدّم تقريراً عن أعماله إلى الجمعية العمومية»[3].

بسط الأنباط نفوذهم على شرقي الأردن وحوران وسيناء وأعالي الحجاز وامتدت مملكتهم من أعالي الفرات إلى فلسطين[4] كما وصلوا إلى (سهول

(١) تاريخ حمص، ص ٣٤٧.
(٢) منشورات الجامعة اللبنانية ١٥، تاريخ اليونان، ص ١٢٤.
(٣) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، حتي، ص ٤٢٩.
ملاحظة: المؤرخان سترابو وديودور الصقلي أحسن من كتبوا عن الأنباط.
(٤) الدواني، ص ٤٨، ٥٠.

مرجعيون)[1] وهذا ما يؤكد أنهم بناة مدينة النبطية في جنوبي لبنان التي لا تزال تحمل اسمهم حتى اليوم.

ومن مدنهم الشهيرة العاصمة سالع (البتراء) ثم بصرى والكرك وعمان وأذرع والحجر أي مدائن صالح التي عثر فيها على كتابة نبطية على أحد الأضرحة يعود تاريخها إلى العام ٢٦ للميلاد، وتدل آثار البتراء بوضوح على ملامح مدنية عريقة وجهد شعب جبار تغلب على الصخر والرمل فحوّل الأول إلى حصون ومنازل وصهاريج تزينها الرسوم الجميلة المتقنة الصنعة، وجعل من الرمل والصحراء حقولاً خصبة وعلم الزراعة من أشهر ما اشتهر به الأنباط، فبلغوا به شأواً كبيراً، ولا يزال الفلاحون في البلاد السورية وفي وادي التيم خاصة يطبقون الأساليب الزراعية التي أرسى الأنباط جذورها، ويقال أن كلمة استنبط في اللغة العربية جاءت اشتقاقاً من اسمهم دلالة على قدراتهم الخلاقة المبدعة، ولما كانت الزراعة من أوليات الحضارة لأن التمسك بالأرض يعني تطليق «مرحلة البداوة الجوابة» لذلك يعتبر الأنباط أول من علموا الناس سكن البيوت وإنشائها في برية آدوم بدلاً من المغاور والكهوف، وقيل فيهم أن نشاطهم الزراعي والعمراني أضعف فيهم روح القتال والقسوة[2].

أما التجارة فكانوا من روادها المهرة ـ وصلوا بتجارتهم إلى البلاد المصرية واليمن (مدينة المهجم) القريبة من صنعاء وإلى العراق وما وراء النهر، فكانوا من هذا القبيل فينيقيي الشرق بحق وحقيق، وقيل عن الأنباط أنهم كانوا يلحقون الأذى بالتجار الذين لا يتعاملون معهم[3].

أخذ العرب على الأنباط عدم حفظ أنسابهم، وقد تكون هذه الناحية هي التي أضاعت الكثير من معالم وجودهم ومن هويتهم التاريخية.

(١) صيدا عبر حقب التاريخ، ص ٨٦، ٨٧.
(٢) الدواني.
(٣) الدواني، ص ٤٤.

الصراع بين الأنباط والسلوقيين:

وصف الأنباط بأنهم أهل دعة وسلام وكثيرة هي الوقائع في تاريخهم تؤيد هذا القول وبنفس الوقت اشتهروا بشجاعتهم وصلابتهم عندما كانت الحرب تفرض عليهم، وفيما أذاعه الشيخ النبطي على ديمتريوس وجيشه أصدق دليل على ذلك، كان الأنباط شديدي التعلق بحريتهم لا يرضون بالعبودية ولا يرضخون للظلم، تركوا العراق موطن الكلأ والمراعي المارعة والمياه العذبة الجارية، تخلصاً من ظلم الآشوريين وتعسفهم، مفضلين السكن في الصحراء الجافة مع حريتهم، وهنا يختلف تاريخهم عن تاريخ اليهود عندما كانوا في مصر قبل رحيلهم عنها.

في العام ٨٤ق.م حارب الملك أنطيوخوس الثاني عشر الأنباط وحاول ضربهم بجيش كبير من الجنوب فأنجدتهم القبائل العربية المجاورة لهم وأنقذتهم من شر مستطير وما لبث أن قضى الملك أنطيوخوس نحبه في هذه الحرب وأحرز الأنباط بقيادة ملكهم ريبال (ربئيل) نصراً غير متوقعاً عن هذه الحرب. ويقول روبنصون «قتل الملك أنطيوخوس بحربه مع الحارث[1] (آريتس) ملك الجزيرة العربية» بعد هذه الحرب تدفقت القبائل العربية إلى الداخل السوري ونشأت الامارات التي سبق وأشرنا إليها وهي: شمسي غراموس في حمص والمملكة العربية الأيطورية... وفي البقاع ووادي التيم ووادي بردى. وإمارة الرها التي منها معن الأول وأبجر الأول، أما الدولة السلوقية فقد تقلص ظلها وإنزوت في العاصمة انطاكية.

في العام ٨٥ق.م كانت دمشق في أيدي العرب الأنباط واستمرت حتى العام ٥٤ للميلاد، كانت إجمالاً ثمانينات القرن الأول قبل الميلاد فترة انتفاضات وتحركات القوى الوطنية في البلاد المشرقية (بلاد آرام).

---

(١) يوميات في لبنان، ج ٢، ١٩٦ ـ ١٩٧.

ملاحظة: أشير إلى هذه الأحداث التي جرت بين الأنباط بقيادة ملكهم ريبال وبين الملك أنطيوخوس دينوسيوس أنها جرت في العام ٨٤ قبل الميلاد.

ملوك الأنباط:

قام من الأنباط ثلاثة عشر ملكاً في البتراء أولهم الحارث الأول ١٦٩ ـ ١٤٦ قبل الميلاد، وآخرهم مالك الثالث الذي تولى من العام ١٠١ ـ ١٠٥ للميلاد حيث قضى القائد الروماني كرونيلوس بلما على ملك الأنباط في أيام الامبراطور تراجان، وقد عرف مؤرخو اليونان والرومان أسماء الملوك الأنباط كما يلي: آريتس (الحارث) أو باداس (عبادي) ـ ولا يزال هذا الاسم حياً في وادي التيم، ماليكوس (مالك)، ثم ريبال.

ومن مشاهير ملوكهم الحارث الثالث الذي استدعاه الدمشقيون لتولي الملك بينهم في فترة الفوضى التي عصفت بالبلاد والتي قتل فيها عشرة آلاف يهودي دفعة واحدة في دمشق[1] ومما يجدر ذكره أنه في فترة تولي الحارث الثالث على دمشق كان بولس الرسول في المدينة فسعى اليهود لإلقاء القبض عليه لدى الحاكم العسكري ففر بولس الرسول من دمشق وقد أنزلته جماعة من مؤيديه بزنبيل من على سور المدينة[2] وعند مجيء الرومان إلى دمشق أقروا الحارث الثالث على حكم المدينة لعدم تعرضه لهم وبالتالي لإعترافه بسلطانهم ولما كان يتمتع به عند الدمشقيين من محبة واحترام.

□ **الحارث الرابع**: من السنة التاسعة قبل المسيح إلى السنة الرابعة بعد المسيح، في زمن الحارث الرابع ولد السيد المسيح وكان هذا الملك من مشاهير الملوك الأنباط وأكثرهم مقدرة، زوج ابنته إلى هيرودوس انتيباس ولما طلقها هيرودوس هاجمه الحارث وحاربه وانتزع منه الكثير من أملاكه[3] وهيرودوس هذا هو قاتل الصديق يوحنا المعمدان وزوجته هيروديا التي تسببت بقتل يوحنا ليست ابنة الحارث الآنفة الذكر بل هي الزوجة الثانية لهيرودوس. أشير إلى

---

(١) عن يوسيفوس مؤرخ العاديات اليهودية (يوميات في لبنان ـ روبنصون).

(٢) تاريخ حمص، ص ٣٤٨.

(٣) تاريخ حمص، ص ٣٤٨، والمستند الآخر، مباحث توراتية، ج ٢، ص ١٩٧.

هذه الحرب أنها جرت في حدود العام ٢٨ للميلاد وأن مملكة الأنباط في حينه كانت تمتد من الفرات إلى البحر الأحمر.

□ **مالك الثاني**: ٤٠ ـ ٧٥م هو ابن الحارث الرابع أشرك زوجته معه بالحكم وسكّ اسمها على النقود وكانت تدعى (شقيلة).

□ **ربيال الثاني**: ٧٥ ـ ١١٠م ملك عظيم دعاه قومه بالمنقذ وهو أيضاً أشرك معه بالحكم زوجته وكانت تدعى (جميلة).

ومن ملوكهم الحارث الثاني الذي قيل إن عدد أولاده الذكور بلغ سبعماية ولد[1].

وقد ضمت المملكة العربية النبطية إلى الامبراطورية الرومانية في العام ١٠٦ للميلاد.

المغيب:

قضى كرونيلوس بالما على المملكة النبطية وأخضع العربية الصخرية وجعل منها إقليمًا رومانياً وجعل عاصمتها بصرى بدل البتراء ولكن التعاون استمر بين الرومان والأنباط ومنح الرومان أمرائهم الألقاب والرتب العالية وجعلوا منهم حراساً على الحدود السورية الشرقية وقد توصل أحدهم فيما بعد فيليب العربي الحوراني المولد أن يصبح قيصراً رومانياً[2] وازدادت في هذا العهد أعمالهم التجارية وعمرت الطرق وأقيمت عليها المخافر لحفظ الأمن وإيصال البريد[3] حتى أن الجيش الإسلامي في عهد معاوية كان يضم أعداداً كبيرة من الأنباط[4].

«على مقربة من النبي يونس وفي محلة تدعى كوينجك في العراق حيث

(١) تاريخ حمص ٣٤٧، ٣٤٨.
(٢) الدواني، ص ٤٤.
(٣) دمشق، محمد كردعلي، ص ١٥.

كانت نينوى القديمة وجدت ألواح أثرية تحمل تاريخاً ـ نشرتها مجلة الأرض[1] المقدسة في ١٥ أيلول من سنة ١٨٩٤م ـ تذكر حرب آشور بانيبال للعرب تقول إحداها: إن آشور بانيبال سيرّ جيشه على فاتح «ملك العرب» الذي كان قد قاومه مع جيش النبطيين، فساروا متجشمين أعظم المشاق في أرض العطش والموت (ربما المقصود الصحراء السورية) إلى أن بلغوا بلاد مارس البعيدة عن نينوى مسافة مئة (كسبوككارو) وهذه الأرض بجوار دمشقاً (دمشق) ويقول العالم الذي نشر هذا القول وهو المسيو ر. ريبواسون، أن ماس المقصودة هي باس أو باسان باشان (حوران اليوم) وهي الأرض المجاورة لدمشق وجبل حرمون ويقول هذا العالم الكبير أن الكسبو ككارو يُساوي ستة كيلومترات فتكون المسافة التي قطعها الجيش الآشوري بين نينوى وبلاد حوران = ٦٠٠ كيلومتراً ومقياسها الصحيح هو ٦٦٠ كيلومتراً.

هذا أقدم ما نعرفه عن الأنباط، وأن تعرضهم للحملة الآشورية ومحاربتهم لهذا الملك العظيم دليل على وجودهم الدولي المؤثر بين دول العالم القديم في ذلك الزمان.

الأنباط (السراكسة العرب):

عندما عبر الغطط الدانوب واشتد خطرهم على الدولة الرومانية تصدى لهم الامبراطور والنس وقامت بينه وبينهم معركة رهيبة وذلك في التاسع من آب سنة ٣٧٨م كانت تصحب الامبراطور فرقة من السراكسة الفرسان وقد قتل والنس في هذه المعركة كما هو معلوم ثم هاجم الغطط القسطنطينية نفسها وأحدقوا بها فردهم عنها الفرسان من السراكسة العرب الذين كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي ـ فمن هم هؤلاء السراكسة؟ يقول المطران الدبس[2]:

(١) عن تاريخ سوريا للمطران الدبس، ج ١، م ٢، ص ٥٢٨ ـ ٥٢٩.
ملاحظة: حكم الملك الآشوري آشور بانيبال من سنة ٦٦٩ ـ ٦٢٦ق.م ودمرت نينوى حسب أقوال القديس أورانيموس وأوسابيوس بين سنتي ٦٠٦ و٦٠٥ق.م. نفس المصدر، ص ٥٣٤ ـ ٥٣٥.
(٢) تاريخ سوريا، الدبس، ج ٢، م ٤، ص ٢٧ و١١٣ و١١٤.

«يراد بالسراكسة: العرب، ولكن لماذا سموا كذلك فمن قائل أنهم سموا بذلك نسبة إلى سارة امرأة إبراهيم، وهذا غير صحيح لأن العرب ينتسبون إلى هاجر وإسماعيل، وزعم بوخارت إن هذا الاسم من كلمة سرق العربية لاعتياد العرب السرقة وهذا غير صحيح أيضاً لأنهم لا يسمون أنفسهم بهذا الاسم لو كان الموضوع صحيحاً. بل كان يجب أن يُسميهم به جيـرانهم، ولكن اسطفان البيزنطي يقول في كتابه (في المدن) أنهم سموا كذلك نسبة إلى محلة اسمها سراكا وهي في بلاد النبطيين في العربية الحجرية ووردت في الكتاب المقدس مسريقة (تكوين ٣٦:٢٦) ويسميها العرب الآن مسريقا، وأخذ اسم سراكسة في اللغات الأجنبية (الأعجمية) وكان يسمى به أولاً سكان العربية الحجرية ثم أطلق على العرب جميعاً» ومن هؤلاء الأعراب (شيتيان) صاحبة البدعة القائلة بوجود مبدأين أو آلهين إله الخير وإله الشر وقد حاربتها الكنيسة كما حاربت غيرها من أصحاب هذه البدع وهؤلاء السراكسة العرب رشاهم الرومان مع من رشوا كي يتوقفوا عن نجدة زنوبيا عندما حاصروها في تدمر وما تجدر الإشارة إليه أن هناك كتاباً عن «الفلاحة النبطية» لمؤلفه أبـو بكر أحمد بن مختار الكلداني المعروف بابن وحشية وهو نبطي أشار فيها أشار إليه أن أسلافه النبطيين كانوا على جانب عظيم من العلم والمعرفة في حقل الزراعة. ويتضمن هذا الكتاب آراء زراعية بابلية أيضاً معظمها مأخوذ عن كتب قديمة يبدو أن المؤلف تمكن من مطالعتها وتلخيصها. عاش المؤلف في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة أي في حدود العام ٨٠٠م. وكان أول من أشار إلى هذا الكتاب هو المستشرق فون ماهر(١). وفي مقدمة كتابه يقول ابن وحشية أنه أخذ عن كاتب سبقه بمئات السنين وهو حكيم بابلي اسمه فوتامي.

وفي كتابه فتوح البلدان(٢) يشير البلاذري أنه كان للأنباط نشاطاً على الأرض اللبنانية بمعنى أنهم أي الأنباط كانوا ينضمون للروم أسوة بالجراجمة

(١) تاريخ الزراعة، عمر أبو النصر، صفحات ٢٤٢ و٤٣ و٤٤.
(٢) فتوح البلدان، ص ٢١٨ ـ ٢٢١.

بمهاجمتهم المسلمين أيام عبدالملك بن مروان الذي كان مشغولاً بحربه مع مصعب بن الزبير وأخيراً تمكن عبدالملك من هذه الجماعات السلاّبة وعمل فيها السيف بحيث أنشأ قوة محاربة من الأهلين دعيت «الروادف» كانت مهمتها حماية مؤخرة المسلمين الصوائف منهم والشواتي.

أنباط تدمر(١):

سكنوا تدمر واشتهر أمرهم فيها وأنشأوا لهم ملكاً كان من أهم الممالك الوطنية في سوريا وأجلّها أثراً وأسطعها مجداً، أنشأ التدامرة الأنباط ملكهم في الفترة التي ضعف فيها أمر السلوقيين ونشأت إمارات عربية ونبطية في الرها وفي الداخل السوري، واستفاد التدامرة من موقع بلادهم العازل بين الدولتين الكبيرتين الدولة الفارسية في الشرق. والدولة الرومانية في الغرب ثم تنافس ملوك الدولتين على كسب ودّهم، وترسخت أسس الدولة التدمرية في أيام الأباطرة السوريين أمثال سبتيموس سيفيروس وإسكندر ساويروس وفيليب العربي، أما القيصر أدريانوس فقد زار تدمر سنة ١٣٠م ووضع المدينة بحمايته وأسماها «أدريانابوليس». ومنحها سبتيموس سيفيروس (١٩٣ ـ ٢١١)م لقب المستعمرة الرومانية وعهد برئاسة الحكومة فيها إلى زعيم من أهلها يدعى (شرايجي) وقيل (سورايكو).

تدمر والتاريخ(٢):

قالت الأسطورة أن سليمان الحكيم بنى تدمر، «وقال التدمريون القدامى أن مدينتهم أقدم بكثير من عهد سليمان وذهبوا إلى أكثر من ذلك بقولهم: إنه بين زمن تدمر الأول وزمن سليمان(٣) يعادل ما بين زمن سليمان والعهد الحديث». ففي القرن الثالث قبل الميلاد تسمت بلميراس ومعنى الكلمة (مدينة

(١) تاريخ حمص، ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.
(٢) ذات المصدر، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.
(٣) المشرق، السنة الأولى، ص ٤٩٩.

النخيل) وكذلك يعني اسمها الحالي تدمر. اشتهرت هذه الحاضرة العظيمة منذ القرن السادس قبل الميلاد بأنها محطة كبيرة للقوافل التجارية العاملة بين مصر وجنوبي سوريا، وبين الشرق «ما بين النهرين وما ورائهما حتى أواسط آسيا، وكان التجار والبعثات التجارية يؤمونها من جميع البلاد ومن مختلف الأنحاء، أما بناء هذه المدينة وقيامها في تلك المفازة من الصحراء السورية، عمل جبار بحد ذاته قام به أناس أقوياء تحدوا صعاب الواقع وقسوة الصحراء، ومما يجدر قوله أن تدمر لم تكن في الماضي كما هي الآن من جفاف ويقال أن المياه كانت جارية في وسطها من ينابيع عدة منها النبع المكرس للزهرة، والفضل فيما يعرفه الناس في أيامنا الحاضرة عن تدمر. يعود بمعظمه إلى العالمين الكبيرين(١) (دي فوكيه) و (وادنكتون)، لأنهما على حد قول سبستيان رنزفال «افتتحا الدروس التدمرية وأتحفا العالم بما اكتشفاه من حاضرة زينب العظيمة وما ترجماه من كتابات على الهياكل والمقابر وقواعد الدمى فيها». وتعدّ تدمر من أجمل المدن الأثرية في العالم لما فيها من معالم أثرية هامة وأبنية عجيبة وبقايا هياكل جميلة خاصة الهيكل الكبير الذي كان مكرساً لعبادة الشمس ذو الشكل الكورنثي السوري الرائع. واحتفظت تدمر بشيء من حصانتها وأهميتها منذ أن فتحها خالد بن الوليد حتى أواخر القرن السادس للهجرة، ــ المشرق ــ.

ماذا عن ملوك تدمر؟

ملوك تدمر وسراتها في أيامها الأخيرة. هم آل السميذع. أسرة قديمة الوجود عظيمة النفوذ، حكمت تخوم سوريا الشرقية زمناً طويلاً، عثر العالم (ودينكتون) في مدينة السويداء(٢) في جبل الدروز على خط باليونانية من أيام كومود؟ يفهم منه أن السويداء كانت موطناً لهذه الأسرة أو لبعض فروعها وذلك في حدود القرن الأول الميلادي. من أسرة السميذع هذه فرع أذينة الذي حكم

(١) المشرق، العدد رقم ١٠ من السنة الأولى، ص ٤٣٧.

(٢) تاريخ سوريا، ج ٣، ص ٥٩٩؛ تاريخ حمص، ص ٣٥٧.

تدمر، ومؤسس هذا الملك هو(١): أذينة الأول ابن خيران بن وهب اللات بن نصر ــ وقيل نصور ــ بن السميذع، الذي دعي بإحدى الكتابات «برجل الندوة نظراً لأهميته بين قومه» حاول أذينة الاستقلال عن الرومان فقاتلوه وقتلوه. وكان له ولدان أكبرهم خيران، وأصغرهم أذينة، تسلم خيران فأحسن سياسته مع الرومان فأكرموه ولما توفي في سنة ٢٥٨م تسلّم بعده أخوه الشجاع أذينة، الذي كان على حد قول الأب سبستيان رنزفال اليسوعي «بطلاً من أبطال العرب» ــ وكان يتحين الفرص للانتقام من الرومان الذين كانت دولتهم تمر بمرحلة عصيبة من حياتها فتقوى واشتهر أمره وعزز ملكه وجهّز جيشه وقواه بالخيّالة والقوّاسة، في هذه الأثناء كان ملك الفرس سابور ــ وقيل شابور ــ ملكاً قديراً بعيد التطلعات والمطامح(٢) طمع بأملاك الرومان في البلاد المشرقية فقهرهم. «وذلل رقابهم» ولم يعد أمام القيصر أولريانوس إلا التصدي لهذا الخطر المحدق بالمملكة. فجهز جيشاً عظيماً وسار لمقاتلة سابور سنة ٢٥٩م، كانت مدينة الرها ميداناً لهذه الحرب، أسفرت نتيجتها عن اندحار الرومان وتشتيت جيشهم ووقوع القيصر أولريانوس أسيراً بيد سابور، وذلك بسبب خيانة عزيت لقائد الجيش الروماني آنذاك.

أخذ سابور بعدها يسوم أسيره القيصر أولريانوس ضروباً من الامتهان والتعذيب وأخيراً مثّل به وأماته بعد مضي ست سنوات على أسره(٣).

نجح التدامرة حيث أخفق الرومان:

رأى الملك أذينة الثاني أن يبعث لسابور بالهدايا وبكتاب يهنئة فيه بنصره رغبة منه باتقاء شره من جهة، ومحاولة إقامة حلف معه ضد الرومان من جهة

(١) ذات المصدر.

ملاحظة: كان اسم مدينة السويداء في ذلك الزمن نيابوليس.

(٢) هو سابور بن أزدشير المشهور بعدائه للعرب وبحربه الشهيرة معهم والتي حملت قبيلة قضاعة العربية أثقال هذه الحرب، ولنا لقاء آخر حول هذا الموضوع.

(٣) المشرق، س ١، ص ٦٣٧ و ٦٣٨ و ٦٣٩.

ثانية، لما وصلت رسل أذينة إلى المدائن وأطلع سابور على مضمون رسالة أذينة غضب وأمر بأن تلقى الهدايا في الفرات وخرق الرسالة وقال للوفد التدمري «أريد من سيدكم ولاءً مطلقاً لا تحالف. . .» وأعاد الرسل من حيث أتوا[(١)].

بعد عودة الرسل أخبروا سيدهم أذينة بما جرى لهم مع الطاغية الفارسي فغضب وعزم على تلقين سابور درساً لن ينساه، ثم أخذ يعد العدة لقتاله واستدعى القبائل العربية فجاءت إليه من أطراف الصحراء ثم جيّش وسار على رأس جيشه تصحبه زوجته زنوبية واتجه نحو المدائن.

كانت جيوش سابور في هذه الأثناء «عائدة من غزوة غير موفقة من آسيا الصغرى» فتنبه أذينة لها وسبقها ليحول بينها وبين اجتيازها الفرات شرقاً. فوصل في الوقت المناسب ونازلها بمعركة ضارية إنجلت عن انتصار ساحق للتدامرة ووقع حرم الملك سابور في «براثن النسر التدمري الظافر».

أشار المؤرخون الذين أرخوا أحداث ذلك العصر، إلى أن القبائل العربية أبلت في هذه الحرب بلاءً حسناً وساهمت إلى حد كبير بهزيمة عدوّها القديم واللدود سابور، بعدها تابع أذينة سيره نحو المدائن عاصمة الفرس وحاصرها، ولكنه لم يقو على فتحها لمناعة حصونها من جهة. ولعدم وجود وسائل الحصار المجدية لديه من جهة ثانية، فتركها لمناسبة أخرى وعاد إلى بلاده[(٢)].

عاد أذينة بعدها بحملة جديدة على الفرس تمكن فيها من قهر جيوشهم والتغلب عليهم ولكنه لم يقو للمرة الثانية على فتح المدائن، فاكتفى بما ناله من نصر ورجع إلى تدمر.

كان لإنتصار التدامرة على الفرس الأقوياء صدى كبير في الشرق والغرب على السواء. خاصة في الأوساط الرومانية، فمنح القيصر غاليانوس أذينة لقب ملك الملوك وفي العام ٢٦٤م سمي أذينة حاكم سوريا العام. وبعد مضي

---

(١) ذات المصدر.

(٢) المشرق، ج ١، ص.

سنتين أي في العام ٢٦٦م اغتيل الملك أذينة الثاني وولده هيرودوس بدسيسة من ابن أخيه المتوفي خيران واسمه مهنا وكان هذا غريراً قصير النظر يرى بنفسه صاحب الحق بالملك[(١)] وتسلمت الملك في تدمر زنوبية زوجة أذينة باسم ولدها وهب اللات، وكانت تحمل في صدرها أحلام زوجها وتعيش في نفسها أمانيه الكبيرة فاتصفت بالمقدرة والحنكة والعفة وبعد النظر، وقيل أنها كانت تهيىء لدخول روما والجلوس على عرش القياصرة فيها، فشعرت رومة بمقدرة زنوبية وأطماعها وعملت للقضاء على سلطانها، فجرد عليها القيصر غاليانوس حملة كبيرة بقصد إخضاعها، وفي شمالي سوريا (اصطدمت المقانب التدمرية والرومانية) وانتصرت جيوش تدمر في هذه الحرب وفشل الرومان وقتل قائدهم «هراقليانوس» ويصف المؤرخ الكبير شمبياني هذه الحرب بقوله[(٢)]:

«في تلك الوقعة انتصرت آسيا على رومة وانقطعت الروابط بينهما إلى الأبد ــ عن المشرق ــ وسّعت زنوبية حدود بلادها باحتلالها مصر وأصبحت المملكة التدمرية تمتد من دجلة شرقاً حتى البحر المتوسط غرباً ومن آسيا الصغرى شمالاً. حتى النيل جنوباً. واتجهت هذه المملكة الكبيرة إلى ري الصحاري وتعميرها ومن مشاريعها جر مياه بردى إلى الصحراء السورية ولكن الزمن لم يمهلها، استوزرت زنوبية لونجينيوس الحكيم الحمصي الأصل والذي كان يلقبه الناس «المكتبة الحيّة وكنز العلوم» «واهتمت بالتاريخ وبمطالعة أخبار الأقدمين وتراجم مشاهير الملوك وألّفت بخط يدها كتاباً اختصرت فيه تواريخ

---

(١) كان أذينة يصطاف في حمص تخلصاً من حر تدمر وبينما كان نائماً في صرحه بحمص اغتالته يد أثيمة ووجد حارسه مذبوحاً فهرب أحد الحراس ليخبر ابنه هيرودوس ــ أمه غير زينوبية ــ فوجده مقتولاً وثيابه مغمسة بالدم، كثرت الاتهامات ولكن عرف أخيراً القاتل الحقيقي هو ما ذكرناه وقد نقلها صاحب تاريخ حمص من (زوناراس ١٢ : ٢٤) ومر بنا هذا ورد اسمه بأشكال متعددة ــ معنّا ــ معنو ــ مينيوس ــ موني.

ملاحظة: قال المؤرخ العظيم لونجينوس في كتابه الايغال عن الشاعر اليوناني الشهير هوميروس «إنه بذل وسعه ليجعل من الناس آلهة ومن الآلهة أناس».

(٢) المشرق، ج ١، ص ٩٢٠.

الأمم الشرقية[١]، وأباحت حرية الأديان في مملكتها ومنعت اضطهاد النصارى من قبل الوثنيين وغيرهم هذا بالرغم من أن التدامرة كانوا يحجون إلى هيكل أفقا في جبال لبنان وكان في تدمر نبع ماء يدعى «أفقا» وهو مكرس للزهرة، ويقول مؤرخو حياة هذه الملكة أنها كانت تؤمن بالله وتأبى مشاطرة الوثنيين رأيهم «ولم ترض بقول الزنادقة الوثنيين بعدم وجود إله كما كانت من أقدر الناس على ضبط شكيمة الخيل» كان افتتاح زنوبية لمصر بين العام ٢٦٩ و ٢٧٠ للميلاد وفي هذا العام تولى القيصر لوكيوس أورليانوس في رومة مكان القيصر المتوفي كلاوديوس الثاني، وأول ما تكفل به هذا القيصر لشعبه هو القضاء على ملك زنوبية.

زنوبية وأورليانوس.. والصراع غير المتكافىء[٢]:

كان الرومان يضمرون الشر لزينب خاصة وللمملكة التدمرية بوجه عام وقد عبر عن ذلك شيوخهم عندما تولى القيصر أوريلوس كلوديوس، ذكر المؤرخون أن الشيوخ الرومان صاحوا بصوت واحد عند مبايعتهم القيصر الجديد: «يا كلوديوس أوغوسطوس نجنا من زينب وفكتوريا» وكرروا ذلك سبع مرات ولكن كلوديوس مات وبقيت زينب، ثم تولى الأمر القيصر لوكيوس أوريليانوس وقد وصف هذا القيصر بأنه «فظ قاس وطبيب ماهر ووثني متعصب» وكانت زنوبية قد وصلت بفتوحاتها حتى خليقيدونيا قريباً من القسطنطينية (بيزانتيوم) في ذلك الوقت أي في العام ٢٧٠م توفي وهب اللات ابن زينب فأجلست مكانه على منصة الحكم أخويه الصغيرين تيم الله وخيران ومحت صور القياصرة عن النقود التدمرية. وكان كل شيء مهيأ للصدام بينها وبين الرومان.

جاءت الجيوش الرومانية وتصدت لها زينب بعد أن قسمت جيشها إلى ثلاث فرق وأمّرت عليه القائدان زبدا وزبّاي، أرسلت الفرقة الأولى باتجاه

(١) المشرق، السنة الأولى، ص ٩٢١.

(٢) المشرق ١٨٩٨، ص من ٨٧٣ إلى ٨٧٥ ومن ١٠٣٤ إلى ص ١٠٣٦.

حلب والفرقة الثانية باتجاه حمص. والفرقة الثالثة باتجاه القريتين، وركبت حصانها ترتدي لباس الحرب، اجتاز الرومان جبال طوروس واقتربوا من أنطاكية وتجمعت الجيوش التدمرية للقائهم هناك.

المعركـة:

أمرت زينب قادتها أن يباشروا القتال، وهجم فرسان تدمر على الكتائب الرومانية وشتتوا شملها، وكان أوريليانوس ذا مكائد، فأوعز لفرسانه بالابتعاد فلحقهم القائد التدمري زبّاي، وكانت الخيالة التدمرية ثقيلة العدة بطيئة الجري، أما الخيالة الرومانية المنتقاة من الجزائر وأفريقيا وغيرهما من البلاد كانت خفيفة لا تحمل ما يعيقها فلم يسطع زبّاي اللحاق بهم فابتعد عن قواعده. عندها هاجم أوريليانوس المشاة التدمرية وهزمها شر هزيمة. ولما رجع زبّاي من مطاردته أدرك الخطأ المميت الذي ارتكبه، في هذه الأثناء هاجم الرومان الخيالة التدمرية المتعبة وهزموها.

جمعت زينب بقايا جيشها والتجأت إلى أنطاكية، ولم تكن المدينة موالية لها إجمالاً فإنسحبت إلى حمص، وهناك أعادت تنظيم الجيش حتى بلغ سبعين ألفاً من الخيالة والقواسّة وجعلت الصفوف كثيفة ومتلاصقة واختارت الساحة المناسبة للكر والفر، ولما وصل الرومان أنشبت زينب الحرب وهاجمت الخيالة الرومانية وأثخنت فيها فهال الأمر أوريليانوس وخاف العاقبة وأخذ يتضرع إلى آلهته لتنقذه وكررت الخيالة الرومانية ما فعلته بالأمس انهزمت أو تظاهرت بالهزيمة من الميدان فلحقها التدامرة ولم يستطيعوا تطويقها لخفتها، وكرر القائد التدمري زباي خطأه المميت وبعدت خيالة تدمر عن مشاتها، فهجم أوريليانيوس بمن معه على المشاة التدامرة وهزمها أيضاً. عاد زبايّ مسرعاً فتجمعت الكتائب الرومانية متلاصقة ببعضها وحملت على التدمريين، وجرى بين الطرفين قتال رهيب أفضى بالنتيجة إلى انتصار الرومان وانسحبت زنوبية بمن معها إلى مدينتها تدمر، مصممة على متابعة الحرب وتحدّي الحصار. كانت المدينة محصنة جداً فأمرت الملكة بنصب المجانيق على الأسوار، ثم تبعها

الرومان، «وعندما وصلوا وطاف الضباط حول المدينة أذهلتهم بمناعتها»، وابتدأ الحصار، ولم يكن لصالح الرومان، وانهارت معنويات رجالهم أمام هذا الانتظار الطويل والمناخ الصحراوي القاسي، فرأى القيصر أوريليانوس أن يسلك مع زنوبية طريقاً آخر، وأرسل إليها رسالة: يدعوها إلى التسليم ويعدها بحفظ حقوق التدامرة وقد استهل رسالته بما يلي[١]: كما أوردتها مجلة المشرق من القيصر أوريليانوس ملك العالم الروماني وسلطان المشرق إلى زينب وأصحابها سلام» فأجابته متهكمة رافضة شروطه مستهلة رسالتها بالعبارة التالية: من زينب سلطانة المشرق إلى أوريليانوس أوغوسطوس، وذكّرته بأن كليوباترا آثرت الانتحار على الاستسلام، واستمر الحصار، وكان القيصر قد طلب من البلاد الذخائر والمؤن فلبى الناس طلبه، ومن سوء حظ زنوبية أن القبائل العربية التي حاربت تحت أمرة زوجها أذينة. أحجمت عن مساعدتها بسبب إهمال زينب لهذه القبائل واحتقارها لشأنها، فرأت أن تذهب بنفسها إلى بلاد فارس وتطلب النجدة من ملوكها، وفي إحدى الليالي المظلمة ركبت جملها وانطلقت شرقاً وبقيت سائرة حتى اقتربت من الفرات، فأقبل نحوها جماعة من الخيالة عرفتهم أنهم أعداء. وهمّت بعبور النهر فلم تفلح وألقي القبض عليها واقتيدت أسيرة إلى حيث يقيم القيصر أوريليانوس فلما شاهدها تقدم نحوها وهو يصيح بأعلى صوته: «صرت بقبضتنا يا زينب. . أفلست أنت التي أدت بك الجسارة أن تستصغري شأن قيصر روماني؟» فأجابت:

«نعم إني أقرّ لك الآن بكونك قيصراً وقد تغلبت علي أما غاليانس وأوريلوس وغيرهما فلست أنظمهم قط في سلك القياصرة، وإنما بارتني فكتوريا في السلطنة والعزّ، فلولا بعد الأوطان لعرضت عليها أن تشاركني في الملك»[٢].

«أثر هذا التملق بالقيصر الخشن الطباع ومنحها الأمان بالرغم من ضباطه الذين رأوا ضرورة القضاء عليها»، وساقها أسيرة إلى رومة، وفي رومة أعد

(١) المشرق، ج ١، ص ١٠٣٦ ـ ١٠٣٨.

(٢) المشرق ١٨٩٨، ص ١٠٦.

القيصر المنتصر استعراضاً عسكرياً الغرض منه مباهاته وعرض زنوبيا العظيمة مغلولة بقيودها أمام الشعب الروماني وسارت في مقدمة العرض أربع عربات ملوكية الأولى عربة أذينة زوج زنوبية مزيّنة بالذهب والجواهر، والثانية عربة أهداها هرمز بن شابور ملك الفرس إلى القيصر بمناسبة انتصاره على زنوبية. والثالثة عربة زينب التي كانت تعدها لتدخل رومة منتصرة وهي تمتطيها، ولكنها كانت فارغة لأن زينب كانت تسير خلف العربة الرابعة التي تقل القيصر وهي مقيدة بالسلاسل الذهبية وترتدي كامل زينتها وبصحبتها أولادها، كانت زينب تتوقف كل مدة لتستروح الهواء وتستريح، أما المشاهدون الذين تقاطروا من كل الأنحاء فقد ازدحموا ليشاهدوا هذه الملكة الأسيرة وما خلا ذلك من المشاهد لم يكن بنظرهم يستحق الذكر.

قضت زنوبية بقية عمرها في مصيف يدعى تيبور أعده لها القيصر بأمر من مجلس الشيوخ الروماني وانطفأ ذلك الكوكب اللامع، ويقول المؤرخ تريبوس أن ابنها تيم الله أصبح فيما بعد خطيباً لاتينياً مصقعاً، وزوجّت بناتها من أعيان رومانيين واستمرت ذريتها حتى القرن الرابع للميلاد، وقيل أن القديس زينوبيوس أسقف فلورنسا كان من نسلها أيضاً. . .»[١].

بماذا تكلم الأنباط؟
وما هي لغة تدمر؟

من خلال ما كتبه مؤرخون مجلون حول اللغة بوجه عام، ولغة الأنباط بوجه خاص، أمثال ساخو ـ نولدكه ـ المطران الدبس ـ سبستيان رنزفال ـ جرجي زيدان ـ المطران اقليموس داوود ـ عيسى أسعد ـ فيليب حتي ـ والأستاذ سعيد عقل، يفهم الآتي:

اللغة بوجه عام:

أولاً: الحرف هو الصورة التي لبستها اللغة واتخذتها شكلاً مميزاً لها، وكما

(١) المصدر مجلة المشرق، العدد الأول، الصفحات من ١٠٥٧ إلى ١٠٦٢.

قيل أن «صياغة الحرف تعني فنية الشكل للمدلول الصوتي». أخذ العالم الحرف عن الفينيقيين سهلاً مبسطاً بعيداً عن التعقيد الهيروغليفي في مصر ومسمارية ما بين النهرين، وصارت كل أمة تغير به حسب مفهومها وحاجاتها الخاصة حتى وصل إلى ما هو عليه الآن بين أمم الأرض، وليس وضعه الراهن بثابت على أي حال من حيث الشكل، بل هناك تعديلات تجري ببطء ولكن بعناية في سبيل تطويره.

ثانياً: ابتدىء بالكتابة الأولى من اليمين إلى اليسار، وذلك بحكم استعمال الازميل[1] كأداة للكتابة على الصخر، والفينيقية تؤيد هذا القول، وقد عثر على صخرة في البرازيل قرب الأمازون عليها كتابة قديمة لم يفهم قارؤوها منها شيئاً لأنهم اعتمدوا بقراءتها الطريقة اللاتينية، أي من اليسار إلى اليمين، ولكن عندما قرأت من اليمين إلى اليسار جاءت بمعان عظيمة وفهم قصد البحار الفينيقي التائه الذي كتبها.

لغة الأنباط:

أولاً: تكلم الأنباط العربية وكتبوا بالآرامية واليونانية، وكانوا إجمالاً يحسنون التكلم باللغات الثلاث، اللغة المحلية ولغة المشرق، ثم لغة المغرب ـ على نحو ما هم عليه اللبنانيون اليوم والفينيقيون بالأمس. ولما كان مستبعداً أن تكون عربيتهم يومذاك هي عربية قريش الفصحى التي نعرفها، جاز والحالة هذه تسميتها بالعربية النبطية.

ثانياً: بقيت اليونانية هي اللغة الرسمية في بلادنا، لغة الحكام والكتبة طيلة العهدين اليوناني والروماني، وقد ساعد على دوامها وانتشارها الفكر اليوناني المتألق وأثر الثقافة اليونانية العظيم في الأوساط الرومانية الحاكمة وبالتالي في البلدان التي يحكمونها.

ثالثاً: كانت الآرامية لغة المشرق كله، وقد لاقت رواجاً كبيراً في الألف

(١) لبنان في التاريخ، ص ١٥١.

الأول قبل الميلاد بين الشعوب السامية ـ حتى أن اليهود تركوا العبرية وتكلموا الآرامية. أولاً، لأنها أخذت عن الفينيقية أبجدية مبسطة سهلة ـ على نحو ما هي عليه الإنكليزية اليوم. وثانياً، لأن الآراميين اعتمدوا التجارة والتجوال في البلاد المشرقية فساعدوا بذلك على انتشارها[1].

رابعاً: يربط الآرامية بالعربية نسب وثيق شأنها بذلك شأن جميع اللغات السامية الأخرى وذلك رغماً عن التطور الطارىء الذي لم يباعد بينهما في الجوهر[2].

خامساً: القلمان النبطي والتدمري مشتقان من الآرامية، أما الكتابات التي وجدت في تدمر، كانت بغالبيتها تدمرية محلية ويونانية[3].

سادساً: للحرف التدمري شكل يتراوح بين العبري المربع والحرف السطرانجيلي الرهاوي[4].

سابعاً: قال ساخو أن لغة تدمر هي اللغة التي تكلمها السيد المسيح، أما سبستيان رنزفال فقد استبعد هذا القول وأشار إلى أن: لسان أهل تدمر كان الآرامية على غاية الشبه بالسرياني وأقرب إلى لهجة أهل الرها منه إلى اللهجة الفلسطينية التي تكلمها السيد المسيح[5].

ثامناً: كانت اللغة العربية محكية في سوريا منذ زمن بعيد يسبق زمن النزوح القضاعي التنوخي إليها إبان حرب سابور، ولكنها ازدهرت تماماً وصدحت موسيقى الشعر العربي إبان زعامة الغساسنة التي ابتدأت حوالي العام ٣٧ الميلادي، ومما يجدر ذكره أن الحروف الأبجدية العربية الأساسية هي ٢٢ حرفاً فقط، وقد عثر في رأس شمرا سنة ١٩٤٩ على أجرة مكتوبة عليها

(١) تاريخ الحضارات العام، ج ١.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، ص ١٥.
(٣) المشرق، ج ١ ص ٥٣٨؛ وتاريخ حمص.
(٤) ذات المصدر.
(٥) ذات المصدر.

الأبجدية بكامل حروفها وعلى طريقة الآراميين والعبران كما يلي: أبجد هوز حطي كلمن قرشت سعفص، وقد أضاف العرب إليها ثخذ، ضظغ، والحروف المزادة هذه تدعى: الروادف(١).

التجمع السكاني في الحواضر النبطية وقومية الأنباط:

كانت المدن النبطية، إن في البتراء أو في تدمر أشبه بمحطات الترانزيت في أيامنا الحاضرة، بضائع وتجار من كل جنس ولون: عرب – آراميين – أرمن – رومان – فينيقيين – فرس – ويهود. كان الأنباط وكلاء مخلصين لمن يشترون منهم ولمن يبيعونهم، منهم: قبيلة قيدار الحورانية التي اختصت ببيع البضائع الفينيقية في الداخل العربي، وبعبارة موجزة كان الأنباط رواد تجارة من الطراز الممتاز والمخلص لعمله، وبعد أن غاب نجم البتراء في القرن الأول للميلاد انتقلت الأهمية التجارية إلى تدمر وأصبحت أهم محطة للقوافل التجارية.

كانت السيادة في تدمر للعرب(٢) بالرغم من كثرة الآراميين فيها، فمن المؤرخين من قال بعربية التدامرة أمثال جرجي زيدان، ومنهم من قال بآراميتهم أمثال جبر ضومط، مؤكداً لغتهم الآرامية، وهذا ليس بكاف لأن الآرامية كانت لسان الشرق كله يومئذٍ من الهند إلى مصر، معنى هذا أنه ليس كل من تكلم الآرامية كان آرامياً، ومثلنا على ذلك: اليهود. وما يرجح القول الأول القائل بعروبة التدامرة خاصة والأنباط عامة، هي أقوال المؤرخين اليونانيين والرومان بهذا الخصوص، وهؤلاء عايشوهم وعاينوهم عن كثب فدعوهم (العرب الأنباط) والحارث ملك العرب وحقيقة عربيتهم تبقى واضحة تماماً من جهة اعتبار أسماء الأعلام الذي لها شأن كبير في هوية أصحابها، فالأسماء التدمرية التي نقلها لنا المؤرخون من النقوش التدمرية والتي يعود تاريخها للسنة التاسعة قبل المسيح، تدل على عربية أصحابها بشكل قاطع، وهي: أمجد –

(١) لبنان في التاريخ، ص ١٥١ و١٥٢.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان، ص ٢٢.

زبيد – زبّاي – سعد – سعيد – مهنّا – هجر – كهيل – كهيلة(١) – جميل – جميلة – زبدا – انعم – زنوبية – نصور – خيران – أذينة – معن – وهباللات – تيم الله – الحارث – ريبال. والدليل الآخر على عربية القوم هو أسماء القبائل التدمرية: بني السميذع – بني حنفي – بني متبول – بني هلة – بني ميثاء – بني حلة – بني حمدان، ولا يخفى على أحد أصالة هذه القبيلة ومكانها الكبير في التاريخ العربي واستمراريتها حتى أيامنا الحاضرة.

وعندما كانت الملكة زنوبية أسيرة الرومان كان من رفاقها الأسرى التدامرة جماعة من قبيلة سليح القضاعية، وسليح هذه كانت متملكة على حوران قبل مجيء الغساسنة إليها من اليمن، ولما جاءت غسان إلى حوران ما لبثت أن انتزعت الأمر من سليح وتملكت مكانها.

هناك كثيرون من الأنباط في البتراء والتدامرة والايطوريين أيضاً تسموا بأسماء يونانية ورومانية مثل بطليموس وهيرودوس وديونيسيوس وغير ذلك من الأسماء، حتى أن ملوكهم تلقبوا رسمياً بألقاب شرف يونانية ورومانية مثل أذينة الثاني الذي كان يدعى رسمياً سبتيموس أذينة، وهذا التيمن الملكي لم يقتصر على أسماء الأشخاص، بل تعداه إلى أسماء المدن فدعيت تدمر ذات يوم (أدريانابوليس)، كما سبق ومر معنا.

هيلينيو الثقافة – لاتينيو اللغة – إيطاليو الأرض أولئك هم.. الرومان:

بعد أن سقطت طروادة المدينة العظيمة في السنة ١١٨٤ قبل الميلاد، نزحت جماعة من سكانها إلى شرقي نهر التيبر واستقر بها المقام في مدينة لاتيوم وما حولها، كان رأس هذه الجماعة أمير يدعى اينياس، نزلت هذه الجماعة على جماعة أخرى مقيمة فتعايشت معها وامتزجتا بالمصاهرة فتشكلت منها النواة

(١) المشرق، ج ١ ص ٧٣٥.

الأولى للشعب الروماني، ولما توفي (لاتينوس) أمير المدينة خلفه في الحكم اينياس، المذكور آنفاً(١).

أخذ هذا التجمع يزداد وينمو ويقوى، بما انضم إليه من جماعات شرقية جاءت من الأناضول(٢)، ولما جاءت سنة ٧٥٣ق.م وبنى رومولوس مدينة روما، كان قد سبقه في الحكم ١٢ ملكاً حكموا حوالي الأربعماية سنة، فتمكنت دولتهم وصمدت في وجه الأخطار التي تعرضت لها، ومع مرور الزمن وتشابك المصالح اصطدم الرومان بالدولة القرطاجية المقيمة على البر الافريقي، حيث تقع مدينة تونس اليوم وقامت بين الرومان والقراطجة حروب لاهبة ابتدأت في العام ٢٦٤ وانتهت في العام ١٤٦ق.م، حددها المؤرخون على النحو التالي:

□ **الحرب الأولى**(٣): استمرت ٢٣ سنة (٢٦٤ ـ ٢٤١ق.م) وسببها احتلال القرطاجيين قلعة مسّانا، فوجلت روما من هذا التقدم القرطاجي وساعدت أهل سيراكوسا. انتصر هامليكار برقة البطل القرطاجي الشهير وخرب سواحل إيطاليا، ولٰكن الرومان بفضل ما قدموه من تضحية، وخاصة أشرافهم، تابعوا الحرب ضد القرطاجيين وانتصروا عليهم وفرضوا عليهم شروطاً للصلح ثقيلة أرغموا على قبولها، وأصبح الرومان بعد ذلك دولة بحرية كبرى.

□ **الحرب الثانية**: استمرت هذه الحرب ١٧ سنة (٢١٨ ـ ٢٠١ق.م) تولى قيادة الجيش القرطاجي فيها قائد مبدع هو هنيبعل بن همليكار الذي كان قد توفي، وكان عمر ابنه هنيبعل يومذاك ٢٦ سنة، اجتاز هنيبعل الألب برحلة تعد معجزة عسكرية وحارب الرومان في عقر دارهم في أربع معارك كبيرة انتصر فيها كلها، وهي: تسينو ـ ترابيا ـ تراسيمين، ثم (كان) التي «أهلك فيها من الرومان سبعين ألفاً على رواية بوليب، وثلاثة وأربعون ألفاً على رواية

(١) تاريخ حمص، ص ٢٩٧.
(٢) صيدا عبر حقب التاريخ، خوري.
(٣) تاريخ حمص، ص ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥؛ وتاريخ هنيبعل، للأستاذ جورج مصروعة.

تيطوس ليفي» ومعركة (كان) واحدة من أهم المعارك في التاريخ، ولكن السياسيين القرطاجيين الذين كانت تسيرهم الروح التجارية وتسيطر على نفوسهم المكاسب والأرباح ضنوا على بطلهم بالإمدادات الحربية، فأفسدوا عليه نصره، وأرسل الرومان حملة جريئة أنزلوها قريباً من قرطاجة، فأرسلت قرطاجة تستدعي بطلها من أوروبا وجاء هنيبعل مسرعاً وخاض معركة مرتجلة، إلى حد ما، مع شيبيو الروماني ـ والذي دعي بعد ذلك بشيبيو الافريقي ـ دعيت معركة زاما، فكانت أول وآخر معركة خسرها هنيبعل، رحل من هناك إلى سوريا والتجأ إلى السلوقيين، كما سبق وأوردنا، ومنها انتقل إلى آسيا الصغرى، حيث مات مسموماً سنة ١٨٣ق.م وعمره ٦٣ سنة. قيل في مدحه أنه: نسل الأسد، وقيل في تقييمه أنه: أعظم قائد سامي في التاريخ.

□ **الحرب الثالثة**: ومدتها ثلاث سنوات، دمرت روما فيها قرطاجة تدميراً تاماً، ولم يبق من أهلها البالغ عددهم سبعماية ألف نسمة سوى خمسين ألفاً تشتتوا في أنحاء الأرض، وظلت النار تلتهم المدينة طيلة ١٧ يوماً ساوى بعدها الرومان أبنيتها بالأرض، وحرثوا أرضها بعد أن وضعوا فيها الملح كي لا ينبت فيها عشباً ودعوها أرضاً ملعونة(١)، فقضي بذلك على أعظم ما حققه الجهد الفينيقي في مجال بناء الدولة.

برهن الرومان عن اندفاع ووطنية في هذه الحروب، خاصة أشرافهم، وقاتلت المرأة الرومانية إلى جانب الرجل، أما الفتيات الرومانيات، فقد قدمن أحمالاً كثيرة من شعرهن إلى الجيش لصنع الأقواس مساهمة منهن في المجهود الحربي، شأن مثيلاتهن من بنات قرطاجة، ولكن قرطاجة لم توفق بقيادتها السياسية، حتى قيل أن قرطاجة أودى بها التجار من أبنائها.

بسط الرومان سلطانهم على أوروبا وافريقيا الشمالية وآسيا الصغرى وبعد أن تغلبوا على المحن التي تعرضوا لها في العام ١٠١ق.م من جراء غزو البرابرة،

(١) عن تاريخ هنيبعل، للأستاذ جورج مصروعة.

جاء قائدهم بمبيوس إلى الشرق غازياً في العام ٦٤ق.م، فحطم مملكة الأرمن وقضى على الامارات والممالك التي صادفها بطريقه إلى سوريا، وبسط عليها الحكم الروماني، وفي بلادنا قضى على السلوقيين واصطدم بقوة الايطوريين فتغلب عليهم في شعاب وادي التيم وحرمون، كما مر معنا.

جاء الرومان إلى بلادنا في العام ٦٤ق.م ورحلوا في العام ٦٣٦م، فتكون مدة حكمهم البالغة سبعماية سنة أطول مدة قضاها محتل على أرضنا. حفلت هذه القرون السبعة بأحداث هامة أثرت في تاريخ العالم كله، وفي تاريخنا على وجه الخصوص، من هذه الأحداث:

قضى الرومان على الدول المشرقية التالية: المملكة الأرمنية ـ المملكة الايطورية ـ مملكة الأنباط ـ مملكة اليهود ـ المملكة السلوقية ـ مملكة البطالسة ـ مملكة آل السميذع في تدمر، وكأن القدر قد اختار الرومان ليرثوا عن المكدونيين حروبهم مع الدولة الفارسية. وتعرضت الامبراطورية الرومانية لغزوة الهون المدمرة بقيادة اثيلا في السنوات ٤٥١ و٤٥٤م، ولحق بها أضرار فادحة[1].

تحولت رومة إلى جمهورية في العام ٥٠٩م وكان اختيار الرومان لهذا النوع من الحكم ذا أثر بالغ على أنظمة الحكم الأخرى في العالم.

والأهم من كل هذا، في العهد الروماني ولد السيد المسيح وبانتشار المسيحية دالت دولة الوثنية وقضي على أرجاسها وتخلص العالم من شرورها، كما ولد الرسول الكريم محمد بن عبدالله وانتشر الإسلام كدين يدعو إلى الهدى، انضوى تحت لوائه الملايين من بني البشر، وتميز العهد الروماني بحضارته الزاهرة وبنشاط عمراني نالت منه بلادنا الشيء الكثير، فازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة، وعبدت الطرق، وكثرت المحاصيل، وتألقت العلوم والفنون والمعارف، وأنشئت المسارح والهياكل الجميلة والحمامات والمعاهد والقيصريات

---

(١) انسكلوبيديا يونيفرساليس، ج ٢ ص ٧٧٤.

وقناطر جر المياه والجسور، وأصبحت مدارس بيروت والاسكندرية تضاهي مدارس رومة نفسها، حتى أن القياصرة الرومان كانوا يبعثون بأبنائهم ليتعلموا في هذه المدارس، ولكثرة ما ابتنى الرومان من معابد وهياكل وما تخلف بعدهم من آثار في البلاد السورية واللبنانية، صرنا نطلق مجازاً اسم: أثر روماني، على كل أثر نصادفه في ربوعنا، واشتهر العهد الروماني بتلك الفترة الطويلة من الأمن، والتي دعيت بقرني السلم، وقد حددها المؤرخون على النحو التالي:

ـ القرن الأول، ابتدأ من العام ٣١ق.م حتى العام ٦٨ للميلاد.

ـ القرن الثاني، ابتدأ من العام ٦٩م حتى العام ١٦٧ للميلاد[1].

ومما يجدر ذكره، أنه تسنم العرش الروماني خمسة أباطرة سوريين هم:

١ ـ سبتيموس سيفيروس، من العام ١٩٣ حتى العام ٢١١م[2].

٢ ـ ابنه كركلا، من العام ٢١١ حتى العام ٢١٧م.

٣ ـ اغابال ـ إله الجبل، من العام ٢١٧ حتى العام ٢٢٨م.

٤ ـ اسكندر سفيروس، من العام ٢٢٨ حتى العام ٢٣٥م[3].

٥ ـ فيليب العربي، من العام ٢٤٤ حتى العام ٢٤٩م.

ومن مشاهير الأباطرة الرومانيين: قسطنطين الكبير، ابن هيلانة، وكان أول من تنصر من الأباطرة وأعلن النصرانية دين الدولة الرسمي، وهو الذي بنى القسطنطينية سنة ٣٣٠م، ثم ثيودوسيوس الكبير (٣٧٥ ـ ٣٩٥م) الذي قسمت المملكة بعد موته إلى قسمين: شرقي، وعاصمته القسطنطينية، يحكمه ابنه اركاديوس؛ وغربي، وعاصمته رومة، ويحكمه ابنه الثاني هنوريوس،

---

(١) صيدا عبر حقب التاريخ، ص ٨٦، ٨٧.

(٢) تاريخ سوريا لامنس، ص ١٢.

(٣) من أقوال هذا القيصر الحكيم رداً على الكهنة الذين يجمعون المال باسم الآلهة قوله: إن الآلهة تسر بممارسة الفضائل ولا تحتاج إلى الذهب. تاريخ سوريا، الدبس، ج ٢ م ٤ ص ١٨.

وكان اركاديوس بكر أبيه، تسلم الحكم وعمره ١٨ سنة، ومات وعمره ٣١ سنة[١].

ومن كبار الأباطرة يوستنيانوس صاحب التشريع الشهير باسمه والذي حكم من سنة ٥٢٧ ـ ٥٦٥م، وفيما يلي بعضاً من أشهر الحواضر والمدن في بلادنا إبان العهد الروماني:

□ **بعلبك**: هيليوبوليس ـ أو مدينة الشمس ـ وكانت عبارة عن مركز ديني كبير لعبادة الشمس، فيها من جليل الآثار ما يدهش النظر، كانت هياكلها الضخمة مخصصة في الأصل للإله الآرامي هدد[٢]، وفي الفترة الهيلينية تقمص هذا الإله اسماً جديداً هو المشتري، أو جوبيتر البعلبكي.

□ **بيروت**: نالت هذه الحاضرة الجميلة اهتمام القياصرة الرومانيين ومنحوها لقب (مستعمرة رومانية)، وأقاموا فيها المسارح والهياكل والمعابد والمعاهد والحمامات، واشتهرت بيروت بمعهد الحقوق فيها لذا كانت مقصداً لطلاب العلم من جميع أطراف المملكة. ويقال أن موقع معهد الحقوق الشهير هو في مثلث الليعازرية، شارع رياض الصلح، باب ادريس.

□ **أنطاكية**: كانت أنطاكية عاصمة الدولة السلوقية وأهم مركز تراثي للهيلينية، واستمرت أهمية المدينة فيما بعد بحيث أصبحت مركز البطريركية.

□ **حمص**: كانت حمص مركزاً لعبادة الشمس قبل بعلبك، وكان فيها الحجر الأسود ومسقط رأس معظم القياصرة الذين هم من أصل سوري.

الزلازل في سوريا[٣]:

حدث في العهد الروماني أن ضربت الزلازل البلاد السورية واللبنانية وألحقت بها أضراراً فادحة، وأشهر هذه الزلازل ما وقع في السنوات التالية:

(١) تاريخ سوريا، الدبس، ج ٢ م ٤ ص ٢٧٥.
(٢) لبنان في التاريخ، فيليب حتي.
(٣) المشرق، ج ١ ص

١٣١م ـ و ٢٦٠م ـ و٣٣٣م ـ و ٣٤٠م ـ ٣٨٧م ـ ٤٥٨م ـ ٤٩٤م ـ ٥٢٩م ـ ٥٤٣م. حدث هذا الزلزال في عهد الامبراطور يوستنيان وقد اهتزت الأرض وتغير شكل الساحل اللبناني، ثم زلزال سنة ٥٥١ و ٥٥٥م، وقد هدم هذا الزلزال بيروت وقوّض أبنيتها وأتى على ثلاثين ألفاً من سكانها «وتهدم معهد الحقوق الروماني الذي كان يعد من ألمع مظاهر المدنية في العصر البيزنطي، من أساتذته: أورليان الصوري وبابيان الحمصي»، ولا تزال آثار التخريب الذي أحدثه هذا الزلزال في بيروت بادية للعيان.

يغص وادي التيم بجليل الآثار الرومانية: هياكل ـ قصور ـ أبنية ـ معاصر ـ طرق. من هذه الآثار ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ما هو موجود في الأماكن التالية:

هيكل دير العشاير الجميل والتي لا تزال أقسامه الدنيا بكامل روعتها، آثار (منسيا) ـ مغنسيا ـ القريبة من ينطا، الهيكل الروماني التي لا تزال بعض أقسامه قائمة تماماً في قرية بكا المجاورة لينطا، وكذلك الهيكلين الموجودين في الكنيسة. أما في قرية كفرقوق فهناك آثار هيكل كبير يقال أنه من بقايا الآثار اليونانية، وهو من الكبر والسعة بحيث يشغل معظم أقسام الهضبة التي تقوم عليها القرية، وهيكل كبير آخر يقع في عيحا فوق مرتفع يشرف على السهل، وآخر في قرية عين حرشة وهو في غاية الروعة والجمال، وآخر في قرية عين قنية وغيرها.

ويقول الدكتور روبنصون أن ما لحق بهذا الهياكل من تهديم، كان بأمر من الامبراطور قسطنطين الذي أعلن الحرب على الوثنية ونقض معابدها ابتداء من هيكل الزهرة في أفقا، وذلك في فترة توليه الحكم في حدود العقد الثالث من القرن الرابع الميلادي، ويفهم من هذا القول: أن تهديم هذه الهياكل والمعابد جرى في ذلك الوقت.

وفي العهد الروماني جاءت هجرات عربية إلى داخلية البلاد اللبنانية والسورية، فجاء من تنوخ إلى جوار البحر الميت في فلسطين، ثم من قضاعة وتغلب وبهراء، من هذه الهجرات واحدة نزلت في وادي التيم

هيكل دير العشاير

واستوطنته، وكانت النواة الأولى لتجمع عربي كبير جاء بعدها مع الفتح الإسلامي العربي، سنأتي على ذكرها بعد قليل.

وبعد معركة اليرموك الشهيرة (٢٠ آب سنة ٦٣٦م) التي انتصر فيها الجيش الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد على الجيش البيزنطي تقلص ظل الروم نهائياً عن بلادنا. وعلى رابية في شمالي سوريا وقف هرقل وقفته الشهيرة فوق هضبة مودعاً سوريا بقوله: «وداعاً يا سوريا، وداعاً لا لقاء بعده».

تولى على سوريا من الرومان ٧٣ ثلاثة وسبعون ملكاً مدة ولايتهم فيها من بدء ملك أوغوسطس قيصر الذي تولى في العام ٢٩ قبل الميلاد إلى زوال حكم هرقل سنة ٦٣٨م ستماية وسبع وستون سنة. ومنذ فتح بمبيوس البلاد سنة ٦٤ قبل الميلاد إلى تمليك أوغوسطس قيصر (٣٥ سنة)، فتكون مدة استحواذهم على بلادنا سبعماية وسنتين[1].

سيل العرم.. أو انفجار سدّ مأرب:

انفجر السد فغمر بعض أقسام البلاد اليمنية بالمياه، وغمر البلاد العربية بما فيها وادي التيم بفيض من البشر.

وقد أقيم هذا السدّ العظيم في مأرب من البلاد اليمنية كأهم مشروع في التاريخ القديم يرمي لإسعاد البشر. لأن بناء الأهرام العظيمة كان لغرض تخليد الملوك فقط.

كانت العملية تقوم على احتجاز مياه سبعين وادياً خلف سدّ عظيم من الحجارة الضخمة والرصاص. قيل إن طوله كان فرسخاً بفرسخ، فكانت تبدو المياه خلفه وكأنها بحر عظيم، وكان لهذا السد ثلاثون مثعباً أي «ثقباً» لتصريف المياه تفتح بطريقة هندسية حسب الحاجة لذلك، وعلى مستويات مختلفة للري والتصريف.

(١) تاريخ سوريا، الدبس، ج ٢ م ٤ ص ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٣.

كان هذا السد مصدراً للكثير من الخرافات والأساطير التي انتشرت بين العرب، حول بنائه، وقد نسبت العرب ذلك إلى سبأ بن يشجب[1] الذي قيل أنه مات قبل أن يكمله فأنجزته بعده ملوك حمير، وقال المسعودي أن بانيه هو لقمان بن عاد. وقيل الكثير حول ما كان يوفّره هذا السد للناس من رغد وسعة عيش، منها أن الفقير كان يحمل على رأسه وعاء كبيراً فارغاً ويسير على الطريق العام بين الجنائن التي تستقي من السد، فيمتلىء الوعاء بما يتساقط عليه من أثمار وفاكهة والأسطورة التي رافقته في فترتي بنائه وازدهاره لم تتخل عنه في فترة تصدعه وتدفق مخزونه من المياه التي اندفعت تجرف القرى والدساكر في طريقها الشيء الذي تسبب عنه نزوح هذا العدد الهائل من البشر إلى البلاد العربية الأخرى.

فالصحيح الثابت أن باني هذا السد هو أحد ملوك اليمن القدامى والعظام وما أكثرهم في تاريخ تلك البلاد وبعد قيام السد عمّ الرخاء وتحولت البلاد اليمنية إلى جنة الله في أرضه.

والثابت أيضاً أن هذا السدّ قد تصدّع عدة مرات ورمم قبل أن يتفجر نهائياً، وللعرب أقوال كثيرة في ذلك فمنهم من جعل سيل العرم في أواخر القرن الثاني الميلادي، وأن خرابه حصل أيام الملك حبشان الحميري[2]. ومنهم من جعله في حدود القرن الخامس الميلادي، وعلى أي حال كان خراب السد وسيل العرم من الأحداث الكبيرة والهامة جداً في التاريخ. ويقول الأب لويس شيخو أنه في العقد الأول من القرن العشرين (١٩١٠م) ذهب إلى اليمن العلامة ادوار جلازر ووجد فيها كتابة على الصخر تقول: إنها كتبت بأمر من أبرهة الملك الحبشي وتاريخ هذه الكتابة هي السنة ٦٥٧ و٦٥٨ حميرية الموافقة لسنة ٥٤٢ و٥٤٣ للميلاد مع لفت النظر إلى أن السنة الأولى الحميرية تبتدأ في العام ١١٥ قبل الميلاد[3].

(١) دائرة المعارف، للبستاني، طبعة بيروت، ١٨٨٧، ج ٩، ص ٥٣١.

(٢) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، شيخو اليسوعي، ص ٦٢ ــ ٦٣.

(٣) نفس المصدر.

تقول الكتابة: «بقوة ونعمة ورحمة الرحمن ومسيحه وروحه القدوس قد أمر برسم هذه الكتابة أبرهة الحاكم باسم الملك الجيزي[1] رمحيس ذوبي يمن ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانات والعرب الذين في الجبال والسهول... ونحن على ذلك قد بلغنا خبر تهدم السد والخزان والحوض والمصرف في شهر ذي المدرح سنة ٦٥٧...[2]. فأرسلت إلى القبائل لتنفذ (ربما لتنقذ) الحجارة والأخشاب والرصاص لترميم السد في مأرب ثم توجهت إلى مأرب وبعد أن صلّيت في كنيستها عمدت إلى ترميم السد فعزلوا الأنقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه... فرمموه ووسعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعاً وارتفاعه ٣٥ ذراعاً» ثم يعطي الكاتب إيضاحاً حول ما أنفق على هذا العمل من الحجارة والأطعمة للعمال وختم الكتابة بقوله:

«انتهوا من العمل في شهر ذي معان سنة ٦٥٨ حميرية» والجدير بالذكر أن كتابات أخرى وجدت أيضاً في اليمن ــ تلك البلاد التي لم يكتب تاريخها بعد.. تقول أنه سنة ٦٤٠ حميرية الموافقة للسنة ٥٢٥ ميلادية وفي شهر ذي الحجة دخلت الأحباش اليمن وانتصرت على الملك ذو نؤاس الحميري الذي تهود وتسمى يوسف واضطهد نصارى اليمن وقد استمرت الأحباش في اليمن حتى طردهم منها الملك العربي اليمني ــ سيف بن ذي يزن. ومن جملة ما وجده العلامة أدوار كلازر من كتابات في تلك البلاد ما ينسب منها إلى (حصن الغراب) أو (قلعة الغراب) وكتابة أخرى لرجل يدعى (لسميع أشوع) ويقول الأب لويس شيخو أن هذا الاسم صحفّه اليونان إلى (باميسيفاوس) دونها هذا الرجل في شهر ذي الحجة سنة ٦٤٠ حميرية ٥٢٥ مسيحية ميلادية تذكاراً لدخول الحبشة في بلاد حمير بعد انتصارهم على ملكها ذو نؤاس، أما القلّيس المشهورة في العرب تلك الكاتدرائية الكبرى التي بناها الملوك النصارى في البلاد

(١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، ص ٦٢ ــ ٦٥. يقول الأب لويس شيخو أن كلمة الجيزي تعني (الحبشي).

(٢) يوافق هذا العام ٥٤٢ للميلاد.

اليمنية وذات الشهرة التاريخية العريضة، فهي الأساس على حد قول الأب لويس شيخو للكلمة اكليس التي تعني الكنيسة في اللغة اللاتينية.

ومن عودة إلى موضوع السد وتفجره نذكر بعض ما قيل حول هذا الموضوع الذي شغل العرب زمناً طويلاً وهو قول لظريفة الكاهنة التي كانت زوجة أحد المسؤولين الكبار في الدولة اليمينية يومذاك ويدعى (عمرو) وتقول الأسطورة أن السد تفجر في زمن هذا الرجل وكانت زوجته ظريفة الكاهنة عاقراً ولكنها كانت ذات عقل وحكمة. مرت ذات يوم بجانب السد فرأت جرذاً أحمراً كبيراً يحفر التراب عن كعب السد فقالت لزوجها: إذا ظهر الجرذ الحفار فاختر لنفسك داراً غير هذه الدار وجاراً غير هذا الجار، يا أهل اليمن: لقد أزف بكم الغرق...[1] ويقول المسعودي في مروج الذهب أنها أفاقت مرة على حلم مزعج فهبت من رقادها وقالت ما رأيت اليوم قد ذهب عني النوم رأيت غيماً أبرق وأرعد طويلاً ثم اصعق فما وقع على شيء إلا احترق فما بعد هذا إلا الغرق، فاقتنع زوجها من أقوالها وباع أملاكه بأرخص الأثمان وارتحل بجماعته ونجا من الغرق.

أما أشهر القبائل العربية التي نزحت من اليمن بسبب سيل العرم كانت كندة ولخم وغسان وكهلان وطي ومذحج.

الإسلام.. ومتنصرة العرب:

كثيرون هم في أيامنا الحاضرة، وفي بلادنا بالذات لا يفرقون بين من هو عربي ومن هو مسلم فيربطون بين العرب والإسلام وكأنهما اسمان لمسمّى واحد، فيحسن بنا ونحن نتكلم عن ــ الإسلام ومتنصرة العرب ــ أن نشير إلى الفارق الكبير بين ما يعتقده هؤلاء وبين الحقيقة في ذلك، فالإسلام دين. والعرب شعب أو قومية سمها ما شئت.. فمثلما هناك مسلمون في أفريقيا

(1) دائرة المعارف، البستاني، طبعة بيروت؛ ومروج الذهب للمسعودي، سنة ١٨٨٧، ج ٩، ص ٥٣١.

السوداء والبلاد العربية وتركيا والهند وأندونيسيا وغيرها. كذلك من أبناء الشعب العربي من هو مسيحي أو مسلم أو يهودي أو صابئي، أما تاريخ أي شعب فهو ملك لجميع أبنائه.

بقي أن نتذكر بأن الدين هو علاقة الإنسان بربه ــ بمن فوقه ــ أما الوطنية والمواطنية فهي علاقة هذا الإنسان بوطنه ومواطنيه بمن حوله، فإذا حسنت علاقة الإنسان بمن حوله وسارت في حدود القانون والنظام المستوحيين أصلاً من التعاليم السماوية. سار كل شيء على ما يرام في هذه الدنيا. وعمت السعادة بني البشر.

اليابان بعرفنا بلد وثني ولكن المجتمع الياباني يعد في طليعة المجتمعات البشرية حضارة ورقياً. وما ذلك إلا لأن القانون يحكمه. والنظام والاحترام لكل ما هو سلطة وتقليد يسودان فيه بشكل جعل وثنية هذا الشعب أمراً غير ذي بال. وفيما نراه أن المسلكية الخيّرة والمواطنية الصالحة. تكفل للإنسان أجر الدنيا والآخرة. ولا أخالفك القول إن موضوعنا تاريخي وإن هذه الاجتماعيات في غير محلها. ولكن الذين تحترق أوطانهم معذورون...

يقول البلاذري إن متنصرة العرب الثلاث هي: تغلب وتنوخ وبهراء. ولم ندر لماذا أهمل غسان. وقال عنهم إنهم عرب مستعربة. كانت إبان الفتح تقيم جماعات من تنوخ في شمالي سوريا (قنسرين وضواحيها) هناك وجدهم أبا عبيدة ابن الجراح ودعاهم إلى الإسلام. فأجاب بعضهم واستمر البعض الآخر على النصرانية من هؤلاء بنو سليح، وكان جبلة ابن الأيهم الغساني قد حارب إلى جانب الروم مع العرب الموالين لهم. وعند انتهاء الحرب بين المسلمين العرب والروم البيزنطيين، حاولت جماعات عربية من تنوخ وأياد اللحاق بهرقل الروم عند انسحابه من البلاد السورية. فحارب خالد ابن الوليد هذه الجماعات في معركة (درب بغراس) وقتل منهم خلقاً كثيراً. كما أن كثيرين من المستعربة انضموا إلى جيوش الفتح «وحاربوا بإخلاص لم تشبه شائبة» من هؤلاء عرب غزة الذين ساعدوا بفتح مصر. أما تغلب القوية التي قيل فيها

«لو تأخر الإسلام لأكلت تغلب العرب» فقد أبى عليها شعورها وعزتها اعتناق الدين الجديد وبقيت على نصرانيتها. وامتنعت عن دفع الجزية المفروضة على أهل الكتاب وقالت لعمر ابن الخطاب: نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم. ولكن خذوا منا كما يأخذ بعضكم من بعض تصوّر كم في هذا القول من قوة وما خلفه من مجد.. نحن عرب لا نؤدي ما يؤدي العجم..» وكأنها تقول للخليفة العربي المسلم «إن التاريخ العربي ملك لجميع أبنائه نصارى كانوا أم مسلمين».

وأخيراً ارتضت تغلب أن تدفع ضعف ما يدفعه المسلمون العرب وأسمت ذلك المال صدقة منها لا جزية عليها. ثم عادت تغلب في النهاية وانضمت لجيوش الفتح. ما يعنينا من هؤلاء غسان وتنوخ ذات التاريخ الأكثر ارتباطاً بتاريخ وادي التيم.

غســـان:

غسّان قبيلة عربية يمنية ترجع نسبها إلى عبدشمس الملقب بسبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[1].

كان لعبدشمس عشرة أولاد ستة منهم سكنوا اليمن هم: حمير ـ الأزد ـ مذحج ـ أنمار ـ كندة والأشعريون.

والأربعة الباقون سكنوا الشام وهم: لخم ـ جذام ـ غسان ـ وعاملة.

نزحت غسان من اليمن إلى البلاد السورية على أثر انهيار سد مأرب الشهير فمن قائل إن مجيء غسان إلى البلاد السورية حدث في أواخر القرن الرابع الميلادي[2] وثمة خط عثر عليه في حوران في قرية تدعى دير اللبن رقمه ٢٣٩٣ وادنكتون[3] يقول إن بني أزد تركوا اليمن وانتجعوا سوريا نحو سنة ٢٠٥م ثم عاد بعضهم إلى الحجاز سنة ٣٠٠م وبقي الآخرون في سوريا

(١) الدواني، ص ٦٢ ـ ٦٣.
(٢) المشرق، ج ١، ص ٤٨٥.
(٣) تاريخ سوريا للدبس، ج ٢، م ٤، ص ٣٢ ـ ٣٣.

ويقول الدبس أن فصيلة غسان ضعنت من اليمن إلى سوريا في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الميلادي والمتفق عليه بين جميع المؤرخين الذين كتبوا في هذا الشأن أنه عندما نزلت غسان في بلاد حوران، وجدت أن قبيلة عربية كانت قد سبقتها إلى سكن تلك البلاد وهذه القبيلة هي الضجاعمة من سليح[1] القضاعية نزلت حوران في القرن الأول للميلاد، ويقول ابن خلكان أن القيصر تيطوس هو أول من عينّ أميراً من سليح كعامل للقيصر الروماني في البلاد الشامية، ويقول ابن الكلبيّ إن سليح تعود بنسبها إلى قضاعة القبيلة العربية الشهيرة[2].

وسبب مجيء سليح إلى البلاد السورية في ذلك الوقت، مرده تلك الحروب القاسية التي نشبت بين قضاعة وسابور ابن أزدشير ملك الفرس، وتسببت بنزوح الجماعات القضاعية باتجاه سوريا، كما سبق وذكرنا (ضرب الضجاعمة الخراج على غسان فمانعتهم، ونشبت الحرب بين القبيلتين انتصر الضجاعمة، فرضخت غسان وأدّت الخراج ولكنها ظلت تنتظر الفرصة المؤاتية لتتخلص من نير الضجاعمة إلى أن كان يوم قاتلتهم به وانتصرت عليهم، ثم أخرجتهم من البلاد وتفردت بالحكم».

«خاف الروم من القادمين الجدد واعتقدوهم نصراء لأعدائهم الفرس ولكن سرعان ما تبدد هذا الشك، وجرت مكاتبة بين قيصر الروم وبين ثعلبة ابن عمرو كبير غسان، ثم جرى اتفاق من شروطه أنه إذا تعرضت غسان لخطر أمدّها الروم بأربعين ألف مقاتل، وإذا تعرض حلفاؤها الروم لخطر أمدتهم غسان بعشرين ألفاً».

كانت غسان قبيلة كثيرة البطون والأفخاذ. كان منها في المدينة (يثرب) جماعات عربية كثيرة تفاخر بانتمائها إلى الغساسنة، وعن (ابن الأثير) أنه عندما

(١) سليح من قضاعة (البكري ١٧ و ١٨.
(٢) أمراء غسان، ص ٧.

قامت الحرب في المدينة بين الأوس والخزرج من جهة. وبين اليهود من جهة ثانية. انتصر أبو جبيلة الغساني للأوس والخزرج استجابة لداعي القرابة التي تربطه بهم[1].

أما عن اتساع رقعة ملكهم على الأرض السورية يقول صاحب الدواني: «امتدت مملكة غسان في البلاد السورية من شاطىء الفرات شمالاً. حتى البحر الأحمر جنوباً متضمنة وادي اليرموك ووادي الأردن وتدمر» «وكان الجولان بمثابة نقطة الوسط في ملك بني غسان فتوطنوه وجعلوا من الجابية كبرى حواضره عاصمة لهم» ومما يجدر ذكره أن أحد أبواب مدينة دمشق الخارجية الجنوبية، كان يدعى باب الجابية مكانه في المحلة المعروفة لليوم بهذا الاسم في المدينة.

كثيرون من مؤرخي الغساسنة اعتمدوا على أقوال شعرائهم بتحديد ملكهم، فالذين قالوا بأن مملكة غسان كانت تمتد من جبل الشيخ إلى خليج العقبة[2] اعتمدوا بذلك قول الشاعر حسان بن ثابت عند مدحه أميرين من غسان قوله:

ملكاً من جبل الثلج إلى
جانبي أيلة من عبد وحر

ودعي أمراء غسان بعدة أسماء منها (ملوك آل جفنة) نسبة إلى أحد الأوائل الأقوياء في تاريخهم وهو جفنة ابن عمرو أول من جاء بهم إلى البلاد السورية، ثم (ملوك البلقاء) وذلك لإقامتهم الطويلة في مدينة البلقاء في شرقي الأردن والتي لا تزال عامرة حتى يومنا هذا، أما أشهر (ملوكهم) فهو الحارث بن جبلة الذي أخمد ثورة السامريين في فلسطين سنة ٥٢٩م ومُنِحَ على أثرها لقب ملك من الامبراطور الروماني يوستنيان، وشارك الحارث الغساني في معركة كبرى دارت رحاها بين الفرس والروم ليلة عيدالفصح في ١٩ نيسان سنة

(١) أمراء غسان، ص ٤ ـ ٧.
(٢) ذات المصدر، ص ٤٤.

٥٣١م وكان الروم بقيادة القائد بليزاريوس، ولكن الروم خسرت في هذه المعركة وانتصر الفرس[1].

والحارث هذا هو الملك الذي جرى ما جرى بينه وبين السموأل بن عاديا اليهودي العربي وأحد أشراف تيماء بسبب دروع امرؤ القيس وذخائره وذلك سنة ٥٥٠م.

كانت أم الحارث تدعى مارية ولقبت بذات القرطين[2] والقرط هو ما يعلق في الأذن للزينة، وكان يضرب المثل بكبر قرطيها.

كان الحارث بن جبلة ملكاً وقوراً شديد الهيبة يقول يوحنا الأفسسي (٣:٢) أنه عندما أصيب الامبراطور الروماني يوستينيوس بالخرف. كان أهل بلاطه يخيفونه بالحارث العربي كلما بدا منه عصيان أو عربدة وينتهرونه بقولهم: تعقّل وإلا استدعينا الحارث بن جبلة فيكّن ويهدأ[3]. دام حكم الحارث أربعين سنة وتوفي في أول العام ٥٧٠م ومن قصيدة لحسان بن ثابت قيلت بعد موت الحارث قوله[4]:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريم المفضل

لغسان حضارة عريقة ازدهرت في سوريا قبل الإسلام وأغنت التاريخ العربي بمعطيات حضارية قيّمة شأنها بذلك شأن أخواتها اليمنيات التي نشأت في تلك البلاد السعيدة. وأشير إلى ذلك بكتابات وخطوط سبئية تعود بأصولها إلى الحميرية اليمنية[5].

وفي البلاد السورية اشتهرت غسان بنصرانيتها. كانت من القائلين بالطبيعة

(١) أمراء غسان، ص ١٧ و١٨.
(٢) تاريخ سوريا، الدبس، ج ٢، م ٤، ص ٣٤.
(٣) أمراء غسان، ص ٢١.
(٤) نفس المصدر، ص ٢٤.
(٥) الدواني، ص ٦٤ ـ ٦٧.

الواحدة في السيد المسيح (مينوفيزيتيين) وهذا كان أحد أهم أسباب خلاف الغساسنة مع البيزنطيين الذين حاربوا هذا القول واضطهدوا القائلين به. كان الغساسنة عمالاً لقياصرة الروم على عرب سوريا. كما كان اللخميون عمالاً للأكاسرة على عرب العراق.

وكان العداء بين الجماعتين العربيتين يشتد ويتأزم بتأزم العلاقات الفارسية ـ الرومانية وكثيراً ما شارك هؤلاء في الحروب المستعرة بين الدولتين الكبيرتين، كلّ إلى جانب صاحبه. أما السبب الظاهري للخلاف الغساني ـ اللخمي يعود إلى إدعاء المنذر اللخمي أن القبائل العربية النازلة في الصحراء جنوبي تدمر هي قبائل خاضعة لسلطانه وتدفع الجزية له.

فلم يعترف الحارث الغساني بذلك ونشبت الحرب بين لخم وغسان وتأجج أوارها، كان ذلك في حدود العام ٥٣٠م. وفي سنة ٥٤٤م استؤنف النزاع مجدداً بين الدولتين العربيتين ووقع أحد أبناء الحارث الغساني أسيراً بيد المنذر اللخمي وكان المنذر وثنياً، فقدم ابن الحارث الأسير بين يديه ضحية لأفروديت (العزى) كان الاقتتال الغساني اللخمي مضراً بكليهما معاً وبالعرب عامة، واستمرت الحرب بينهما طويلاً ولم تتوقف حتى في الهدنة التي أوقفت الحرب بين الفرس والرومان في سنة ٥٤٦م، ومن أشهر المعارك التي جرت بين الغساسنة واللخميين هي تلك المعركة التي عرفت عند العرب بيوم حليمة.

يوم حليمة:

يوم حليمة من الأيام المشهورة في العرب وقد جرت هذه الواقعة في شهر حزيران من سنة ٥٥٤م وكان على رأس غسان الحارث بن جبلة وعلى رأس لخم المنذر ابن ماء السماء (ابن الأثير) قتل للحارث في هذه المعركة ولد وقيل ولدان ولكنه أي الحارث تمكن من قتل المنذر(١) وقد استقى ابن العبري أخبار هذه

(١) أمراء غسان، ص ١٩ ـ ٢٠، الكامل في التاريخ، ابن الأثير.

المعركة من يوحنا الأفسسي وعرفت هذه المعركة أيضاً بيوم الحيارين، وحليمة ليست امرأة كما اعتقد بعض العرب، ولكنها اسم محلة موقعها قرب قنسرين القريبة من حلب وتذكر على الشكل التالي «مرج حليمة ووادي حليمة» ويذكر النابغة الذبياني هذا اليوم أنه من مفاخر غسان، أما الحارث بن حلّزة اليشكري مندوب بكر في المناظرة الشعرية التي جرت بينه وبين خصمه عمرو ابن كلثوم شاعر تغلب ومندوبها أمام الملك اللخمي عمرو ابن هند(١).

أشار الحارث في معلقته إلى أن أحد بطون بكر بن وائل (يشكر) انتقموا للمنذر القتيل بدم (رب غسان) يفهم من هذا القول إن اليشكريين قتلوا أميراً غسانياً كبيراً، ويشير نولدكه وهو الشهير باستقصاءاته التاريخية أن عمرو ابن هند هو ابن الملك اللخمي القتيل وخليفته فكانت إشارة الحارث الذكية إلى هذا الحادث، كفيلة بإخراج عمرو ابن هند عن حياده في هذه المساجلة الشهيرة لصالح البكريين، وهذا ما حدث.

يوم عين اباغ:

هو من أيام العرب المشهورة، وعين اباغ اسم لمحلة تبعد عن الحيرة ثلاث مراحل نشبت فيها معركة بين لخم وغسان كان على رأس غسان المنذر ابن الحارث بن جبلة، وعلى رأس لخم الملك قابوس(٢)، جرت هذه المعركة يوم عيد الصعود بتاريخ العشرين من أيار سنة ٥٧٠م، انتصرت غسان في هذه الحرب. واعتبر تعرض المنذر لملوك الحيرة في عقر دارهم من الانتصارات الكبيرة أيضاً، لم يعر كتبة السريان واليونان اهتماماً كبيراً للمعارك التي دارت رحاها بين الغساسنة واللخميين، بعكس كتبة العرب الذين أولوها اهتمامهم، ويقول نولدكه حول هذا الموضوع بما معناه أن وصف تلك الأحداث كان مبالغاً فيه «ولكن ما قاله الشعراء العرب حول هذا الموضوع. كان جميلاً جداً» فهذه

(١) حكم عمرو ابن هند من سنة ٥٥٤م إلى سنة ٥٦٨م. وامراء غسان.
(٢) أمراء غسان، ص ٢٥.

(الأيام) وسواها من الحروب والوقائع كانت عند العرب موضع فخر واعتزاز للمنتصرين. مثلما كانت تنديداً بالخاسرين، تولى الملك من غسان ٣٢ ملكاً أولهم ثعلبة ابن عمرو. وآخرهم جبلة ابن الأيهم الذي انتهى ملكه بظهور الإسلام، وجبلة هذا حارب مع الروم ضد المسلمين العرب على رأس جماعات من العرب الموالين للروم في ذلك الوقت وحضر معركة اليرموك (٢٠ آب سنة ٦٣٦م) وكان في المقدمة الرومية، وبعد انتصار المسلمين أسلم جبلة ثم ارتد ونقل إلينا المؤرخون قصته على النحو التالي[١]:

«أسلم جبلة وذهب إلى المدينة (يثرب) في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فأحسن عمر نزله وأكرم وفادته، إلى أن كان يوم التطواف في البيت، فوطىء رجل من فزارة طرف أزاره فانحل الأزار عن جبلة فغضب ولطم الفزاري لطمة هشمت أنفه، فشكاه الفزاري إلى عمر فحكم عمر بأن يلطم الفزاري جبلة مثلما لطمه المثل بالمثل، وقال عمر لجبلة دعه يلطمك كما لطمته، فقال جبلة إيقاد في دينكم للسوقة من الملوك؟ فقال عمر: أجل: وهما في الحق سواء، وإن أبيت ضربت عنقك. فقال جبلة إذن أرجع عن دينكم، وصبر إلى الليل حتى اجتمع بغلمانه وخرج بهم إلى سوريا ومنها إلى بلاد الروم وبقي هناك حتى توفي في سنة عشرين للهجرة».

ومن الكتابات القديمة التي عثر عليها في حوران ويذكر فيها اسم الحارث منها[٢]: «الأمجد ومحب المسيح الحارث البطريق» «الأمجد وحسن العبادة» «البطريق الأعظم الأفخم» «الحارث البطريق ورئيس القبيلة» الخ. وقد دعته العرب ــ الحارث ابن أبي شمر.

كان لقب ملك يطلق على القيصر وحده عند الرومان، أما لقب بطريق فكان سامياً جداً وكانت طبقة البطارقة من أعلى الطبقات في المجتمع البيزنطي.

(١) تاريخ سوريا، الدبس، ج ٢، م ٤، صفحة ٢٧٥، ملخص عن أبي الفداء وابن خلدون.
(٢) أمراء غسان، ص ٩ ــ ١٣ ــ ١٥.

كانت أرقى من لقب قنصل[١]. أما مؤرخو السريان فقد ذكروا الأمراء الغساسنة عمال الروم (بالملوك) ويبدو أن العرب رأوا بذلك تجسيداً لشعورهم بالعزة، لأن بنظرهم (ملك غسان) أسمى من (عامل القيصر) وبالرغم من اضطهاد البيزنطيين للقائلين بالطبيعة الواحدة فقد تمكن الحارث أن يسيم أسقفين من هذه البدعة كان أحدهما يعقوب البرادعي[٢].

وبعد وفاة الحارث بن جبلة تسلم الأمر ابنه المنذر ابن الحارث، ولم يكن المنذر أقل شهرة أو مقدرة من أبيه، حارب ملوك الحيرة أعداءهم التقليديين وانتصر عليهم في عين اباغ كما مر معنا، ومن قائل أن المنذر قام بهذه المعركة في حياة والده.

ساءت العلاقات بين المنذر ابن الحارث والبيزنطيين بسبب معتقده الديني (المينوفيزيتي) ودفاعه عن المضطهدين من أصحاب هذه العقيدة، وفي سنة ٥٨٠م قام قومس الشرق (موريقوس) بغزو الولايات الفارسية عبر الفرات رافقه فيها المنذر، ولما وصلا إلى ضفة النهر وجدا الجسر هناك مهدماً لا يصلح للعبور فرجعا وعزا موريقوس ذلك لخيانة من المنذر وشكاه إلى القيصر طيباريوس واحتكم الإثنان أمام القيصر، قام بعدها المنذر بهجوم على الحيرة عاصمة اللخميين دون مساعدة من البيزنطيين فوفق وأصاب وأحرق المدينة، ساعده على ذلك غياب الملك اللخمي عن عاصمته في ذلك الوقت، ودعت العرب سلالته بآل محرق لهذا السبب[٣] لم تكن العلاقات دائماً على ما يرام بين الغساسنة والبيزنطيين، وكانت هناك خلافات بينهم إن لأسباب دينية. والغساسنة مينوفيزيتيين، أو لأسباب زمنية ومادية. مرة رفض القيصر يوستينوس أن يمد المنذر بالمال وأوعز إلى البطريق مرقيانوس أن يحتال عليه ويقتله. وأحسّ المنذر بما يحاك له فشق عصا الطاعة وبقي ثائراً على البيزنطيين ثلاث سنوات، وفي هذه الأثناء

(١) المشرق، ج ١، ص ٤٨٦.
(٢) أمراء غسان، ص ١٤.
(٣) تاريخ سوريا الديني والدنيوي، ج ٢، م ٤، ص ٣٤.

أغار ملوك الحيرة على البلاد السورية وعاثوا فيها ما شاؤوا، فوجد الروم أنفسهم مضطرين لاسترضاء المنذر[1]، وبعد مفاوضات طويلة اتفق على التقاء المنذر بالبطريق يوستينيانوس مبعوث القيصر، بمكان اختاره المنذر أن يكون فيه بمأمن من غدر البيزنطيين. اختاره في محلة الرصافة عند قبر القديس سرجيوس بالنظر لما كان لهذا القديس من احترام عند السوريين والبيزنطيين على السواء، «وقد عثر على نقش في محلة تدعى (حياة) موقعها شرقي اللجاة، تثبت أن هذا اللقاء قد تم في صيف سنة ٥٧٨م». وبعد هذا اللقاء وجه القيصر دعوة للمنذر الغساني لزيارة القسطنطينية فقام إليها مع ولديه بتاريخ ٨ شباط سنة ٥٨٠م واستقبل فيها بحفاوة بالغة، «وقدم إليه القيصر طيباريوس التاج بدلاً من الأكليل وانتشر خبر هذا التكريم في كل أنحاء المملكة»[2]. ولم تلبث العلاقات أن ساءت بينهما مجدداً فأوعز القيصر إلى (ماغنوس) حاكم سوريا الروماني بإلقاء القبض على المنذر العربي، فوجه إليه ماغنوس دعوة لحضور حفلة تدشين كنيسة جديدة في بلدة تقع بين تدمر ودمشق تدعي (حوارين) وكان من المدعوين إلى هذه الحفلة بطريرك الاسكندرية. وهناك ألقي القبض على المنذر وأرسل مخفوراً إلى القسطنطينية واعتبر أسيراً له بعض الحرية.

توفي القيصر طيباريوس في ١٤ من شهر آب سنة ٥٨٢م وتسلّم بعده موريقيوس عدو المنذر اللدود فأبعده ثانية إلى جزيرة صقلية.

دام حكم المنذر ١٣ سنة، وقد قام أولاده بحركة عصيان وتمرد ضد الدولة بعد اعتقاله وكان لذلك أثر كبير على الأمن في البلاد، ومما يجدر ذكره أن ماغنوس الحاكم الروماني العام لسوريا دعيت تيمناً باسمه بعض القرى والأماكن في البلاد السورية منها بلدة (مغنسيا) القريبة من بلدة ينطا لجهة

(١) أمراء غسان، ص ٢٥ ــ ٢٦.
(٢) ذات المصدر، ص ٢٦ و٢٧.
ملاحظة: القديس سرجيوس هو القديس سركيس ذاته التي تشاد على اسمه عدة بيع في بلادنا خاصة في شمالي لبنان، لبنان في التاريخ، ص ١٧.

الشمال ــ الشرقي حيث لم تزل آثارها واضحة وتدعى حتى الآن (منسيا) وما هو مماثل لها قرب حمص (سهل مغنسيا)[1].

من الكتابات الأثرية التي ذكر فيها المنذر ابن الحارث هي: «المنذر البطريق الأمجد» «السيد البطريق» «المنذر البطريق الفائق المديح» «فلابيوس المنذر الفائق المديح» وذكر حسان بن ثابت في شعره عدة أماكن موقعها جنوبي الجولان كانت من أملاك الغساسنة. ولما كان الغساسنة على النصرانية فقد ابتنوا مجموعة من الأديرة التي تحمل أسماءً عربية منها في البلاد السورية: دير اللبن ــ دير أيوب ــ دير هند ــ دير العدس ــ دير حالي[2] ــ ودير أبي العشائر).

للغساسنة آثار كثيرة وهامة في البلاد السورية، منها قصر المشتى وقصر طوبة وقصر العمرة والكثير من صهاريج المياه والأديرة، ولم يكونوا بدواً كما اعتقد بعض المؤرخين، وتدل آثارهم على عراقتهم في الحضارة لأن البلاد اليمنية التي جاؤوا منها كانت على جانب كبير من الرقي والحضارة، وقد بنى ملكهم النعمان بن عمرو بن المنذر قصرين هامينّ هما: قصر السويداء وقصر حارب[3].

في سنتي ٦١٣ و٦١٤م غزا كسرى البلاد السورية وعاث في أنحائها وكان لتلك الغزوة المدمرة أثر سيء جداً على البلاد بصورة عامة وعلى الغساسنة بصورة خاصة فضعف نفوذهم «واضطر بعضهم للاختفاء في داخلية الصحراء وهرب البعض الآخر إلى بلاد الروم وقد سطا الفرس وحلفاؤهم على ملك بني غسان فاستباحوا وأباحوا رعاية الإبل في المنازل» «حتى جبل حارث في الجولان»، وقد أشار حسان بن ثابت إلى تلك الأحداث القاسية بقوله[4]:

ديار ملوك قد أراهم بغبطة
زمان عمود الملك لم يتهدم

(١) تاريخ حمص، عيسى أسعد.
(٢) تاريخ سوريا الديني والدنيوي، ج ٢، م ٤، ص ٣٣ و٣٤.
((٣) تاريخ سوريا، ج ٢، م ٤، ص ٣٤.
((٤) نفس المصدر.

ولما انجلى الوضع وتحسنت الأحوال استعاد الغساسنة نفوذهم ومركزهم الأول واستمروا حتى مجيء المسلمين العرب أيام الفتح إلى البلاد السورية، وقد زال بعد الفتح ملكهم ولكن بقي لهم نفوذٌ كبيرٌ ووجودٌ قبليٌّ مؤثرٌ ودليلنا على ذلك تصدّيهم للشهابيين الأقوياء الذين جاؤوا إلى حوران في أيام الفتح بأمر من الخليفة أبو بكر الصديق، ولنا مع هذه الأحداث لقاء آخر.

نرى في دواني القطوف الذي رافق مسيرة تاريخهم مرجعاً غنياً يوضح ما آل إليه أمرهم في البلاد السورية واللبنانية وأن أسراً كثيرة من أسر وادي التيم الأرثوذكسية تعود بنسبها إلى هذه القبيلة العربية الشهيرة.

عهد غسّان: عهد العرب الزاهر في سوريا قبل الإسلام:

كان عهد غسان العهد العربي الزاهر في البلاد السورية قبل مجيء الإسلام، انتشرت به اللغة العربية وسار في أعقابها الشعر العربي «تصدح موسيقاه في بلاط الغساسنة على السنة مشاهير شعراء ذلك العصر» على حد قول صاحب الدواني من هؤلاء:

□ **حسان بن ثابت الأنصاري:** (٥٩٠ ـ ٦٦٠م)(١) والذي أصبح فيما بعد شاعر الرسول الكريم، «أغدق حسان على أمراء غسان من مديحه، فأغدقوا عليه من عطائهم» وقد سبق وذكرنا بعض أبيات من قصيدة لحسان وقصائده كثيرة فيهم، ومن أحد أبياته فيهم:

أما سألت فإنّا معشر نجب
فالأزد نسبتنا والماء غسان(٢)

(١) أمراء غسان، ص ٤٥.
(٢) ويقول صاحب الدواني بما معناه أن ماء غسان الوارد ذكرها أعلاه هي ذلك النبع الذي لا يزال كائناً في بلدة عرى في جبل الدروز، وعرى هذه هي بلدة إسماعيل الأطرش المتوفي سنة ١٨٦٩م.

□ **النابغة الذبياني:** ومن قصيدة يمدح النابغة فيها أحد أمراء غسان قوله:

أتاركت تدللها قطام
وضنا بالتحية والكلام
فدوخت العراق فكل قطر
يجلل خندق فيه وحام(١)

□ **علقمة الفحل:** وقد مدح علقمة الحارث (الوهّاب) من غسان بقصيدة مطلعها:

طحا بك قلب في الحسان طروب
بعيد الشباب عصر حان مشيب

ومن هؤلاء الشعراء: الأعشى ابن قيس والمتلمس الضبعي والأسود بن يعفر والمرقش الأكبر ـ عن الدواني.

لم يكن نتاج مشاهير شعراء العرب في ذلك الوقت وقفاً على بلاط غسان في سوريا. بل كان لبلاط المناذرة اللخميين في العراق نصيباً كبيراً من ذلك. ومن الشعراء من مدح في البلاطين، ونقتصر تجنباً للإطالة: ولكننا نورد قصيدة لشاعر لخمي هو الأمير أبا أذينة يحرض فيها ابن عمه الأسود ابن النعمان على قتل جماعة من كبار غسان كان قد أسرهم الأسود في معركة قتل فيها شقيق لأبي أذينة(٢).

ما كل يوم ينال المرء ما طلب
ولا يسوغه المقدار ما وهب
وأحزم الناس من أن فرصة عرضت
لم يجعل السبب الموصول منقضب

(١) أمراء غسان، ص ٤٠.
(٢) الكامل في التاريخ، ج ١، ص ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

وانصف الناس في كل المواطن من
سقي المعادين بالكأس الذي شرب
وليس يـظلمهم من راح يضـربهـم
بحـد سيف بـه من قبلهم ضـرب
والعفـو إلا عن الإعفـاء مكـرمـة
من قـال غير الـذي قد قلتـه كذب
قتلت عمـراً وتستبقي يـزيـد لقـد
رأيت رأيـاً يجر الـويل والحـرب
لا تقـطعن ذنب الأفعى وتـرسلهـا
إن كنت شهمـاً فاتبـع رأسها الـذنب
هم جردوا السيف فاجعلهم له جزراً
وأوقـدوا النار فـاجعلهم لهـا حـطب
إن تعفـو عنهم يقـول النـاس كلهم
لم يعف حلمـاً ولكن عفـوه رهب
هـم أهلّة غـسـان ومـجـدهـم
عـال. فإن جـادلوا ملكـاً فلا عجب
وعـرّضـوا بفـداء واصفيـن لـنـا
خيـلاً وإبـلاً تـروق العجم والعـرب
أيـحـلبـون دمـاً منـا ونـحلبـهـم
رسلاً لقد شرفونـا في الورى حلب
عـلام تـقبـل منـهـم فـديـة وهـم
لا فـضـة قبـلـوا منـا ولا ذهـب

□ □ □

الفصل الخامس

تنوخ

تنوخ، تسمية أطلقت في البدء على أول اتحاد معروف أمره قام بين مجموعة من القبائل العربية في بلاد البحرين قبل الإسلام في حدود سنوات الميلاد الأولى، على وجه التقريب، كان قد نزح قسم من هذه القبائل من تهامة بعد اقتتال وتناحر فيما بينها ألحق بها بالغ الضرر فارتحلت إلى البحرين.

ووردت عبارة: تنخ عليهم. في أقوال المؤرخين العرب، بمعنى: نزل بينهم، وأناخ جماله في مطارحهم، والكلمة تنوخ، كما هو واضح: اسم معدول عن فعل تعدّى بالألف والهمزة: أناخ ـ تنوخ، على غرارها كلمة تغلب، ويبدو أن مثل هذا الاشتقاق كان مألوفاً عند العرب في قديمهم.

كان كل من تنخ على الجماعة التنوخية، صار تنوخياً. وبفعل النتيجة الجيدة التي حققها هذا الاتحاد، أصبح للكلمة معنى سامياً بين العرب، فاختصت قبيلة النعمان بن المنذر ـ لخم ـ بهذا اللقب لشرفها وأمرتها بين القبائل، على حد قول معظم المؤرخين.

تؤلف تنوخ من التاريخ العربي قطاعاً تراثياً شاسعاً واسعاً، يواجه الباحث فيه ما يواجه مدلج في متاهة صعبة مليئة بالمعالم المتشابهة والظواهر المحيّرة، يستلزم السير فيها كثير من الخبرة والحذر ووضوح الرؤيا، فلو تتبعنا سيرها خلف أقلام المؤرخين وجهود الباحثين في تاريخها بدءاً من منشئها حتى مغيب شمسها السياسية لرأينا وكأن هناك:

— تنوخ بحرانية، عمادها الأزد والنازحون من تهامة من أولاد معد بن عدنان.
— تنوخ عراقية، عمادها لخم وما إليها من متنصرة العرب.
— تنوخ سورية، عمادها قضاعة بكل ما لها من بطون وفصائل.
— تنوخ لبنانية، عمادها الإرسلانيون وبني بحتر من أمراء الغرب.

وصحيح القول أن ما ذكرناه هو كيانات تنوخية اختلف فيها الزمان والمكان وتبدلت الوجوه والمهمات ولكن على خط تراثي واحد ارتقى بإحداها إلى مراتب الاقيال ومصاف الملوك، وتنوخ أشبه ما تكون بخلية نحل نشطة تعددت خلاياها بفعل نموها وأطرادها، وما دمنا معتمدين هذا التشبيه وجب القول أن دور الملكات في هذه الخلايا كانت تمثله لخم ـ القبيلة العربية العريقة ـ على الغالب. أما التنوخيون اللبنانيون فيختلفون عن غيرهم من التنوخيين في أنهم تنخيون مرتين: مرة لأنهم من لخم التنوخية، ومرة لأن اسم جدهم تنوخ وإليه نسبوا، ولا أقول انتسبوا.. لأن مؤرخهم الوحيد صالح بن يحيى لم يدع قومه مرة بالتنوخيين في كل ما كتب، بل كان يدعوهم على الدوام بني بحتر أمراء الغرب. ولا بد من الوقوف قليلاً عند كلمة الغرب ـ غرب بيروت ـ عبارة ترددت كثيراً في أقوال المؤرخين من قدامى ومحدثين، فهناك من اعتقدها وقالها: غربي بيروت، وليس غربي بيروت سوى البحر.. ولكن الكلمة تعني فيما تعنيه أن العرب المسلمون بعد الفتح قسموا سوريا أفقياً إلى خمسة أجناد وجعلوا كل جند منها ينتهي في غربه بقطاع بحري لتسهل المثاغرة والدفاع من جهة البحر(1)، فكان لجند حمص ما بين طرابلس وأنطاكية، ولجند الأردن ما بين صور وقيسارية، ولجند الشام ما بين صور وطرابلس. من هنا كانت الجبال اللبنانية تابعة لجند الشام، فقيل: غرب بيروت، وليس غربي بيروت.

ومن الصعوبات التي تعترض المدلج في تاريخ تنوخ هي أن القبائل التي

(1) عمر رضا كحالة، ج ١ ص ٧٣.

تنخت ثم ارتحلت مع التنوخ بقيت محافظة على شخصيتها القبلية واستقلاليتها حتى بالعمل، فضلاً عن ذلك بقي فصائل منها في موطنها وخارج التنوخ، فكان تاريخها لفصيلين: فصيل تنخ والتزم، والآخر بقي خارج الاتحاد. والصعوبة هنا بفهم التاريخ المشترك، مثلنا على ذلك في الأزد التي كانت قد تنخت بقيادة جذيمة الأبرش بن مالك الأزدي. بقي للأزد وجود مؤثر في البلاد اليمنية ارتحل منها إلى الشام جماعة كبيرة في السنة ٢٠٥ ميلادية ربما كان ذلك في سيل العرم، ومثل آخر هو قضاعة، هذا القطاع الضخم من البشر وقد عرفها بعض المؤرخين المهاجرين بما يلي: «قضاعة مؤلفة من قبائل شتى، بينها بهراء وتنوخ، وقد نزلوا ديار الشام الشمالية منذ عهد قديم منهم بنو عذرة وبنو كلب»(1).

ولما أعلن الملك الفارسي شابور الحرب على التجمع التنوخي القائم على أبواب مملكته حملت قضاعة أثقال هذه الحرب، حتى دعيت من المؤرخين العرب: حرب قضاعة وسابور ذي الأكتاف، ولم يقل حرب تنوخ وشابور مثلاً.. معنى القول أن ليس كل أزدي تنوخي، ولا كل قضاعي لخمي، أي رأس التنوخ، وصحيح القول أن المجتمع العربي تؤلفه مجموعة القبائل.. في جاهليته مثله في إسلامه. لأنه لما جاء الإسلام كان بالنسبة للقبائل العربية ـ تنوخ كبير ـ كان دور قريش فيه مساو لدور لخم في التنوخ حتى لأولئك الذين ناصبوا الرسول الكريم العداء من قريش أول الأمر، فكانت الأسر المالكة أموية وعباسية وعلوية وغيرها. وبالرغم من وحدة الناس في مجتمع ديني ساوى بينها بالحقوق والواجبات، إذ لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

ومن عودة للقول أن الحرب القضاعية الفارسية تسببت بنزوح قضاعي إلى شمالي سوريا أولاً، ثم إلى داخلية البلاد. يقول لويس شيخو عن ذلك: «ونزلت جماعات تنوخية في غزة وفيما حول البحر الميت في فلسطين، كما نزلت جماعات قضاعية في وادي التيم» من هذه الجماعات: جماعة تيم الله بن أسد بن وبرة بن قضاعة، منها أخذ وادي التيم اسمه كما نعتقد، وكما سنرى لاحقاً.

(1) المشرق، س ١.

التكوين التنوخي الأول:

يقول البستاني: «لما كثر أولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب ومزقتهم الحروب، خرجوا يطلبون الريف فيما يليهم من اليمن ومشارف الشام، وأفلت منهم قبائل حتى نزلوا بالبحرين وبها جماعة من الأزد، وكان الذين أقبلوا من تهامة: مالكاً وعمراً ابني فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة من قضاعة، ومالك بن زهير بن عمرو بن فهم في جماعة من قومهم، والحيقاد بن الحنق بن عمير بن قبيص بن معد بن عدنان في قبيص كلها، ولحق بهم غطفان بن عمرو من نزار بن معد بن عدنان وغيرهم من أياد، اجتمعت هذه القبائل من العرب في البحرين وتحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعاقدوا على التناصر والتساعد، فصاروا يداً واحدة وضمهم اسم تنوخ، وتنخ عليهم بطون من نمارة بن لخم، ودعا مالك بن زهير جذيمة الأبرش بن مالك الأزدي إلى التنوخ معه وزوجه أخته لميس، فتنخ جذيمة»(1).

يقول المسعودي في مروج الذهب(2): إن جذيمة الذي تسلم الحكم فيما بعد، كان أول ملك من قضاعة بين التنوخيين في العراق، وابن العبري في تاريخ مختصر الدول يدعوه جذيمة الأزدي.

كان هذا محضر ولادة تنوخ، فماذا بعد ذلك؟

أعطى هذا الاتحاد للقبائل المنضوية تحت لوائه قوة بعد وهن، فعز أمرها وعظم شأنها ورنت ببصرها إلى ما هو أبعد من سهوب البحرين وكثبانها العطشى ـ إلى القوس الشمالي للهلال الخصيب ـ وبالتحديد نحو الريف العراقي الوافر الكلأ، الدائم الري والانتعاش «وطمعوا في أن يغلبوا الأعاجم عليه أو يشاركوهم فيه»(3).

---

(1) دائرة المعارف، للبستاني، طبعة بيروت، سنة ١٨٧٦م، ج ٦، ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(2) مروج الذهب، منشورات الجامعة اللبنانية ـ ١١، ج ١، ص ٣٢٠؛ وكذلك في الجزء الثاني، ص ٢١٤.

(3) دائرة المعارف، حرف ث، صفحة ٢٤٣.

نهدت تنوخ شمالاً باتجاه العراق، ولا نعلم كم كان عدد مقاتليها يومذاك، ولكن نرى أن ما انتدبت نفسها له كان هدفاً صعباً تحقيقه. كان سكان العراق في تلك الأيام من الأرمانيين والأردوانيين وكان هؤلاء يقتتلون فيما بينهم، فتمكنت تنوخ منهم وتوغلت في داخل البلاد واستمرت تتقدم حتى نزلت بين الحيرة والأنبار غربي الفرات على أبواب الدولة الفارسية، الدولة المسيطرة في ذلك الوقت وكانت من أقوى دول المشرق.

تنوخ في موطنها الجديد:

رتبت تنوخ أمورها ونظمت شؤونها بما يتلاءم ووضعها الاجتماعي الجديد، فاتخذت لنفسها ملكاً من أبنائها، وكان أول ملك على تنوخ هو مالك بن فهم من لخم، ثم أخوه عمرو، ثم جذيمة الأبرش، ثم ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة من لخم أيضاً، وهذا أول ملك عربي اتخذ الحيرة عاصمة لملكه، ويقول انستاس الكرملي عن (كوسين دي برسفال) أن عمرو هذا حارب الملكة زنوبية انتقاماً منها لقتلها خاله جذيمة، الآنف ذكره، لسبب أن جذيمة قتل عاملاً من بني السميذع كان على الجزيرة وأعمال الفرات من قبل العماليق(1)، وعاصر عمرو أزدشير بن بابك وابنه سابور أو (شاه بور)، ومعنى الكلمة ابن الملك، كما سبق وذكرنا، وقد ساء أزدشير أن يرى تنوخ في مكانها الجديد وأخافه هذا التجمع العربي على أبواب مملكته، فأخذ يضيق عليهم بقصد ترحيلهم، ولما مات خلفه ابنه شابور فورث عن أبيه عداء العرب وحدث أثناء طفولة شابور أن غزت جماعات عربية من البحرين البلاد الإيرانية «وغلبوا أهلها على مواشيهم وأكثروا الفساد»(2)، كما غلبت أياد على سواد العراق فأثّرت هذه الأحداث في نفس الملك الجديد شابور وأعلنها حرباً شعواء على الجماعات العربية في أي مكان كانت، فغزا البحرين وأوقع بأصحابها من تميم وعبدالقيس وبكر، وقصد بكر وتغلب بين مناظر الشام والعراق وأوقع

---

(1) المشرق، ج ١ ص ٤٣٣ ـ ٤٣٤.

(2) الكامل في التاريخ، ج ١ ص ٣٩٢، ٣٩٣، ٣٩٤.

بهم، وكان هذا الملك ينزع أكتاف رؤسائهم، ثم يقتلهم، فسمي شابور ذي الأكتاف[١]. حفظت القبائل العربية هذا الموقف العدائي لسابور منها فانضمت إلى الروم في حربها ضده، فانتصروا عليه أول الأمر وملكت الروم عاصمته طيسفون ــ المدائن ــ واستولوا فيها على أمواله وخزائنه، وقد مر معنا أن الملك التدمري أذينة الثاني قهر شابور واستأسر عائلته.

ومن عودة إلى القول أنه بعد هذه الحرب المريرة التي شنها شابور على القبائل العربية، عاد وسلم بالأمر الواقع وقبل بالتعامل مع (ملك العرب) على التعامل مع (كل العرب).

كثيرون هم المؤرخون الذين قالوا أن الملك العربي اللخمي كان تابعاً يدور في فلك الدولة الفارسية الكبيرة، ولكن مما لا شك فيه أن النزعة الاستقلالية والاعتزاز بالنفس عند القبائل العربية، كانت تتصدى للغطرسة الكسروية وتروضها عندما تعتدي عليها، وهذا ما حدث يوم ذيقار الذي سنطالع أخباره الآن.

يوم ذيقار:

من أشهر أيام العرب في جاهليتهم، أغنى تاريخهم بالمجد ووضعهم على طريق الوحدة.

هناك اختلاف بين المؤرخين حول تحديد تاريخ وقعة ذيقار، فمن قائل انها حصلت يوم ولادة الرسول الكريم محمد بن عبدالله، وجعلها ياقوت في معجم البلدان عند الانتهاء من معركة بدر الكبرى، وجعلها المسعودي في مروج الذهب بعد معركة بدر بأربعة شهور، وجعلها اليعقوبي يوم وقعة بدر. أما (نولدكه) فقال أنها كانت بين سنة ٦٠٤ وسنة ٦١٠م.

أسبابها: أرسل كسرى يطلب من النعمان أبي قابوس نساء «لنفسه

(١) ذات المصدر الآنف الذكر.

وولده وأهل بيته»[١]، فأجابه النعمان أن الذي يطلبه الملك غير موجود عند العرب، وجاء من يقول لكسرى أن العرب يأنفون من تزويج بناتهم لأجانب حتى ولو كانوا بحجم كسرى.. فأوغر هذا القول صدر الملك وأخذ يتحين الفرص للإيقاع بالنعمان، وبعد مدة استدعاه إلى بلاطه فأدرك النعمان ما ينتظره هناك، وكان متزوجاً من أشراف طي، فلجأ إليهم، فأبوا خوفاً عليه وعليهم، ثم انتقل إلى بني رواحة من قبيلة عبس، فقالوا له: إن شئت قاتلنا معك، فتركهم وذهب إلى هاني بن مسعود الشيباني واستجاره فأجاره هاني وقال له: «لقد لزمني ذمامك وأنا مانعك مما أمنع نفسي وأهلي وولدي ما بقي في عشيرتي الادنين رجل».

علم كسرى بامتناع النعمان وحسب للأمر حسابه لأن حمى شيبان يعني حمى بكر بن وائل كلها، فلجأ إلى الخديعة وأرسل إلى النعمان يقول: إن قدمت إليّ واعتذرت أعدتك ملكاً وعفيت عنك. وحسب النعمان أن الملك صادق بقوله، وقال هاني للنعمان: «إذهب بنفسك واترك نساءك وأولادك في ذمتي، فلن يخلص إليهم حتى يخلص إلى بناتي وأهلي»، فترك النعمان عند هاني أسرته وألف شكّة من سلاحه وسار بالهدايا إلى المدائن، ولما وصلها أمر كسرى به فألقي بين أرجل الفيلة التي ظلت تدوسه حتى استشهد، ثم عين مكانه على العرب أياس بن قبيصة الطائي[٢].

أرسل أياس إلى هاني يخبره إرادة كسرى في أن يرسل إليه ما استودعه النعمان عنده ويقول: «لا تكلفني أن أبعث إليك وإلى قومك بجحافل العجم تقتل المقاتلة وتسبي النساء والذرية»، فأجاب هاني: «الذي بلغك باطل فما لك عندي شيء لا كثير ولا قليل» فبلّغ أياس جواب هاني إلى كسرى.

أقر رأي كسرى «أن يمهل البكريون حتى يقيظوا، عندها يتساقطون على ماء ذيقار تساقط الفراش في النار...» وما إن جاء الصيف حتى نزل بنو يشكر

(١) الكامل في التاريخ، ص ٤٨٨.

(٢) مروج الذهب، منشورات الجامعة، ج ١ ص ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٠.

وبنو تيم الله وبنو عجل وبنو شيبان وجميعهم من بطون بكر بن وائل على ماء حنو ذيقار وهم يعرفون سلفاً ما ينتظرهم وما يدبره لهم كسرى، ثم جاءهم رسول كسرى وكان اسمه النعمان بن زرعة التغلبي، وأخذ ينصحهم بالتسليم لمطالب كسرى، فاجتمعت بكر في مؤتمر حربي قرر فيه زعماؤها بقيادة حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي مناجزة الجيوش الكسروية، وكان هذا القرار من أجرأ وأخطر ما اتخذته القبائل العربية في حياتها حتى ذلك الوقت.

والتفت حنظلة إلى هاني بن مسعود وقال له: يا أبا امامة إن ذمتكم ذمتنا عامة، ولن يصل إليك حتى تفنى أرواحنا، فأخرج هذه الحلقة ـ أي الأسلحة التي استودعها النعمان عند هاني ـ فإن تظفر ردت إليك، وإن تهلك فأهون مفقود، ثم التفت إلى النعمان بن زرعة وقال له: لولا أنك رسول لما رجعت إلى قومك سالماً، وأزمعت العرب على الحرب.

المعركــة:

«ما من مرة تحققت فيها معجزة الوحدة إلا وتحققت معجزة النصر»:

أرسل كسرى اثنين من خيرة قواده هم الهرمزان وخنابزين على رأس قوة قدرت بعشرين ألف مقاتل، تمون هذه الحملة خزائن كسرى الملأى وإمكانياته الكبيرة، وزود الجيش بالفيلة التي تحمل على ظهورها رماة سهام لا تطالها السيوف، وكانت العرب بمن انضم إليهم من أياد حوالي أربعة آلاف فارس، «وشاركت لخم في الحرب بقيادة هند بنت النعمان»، وقبيل المعركة[1]، قام حنظلة وقطع حزام الراحلة التي تركبها زوجته وهكذا فعل الآخرون وقال: ليقاتل كل منكم عن حليلته، ووقف هاني بن مسعود وألقى في القوم خطاباً: «يا قوم، مُهلك مقدور خير من نجاء مغرور، وإن الحذر لا يدفع القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره،

(١) المسعودي: مروج الذهب، منشورات الجامعة اللبنانية ـ ١١، ج ١ ص ٣٢٠.

والطعن في الصدور أكرم من الطعن في الظهور. يا قوم، جدوا فما من الموت بد، فتح لو كان له رجال. يا آل بكر شدّوا واستعدوا، وإلا تشدوا تُردوا»، ثم قطع سبعماية من فرسان بني شيبان أكمام قمصانهم ليسهل عليهم التحرك بخفة للضرب بالسيف، وقد جرت على أربعة مراحل وفي أربعة أماكن مختلفة، هي التالية:

١ ـ **معركة الجبّابات**: مكانها في سهل الجبابات[1]، وقد رتب العرب أنفسهم بأن وضعوا بني عجل بقيادة حنظلة بن ثعلبة على الميسرة، وبني شيبان بقيادة بكر بن يزيد بن مهر في الميمنة، وقبيلة بكر بقيادة القائد العام هاني بن مسعود في القلب، أما الفرس فكانت ميسرتهم بقيادة خنابزين وميمنتهم بقيادة الهرمزان، ووضعوا أياس بن قبيصة ملك العرب . . . في القلب، ابتدأت الحرب بمعارك تصادمية كالمعتاد وبهجوم من كلا الجانبين وانتهت قبيل الغروب كان من نتائجها أن الفرسان العرب تضايقوا من العناصر الفارسية المحمولة على الفيلة التي تطلق السهام ولا تطالها السيوف، وفوجىء الفرس بثبات العرب لاعتقادهم أن العرب سينهزمون خلال ساعات.

٢ ـ **معركة ذات العجرم**: جرت هذه المعركة في اليوم الثاني، وفيها انقض العرب على الفرس من جهة غير متوقعة فباغتوهم وأوقعوا بهم، ورجحت الكفة لصالح العرب.

٣ ـ **معركة حنو ذيقار**: جرت هذه المعركة في اليوم الثالث، وكانت حامية

(١) مجلة جيش الشعب السورية، العدد رقم ١٠٦٨، تاريخ ١/٥/١٩٧٣.

ملاحظة: هذا الزي الحربي ـ القمصان المقطوعة الأكمام ـ هو من التراث المتوارث عن تلك الأيام بالذات بين القبائل العربية التي تعود بأصلها إلى بكر بن وائل والتي اعتنقت الدرزية مذهباً فيما بعد، وهي تلك العباءة التي نشاهد بعض الشيوخ من الدروز يرتدونها. وقد أشار إليها جوفياني مارتيني أنها لباس رجال الحرب من الدروز والرباط التراثي الآخر عند هذه الجماعات الدرزية هي أنها تكرم هاني بن مسعود كما تكرم الأولياء.

الوطيس، قتل فيها الكثير من الفريقين، وبعد الحرب تحرك الشعور القومي عند العرب المحاربين مع الفرس، فأرسلوا إلى البكريين يقولون: يا آل بكر أيما أحب إليكم، أن نطير تحت ليلتنا فنذهب؟ أم نقيم حتى تلاقوا الأعاجم غداً فنفر؟ فأجابت بكر: بل تقيمون حتى إذا ما التقى الناس انهزمتم.

٤ ــ **معركة قراقر الرابعة والأخيرة:** اعتمد الفرس في هذه المعركة أول الأمر المبارزة بين أبطال الفريقين اعتقاداً منهم بأن أبطالهم المدربين جيداً على جميع فنون المبارزة وأنواعها سيكونون من الفائزين في حلبة الصراع، فأنزلوا إلى الساحة أحد مشاهير أبطالهم وكان يدعى: اسوار، فبرز إليه من الجانب العربي يزيد بن حارثة فتجاولا وتصاولا ولم يلبث يزيد أن انقض على اسوار وقتله. وهدأ الضجيج والصراخ من كلا الجانبين بنزول فارس أعجمي آخر أشد بأساً من سابقه الصريع، وما هذا الفارس إلا القائد الهرمزان نفسه، فنزل إليه من الجانب العربي برد بن حارثة اليشكري[1].

ولم يطل الوقت حتى انقض برد على القائد الفارسي وأرداه قتيلاً، فعلا صراخ الاستحسان من الجانب العربي وارتفعت معنويات القوم، أما الأعاجم فقد خيم على جموعهم الصمت الثقيل وهبطت معنوياتهم، فاستدرك قائدهم الأمر بأن أمر بهجوم عام على الجماعات العربية وبكل ما لديه من قوة. فتلقت القبائل العربية الصدمة بكل ثبات وحزم، وحدثت مفاجأتان قصمت ظهر الجيش الفارسي، الأولى: انسحاب العرب الموالين للفرس من المعركة فتبلبلت الصفوف، والجماعات العربية هذه كانت من أياد، والثانية: ظهور كمين عربي في مؤخرة الفرس الذين انهزموا شر هزيمة وتبعتهم بكر تضرب في أقفيتهم دون أن يلتفت أي من المقاتلين العرب إلى غنيمة أو سلب، لأن الشعور

(١) الكامل في التاريخ، ج ١ ص ٤٨٩ ــ ٤٩٠.

الرائع بالنصر كان أقوى من أي شعور آخر، وقيل في ذيقار: إنها أول معركة انتصفت فيها العرب من الأعاجم.

الحيرة.. أو الحاضرة العربية الزاهرة قبل الإسلام في العراق:

الأقوال عن الحيرة مختلفة بشأن تاريخ بنائها ونشوئها، ولكنها متفقة في أن اللخميين كانوا أقيالها في فترة كانت من أزهى عصورها.

يقول ياقوت الحموي: موقع الحيرة على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف، وفي الحيرة الخورنق وكان مسكناً لملك العرب في الجاهلية من زمن نصر بن ربيعة، ثم بني لخم. وأول من نزلها كان مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن تيم الله بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان من قضاعة.

وقال القرماني: إن الحيرة عمرت في زمان عمرو بن عدي واستمرت عامرة خمسماية سنة.

وقال القزويني: كانت الحيرة منزل ملوك بني لخم وفيها بني النعمان قصره المعروف بالخورنق.

قال ابن الأثير: «كانت الحيرة بيد اللخميين إلى أن ملك قباذ فأزالهم واستعمل الحارث بن عمرو الكندي، ثم أعاد كسرى أنوشروان اللخميين».

أما الخورنق الذي جاء معجزة في البناء ــ بناه مهندس رومي يدعى سنمار[1] ــ في العام ٤١٠م في عهد النعمان الأول (الأعور) الذي خلفه ابنه المنذر الأول (٤١٨ ــ ٤٦٢م) ومن مشاهير ملوكهم عمرو بن هند (٥٥٤ ــ ٥٦٩م)، والنعمان الثالث الملقب بأبي قابوس (٥٨٠ ــ ٦٠٢م)

(١) ألقى النعمان بهذا المهندس الرومي من أعالي القصر كي لا يبني مثل الخورنق فذهب جزاء سنمار مثلاً بين العرب.

الذي حدثت بسببه معركة ذيقار وهذا آخر بني المنذر ابن ماء السماء، ولي بعده أياس بن قبيصة، ثم أزاذ بن ماسيان الهمذاني، ثم المنذر بن النعمان المغرور به أو المنذر الخامس الذي انتهى ملكه بظهور الإسلام.

وقال المسعودي(1): إن ملوك الحيرة من آل نصر وغيرهم من العرب والفرس كانوا ثلاثة وعشرون ملكاً دام ملكهم ٦٢٢ سنة «هذا ما استندنا إليه بقولنا إن التكوين التنوخي الأول حدث في أوائل القرن الأول الميلادي».

عدت تنوخ من متنصرة العرب ودعي نصارى الحيرة بالعبّاد(2)، «ومن تنوخي الحيرة كعب بن عدي وكان أبوه أسقفاً على المدينة وكان كعب يتعاطى التجارة وله شراكة تجارية مع الخليفة عمر بن الخطاب في زمن الجاهلية، ثم كان كعب هذا في جيش اليمامة مع المسلمين، وأرسله الخليفة عمر برسالة إلى المقوقس، وشهد فتح مصر».

لخم والإسلام:

الحيرة بقبضة خالد.. وأمام الاختيار الصعب:

حارب أشراف الحيرة وأمراؤها إلى جانب الفرس ضد الجيش الإسلامي العربي الذي طرق أبواب مدينتهم بقبضة حديدية بأمرة القائد خالد ابن الوليد. لم تقو الحيرة رغم مناعتها على المهاجمين وسقطت بيد خالد شأن غيرها من المدن والحواضر المشرقية التي استولى عليها هذا القائد الفذ ولما تمكن خالد من المدينة اجتمع بكبير المسؤولين فيها وكان اسمه عدي ابن عدي فقال له خالد معاتباً(3):

— ويحكم ما أنتم؟ أعرب.. فما تنقمون من العرب أو عجم؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف...

فأجاب عدي: نحن عرب عاربة وأخرى مستعربة.

(1) دائرة المعارف لكل فن ومطلب.
(2) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ـ شيخو.
(3) معارك خالد بن الوليد، ص ١٨٧.

فقال خالد: ... لو كنتم كما تقولون لم تحادونا وتكرهوا أمرنا.

فأجاب عدي: يدلك على ما نقول، إن ليس لسان لنا إلا العربية.

فقال خالد: اختاروا واحداً من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو المناجزة.

ومعنى قوله أن بالإسلام لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. وبالجزية يصبحون في ذمة الإسلام فيستأمنون على أرواحهم وممتلكاتهم ويبقون على دينهم، والمناجزة أي الحرب إذا رفضوا الحلين الأولين فاختار عدي الجزية ودفع لخالد ١٩٠ ألف درهم، وما لبثت لخم أن اعتنقت الإسلام كلها أو بعضها وأصبحت سيفاً من سيوفه القاطعة. وهنا لا بد من ذكر بعض أحداث تلك المرحلة الهامة من تاريخ الفتح نشير إليها ولو بعجالة موجزة. وهي أنه قبيل سقوط الحيرة بيد خالد ابن الوليد واختيار أهلها الجزية عقد خالدٌ الصلح معهم على النحو التالي(1):

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عاهد عليه خالد ابن الوليد عدي وعمراً ابن عدي وعمرو ابن عبدالمسيح وأياس بن قبيصة وحيري بن أكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به، عاهدهم على ماية ألف وتسعين ألف درهم تقبل في كل سنة جزاءً عن أيديهم في الدنيا إلاّ من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها وعلى المنعة فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم. وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة وكتبت في شهر ربيع الأول من السنة اثنتي عشرة».

وكانوا قد قدموا لخالد هدايا، فبعث خالد بالهدايا وبمعاهدة الصلح إلى الخليفة أبو بكر. فوقّع أبو بكر على المعاهدة وكتب لخالد: «أحسب لهم هداياهم من الجزية وخذ بقية ما عليهم فقوِّ بها أصحابك».

(1) معارك خالد بن الوليد، ص ١٨٨.

لخم في لبنان:

مر معنا أن لخم احتلت مكان الصدارة في التنوخ، وأن هذه الأسرة المالكة بين عرب الشمال التي أنجبت الأقيال وابتنت الحواضر كانت على رأس أول كيان عربي منظّم وقوّي قام في بلاد الرافدين. هذه الأسرة العربية المالكة زال ملكها بظهور الإسلام ولم يبق لها خبر كما نعلم في أي من البلاد العربية، ولكنها بقيت حية ترزق في لبنان.. وقد جاء من التجمع التنوخي إلى لبنان هجرتان:

١ ــ **الهجرة الأولى**: جاءت حوالي العام ٧٠٨م باسم لخم، ومنها الأمراء الإرسلانيون الدروز[١]. أو ما دعوا «باللخمين المنذريين»[٢].

٢ ــ **الهجرة الثانية**: جاءت في العام ٨٢٠م باسم بني بحتر المعروفين بالتنوخيين والجماعتان توقفتا في وادي التيم قبل أن تتصعدا الجبال اللبنانية.

أوعز الخليفة أبو بكر الصديق للقائد خالد ابن الوليد أن ينتقل من العراق إلى الشام لمساندة جيوش المسلمين فيها ورفدت لخم هذا الإسناد بألف وخمسماية من فرسانها الأشداء، وقيل إن هذا العدد من الفرسان قدمته لخم وجذام مجتمعين، وشاركوا في المعارك التي خاضوا غمارها تحت راية الفتح في بصرى وأجنادين ومرج الديباج واليرموك وبيت المقدس ودمشق وحلب وقنسرين وانطاكية ثم معرة النعمان التي استقر مقامهم فيها، وكان أول أمير على لخم في الإسلام هو الأمير عون الذي استشهد في معركة أجنادين (٣٠ تموز سنة ٦٣٤م)[٣] وتأمّر بعده ولده الأمير مسعود، واستمرت لخم في المعرة من العام

(١) أبو جعفر المنصور، نويهض، ص ١٠.

(٢) أبو جعفر المنصور، والسجل الارسلاني، دعوهم بهذا الاسم والقول هنا منقول عن السجل المذكور إن هؤلاء اللخميين نزلوا وادي تيم الله بن ثعلبة حيث كان فيها قبائل عربية أكرمتهم.

(٣) المستند لهذا القول من المراجع التالية: أبو جعفر المنصور؛ عجاج نويهض؛ ذخائر لبنان؛ إبراهيم الأسود؛ وروض الشقيف للأمير شكيب ارسلان.

١٣هـ حتى العام ١٤١هـ = ٧٠٨م انتقلت منها إلى البقاع فوادي التيم فالجبال والسواحل اللبنانية وذلك في أيام أبي جعفر المنصور الذي رأى حماية الأطراف الغربية والشمالية لمملكته من تعديات الروم المتكررة والتي كانت تزداد عند انشغال الخليفة العربي بأمور داخلية وقد جاءت هذه القبيلة الكبيرة على دفعتين الأولى سنة ٧٠٨م ونزلت في وادي التيم في حصن أبي الجيش الذي لم نعلم مكانه بالضبط حتى الآن. ومنها أخذوا اسمهم بني أبي الجيش «هذا ما يقوله أحد حفدتهم الكبار الأمير شكيب أرسلان» كانوا بقيادة الأمير ارسلان. والدفعة الثانية جاءت في السنة التالية بقيادة الأمير المنذر ومعه باقي العشيرة، ومن وادي التيم انتقلوا إلى محلة المغيثة قرب ضهر البيدر ولما جاء فصل الشتاء هبطوا إلى أماكن معدة لهم كما يبدوا ونزلوا في البلاد على النحو التالي وكانوا خمسوة أخوة:

الأول: الأمير منذر بن مالك سيد القوم ورأس العشيرة نزل في حصن سرحمور قريباً من عاليه ــ توفي هذا الأمير في العام ١٨٤هـ = ٧٧٣م[١].

الثاني: الأمير فوارس بن عبدالملك بن مالك نزل في عبيه وتوفي في العام ١٩٢هـ.

الثالث: الأمير خالد بن حسان بن مالك نزل في طردلا من قرى الغرب وتوفي الأمير خالد سنة ١٦٤هـ فكان أول من توفي من هذه الجماعة في لبنان.

الرابع: الأمير عبدالله ابن الأمير النعمان بن مالك نزل في كفرا القريبة من عالية، ومن كفرا هذه انطلق الحمدان بعد معركة عين دارة بين القيسيين واليمنيين سنة ١٧١١م إلى جبل الدروز وعمّر الجبل.

الخامس: الأمير ارسلان بن مالك ونزل في سن الفيل، الذي لم تزل تحتفظ باسمها ــ وقد «صحّفها الفرنج في تواريخهم إلى سنسفيل».

هؤلاء الجماعات يسميهم الأستاذ عجاج نويهض «خمائر بني معروف الأولى».

(١) أبو جعفر المنصور، عجاج نويهض، ص ٣٣.

الهجرة التنوخية الثانية، أو بني بحتر:

من اللخميين الذين استوطنوا معرة النعمان أمير يدعى قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن طي بن تميم بن النعمان ابن المنذر بن ماء السماء اللخمي. ولد للأمير قحطان المذكور ولد أسماه تنوخ على اسم قبيلة أجداده[1] وبعد موت الأمير قحطان تسلم الأمر ولده تنوخ وإليه ينسب الأمراء التنوخيون القيسيون. وقامت قبيلة تنوخ بعد ذلك إلى الجبل الأعلى «وعمرو القرى والمزارع[2] وكثرت أرزاقهم وحدث ذات يوم أن تعرّض لنسائهم (المشدّ) الذي ولاه عليهم والي حلب فوثب عليه أمير تنوخي يدعى نبا وقتله» وجاء الأمير نبا إلى البقاع هرباً من والي حلب وفي البقاع ابتنى قصراً قريباً من بعلبك أسماه الناس قصر نبا ــ وهي قرية معروفة في هذا الاسم قرب بدنايل اليوم، وجاء والي حلب يطلب الأمير نبا من التنوخيين فخافوا عاقبة الأمر ورحلوا تاركين بلادهم في أثر الأمير نبا فالتقوا به في بلاد بعلبك وكانوا عشرة طوائف ثم وجههم الأمير نبا نحو البلاد اللبنانية ولحقوا هناك بقوافل اللخميين أبناء عمومتهم كان ذلك في حدود العام ٨٢٠م وهؤلاء الأمراء هم أصول التنوخيين اللبنانيين الذين أنشأوا إمارة شهيرة باسمهم على الأرض اللبنانية ورثها المعنيون فيما بعد وضاعفوا من أمجادها.

يجمع المؤرخون على أن آل تنوخ القيسيين كانوا عماد الدعوة[3] الدرزية ودعاتها في وادي التيم محل نزولهم الأصلي وفي جبل لبنان الذي نزلوه بعد ذلك، والأقطاب التنوخيون ثلاثة هم: أبو إسحاق إبراهيم بن أبي عبدالله قد يكون هو المقصود بما وجه إليه من قول في كتاب مصحف المنفرد بذاته الذي ظهر في ستينيات هذا القرن» ثم أبو الفضائل عبدالخالق بن محمد، وأبو الحسن يوسف بن مصبح إلى هؤلاء الثلاثة كتب الشريف بهاء الدين رسالته المعروفة بالجميهرية في العام ٤١٨هـ ١٠٢٧م.

(١) دائرة المعارف للبستاني، طبعة بيروت سنة ١٨٧٦م، ج ٦، ص ٢٤٣.
(٢) دائرة المعارف، البستاني، طبعة بيروت ١٨٧٦م، ج ٦، ص ٢٤٣.
(٣) الدروز، ص ٢٣.

من هي ماء السماء هذه[1]:

اسمها ماوية بنت عوف بن جشم من ملوك الحيرة، لقبت بماء السماء لحسنها وجمالها ــ عن سوزومانوس قوله ــ مات زوجها أيام الامبراطور الروماني والنس (٣٦٤ ــ ٣٧٩م) وبعد موته حملت ماء السماء أعباء الحكم وكان بين زوجها اللخمي وبين الرومان معاهدة عدم اعتداء، فلما مات الزوج رأت ماء السماء أن هذه المعاهدة أصبحت بحكم الملغى فهاجمت البلاد السورية (فونيقيا وفلسطين) ووصلت إلى تخوم مصر، واشتهرت غزوتها للبلاد السورية أنها كانت «شديدة وهائلة مع أن التي أصلت نارها امرأة» حشد الرومان جيشاً كبيراً ضدها ولكنها انتصرت عليهم، ولما طالت مدة الحرب. أرسل الرومان وفداً إلى ماء السماء يلتمسون منها هدنة فلم ترض، «ثم اشترطت عليهم أن يقيموا أسقفاً على نصارى الحيرة رجلاً عرف بفضله وتقواه يدعى موسى، فكان لها ما أرادت ورقي موسى إلى رتبة الأسقفية وأرسل إلى الحيرة ليخدم المتنصرين من أهلها»[2]، وكان لماوية ابن هو الملك المنذر المعروف بابن ماء السماء الذي جرت بينه وبين الغساسنة معركة عين اباغ في أوائل القرن الخامس الميلادي، وعرف من تاريخ هذه المرأة العظيمة أنها كانت حية ترزق في أواخر القرن الرابع الميلادي.

لأي تيم ينتسب وادي التيم..
ومن هو تيم هذا؟

هذا السؤال التاريخي مطروح منذ زمن بعيد وكثيرون من المعنيين بأمور التاريخ أجابوا عليه كل في حدود قناعته. وقبل أن نستعرض أقوال بعض المؤرخين في هذا الموضوع، نرى أن للإسم بحد ذاته صفة تعبّدية. فالمتّيم هو

(١) تاريخ سوريا، الدبس، الجزء الثاني، المجلد الرابع، ص ٢٩٧ ــ ٢٩٨.
(٢) ونحن نورد هذا القول عن مصدره نتساءل هل اكتفت ماء السماء تلك الملكة الطموحة من الرومان الذين غلبتهم بهذا المطلب؟

المحبّ الذي أصبح أسير هواه، فمنهم من تتيّم باللات. ومنهم من تتيّم بالله لذلك نرى للإسم وجهين: أما تيم اللات على وجه جاهلي وثني. وأما تيم الله على وجه إسلامي. فبعد أن دالت دولة اللات وغيرها من الآلهة الباطلة عند العرب، وجاء الإسلام بالشهادة ـ لم نعد نجد بين العرب من تسمى بتيم اللات، بالرغم من أن كثيرين في الجاهلية تسموا بتيم الله. منهم ما نحن بصدد البحث عنه...

هذا الاسم (تيم الله) قديم جداً في البلاد المشرقية أكثر مما يتصور المرء. يقول الأستاذ فيليب حتي[1] إنه وجد بين آثار الهيكل الوثني الذي كان قائمًا في محلة بيث مري والمعروف بأيامنا بدير القلعة وجد في هذا الهيكل الدهري كتابة قديمة يعني بعضها «اسم امرأة من بني تيم الله».

ومن عودة إلى الموضوع نقول: حاول الشيخ الأشرفاني في مؤلفه عمدة العارفين تحديد هوية وادي التيم وحرصاً منه على الحقيقة. لم يجزم بل عمد إلى الترجيح فقال بما معناه: أن تيم هذا رجل تنسب إليه قبيلة أتوا في فتوح الإسلام وسكنوا وادي التيم وأشار الشيخ إلى أن تيمًا المقصود هو واحد من سبعة هم:

«ـ تيم بن مرة بن كعب رهط أبي بكر الصديق.

ـ تيم بن غالب بن فهر.

ـ تيم بن عبد مناة في مضر.

ـ تيم بن قيس في بكر بن وائل. ـ تيم الله بن ثعلبة ـ.

ـ تيم بن شيبان.

ـ تيم اللات في الخزرج».

من كل هؤلاء نختار تيم الله بن ثعلبة الذي أجمع مؤرخون كثيرون أنه المقصود وأنه هو الذي نزل ببنيه هلال وعبدالله في وادي التيم في أيام الفتح

(١) لبنان في التاريخ، ص ٢٧٤، قال كان هذا المعبد هيكلاً في الأصل لبعل مرقد أي لإله الرقص ثم تحول في زمن الرومان هيكلاً للمشتري البعلبكي جوبيتر.

وسمي الوادي باسمهم. من القائلين بهذا القول المؤرخ الكبير عيسى اسكندر المعلوف[1]. وكثيرون غيره ممن يقال بقولهم «إن وادي التيم ينسب إلى تيم الله بن ثعلبة وموقعه في المنخفض الغربي لجبل الشيخ» ولكثرة القائلين بهذا القول كدنا نسلّم به جدلاً، لولا ما طالعناه في (الدروز) لأبي اسماعيل[2] قوله إن بني عبدالله وبني هلال ابنا تيم الله بن ثعلبة نزلا وادي التيم ولقيا فيه تكريماً من آل التيم بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان من قضاعة الذي عرف وادي التيم باسمهم ولما نزلت بعد ذلك جماعة تيم الله بن ثعلبة «اختلط الأمر على المؤرخين» واعتقدوه تسمى باسم هذه الجماعة التي لم تكن في الواقع إلا من عناصر الهجرة الثانية إلى وادي التيم بهذا الاسم. إننا نقف بجانب هذا القول للأسباب التاريخية التالية:

١ ـ أن نزول الجماعات القضاعية ـ آل التيم بن أسد بن وبرة سبق نزول جماعة تيم الله بن ثعلبة في وادي التيم وبكل تأكيد. لأن مجيء القضاعيين التنوخيين إلى هذه البلاد سبق الفتح الإسلامي الذي جاءت جماعة تيم الله بن ثعلبة في أعقابه، كان ذلك منذ حرب قضاعة مع شابور كما رأينا. وكنا قد وعدنا بالعودة إلى أخبار هذه الحرب، وهذا هو الوقت المناسب لذلك، «بعد أن ضيق أزدشير (والد شابور) على التنوخيين رحل من كان من قضاعة إلى الشام[3] حيث تقيم جماعات قضاعية مثل بني سليح في حوران ووصلت جماعات من تنوخ إلى فلسطين ونزلت فيما حول البحر الميت، كما نزلت جماعات عربية أخرى في غزة وما حولها»، وكان لوادي التيم نصيب من هذه الجماعات النازحة بقضها وقضيضها واستمر نزوح القضاعيين التنوخيين إلى داخلية البلاد السورية أثناء وبعد حرب شابور الذي يقول عنه ياقوت «غزا سابور ذو الأكتاف الحضر فاستباحها بما فيها وقتل جماعة من قبائل قضاعة»[4].

(١) الدواني، ص ١١٧.

(٢) الدروز، أبو إسماعيل، ص ٢٤.

(٣) مجلة المشرق، لويس شيخو، س ١، معجم البلدان، ط القاهرة، ١٩٠٦، المجلد ٣، ص ٩٧.

(٤) نفس المصدر.

الجزء الثاني

٢ ــ كان شعار قضاعة في حربها مع شابور ــ عبارة (يا عباد الله)[١] ولنتوقف قليلاً عند هذه العبارة ولنتأمل. . . ، وليس العجب في أن قبيلة عربية يفترض أنها جاهلية أخذت شعاراً لها عبارة فيها اسم الله عز وجل، لأن معرفة الأفراد والجماعات بالإله الحق لم تنقطع يوماً، والممكن جداً أن يكون من قضاعة من هم على النصرانية، ولكن العجيب في ذلك أن هذه العبارة التي اتخذتها الجماعات القضاعية شعاراً لها في حربها مع سابور منذ أكثر من سبعة عشر قرناً من الزمان لا تزال إلى الآن تتردد في وادي التيم. إنها العبارة التقليدية التي يطلقها التيمي بعفوية وتلقائياً عندما يبدي استهجاناً أو تعجباً ــ يا عباد الله ــ إنها العبارة التي تطرق مسامعك مرات ومرات عندما تجالس تيمياً. خاصة عندما تكون في إحدى قرى الوادي، ويلاحظ جيداً أن التيامنة الدروز منهم بصورة خاصة يتفردون باستعمال هذه العبارة من بين جميع السكان في سوريا ولبنان وفلسطين، وطبيعي جداً أن يستمر هذا التراث متوارثاً وتظل هذه العبارة «الشعـار» حية بين الجماعات القضاعية حيثما حلت ونزلت.

٣ ــ إن ارتحال جماعة تيم الله ابن ثعلبة، بنو هلال وبنو عبدالله إلى الجبل اللبناني أمر مؤكد لا شك فيه. نزل بنو هلال في المتن الذي سمي شوف هلال ومن ذريتهم على حد قول أبو إسماعيل ــ آل هلال في بلدة قرنايل[٢] وبنو عبد الله نزلوا في عبيه وما حولها وهذا ما يؤكده مؤرخ التنوخيين الكبير والوحيد صالح بن يحيى في كتابه تاريخ بيروت، أما القضاعيون من آل التيم بن أسد بن وبرة فليس هناك ما يشير إلى ارتحالهم عن وادي التيم. فهم والحالة هذه (الخمائر الأولى) لدروز وادي التيم المتحدرين من قضاعة والذين لا يزالون محافظين على أصالتهم العربية الصافية. والذين أعطوا هذا الإقليم اسمهم فكان (وادي التيم).

□ □ □

---

(١) المشرق، س ١.

(٢) الدروز، لسليم أبي إسماعيل وتاريخ بيروت للأمير صالح بن يحيى، ص ٣٤.

الفصل الأول

القرامطة والحركات الباطنية
وما أصاب وادي التيم من خيرهم ومن شرهم

تميّز القرن الثالث للهجرة بالحركات والتحرّكات الباطنية التي اجتاحت العالم الإسلامي نتيجة لاحتكاك الفكر العربي النهجي بـالأفكار والمذاهب الفلسفية التي رفدتها المعارف والعلوم المقتبسة والمترجمة من آداب اليونان والهند وفارس وغيرهم من الشعوب.

كانت القرمطية أقوى وأنشط حركة عرفها المجتمع الديني المنضبط، كانت شديدة التأثير على أفكار الناس لأنها فتحت الأعين على مفاهيم اجتماعية جديدة ومغرية مثل، الاشتراكية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية. وبالتالي وعدها ببناء المجتمع المثالي المتكامل بالمعنى المجاز للكلمة، فاهتزت في أذهان الناس صورة الأوتوقراطية الحاكمة التي كانت قد انحرفت كثيـراً عن خط سير السلف الصالح، كل هذا هيأ للقرمطية المناخ الملائم والتربة الصالحة لتنمو وتزدهر. ولكن الأسلوب العنيف في التطبيق أضاع الفكرة الجيدة في غمرة تطرف دموي مجنون، فأوكل للسيف وحده حل المشاكل فاتحـد العباسيـون والطولـونيون والحمدانيون والبويهيون ثم الفاطميون فيما بعد وأنزلوا بالقرامطة ضربات قاتلة قصمت ظهورهم وفي موطن شتاتهم انتشرت أفكارهم فكانت بدورها تمهيداً أولياً لقبول المعتقدات الباطنية التي جاءت بعدهم وورثت أفكارهم بشكل أو بآخر.

اختلف المؤرخون بتعريف كلمة قرامطة، فمنهم من قال أن أصلها من

(كرميته)(١) والكلمة نبطية ومعناها أحمر العينين، ومنهم من قال إن قرمط الرجل في مشيته أي قارب بين خطواته والبعض الآخر قال إنها من تقرمطوا أي تلثموا حتى أنوفهم(٢) وقيل أن مؤسس هذا المذهب رجل من سواد الكوفة اسمه حمدان بن قرمط ولما تبعه خلق كثير اتخذ لنفسه دار هجرة أي عاصمة، وفي كتابه «القرامطة» ينفي الأستاذ عارف تامر أن تكون حركة (القرامطة) حدثت في عهد حمدان ابن الأشعث الملقب بقرمط «وما حمدان إلا أحد المسؤولين المخلصين لهذا المذهب وإن الفكرة موجودة منذ عهد جعفر الصادق(٣)».

عرّف الباطني بأنه القائل والمعتقد بأن لكل ظاهر باطن ولكل تأويل تنزيل، فكان أن كثرت الاجتهادات وتناولت السنن وأحكام الشرع والأعراف فقال أحدهم في ذلك:

ما أنزل الرحمن نصاً ثانياً ... لكن تغيّر منهج التفسير

وتميّز ذلك بضعف مركز الخلافة العباسية التي كانت تترنح تحت ضربات الانفصال التي كان ولاة الأقاليم يكيلونها لها، وقامت نتيجة لذلك لا مركزية واسعة على حساب بغداد والخلافة. وبالإضافة لذلك تطور الأمر إلى ما هو أسوأ وصار الخليفة أسير مماليكه وقادة جيشه يأمر فلا يطاع. ويدعو فلا يستجاب لدعوته وقد صور ذلك الواقع المؤلم المعتمد العباسي بقوله:

أليس من العجائب أن مثلي ... يرى ما قال ممتنعاً عليه
وتجبى باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء في يديه

نشأت حركة القرامطة في سواد الكوفة وانتشرت في العراق والبحرين واليمن والشام وانطلقت تتقوى من تأييد الأنصار (واضطهاد الأعداء) وتفاني المريدين. وتمكن القرامطة من إنشاء دولة لهم في البحرين سنة ٢٨٠هـ ٨٩٤م

(١) الغرر الحسان، ص ٢١٥.
(٢) مصادر توحيدية.
(٣) القرامطة، ص ٩١.

اتسعت حدودها حتى شملت البلاد الشامية وبعد مدة من الازدهار دخلوا في مرحلة تدهور سريع.

في صبيحة يوم التاسع عشر من رجب سنة ٢٧٩هـ ٨٩٣م تولىّ الخلافة أبو العباس بن أحمد الموفق ولقّب «المعتضد بالله» وكان هذا الخليفة غالي الهمة قوي الإرادة بعيد النظر. كانت سنوات حكمه أشبه بدفقة من الدم الحار في جسم الدولة العباسية المتجمدة الأطراف. (فأسكن الفتن(١)، وأصلح ما كان قد أفسد من البلدان، وغزا بلاد الروم فظفر وغنم). تزّوج هذا الخليفة من «قطر الندى» ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون وولىّ عمه والد زوجته على حلب والشام، ولما اغتيل خمارويه جدد المعتضد الولاية لابنه هارون على مصر والشام معاً.

اصطدمت القوة القرمطية الناشئة بالخلافة العباسية المتجددة، وهذا ما كان متوقعاً له أن يحدث ــ وجرت معركة بين الجيش العباسي بقيادة العباس بن عمرو الغنوي وبين القرامطة وعلى رأسهم سعيد الجنابي، فانتصر القرامطة في هذه المعركة وأسروا العباس قائد الجيش العباسي مع جماعات كثيرة من جنده. يقول البستاني في دائرة المعارف «أن القرمطي المنتصر أحرق أسراه من الجنود العباسيين وأعاد العباس إلى الخليفة مصحوباً برسالة فارغة».

عزل الخليفة المعتضد قائد جيشه المنهزم، وأعاد بناء الجيش من جديد، ثم سلم قيادته لأحد أتباعه ويدعى النوشري وفي العام ٢٨٩هـ ٩٠٣م نازل الجيش العباسي المتجدد القرامطة فانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً(٢) وأسر رأسهم الجنابي فأمر الخليفة بقتله مع كثيرين من أتباعه، ثم توفي المعتضد في نهاية ذلك العام وتولى بعده ابنه المكتفي بالله.

قوي أمر القرامطة في الشام فاستولوا على أقسام كبيرة من البلاد، وقصدوا دمشق لإحتلالها وكان عليها عامل من قبل هارون بن خمارويه يدعى

(١) الغرر الحسان، ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ ــ ٢٢٦.
(٢) الغرر الحسان، ص ١١٩ ــ ٢٣٠ ــ ٢٣١.

طغج بن جف الفرغاني فتصّدى لهم طغج ودارت بينه وبينهم معارك ضارية ذهب ضحيتها كثيرون من الفريقين وتوالت المعارك بين طغج والقرامطة فتمكنوا في إحدى المرات من قتل قائد جيشه وهزموا طغج نفسه في معركة كبيرة جرت بينه وبينهم في وادي القرن[1]. كان الخليفة المكتفي يراقب تطورات الأحداث بقلق بالغ فجنّد لحرب القرامطة كل إمكانيات الدولة وجهّز جيشاً قاده بنفسه أمّر على مقدمته قائداً ناجحاً هو محمد بن سليمان الكاتب[2]. اتجه القائد الجديد بالجيش نحو بلاد الشام وفي أواخر سنة ٢٩٠هـ ٩٠٤م دخلت طليعة هذا الجيش حلب وأمرت عاملها بالتهيؤ للحرب وانضم الحمدانيون إلى الحملة ليبرأوا أنفسهم من تهمة التواطؤ مع القرامطة، وكان الخليفة العباسي قد انتزع حلب من الحمدانيين بسبب هذه التهمة التي لم تكن صحيحة في الواقع.

علم القرامطة بأمر هذه الحملة الكبيرة فتوافدوا للقائها من كل حدب وصوب. كانت معنويات القوم عالية لإنتصارهم على الطولوني وحلفائه في معركة وادي القرن على أبواب وادي التيم. وفي صباح اليوم السادس من محرم سنة ٢٩١هـ = ٩٠٥م، دارت رحى معركة كبرى بينهم وبين الجيش العباسي في مكان قريب من مدينة حلب «وشنّ القرامطة على الجيش هجمات حادّة تمثلت فيها جميع مواهبهم الحربية وشجاعتهم الفائقة»[3] ولكن الكثرة العباسية استوعبت هذه الهجمات وبالتالي أحبطتها وأمطرت المغيرين وابلاً من السهام. وعند حلول المساء كان القرامطة قد هزموا شر هزيمة وألقي القبض على زعيمهم (صاحب الشامة) واقتيد أسيراً إلى الخليفة الذي كان ينتظر في مدينة الرقة.

من أسباب هزيمة القرامطة في هذه المعركة أنهم لم يكونوا منتظمين بقيادة واحدة موّحدة لذلك لم يدخلوا المعركة بكل قواهم ودفعة واحدة، كانوا

(١) خطط الشام، ص ١٨٠، وقد دعي وادي القرن وادي القردان والأفاعي.
(٢) الغرر الحسان، ص ٢٣٠.
(٣) الدروز «أبو إسماعيل»، ص ١٨٠؛ الغرر الحسان، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١؛ أبو الفداء، ج ٢، ص ٦٣.

بمعظمهم من قبائل طيّ وتميم وكلب وبكر وكانت كل جماعة تدخل المعركة بمجرد وصولها إليها مما قلّل فعالية الصدمة الأولى التي تترتب عليها نتائج المعركة إلى حد كبير على نحو ما كان يحدث في تلك الأيام.

انهزمت الفلول القرمطية أخيراً باتجاه دمشق وتصعدوا الجبال المجاورة لها واستقر قسم كبير منهم في وادي التيم.

ماذا عن معركة وادي القرن بين القرامطة والطولونيين؟[1]

اشتد ساعد القرامطة وقوي أمرهم في وادي التيم الشيء الذي أقلق عدوّهم اللدود طغج عامل الطولونيين على دمشق فجهّز عليهم حملة كبيرة انضم إليها الحمدانيون بقيادة حسين بن حمدان التغلبي عم الأمير سيف الدولة، واتجهت الحملة نحو وادي التيم تحدوها الرغبة بتحطيم القرامطة وإنهاء أمرهم فيه ومن مجريات الأحداث نرى أن هذه المعركة جرت في العام ٢٨٩هـ أي قبل معركة حلب الآنفة الذكر بسنتين. علم القرامطة بالأمر فاستعدوا له وجمعوا جموعهم والتقوا الحملة العباسية في وادي القرن ونازلوها في شعابه الضيقة. لم يستفد العباسيون من كثرتهم بسبب ضيق ساحة المعركة وأظهر رجال القرامطة من الشجاعة في هذه الحرب ما فاق الوصف فانتصروا على العباسيين وتتبعوا فلولهم حتى ضواحي دمشق، كانت هذه المعركة سبباً لاضطهادهم في العراق وبالتالي مهدت وهيأت الجو لمعركة حلب القاسية الآنفة الذكر.

(١) ذات المصدر: أحمد بن طولون ٨٦٨ ـ ٩٠٥م مؤسس الدولة الطولونية كان والده تركيا من سبي فرغانة وكان على اتصال بالمأمون فعين أحمد فيها بعد نائباً في مصر ثم استقل بها فأحبه الناس لتخفيضه الضرائب وحبه للعمران ثم ضم سوريا إلى مصر بعد أن استقل بالأحكام ولما توفي تخلف له على ما قيل ٣٣ ولداً بينهم ١٧ صبياً.

التآكل الداخلي:

في غمرة تلك الأحداث المتلاحقة والمصيرية حدث في صفوف القرامطة حركة انشقاق قام بها رأس قرمطي هو (سعيد الخير)[1] وادعى سعيد الإمامة لنفسه في بلاد العلويين، فجهز عليه رأس قرمطي آخر عرف باسم (صاحب الناقة) وسار إليه من أرض العراق للاقتصاص منه، وكان الفرغاني يراقب الوضع فتصدى للقوة القادمة من الشرق والتقاهم بجيشه في محلة الرصافة ونشبت بينه وبينهم معركة ضارية انتصر فيها القرامطة وقتلوا بشيراً قائد حملة طغج وهزموا رجاله وتعقبوا فلولهم حتى أبواب دمشق للمرة الثانية فأغلقت المدينة أبوابها خوفاً من القرامطة الظافرين وأرسلت تستنجد بالقاهرة وبغداد فتوالت النجدات على بلاد الشام. وجاء بدر الحمامي القائد الطولوني على رأس جيش مصري فحارب القرامطة وانتصر عليهم وقتل زعيمهم أبو القاسم المعروف بصاحب الناقة وشتت جموعهم. فمنهم من ذهب باتجاه حلب ومنهم من التجأ إلى الجبال القريبة من دمشق، ويبدو أن نصيب وادي التيم من هذه الطفرة الجديدة كان وافراً أيضاً.

نزلت الفلول القرمطية في أماكن كثيرة من البلاد السورية، فمنهم من تصعّد الجبال اللبنانية ومنهم من نزل في الجليل ووادي الأردن وحوران، وكانت هذه الجماعات تنشد بإقامتها الحماية التي توفرها لها طبيعة البلاد بحيث يصعب على مطارديهم تتبع خطاهم ثم الأماكن التي يوجد بين سكانها من يمت لهم بصلة القرابة ويتجاوب بالتالي مع أفكارهم.

كانت هذه الجماعات النازحة تحمل معها عاداتها وتقاليدها وأفكارها الخاصة التي تربت عليها في موطنها الأول، ويخبرنا أبو إسماعيل في كتابه (الدروز) أن الجماعات التي اجتازت برحيلها الجبال اللبنانية غرباً[2] بنت عدة

(١) الدروز، ص ١٧٢، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ١١٣.
(٢) الدروز أبو إسماعيل، ص ١٨١.

قرى وأسمتها بأسماء قراها في مواطنها الأولى ـ «بنوا عين دارا ذكرى لبلدتهم التي كانت بهذا الاسم في الاحساء وبنوا العبادية ذكرى لدور الدعوة في سواد الكوفة، وبنوا عبيه ذكرى لماء خاصة ببكر بن وائل، والمختارة نسبة لمحلة كانت لهم في الجانب الشرقي من بغداد ودير كوشة ذكرى لإحدى قراهم القريبة من حلب، وإن بنو الفضل بن معن بن زائدة الشيباني نزلوا في دير القمر والمناصف وفي عيسم والمحيدثة القريبة من راشيا الوادي وفي بعلبك، كما نزل بنو هلال في حوران في المكان المعروف اليوم بجبل الدروز حيث دعي يومذاك باسمهم جبل بني هلال».

معظم هذه الجماعات استجابت فيما بعد للدعوة التوحيدية (الدرزية) وبدأت كتابة صفحة جديدة من تاريخ الشرق الأوسط.

رأينا أن القرمطية هي التي هيأت النفوس وأوجدت المناخ الفكري الملائم للدعوات الباطنية التي عمت العالم الإسلامي فيما بعد، وكانت بالتالي التربة التي نشأت فيها دعوة التوحيد، كان ذلك في حدود القرن العاشر الميلادي الذي تميّز بالتحرك البشري الذي عمّ البلاد العربية وبالانتقالات الكبرى للقبائل في أرجائها الواسعة يقول جواد بولس[1] حول هذا الموضوع إن عدة قبائل عربية تسللت إلى جنوبي لبنان مصدرها الجنوب (الجنوب العربي) كما قدمت عناصر مماثلة من الشمال وتسللت عبر المضائق المفتوحة على مستنقعات سهل البقاع سعياً منها وراء مراع جديدة من هؤلاء بنو تغلب وكان مركزهم الرئيسي في مشغرة وانتشرت بين هذه الجماعات فيما بعد الدرزية والشيعية» وفيما نراه أن التشتت القرمطي كان سبب هذا النزوح. والملاحظ في تاريخ القرامطة أن التضحيات كانت أهم من النتائج وأن الصراع بينهم وبين الفاطميين آخر الأمر الحق الضرر بالفريقين.

(١) لبنان والبلدان المجاورة، ص ٣٢٩.

الأخشيديون:

أصل الكلمة (آق شيد) ومعناها: الشمس البيضاء، وهو لقب لملوك فرغانة[1] «مثلما كان قيصر لقب لملوك الروم وكسرى لقب لملوك فارس» مؤسس هذه الدولة القصيرة العمر هو طغج بن جف الفرغاني الآنف ذكره، دخل هذا القائد في خدمة العباسيين فأرسلوه والياً على دمشق ثم تغيّر عليه الخليفة العباسي[2] ساهم هذا القائد مساهمة فعّالة في حروب الخلفاء ضد القرامطة وكان حجر عثرة في طريق نجاحهم الكامل في البلاد السورية وبعده ضبط ابنه محمد الولاية واستقل بالأحكام وأجبر الخليفة العباسي على الاعتراف به ملكاً، فمنحه لقب أخشيد وولاّه على مصر وسوريا[3] ونشبت الحرب بينه وبين الأمير سيف الدولة الحمداني ثم تصالحا وتزوج الأمير سيف الدولة بإبنة الأخشيد، ولما توفي هذا الأخير آل الأمر بعده لولده أبو القاسم وكان قاصراً فتولى الوصاية عليه كافور صاحب اللقاءات الشهيرة بالشاعر العربي الكبير أبو الطيب المتنبي وتوفي كافور في السنة ٣٥٧هـ = ٩٦٩م وتولى بعده علي الأخشيدي وهذا استمر في ولايته سنة واحدة قتله بعدها القائد الفاطمي جوهر الصقلي الذي افتتح مصر لسيده المعزّ لدين الله وأنهى حكم الأخشيديين فيها ودخلت البلاد تحت حكم سيد جديد هو الخليفة المعز لدين الله الفاطمي[4].

الفاطميون:

ينتسب الفاطميون إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول الكريم وزوج الإمام علي كرم الله وجهه وهي أم أولاده الحسن والحسين أقاموا دولتهم أول الأمر في المغرب سنة ٢٩٦هـ = ٩٠٩م أسسها عبيدالله المهدي، قيل في هذه الدولة أنها كانت «تجمّع لمن نبذ طاعة العباسيين في الشرق وطاعة أمويي الأندلس في

(١) دائرة معارف، البستاني، ج ١١، طبعة مصر، ص ٣١٠.
(٢) لبنان مباحث علمية منشورات الجامعة ١٨، ج ١، ص ٢٩٧.
(٣) خطط الشام، ص ١٨٦.
(٤) منشورات الجامعة اللبنانية ١٨، ج ٢، ص ٢٩٧.

الغرب» فشملت ما بين مراكش وليبيا. حاول الفاطميون احتلال مصر في زمن الخليفة القائم ابن المهدي، فتصدّى لهم كافور الأخشيدي ومنعهم من ذلك وتكررت محاولتهم في زمن المنصور، وباءت المحاولة أيضاً بالفشل، ولكنهم وفقوا إلى ذلك في زمن الخليفة الرابع سعد أبي تميم الملقّب بالمعز لدين الله، كان المعز من أقوى خلفاء هذه الدولة في تاريخها الطويل، وقد عاشت الدولة الفاطمية في عهده عصرها الذهبي.

أرسل المعز قائد جيشه جوهر الصقلي إلى مصر فاحتلها ولم تستطع بغداد العباسية يومها نجدة الأخشيديين لإنشغالها بحروب القرامطة. كانت عاصمة مصر يومذاك مدينة الفسطاط فرأى القائد جوهر أن يبني عاصمة جديدة للدولة فخطط وبنى مدينة القاهرة اليوم ودعاها (قاهرة المعزّ) وبنى فيها جامع الأزهر الشهير ثم أرسل يستدعي سيّده من المغرب، وجاء الخليفة المعز إلى مصر فوصل القاهرة في شهر شعبان من سنة ٣٦٢ = ٩٧٣م وأحضر أجداث جدوده معه ثم بنى لهم مقابر جديدة في مصر[1] اتجهت أنظار المعز القوي شطر البلاد السورية، وكانت الممالك الإسلامية المشرقية يومذاك تمر بمرحلة وهن وعجز، لم تستطع معها التصدي للامبراطور البيزنطي حنا زيمكس الذي كان قد غزا البلاد السورية واستولى على بعلبك وصيدا وبيروت وأرغمت دمشق على دفع الجزية[3]. فانبرى الفاطميون لدرء الخطر، وكانت خلافات شديدة مستحكمة بين أمراء البلاد الوطنيين وبين الملوك الفاطميين مما حدا بهؤلاء الأمراء أن يتعاونوا مع الروم والفرنجة ضد الفاطميين ففي معركة جرت على نهر العاصي انتصر فيها الفاطميون على البيزنطيين المتحالفين مع الحمدانيين وهزموهم شر هزيمة وذلك في العام ٣٨١هـ = ٩٩٢م ثم عادوا وهزموهم في معركة كبرى برية ــ بحرية جرت في مدينة طرابلس تقلص بعدها وجود البيزنطيين حتى انطاكية.

(١) العدد ١٦١ من مجلة العربي الكويتية من مقال للأستاذ حسن الأمين، موقف أمراء العرب، د. أمينة بيطار، ص ٤٨؛ حنا زيمكس هو المعروف عند المؤرخين العرب بابن الشمشيق.

أدرك الخليفة المعز لدين الله حاجة الدولة الناشئة لأسطول بحري قادر على دفع عاديات الروم والفرنجة عنها فأنشأ أسطولاً ضخمًا ضم إليه أسطول الأغالبة التي امتلكه فتكونت لديه قوة بحرية ضاربة قدرت بمائتي سفينة كبيرة وخمسة آلاف ربان فسيطر على المتوسط الشرقي من جبل طارق إلى بيروت، وقد حارب رجال هذا الأسطول مع القوات المنقولة بحراً وانتصر انتصاراً مؤزراً في جزيرة صقيلية وقد أشار ابن الأثير إلى ذلك الانتصار الرائع الذي أحرزه الجيش الفاطمي بقيادة الحسن بن عمار على الفرنجة الذين انهزموا لا يلوون على شيء وكان لهذه المعركة نتائج إيجابية على الحالة العامة في المشرق العربي أيضاً، ومن قول للشاعر الفاطمي الكبير ابن هاني الأندلسي في وصف ذلك اليوم:

يوم عريض في الفخار طويل
لا تنقضي غرر له وحجول
مسحت ثغور الشام أدمعها به
ولقد تبل الترب وهو همول

وأكمل في مدح الخليفة الظافر المعز لدين الله:

نامت ملوك في الحشايا وانثنت
كسلى وطرفك بالسهاد كليل
تلهيك صلصلة العوالي كلما
ألهت أولئك قينة وشمول

من أقوال بعض كبار المؤرخين المعاصرين أمثال الدكتور حسن إبراهيم حسن ود. محمد كامل حسين ود. مصطفى مشرفة نرى أن الدولة الفاطمية كانت من أقوى الممالك الإسلامية في ذلك العصر وبتوحيدها البلاد المغربية ومصر والبلاد السورية في دولة واحدة جعلت الأمر «بعثاً إسلامياً شاملاً وثوباً عربياً كاسحاً» حارب الفاطميون على جبهات ثلاث. في الغرب حاربوا الفرنجة وحكام الأندلس من العرب لخلاف بينهم «أضر بكليهما معاً». وفي الشرق حاربوا البيزنطيين الذين كانوا يحاولون العودة لإحتلال البلاد السورية. وفي

داخلية البلاد حاربوا الأمراء المحليين الذين سبق وأشرنا إليهم وكان هؤلاء يتعاونون مع الروم والفرنجة ضد الفاطميين، واشتهر عن الخلفاء الفاطميين حبهم للعلم والمعرفة فأنشأوا المكتبات الكبرى وبنوا دور العلم والمقول أن مكتبة القصر في القاهرة كانت تضم بين جدرانها ستمائة ألف وألف كتاب[١].

لما صارت بلاد الشام بيد الفاطميين، كانوا يسيطرون على بعض الأقسام الهامة من لبنان مثل: «وادي التيم وإقليم الخروب وإقليم التفاح والغرب والفتوح وكسروان» وكان لهم والياً على بلاد صفد وجبل بني عاملة تفانى هذا الوالي بخدمة أسياده الفاطميين وخدم مصالحهم بكل قواه واتبع مع خصومهم الشدة، ذبح مرة من مناوئي حكمهم مائتي رجل دفعة واحدة ونفى قسمًا كبيراً من هؤلاء المناوئين إلى مصر وتمكن من توطيد الأمن فاكتسب ثقة الناس، هذا الوالي هو بشارة الأخشيدي الذي ولي طبريا وضواحيها بأمر من الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة ٩٧٥م وباسمه تسمت تلك الأصقاع من جنوبي لبنان ببلاد بشارة[٢] وليس باسم شخص آخر كما اعتقد بعض المؤرخين وعن جبل عامل يقول البستاني[٣] إن البلاد المعروفة باسم جبل عامل تسمت نسبة لبني عاملة الذين استوطنوها وهم بني عاملة بن سبأ الذين نزلوا في بلاد الشام قبل الإسلام مع بني جذام ولخم وغسان. وعاملة اسم الحارث بن عديّ القضاعية فسمي بها هو وأبناؤه.

كثيرون هم المؤرخون الذين اتهموا الفاطميين بالتعصب الديني منهم المقريزي وابن القلانسي والأنطاكي. وقد أورد الدكتور أسد رستم نصّاً في كتابه «كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى» نقلاً عن يحيى بن سعيد الأنطاكي نفسه منشوراً بعث به مسؤول كبير في الدولة الفاطمية يومذاك هو حمزة ابن علي رأس مذهب التوحيد

---

(١) مجلة العربي الكويتية، العدد ١٦١.
(٢) صيدا عبر حق التاريخ، ص ١٤٧.
(٣) دائرة المعارف، ج ٩ و ١٠ كلمة شقيف.

(الدرزية) بعث به إلى بطريرك القدس ننقله كما جاء بحرفيته في المصدر الآنف الذكر[1]:

سجل من حمزة ابن علي[2] إلى نيقوفوروس بطريرك أورشليم وخلف تيوفيلوس:

بسم الله الرحمن الرحيم، أمر أمير المؤمنين بكتابة هذا المنشور لنيقيفور بطريرك بيت المقدس بما رآه عن إجابة رغبته وإطلاق بغيته من صيانته وحياطته والذي عنه وعن أهل الذمة من نحلته وتمكينهم من صلواتهم على رسومهم في افتراقهم واجتماعهم وترك الاعتراض لمن يصليّ منهم في عرصة الكنيسة المعروفة بالقيامة وخربتها على اختلاف رأيه ومذهبه ومفارقته في دينه وعقيدته وإقامة ما يلزم في حدود ديانته وحفظ المواضع الباقية في قبضته داخل البلد وخارجه والديارات وبيت لحم واللد وما برسم هذه المواضع من الدور المنضوية إليها والمنع من نقض المصلبات والاعتراض لإحباسها المطلقة لها ومن هدم جداراتها وسائر أبنيتها إحساناً من أمير المؤمنين إليهم ودفع الأذى عنهم وعن كافتهم وحفظاً لذمة الإسلام فيهم فمن قرأه أو قرىء من الأولياء والولاة ومتولي هذه النواحي وكافة الجماة وسائر المتصرفين في الأعمال والمستخدمين على سائر منازلهم وتفاوت درجاتهم واستمرار خدمتهم أو تعاقب نظرهم في هذا الوقت وما يليه فليعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه ويعمل عليه وبحسبه وليحذر من تعدى حده ومخالفته حكمه ويتجنب مباينة نصه ومجانبة شرحه وليقر هذا المنشور في يده حجة لمودعه يستعين بها على نيل طلبته وإدراك بغيته إنشاء الله تعالى».

كانت هذه رسالة حمزة بن علي إلى بطريرك بيت المقدس كما أوردها المؤرخ

---

(١) كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ج ٢، ص ١٩٣ و ٢٣٠ و ٢٣١.

(٢) عرف في بعض المراجع التاريخية باسم حمزة ابن علي الزوزني نسبة إلى بلده الأولى زوزن من أعمال البلاد الإيرانية يقول ياقوت الحموي في معجم البلدان عن زوزن أنها كورة واسعة بين نيسابور وهراة لقبت بالبصرة لكثرة ما أخرجت من الأدباء والعلماء والفضلاء.

يحيى بن سعيد الأنطاكي وهي كما نرى دليل تسامح وعدل أكثر منها دليل اضطهاد وظلم.

في زمن الفاطميين وعلى وجه التحديد في عهد الخليفة الفاطمي السادس الحاكم بأمر الله قامت الدعوة التوحيدية وعرف أتباعها بالدروز وكان وادي التيم موئلها الزاهر ومعتصمها الحريز في البلاد المشرقية ويشير صاحب الغرر الحسان إلى ذلك قوله:

«وكان من أعظم دعاة الحاكم أبو الفضل حمزة ولقبه الإمام وكان الحاكم يحبه محبة عظيمة ويخصصه على جميع عشيرته وكان صاحب الرسائل والمكاتبات عنده وكذلك أبو الحسن الملقب ببهاء الدين وإليه تنسب حارة بهاء الدين في القاهرة».

□ □ □

الفصل الثاني

وادي التيم
ودعوة التوحيد

رأينا أن الصراع الحاد والعنيف بين القرامطة والعباسيين جرى على مراحل، كان في كل مرحلة يقسو ويشتد ضراوة عن سابقتها. كانت قوة العباسيين في هذا الصراع تعتمد على الكثرة العددية والعمق الاستراتيجي، وقد اتسع هذا العمق حتى شمل ما بين القاهرة وبغداد. أما القرامطة فكانوا يعتمدون الشجاعة المطلقة في المجالين الجماعي والفردي. ودلتنا مجريات الأحداث أنه في كل مرة كان يساء فيها استخدام هذه المعطيات في غير الزمان والمكان المناسبين كانت تعود على أصحابها بالخسارة والخذلان. ففي معركة وادي القرن انهزم العباسيون لأن ضيق ساحة المعركة جعلت جيشهم كالفيل الذي ساقوه طوعاً إلى مصيدة الموت ففكه القرامطة تحت زخم البطولات الرائعة وتعقبوا فلوله حتى أبواب دمشق. وفي معركة حلب، حيث كانت ساحة المعركة مؤاتية للحشد والمناورة لم تجد القرامطة بطولاتهم نفعاً. بالإضافة إلى ذلك الخطأ المميت الذي ارتكبوه بدخولهم المعركة دونَ قيادة موحدة. فهزمهم الجيش ومزقهم شر ممزق.

بفعل هذا الصراع المحتدم، ونظراً لقربه من ساحات القتال تحول وادي التيم إلى معتصم استوعب معظم هذا النزف القرمطي. بقايا سيوف تلعق جراحها جاءته تنشد الأمان على أرضه بين قوم يمتون لهم بصلة النسب، يحتمون من السيف العباسي المسلط على هذه الحزون الجبلية في أعماق السلسلة الشرقية. واستقر في البقاع كثيرون من التغالبة وبني كلب انتشرت بينهم الشيعية

والدرزية على حد قول الأستاذ جواد بولس في كتابه «لبنان والبلدان المجاورة». ومنهم من أكمل طريقه نحو الغرب وتصعد الجبال اللبنانية وقد أشار إليهم المؤرخ أبو إسماعيل في كتابه «الدروز» وعيَّن هوية القوم ومكان نزولهم.

كان التشيع لأهل البيت أهم نول حيكت عليه أحداث العالم الإسلامي في ذلك العصر وربما في كل عصر. وكان الناس يغالون بالحديث عن بطولات القرامطة، لتأتي متوازية مع ظلم بني العباس.. وانحرافهم. وكان التباعد بين القرامطة والعباسيين دينياً إذا جاز القول ذلك مثله سياسياً، في مثل هذا الجو النفسي المثالي لتقبل الأفكار والمعتقدات المعادية لبني العباس والتي دعيت فيما بعد بالباطنية. وفي حدود العام ٤٠٨ للهجرة وفد إلى وادي التيم دعاة المذهب. فلاقت هذه الدعوة الآتية من لدن الفاطميين مع الكشف المنفتح الظافر من أرض مصر السمحاء قبولاً وإقبالاً بحيث أصبح وادي التيم أهم مركز لها في البلاد السورية أو فيما كان يعرف يومذاك بجزيرة الشام الفوقا، وحددتها إحدى المخطوطات أنها تمتد من تدمر شرقاً[١] حتى عرقه القريبة من طرابلس غرباً، ومن سلمية شمالاً حتى الأردن والشراة جنوباً.

من وادي التيم انطلق الدعاة يدعون لمذهبهم الجديد وفي قراه ودساكره القائمة على سفوح حرمون وشعابه المغلقة تمركزت الدعوة الفاطمية وهي تتقوى بالمريدين وتتقي المحن بدروع الطبيعة وجميل الصبر «دون ان ينال منها الاضطهاد إلا ما تناله النار من الجوهر الذي يخرج من بوتقته وهو أشد ما يكون توهجاً وصفاء على حد قول بعض المراجع. وظل الوادي يعيش أجواء روحانية سامية دعي من أجلها بالوادي الأنور حتى قامت فيه تلك الردة السيئة ـ ردة سكين ـ واستمرت حتى سحقتها سيوف اللخميين اللبنانيين وأعاد هؤلاء الأبطال للوادي صفاءه ورونقه[٢].

تعرض أهل الدعوة لاضطهاد ظلت صوره الرهيبة تتلاحق. ومسلسله الدموي يتوالى حتى زمن السلاجقة الذي نال الدروز وكل متشيع من ظلمهم

(١) يبدو أن هذا التقسيم كان معمولاً به في زمن الفاطميين.
(٢) أول ذكر للدروز ورد في أخبار الأوروبيين هو ما كتبه عنهم بنيامين التودلي سنة ١١٦٩م.

الشيء الكثير، وترك الدعوة كثيرون لينجوا بأنفسهم كانوا بمعظمهم من سكان السهول والأماكن السهلة الاجتياح مثل الغوطة وغيرها، ولم تبق التجارب الصعبة إلا على نخبة من الرجال، من أصحاب الايمان الراسخ والموقف الصلب. في زمن أصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر، على حد قول بعض المراجع، وللدلالة على عجز الاضطهاد عن قتل الأفكار ووأدها أورد هنا قصة كنت أسمعها في صغري، كانت تهز أعماقي في كل مرة كنت أسمعها وما أكثر ما سمعتها، مفادها: أن جماعة من الجلاوزة المتحكمين طاردوا أحد الدعاة الموحدين بقصد قتله، ولما هموا بالقبض عليه التجأ إلى شجرة كانت قائمة على جانب الطريق واحتمى بقرارة الشجرة. فقدر الله أن أغلقت القرارة نفسها عليه... وتأكد لمطارديه ذلك ولكنهم أصروا على قتله، فجاؤوا بمنشار كبير وأخذوا بقطع الشجرة من حيث يختبىء الداعي. وبعد قليل أخذت أسنان المنشار تتوغل في جسم الرجل وهو صابر على معاناته، متغلب على ألمه بعظيم ايمانه، ولما أصبح في النزع الأخير أطلق صرخة ألم، فاعتبر ذلك في نظر أركان المذهب عجز وعدم صبر من الداعي، فتدنت منزلته في الدين عن إخوانه...

وفيما أراه، إن هذا التطرف الحاد في الاضطهاد انعكس تطرفاً على معظم النواحي في حياة الدروز، فمتصوفتهم كانوا دائماً من رأي الحلاج والسهروردي وابن عربي، ويقول العارفون أن عهد الزهاد الدروز كان امتداداً لعهد المتطرفين من إخوان الصفا وليس منفصلاً عنه، وهم يرون في هذا الجماعة ـ المقدسة ـ مثلهم الأعلى.

أما سرية المذهب التي كانت مثاراً للتقولات. فسّرها كل على هواه. فهذا رأى فيها ما يسر، وذاك رأى فيها ما يسيء، والسرية ليست هنا بالمعنى الصحيح للكلمة، لأنها تتضح تماماً وتنعكس صورتها الحقيقية كالشمس المشرقة على سلوك الجماعة في جميع مجالات الحياة. وهنا أفرغت السرية من معناها المادي.

نورد هنا بعض الأقوال لأصحاب الأقلام العاقلة من الذين عايشوا الدروز عن كثب وعرفوهم حق المعرفة:

يقول المعلم سليمان البستاني في دائرة المعارف[١]: «إن مئات الدروز الذين ذبحوا في صوفر وحلب وأنطاكية وغيرها جعلهم يفرضون السرية على معتقداتهم الدينية، ويبدو أن هذا الكتمان أصبح تقليداً مع مرور الزمن عززه واقع الدروز المفطورين على احترام التقاليد، فكانت تلك السرية مثاراً للتقولات». وعنهم يقول إبراهيم الأسود في كتابه ذخائر لبنان: «إنه في العقّال من آثار الأدب والحشمة وحسن السلوك ما يدل على أنهم مسوقون إلى ذلك بحكم الدين».

ومن ميزات مجتمعهم أنه كان أول مجتمع ألغى الرّق ومنع الاسترقاق[٢]، وهم ليسوا بقدريين على النحو الذي يتوهمه البعض. من أقوال حكمائهم في هذا الموضوع: أمر تبينّ رشده اتبعوه، وأمر تبين غيّه اجتنبوه، وأمر أشكل عليكم فلله ردوه. ومن جميل أقوالهم: ربي إن أثبت فبفضلك، وإن عاقبت فبعدلك.

والدروز لا يجمعون بين زوجين ولا يردون طالقة، وأكثر من ذلك: ممنوع ومعاب على المطّلق أن يجتمع بمطلقته أو يكلمها، والقصد من هذا الامتناع هو تحرير المرأة كلياً من سيطرة رجل كان زوجها ذات يوم، وكي لا يؤثر عليها في بناء أسرة جديدة وكزوجة لرجل جديد.

إن أكثر القوانين رقياً في العالم لم تفطن إلى هذه المعطيات الخلقية الرائعة. والدروز هم المجتمع الوحيد في العالم الذي يمنع القاتل من دخول مجالس الحكمة، ومجتمعهم بالإجمال مجتمع التصرف اللائق والكلمة المهذبة، وتحاشي المنكرات في المأكل والمشرب. عنهم يقول أحد العقلاء من عارفيهم ومجاوريهم: «من آدابهم في القول أنهم يتحاشون حتى لفظ الاسم الصحيح للقرد لما في الكلمة من قوة لفظ وفي المسمى من قباحة شكل، فيدعونه التعسان». وعرف

(١) دائرة المعارف، ١٨٨٣، ج ٧ ص ٦٧٦.
(٢) لبنان، مباحث علمية ــ ١٨، ج ١ ص ٣٠٧.

شيوخ الدروز من مجاوريهم وعارفيهم في الماضي بالإبدال لتعبدهم وزهدهم المطلق في الدنيا[١]. ومن عودة إلى القول أنه منذ العقد الأول للقرن الخامس الهجري أصبح الدروز ووادي التيم اسمان متلازمان كالروح والجسد، وجزءان كل منهما متمم للآخر.

ماذا عن مولاي بهاءالدين؟

هو أبو الحسن علي بن أحمد بن الضيف الطائي نسباً، السموقي مولداً، الفاطمي سياسة ومذهباً. عرف بين إخوانه من أهل الدعوة التوحيدية باسم المقتنى بهاءالدين، وهذا اللقب منحه إياه من هم أعلى منه مرتبة تكريماً له في تقليد درج عليه البلاط الفاطمي بمنح هذه الألقاب، وازدهر هذا التقليد في عهد الحاكم.

ولد المقتنى في حدود العقد السابع من القرن الرابع الهجري، على أصح تقدير، في قرية تدعى السموقة، أشير إليها أنها من أعمال حلب. ومارس السياسة في سن مبكرة من حياته الكريمة كما يبدو من مجريات الأحداث التي عاصرها أو تلك التي شارك بصنعها على ساحة البلاد السورية.

شخصية تاريخية هامة، أخلص للدولة الفاطمية وعمل على تثبيت أقدامها في بلادنا. وداعية حاكمي نشط، رعى دعوة التوحيد على مدى سبع عشرة سنة هي مدة قيادته لدعوة كان من أيمتها الكبار. تميزت حياته بالاستقامة وحب الحكمة، ووسمت كتاباته بالمعرفة العميقة والسبك الأدبي والعبارة الغنية بطريقة بز فيها كتاب عصره. فشهد له بذلك من هم أعلى منه مرتبة وأشادوا بتفوقه وحسن معرفته، تميز عصره بكثرة الحروب والاضطرابات التي اجتاحت العالم الإسلامي وتعدد الوجوه والجهات المتصارعة فيما بينها على امتلاك سوريا وما حولها من بلاد العرب والمسلمين، من عباسيين وفاطميين وقرامطة وسلاجقة وأمراء محليين وروم بيزنطيين. يقول الدكتور طه حسين في ما كتبه عن أحداث

(١) نفس المصدر.

ذلك العصر: لن تظفر إن حاولت أن تكتب تاريخاً جغرافياً للمسلمين في ذلك العصر برقعة من الأرض تأخذ لوناً واحداً وزمناً طويلاً، وإنما هي اليوم لمصر وغداً للعراق وبعد غد للروم. وقد لعب في تلك السنوات الصعبة من حياة الدولة الفاطمية دوراً هاماً في السياسة اللبنانية والسورية.

في هذا الجو العاصف بالاضطرابات من العقدين الأول والثاني من القرن الخامس الهجري، سار هذا الداعية النشط بسياسته مع الدولة الفاطمية على خطين غير متوازيين في معظم الأحيان وجاء مجلياً في كليهما.

خط الظاهر البينّ: أخذ فيه خط السياسة العامة للدولة الفاطمية عاملاً في خدمتها بتفان مطلق، مجاهداً لتثبيت أقدامها في بلادنا بالرغم من الانتكاسات الكثيرة التي تعرضت لها سياستها في سوريا، فنال ثقة حكامها بدءاً من الحاكم إلى الظاهر فالمستنصر.

ثم خط الباطن المستتر: وهو الداعية الحاكمي النشط لدعوة أصبح الحد الخامس فيها عاملاً على تركيزها وانتشارها أكثر من أيّ من سابقيه الذين شهدوا له بذلك من خلال قولهم: «وتالينا يقوم بها أعلى من كل حد قام». وأرسل دعاته إلى اليمن والاحساء والعراق وإيران والهند، وإلى بلاد الروم يدعو ملكها قسطنطين الثامن لقبول دعوته بمنطق الواثق من قوله. وبعد انقضاء عهد الحاكم ـ العهد الذهبي بالنسبة للدعوة ـ جاء الخليفة الظاهر وأسلم أعناق الموحدين من أهل الدعوة للسيف والنطع في محنة دموية وصفت بأنها كانت أضيق من حلقة الميم على قلب السقيم. وهنا أخذت سياسة المقتنى تنحو منحاً خاصاً أظهرت فيه كفاءته ومقدرته فعرف كيف يتلقى الصدمة ويسير بدعوته ودعاته تحت ستارة من عالم الستر. . يعرف أين يقف ويعرف متى يسير، يبعث الرسائل ويشدد العزائم ويضرب الردة، يهيىء الخيول لسفره براً ثم يبحر والعكس.

تقوى بمصداقية قل نظيرها بين الناس مستوحاة من مسلكية سلمان وأبو ذر والمقداد وعمار من صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، متأثراً بالعلوم التي استفادها من آداب الهند وفارس ومن حكمة ذلك الرهط المتألق من فلاسفة

الإغريق أمثال: فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو ومن جاء بعدهم من فلاسفة المسلمين ومتصوفتهم. هذه المسلكية التي نشاهد آثارها الواضحة ومعالمها البينة على سلوك شيوخ الموحدين ـ الدروز ـ من الذين أخذوا من بهاءالدين المثل واتجهوا بكليتهم إلى الله تعالى، جلت قدرته.

أما لماذا أبقى الخليفة الظاهر على المقتنى بهاءالدين في الوقت الذي صبّ فيه جام غضبه على أهل الدعوة؟

هذا السؤال أجاب على قسم منه الشيخ الاشرفاني في مؤلفه عمدة العارفين، فأشار إلى أن المقتنى لم يسلم نهائياً من المحنة التي نالت أتباعه بعد ذهاب الحاكم، وأنه اضطر للتخفي وللانتقال من القاهرة إلى الاسكندرية ثم إلى أنطاكية في السنوات ٤١٩ و٤٢٠هـ، وقبلها في العام ٤٠٩هـ. والمقبول قوله أن الأسباب التي حققت سلامة المقتنى وحقنت دمه هي التالية:

أولاً: كراهيته لولي العهد عبدالرحيم بن الياس وعلى هذا الخط التقى مع الخليفة علي الظاهر. فهذا كرهه لأسباب مصلحية لأنه رأى فيه منافساً له على ولاية العهد. والمقتنى كرهه لأسباب مسلكية وقد نظر إليه بعين المؤمن الذي يرى بنور الله . . . فرآه من أول الأمر ضحلاً لا يصلح لهذه المهمة الكبيرة ولي عهد المسلمين، وقد تحقق ظن المقتنى بعبدالرحيم فيما بعد عند تسلم هذا الأخير دمشق في مدة قصيرة نسبياً أوجبت استدعاءه منها إلى القاهرة مرتين لمحاسبته على أخطائه، فإذا كان قد عاد في المرة الأولى على شيء من الاحترام ولكن في المرة الثانية استحضر قسراً عنه وعن يد بهاءالدين نفسه، كما سنرى بعد قليل.

ثانياً: خدمة المقتنى الصادقة للدولة الفاطمية وعفته عن المكاسب والمغانم الدنيوية والمغريات التي يُطلب ود السلطة من أجلها، وهذا ما كان يعرفه الخليفة الجديد تماماً.

ثالثاً: خبرته بالساحة السورية المتحركة دائماً تحت أقدام الحكام من فاطميين وغيرهم ومعرفته معمياتها وعوامل تحميتها، بالإضافة إلى قوته على هذه الساحة من خلال قومه وأنصاره. وكان يفقه تماماً العلوم الدينية لكافة الأديان

بالرغم من انشغاله الكثير في الأمور السياسية، وهذا ما عزز مركزه في بلد يعتمد العلم والحكمة شعاراً له.

رابعاً: إنه من طي القبيلة العربية ذات الوجود السياسي والعملاني المؤثر على الساحة السورية وتجربة الفاطميين القديمة مع بن دغفل ومن جاء بعده من أبنائه أمراء الرملة تؤكد هذا القول.

لهذه الأسباب مجتمعة كانت حياة المقتنى في نظر الخليفة الفاطمي موازية لأحلام دولته في لبنان وسوريا فأبقى عليه، ثم استماله فيما بعد وعينّه أستاذاً في القصر وقاضياً ومفتياً في حدود العام ٤٢٩هـ = ١٠٣٧م فلم يلبث هذا الناصح الصادق للدولة، أن أعاد للدعوة سابق نشاطها.

خط الدولة وخط الدعوة. على هذين الخطين غير المتوازيين في معظم الأحيان عمل المقتنى وكانت تربط بين الخطين محامده الكثيرة وفضائله الوفيرة فمثلما كان المخلص الأمين للدولة الفاطمية. كان الراعي الصالح لجماعته فاشتهر بالحدب عليهم ورأفته البالغة بالضعفاء منهم ومشاركتهم معاناتهم فيما أصابهم من جور السلطة وقبيح الردة، خاصة تلك الردة الشنيعة التي قامت في وادي التيم، ولما استفحل شر القائمين بها أرسل المقتنى إليهم رجال لبنان الأشداء من الموحّدين البررة فسحقوا الردّة وأنهوا أمرها. أما أعماله الزمنية فتصعب الإحاطة بها بشكل كاف لكثرة الأسماء والألقاب التي حملها ولكن كانت حلب على ما يبدو أول ساحة برز عليها هذا الفارس. ومن عودة بالأحداث إلى شهر صفر من العام ٣٥٦هـ الموافق للعام ٩٦٦م في هذا التاريخ توفي الأمير سيف الدولة الحمداني وتولى الامارة بعده ابنه سعد الدولة أبو المعالي. وبذل هذا الأمير جهداً كبيراً في المحافظة على إمارته التي كانت تحيط بها الأعداء من كل جانب وظل هذا شأنه حتى توفي في العام ٣٩٣هـ تاركاً ولديه الصغيرين بعهدة مخدومه لؤلؤ وهذا الأخير كان مولى لبني حمدان قام الرجل بمهمة الوصاية على ابني سيده خير قيام في أول الأمر وأخذ البيعة لأحدهما سعيد الدولة ثم تزوج سعيد الدولة من ابنة لؤلؤ، ورغمًا عن ذلك قام لؤلؤ بدس السم لسيده

وصهره بذات الوقت فقتله مع زوجته وتملك العبد حلب ضارباً بواجب الوصاية وحق المصاهرة عرض الحائط وظلت حلب بعهدة لؤلؤ حتى توفي في العام ٣٩٩هـ أورثها لابنه منصور بن لؤلؤ. ومنصور هذا كان السبب في كل ما حصل من سوء ضد أولياء نعمة أبيه[1] توجه منصور بالطاعة إلى الخليفة الحاكم فأكرمه الحاكم ومنحه الولاية ولقبه مرتضى الدولة «المرتضى»[2] ولم يكن الرجل صادقاً بوعده وولائه فانقلب على أسياده الفاطميين وحدثت بينه وبين المرداسيين نزاعات انتهت ببقاء القلعة بيده. ثم تجددت المنازعات بينه وبين عامله دودار القلعة فتح فغلبه فتح وانتزع منه القلعة وفر منصور هارباً إلى انطاكية. يقول صالح بن يحيى حول هذا الموضوع:

ومما ذكره المؤرخون أنه في السنة ٤٠٥هـ أقطع الحاكم بأمر الله خليفة مصر صور وصيدا وبيروت للفتح عوضاً له عن حلب ولقبه مبارك الدولة وسعدها.. «وكان ارتفاع الثلاثة أماكن المذكورة ثلاثمائة ألف دينار» ويعقّب لويس شيخو على قول صالح بن يحيى بما يلي: «كان الفتح دودار قلعة حلب في خدمة صاحبها أبي نصر بن لؤلؤ فجرت وحشة بينه وبين أستاذه فعصيه واستولى على القلعة وكاتب الحاكم بأمر الله فأرسل الحاكم نوابه فتسلموا المدينة وأعطاه الخليفة عوضها صور وصيدا وبيروت[3].

ويقول ابن العديم كانت حلب لمرتضى الدولة بن لؤلؤ وكان هناك خلافاً بين مرتضى الدولة وبين صالح بن مرداس ثم عادت المياه إلى مجاريها بين الاثنين وعادت المدينة ليد المرتضى ثم تجدد الخلاف بين المرتضى وفتح فاستولى فتح على القلعة وهرب المرتضى إلى انطاكية، بعد ذلك كاتب فتح الخليفة الحاكم وأخبره الأمر فسر منه غاية السرور وأرسل يشكره ويطلب إليه تسليم حلب

(١) خطط الشام، ص ٢٢١.
(٢) ذات المصدر.
(٣) المشرق، س ١.

والقلعة إلى أبي الحسن علي ابن أحمد العجمي المعروف بالضيف وبعد تسليم حلب لعمال الحاكم. كتب الحاكم إلى أهلها منشوراً قرىء عليهم ما يلي نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا من الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لجميع أهل حلب وأعمالها أنه لما انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنتم فيه من الظلمة المدلهمة وقبيح ظفر من يتولى أموركم في المعاملات وزيادتهم عليكم في الخراج والجبايات أضعافاً لكم وعدولاً عن سنن الحق بكم أمر زاده الله علواً ونفاذاً بإطلاق المؤن من دار كورة ونظائرها والصفح عن الواجب عليكم من مال الخراج لاستقبال سنة سبعة وأربعماية لتعلموا أن ضياء الدولة النبوية قد لمع وظهر وإن حندس الظلام قد جاب واندثر

وأبو الحسن علي بن أحمد تعرّفه لنا الدكتورة أمينة البيطار في كتابها موقف أمراء العرب ونقلاً عن (Van Bercham) على النحو التالي[1].

هو الأمير سديد الدولة أبو الحسن علي بن أحمد الضيف كان حاكمًا على أفاميا سنة ٤٠٦هـ ثم عين بعدها والياً على حلب ولكنه تركها عندما استولى عليها المرداسيون في شهر رمضان من سنة ٤٠٧هـ وفي يوم ١٥ ذي القعدة سنة ٤٠٨هـ دخل الأمير سديد الدولة دمشق بوصفه والياً عليها من قبل الحاكم بأمر الله ولكن لم يطل أمره فيها وفي ربيع الثاني سنة ٤١٣ دخل الأمير سديد الدولة حلب وأعلن فيها الخطبة للخليفة الفاطمي وفي العام ٤١٥هـ عين والياً على الشام كلها.

وفيما نراه هنا أن الفتح عند صالح بن يحيى هو نفسه أبو الحسن علي بن أحمد عند ابن العديم ولكنه عربي وليس عجمي كما اعتقد هذا الأخير، وهو أيضاً الأمير سديد الدولة ـ وردت عند صالح بن يحيى سعد الدولة ـ والأصح سديد الدولة. إذا صحت ترجمة (Van Bercham) أو من عرّب له لعدم وجود

(١) أمراء العرب، ص ١٢٥ ـ ١٢٦، ٢٥٤؛ ابن العديم، ج ١، ص ٢١٣؛ تاريخ حلب Van Bercham, op.cit., p. 270-274.

نظير لحرف ع في الأجنبية أما مرتضى الدولة (المرتضى) أبا نصر منصور بن لؤلؤ هو نفسه المرتد سكين وأن اسمه الصحيح هو منصور وليس مسعود كما اعتقد الأشرفاني. من هنا نرى أن معرفة مولاي بهاء الدين بسكين معرفة قديمة تعود إلى تلك الأيام التي أمضياها معاً في حلب، ونقطة الخلاف بينهما كانت عندما نكث منصور بوعده للحاكم الذي منحه الولاية، ثم اتفاقه مع صالح بن مرداس على أمر لا نعرفه ولكن نلمس أثره ووجهته السياسية في الحكم عليه من قبل رأي مولاي بهاء الدين فيه فلم يعجبه ما ينتج عن اتفاق الشريرين صالح ومنصور.

وأشارت المصادر التاريخية المعتمدة في كتاب أمراء العرب[1] إلى الأمير سديد الدولة أنه رمم قبة الصخرة المشرفة في القدس بعد الزلزلة التي أصابتها في العام ٤٠٧هـ وذلك في العام ٤١٣هـ استدل معتمدو هذا القول على نقش كتب هناك ودون في الشطر الثالث منه.

جرى ذلك على يد عبده الأمير ثقة الأيمة سديد الدولة علي ابن أحمد أثابه الله في سنة ثلاثة عشر وأربعماية.

ويقول المصدر نفسه أنه كان على مسجد في مدينة نابلس في فلسطين نقش مماثل ورد فيه اسم الخليفة الحاكم بأمر الله ثم عبارة بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه القبة الإمام أبو الحسن علي.. والخط الثاني في نفس الموضع يشير إلى اسم الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله وإن ذلك جرى على يد الأمير ثقة الأيمة سديد الدولة علي ابن أحمد أثابه الله في سنة ثلاثة عشر وأربعماية[2].

ومن أحاديث غير مسندة ولكنها متواترة بين الجماعات الدرزية في وادي التيم تشير إلى أن مولاي بهاء الدين في إحدى رحلاته بين مصر وسوريا مرّ قريباً من بلدة جب جنين في البقاع وأن خيول تابعيه ارتعت في تلك المحلة زرعاً

(١) أمراء العرب، ص ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٢) ذات المصدر.

فجاءه أحد الفلاحين وشكا إليه الأمر فأجابه المقتني عسى أن يعوض الله عليك ما يكفي. وحدث في تلك السنة أن كان هناك خصب وغلال وفيرة، فتذكر صاحب الأرض الكلمة التي سمعها في ربيع تلك السنة من ذلك الشيخ العابر بمنطقتهم فدعى تلك المحلة باسم المكفي ولا يزال هذا اسمها وموقعها كما يروى قريباً من جسر جب جنين اليوم.

أما طي إحدى متنصرة العرب هي في الأصل قبيلة من كهلان القحطانية جاءت من اليمن بعد سيل العرم وأخذت مواقع جديدة لها في البلاد الحجازية ـ يتفرع من طي بطون وفصائل عدة في الوطن العربي وكانت الرئاسة على طي في الجاهلية لبني هناء منهم أياس بن قبيصة الطائي الذي تسلم في الحيرة بعد مقتل النعمان المغرور به واستمر بنوه حتى مجيء الإسلام، وكان لطي صنم في الجاهلية يدعى (فلس) وفي السنة التاسعة للهجرة أرسل النبي الكريم علياً ابن أبي طالب فهدم الصنم وأزاله وفي السنة نفسها قدم على النبي الكريم وفد من طيّ من عداده سيد القوم زيد الخيل بن مهلهل فدعاهم الرسول إلى الإسلام فأسلموا وحسن إسلامهم وقال الرسول: ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاء إلا ورأيته دون ما يقال فيه. إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما فيه. ومن طي بنو الجراح أمراء الرملة في فلسطين منهم الأمير مفرج بن دغفل وأولاده حسان وعلي ومحمود. وذكرت بعض مراجع الدعوة اثنين أسمتهما جابر وزماخ ودعتهما بالفاضلين ويقول صالح بن يحيى إن الأمير منصور ابن عز الدولة درويش من أمراء الغرب تزوج بالست صفية ابنة الأمير مفرج مما يشير إلى تقارب بين تنوخيي لبنان وأمراء بني الجراح. وبني الجراح لعبوا دوراً كبيراً على ساحة البلاد السورية مع المرداسيين وبني كلب القضاعيين. فكانوا تارة مع هذا وتارة مع ذاك. أقاموا تحالفاً بينهم وبين المرداسيين، فضربهم القائد أنوشتكين الدزيري بمساعدة الأمير البطل رافع أبي الليل في شعبان من العام ٤٢٩هـ = ١٠٣٨م[1] فقصم ظهورهم بأن قتل

(١) رافع أبي الليل، للدكتور سامي مكارم، ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨.

صالح بن مرداس وابنه وتشتت الباقون لا يلوون على شيء. أما عبدالرحيم ابن الياس المعروف عند الدروز بهذا الاسم هو أبا القاسم عبدالرحمن ابن الياس ولاه الخليفة الحاكم بأمر الله ولاية عهده ودعى له على المنابر ونقش اسمه على السكة وذلك في حدود العام ٤٠٤هـ[1] ومن قول إنه بعيد جداً عن سلسلة الإمامة الفاطمية التي في نسل القائم[2].

كان ختكين الداعي متسلمًا دمشق فأساء فيها. عندها كتب الدمشقيون إلى الحاكم يرجونه عزل ختكين ففعل وأرسل بدلاً عنه عبدالرحيم بن الياس ويقول صاحب خطط الشام إن عبدالرحيم سمح للناس بشرب القهوة وسماع الأغاني وربما المقصود بالقهوة هنا الخمرة ثم حدثت مذبحة بين الدروز في وادي التيم من أوائل الذين استجابوا فيها للدعوة على يد ابن تالشليل أمير الأكراد وحدثت اضطرابات في دمشق وأرباضها. فأرسل الحاكم يستدعي عبدالرحيم إليه فخاف الرجل الأمر. ولكنه أطاع وسار باتجاه القاهرة ومعه الجند، حتى وصل إلى مدينة الرملة في فلسطين فثبت للحاكم حسن طاعة عبدالرحيم فأعاده من هناك إلى منصبه في دمشق وقلده تقليداً جديداً على المدينة. وحدث في المدينة فتنة اضطر الوالي إخمادها بقوة فنجم عن ذلك أضراراً لحقت بالدمشقيين فتنكروا له وأبغضوه واجتمع أهل البلد والجند على كراهيته ــ ولم يطل الوقت حتى استدعته القاهرة وكلفت المقتنى بهاء الدين بإحضار عبدالرحيم إليها وجاء المقتني من مصر إلى دمشق لهذا الغرض فوصل إلى لبنان أولاً وكان ذلك في ليالي عيد الأضحى المبارك فأمضى ليلة العيد في مقام النبي شمليخ القريب لبلدة صوفر في مواجهة بلدة عين دارة ونزل هناك ضيفاً على قريب له يقال ابن خالته يدعى الشيخ أبا القاسم بن منصور هبة ومن هناك تابع طريقه إلى دمشق ولما وصلها عرّج على سوق الحدادين فيها وأمر بصنع قفص كبير من الحديد نقله بعض خدمه إلى حيث يوجد والي المدينة فوجده يخطب في جماعة من الناس وما أن شاهد عبدالرحيم القفص حتى عرف الغرض من صنعه فتقدم إليه

(١) خطط الشام، ٢١٩ ــ ٢٢٠.
(٢) طائفة الدروز، ص ٤٩.

المقتنى وأمره بدخول القفص فأطاع فوراً وجيء به من دمشق على هذا الوضع المهين ويقال إن الرجل اغتيل في سجنه بأمر من الخليفة الظاهر الذي كان يحقد عليه لمنافسته إياه على ولاية العهد ومن قول إنه قتل بأمر من حمزة فور وصوله.

وما تجدر الإشارة إليه أن المقتنى وهو بطريق عودته إلى القاهرة مرّ في وادي التيم وحلّ ضيفاً على كبير شيوخ بني جندل في قرية بكيفا واستراح تحت شجرات زيتون لا يزال إلى الآن مكانها معروف من الناس هناك، ومتعارف القول إلى يومنا هذا أن الشيخ الجندلي قدّم لضيفه البطيخ. فأرسل المقتنى بطيخاً وسكيناً لعبدالرحيم ليأكل. ولكن واحداً من الحاضرين قال يا سيدي لا تعطه سكيناً قد يقتل نفسه، فتعجب المقتنى من فطنة هذا الرجل واتجه نحوه ضاحكاً وحدفه من أنفه باتجاه آخر فسمي هذا الرجل حديفة ولا يزال هذا اسم عائلته منذ تلك الأيام إذا صحت الرواية. أما اهتمام المقتنى في وادي التيم أمر مؤكد. دعاه مرة بالوادي الأنور عندما ازدهرت الدعوة فيه ودعاه مرة بالوادي الأخيب عندما كانت الطغمة تعيث في جنباته وعلى رأسها سكين فلم يغفل أمر الوادي وأمر الموحدين من أهله فأرسل لهم الرسائل كما أرسل لهم في تلك الأيام الصعاب من العقد الثاني من القرن الخامس الهجري رسولين مختارين. أولهما الداعي الشهيد عمار الذي سنقرأ أخباره بعد قليل ثم الست سارة «صاحبة العفاف والطهارة» وهي صاحبة تلك البيعة القائمة قريباً من قرية ظهر الأحمر وكان الغرض من مجيئها إلى الوادي شرح بعض الأمور المتعلقة بالدعوة إلى بنات جنسها من نسوة الوادي وتعليمهن ما هن بحاجة إليه وفهمه. وكان رفيقها في هذه الرحلة على الأرجح والدها الشيخ أبو الحسن تقي ابن أحمد الضيف وهذا شقيق للمقتنى بهاء الدين دعاه في مراسلته الأستاذ أبو الحسن تقي.

ماذا عن الداعي الشهيد عمار[1]؟

اسمه حسن المغربي وكنيته أبا يقظان، موطنه الأول البلاد الليبية وعلى وجه التحديد مدينة طرابلس الغرب، كان والده على شيء من الأهمية

(١) بني عمار من زعماء كتامة في ذلك العصر منهم الحسن بن عمار أحد الأوصياء الثلاثة على الحاكم برجوان ومحمد ابن النعمان وقد قتلهم الحاكم جميعهم.

في ليبيا، ولكن عمار ترك موطنه وجاء إلى مصر ودخل في دعوة مولاي بهاءالدين التي ابتدأت في حدود العام ٤٠٨ الهجري وانتهت في العام ٤٣٥هـ، فكان من أكابرها وتدرج في المراتب حتى أصبح داعية وعرف باسم الداعي المجيد أبا يقظان[1]، تميز بشجاعته وتضحيته في سبيل الدعوة التي آمن بها وبالموحدين من أهلها الذين ارتضاهم إخوة ورفاقاً. فأحبه مولاي بهاءالدين ووثق به، ومن جراء الاضطراب الذي حصل في وادي التيم بفعل الردة الشريرة على يد سكين وزمرته، وبعد مشاورات بين أولي الأمر في مصر، تقرر إيفاد مبعوث من بلاد محايدة في محاولة لإصلاح الحال، فرأى مولاي الشريف بهاءالدين أن يرسل عمار لهذه المهمة الصعبة. ولم يتردد ذلك المغربي المؤمن بالقبول وجاء حاملاً معه إلى سكين رسالة صيغت بلهجة الردع والتأنيب. ترك عمار مصر وسار باتجاه لبنان فوق فرس من أطايب الخيل، ولكنه ترك خلفه القلق الكبير على حياته وهذا ما فطن إليه مرسلوه فيما بعد، والسبب هو أن الحالة الأمنية كانت مضطربة في بلادنا من جراء تحالف أمراء العرب ضد الفاطميين وكانت الحالة السياسية العامة لصالح سكين وزمرته، أكثر منها لصالح عمار وجماعة الموحدين في الوادي، فألحقوا عمار برسول مساعد وكان كل منهما مجد في سيره، فكان عمار يترك القرية في الصباح فيصلها اللاحق به في المساء حتى وصل هذا الأخير إلى ضواحي طبريا، فأوقفته هناك جماعة تأتمر بأمر سكين في قرية تدعى السافرية، تأخر فيها حوالي نصف شهر، فكان قد نفذ القدر المكتوب بالداعي الشهيد.

كان مجيء الداعي عمار إلى وادي التيم في العام ٤١٨هـ = ١٠٢٧م، وبعد أن اجتاز تلك المسافة الشاسعة بين مصر ولبنان، وصل ـ أول ما وصل ـ إلى قرية بكيفا لعند الشيخ أبو الخير سلامة بن جندل والذي سبق للمقتنى أن حل ضيفاً عليه في عودته من دمشق ومعه عبدالرحيم، وأطلع الداعي عمار

(١) مصادر الدعوة، وكتاب عمدة العارفين، للشيخ الأشرفاني.

(٢) عن عمدة العارفين.

الشيخ على مهمته، فأدرك الشيخ بثاقب بصره وبمعرفته التامة طبيعة ذلك التجمع الشرير، خطورة الموقف بالنسبة للداعي عمار، ويبدو أنه كان هناك توصية من مصر لذهاب الشيخ أبو الخير مع الداعي عمار ولكن الشيخ لم يذهب ونصح عمار باستبقاء سيفه عنده في بكيفا بقصد أن تكون المواجهة سلمية بين الداعي وعناصر الردة. لم تكن في حينها القوة الفاطمية هي المسيطرة، من هنا كان موقف حلفائها في غاية الصعوبة ومنتهى الضعف.

كانت الردة مجتمعة في قرية الشعيرة قرب كوكبا في وادي التيم الأعلى تبعد عن بكيفا حوالي خمسة أميال، ولما وصل الداعي إلى الجماعة وجدهم مجتمعين في منزل مرتد كبير يدعى حسين بن شبيب، وكان خبر مجيئه إليهم قد انتشر بين الناس، وفي المنزل أعطى الرسالة إلى صاحبها سكين، فاعتقدها تقليداً وطلب إلى الرسول قراءتها بنفسه، فوقف عمار أمام الجماعة وأخذ يتلو عليهم رسالة مولاه، وأغاظهم مضمونها وطلبوا إليه الكف عن القراءة، فأبى إلا إكمال ما بدأه، فاعتدوا عليه بالضرب حتى اصطبغ بدمه ولم يتوقف حتى انتهت الرسالة. قال بعضهم بقتله فوراً، وقال آخرون باستمهاله ريثما يترك تخوم قريتهم ثم قتله بعيداً. أما الداعي عمار، فبعد أن بلغ الرسالة ترك القرية وركب راحلته واتجه جنوباً نحو الديار المصرية دون أن يعرج على قرية بكيفا ليأخذ منها سيفه وكسائه المودعة عند الشيخ أبو الخير، كان سكين قد استدعى إليه جماعة من بني تميم، مقامهم بلدة كفير العبس، فجاؤوا إليه وانضموا إلى من في الشعيرة من عناصر الردة، ثم أمرهم سكين باللحاق بعمار وقتله فلحقوا به في ضواحي بلدة إبل السقي وهناك أحاطوا به وقتلوه وانتهبوا ما معه، ثم غيبوا جثته في إحدى الرجم المتواجدة بكثرة هناك، وعادوا إلى سيدهم... فرحين بتنفيذ أمره، فقال لهم أحرقتم الجثة؟ قالوا لا، قال عودوا وأحرقوها لأنها ستخلف لنا متاعب كثيرة إذا لم تحرق، فعادوا إلى حيث ارتكبوا جريمتهم وابتدأوا بالبحث عن الجثة هنا وهناك فلم يوفقوا بالعثور عليها[1] نظراً لكثرة

(١) عمدة العارفين، ج ٣.

الرجم وتشابهها في تلك المحلة، فعادوا من حيث أتوا وأعماهم الله عن الجثمان الطاهر، وبعد مدة من الزمن ـ على ما يبدو ـ كانت جماعة من الأعراب مارة في تلك الأنحاء متجهة نحو البلاد الفلسطينية، وقرب إحدى الرجم ربضت ناقة من القافلة وأبت النهوض بالرغم من ضربها وزجرها، فلفت الأمر نظر أحد الأعراب الأذكياء، فقال لصحبه: فيما أرى أن في هذه الرجمة جثة وليّ دعونا نتحقق من ذلك، ولما تأكد لهم وجود الجثة قال الأعرابي: دعونا نحمل الناقة هذا الجثمان وندفنه في أول مكان تربض فيه[1]، وسارت الناقة تحمل على ظهرها الحمل الثمين حتى وصل القوم إلى سهل الحولة في فلسطين، وفي محلة من ذلك السهل الفسيح ناخت الناقة وربضت من تلقاء نفسها، فأنزل الأعراب الجثة ودفنوها، ثم تابعوا سيرهم. وكان أن اشتم المارة من أهالي القرى المجاورة رائحة تحلل الجثة فدعوا ذلك المكان بالوقّاص، ولا يزال هذا اسمه حتى اليوم.

أما الأخيار في وادي التيم الذين لم يسعدهم الحظ بمساعدة الداعي الشهيد في حياته وحرموا من أن تتبارك أرضهم بجثمانه الطاهر، أقاموا له في قرية بكيفا ـ مكان نزوله الأول ـ بيعة تذكارية فيها من روحانية الذكرى وأثر الشهيد[2] ولا يزال هذا الأثر المبارك يزهو ويتجدد وكأنه الشاهد على تجدد الايمان في نفوس الموحدين في كل عصر وزمان.

بقي أن نشير إلى أن ردة الفعل الإيجابية على مقتل الداعي الشهيد عمار كانت ذات شقين: الشق الأول تكلف بتنفيذه الإنسان، لأن مصرع عمار كان من الأسباب الرئيسية التي عجلت بالانتقام من الشردمية ـ لا يزال هذا اسم تلك الردة التي قامت في وادي التيم حتى الآن ـ فسحقتهم سيوف اللخميين اللبنانيين بأمر من مولاي بهاء الدين، كما سنرى.

أما الشق الثاني، فقد تكفلت بتنفيذه القدرة الإلهية... ومؤداه أنه بينما كانت جماعة كبيرة من بقايا تلك الردة مجتمعة في مسجد قرية الشعيرة لأسباب

(١) عمدة العارفين، ج ٣.
(٢) هناك من يعتقد أن كساء الداعي أو سيفه الذي سبق وأودعها في منزل الشيخ أبو الخير، موجودة في المكان الذي أقيم عليه البناء.

غير دينية[1]، فكان أن تصدع المسجد وانهارت صفائح الحجارة على رؤوس القوم ولم ينج منهم أحد.

ومن عودة إلى أخبار جماعة الأعراب التي كانت تقيم في وادي التيم ذات يوم، والذي يعتقد أن بعض جماعاتهم نقلت جثمان عمار الطاهر، نشير إلى أقوال بعض المستشرقين والرحالة الذين أموا بلادنا في الماضي، منهم (روبنصون)[2]، قالوا أنه عاش في وادي التيم حيّان كبيران من الأعراب هما عرب الصبان وعرب الصبيح، كانا كثيري العدد، وما يجدر ذكره، أن لا أثر يذكر لأي من هذين الحيين من الأعراب في أيامنا الحاضرة لا في وادي التيم ولا في غيره من الأقاليم المجاورة.

ماذا عن أنوشتكين الدزبري؟

هو الأمير قائد جيوش عمدة الإمام المظفر أبو منصور أنوشتكين الدزبري. تركي الأصل، ولد في بلاد ما وراء النهر في بلدة تدعى بختل، ومنها سبي وحمل إلى كاشغر، ثم هرب منها إلى بخارى. اشتراه فيها أحد الأعيان، ثم حمل إلى بغداد فدمشق وذلك في حدود العام ٤٠٠هـ[3]، ثم اشتراه القائد الديلمي تزبر بن أونيم. وعن هذا القائد أخذ اسمه التزبري وهذا صحيح اسمه وندبه تزبر لحماية أملاكه والدفاع عنها، فقام بعمله على أكمل وجه وعرف بانضباطه وشدته حتى شاع ذكره في محيطه، ثم طلب إلى مولاه أن يهديه إلى الخليفة الفاطمي في مصر الحاكم بأمر الله، فكان أن أرسل مع جماعة من الغلمان إلى مصر، وعلى الطريق اصطدم مع الغلمان فقوي عليهم وقهرهم وذلك في حدود العام ٤٠٣هـ. وفي مصر لزم بخدمة الحاكم فحظي برضاه، ولم يطل الوقت حتى تأمّر على حملة عسكرية ذاهبة إلى سورية مع سديد الدولة الضيف!!

بمثل هذه السرعة احتل هذا القائد الموهوب مركزه في عالم الحرب كأحد القادة البارزين في حياة الدولة الفاطمية الناشئة أمثال جوهر الصقلي وجعفر بن

(١) عمدة العارفين، ج ٣.
(٢) مباحث ثورانية.
(٣) دراسة في تاريخ صيدا، للدكتور عبدالعزيز سالم، ص ٧٩ ـ ٨٠.

فلاح وغيرهم، فلقبه الخليفة (منتجب الدولة)، دخل دمشق، ثم عاد إلى مصر، ثم نصب والياً على بعلبك. صادق ولاة الأطراف واتصل بمتسلم حلب وهاداه ونقل إلى قيسارية، ثم أسندت إليه ولاية فلسطين كلها في حدود ٤١٤هـ، ثم اختير لقيادة حملة ضد أمراء العرب الذين كانوا يكيدون للفاطميين في سوريا، منهم صالح بن مرداس أمير بني كلاب القوي في شمالي سوريا، وسنان بن عليّان أمير بني كلب، ثم حسان بن مفرج بن دغفل الطائي أمير الرملة في فلسطين. وكان هؤلاء الثلاثة الأقوياء قد اتفقوا فيما بينهم على اقتسام سوريا بعد إزالة الحكم الفاطمي عنها[1].

وكادت أحلام هؤلاء الثلاثة أن تحقق لو لم يكن أنوشتكين الدزبري في الجهة المقابلة، فتصدى لهم وجرت بينه وبينهم معركة كبرى في طبريا على نهر الأردن في محلة تدعى الأقحوانة، نازلهم هناك في العام ٤٢٠هـ = ١٠٢٩م. وسار صالح بن مرداس على رأس قواته من حلب إلى الأقحوانة مع حسان بن الجراح، وعلى الرغم من أن صالح كان يركب على فرسه المشهور، فقد قتل. عجزت[2] فرسه عن الوقوف به فلحقه رجل من العرب يدعى طريف من قبيلة فزارة، فضربه بالسيف وقتله وقطع رأسه، وكان معه ولداه، أكبرهما نصر، فر من المعركة وعاد إلى حلب، وقتل الأصغر. وهرب حسان إلى البيزنطيين لاجئاً.

كان أنوشتكين يعتمد في هذه المعركة اعتماداً كلياً على حليفه الأمير رافع أبي الليل[3]، وكان قد سبق لهذا التحالف أن تغلب على أنوشتكين وأجبروه أن يتراجع إلى عسقلان، ثم قبضوا عليه وأطلقوه، فعرف هذا القائد كيف يحكم ضرباته. اتصف أنوشتكين بالإضافة لمقدرته الحربية بالحنكة السياسية والدراية، فشلّ حركة المرداسيين في شمال سوريا وعقد مصاهرة مع نصر بن مروان ليتقوى بذلك وتمكن من شراء رضى ثمال زعيم بني مرداس بخمسين

(١) موقف أمراء العرب بالشام، ص ٢٥٦؛ الكامل في التاريخ، ج ٩ ص ٢٣٠ ـ ٢٣١.
(٢) موقف أمراء العرب، ص ٢٥٨ عن ابن القلانسي.
(٣) نفس المصدر، ص ٢٦٤.

ملاحظة: توفي القائد أنوشتكين في مدينة حلب يوم الأحد منتصف جمادي الأول ٤٣٣هـ الموافق في ١٠ كانون الثاني سنة ١٠٤٢م، موقف أمراء العرب، د. بيطار.

ألف دينار، فكان محل إعجاب الخليفة المستنصر الفاطمي وتقديره وكان بذات الوقت موضع حسد وزيره أبو الحسن الجرجرائي الذي لم يترك فرصة تسمح له بالانتقام من هذا القائد اللامع إلا واستغلها. وبعد جهاد طويل ومضن في معظم مراحل حياته استقر أنوشتكين في حلب حتى توفي في العام ٤٣٣هـ = ١٠٤٩م، ومما قيل فيه: «ولم يكن أنوشتكين الدزبري قائداً ممتازاً وحسب، بل كان لديه قدرة سياسية كبيرة، فقد استطاع بما أوتي من كفاءة إدارية أن يقضي على معارضة الأهالي للحكم الفاطمي». وقيل: «كانت مدة حكمه في الشام تمثل قمة السيطرة الفاطمية عليها». وقال أبو الفداء: لم يعد للقبائل في أيامه وزناً يذكر. وخضع الجميع لطاعة الخليفة الفاطمي بمصر.

وعن كلاب هذه القبيلة العربية التي كان على رأسها ذات يوم صالح بن مرداس ــ اللاصالح . . . ــ يذكر لنا التاريخ أن الكلابيين أحدثوا في حدود العام ٣٤٣هـ = ٩٦٣م حدثاً في ضواحي بالس في شمالي سوريا، مما دفع الأمير سيف الدولة الحمداني لمعاقبتهم، فطاردهم وظفر بهم وامتلك حريمهم. ولكن سيف الدولة أبقى على الحريم، وبعد رجوعه من المعركة أنشده أبو الطيب المتنبي قصيدته المشهورة والتي يقول في مطلعها:

«بغيرك راعياً عبث الذئاب»

ومنها عما حدث لنساء كلاب(1):

فعدن كما أخذن مكرمات ... عليهن القلائد والملاب
وكيف يتم بأسك في أناس ... تصيبهم فيؤلمك المصاب
وإنهم عبيدك حيث كانوا ... إذا تدعو لحادثة أجابوا

وفي مكان آخر نرى أن خارجياً ظهر من كلاب في الكوفة، وللمتنبي قول في ذلك الخارجي، يسخر به من أولئك الرعاة الذين يحاولون إقامة دولة:

أرادت كلاب أن تفوز بدولة
لمن تركت رعي الشويهات والإبل

(1) ديوان المتنبي، التراث، ص ٣٩ ــ ٢١٣.

لخمّي في وادي التيم

«الأمير أبو الفوارس معضاد بن يوسف الفوارسي اللخمي:
ــ قاهر الردّة وكفيل الموحدين ــ
قضاؤه على الفئة السكينية وقصته مع صالحة الوادي»:

* * *

مصادر هذه المطالعة التاريخية مستقاة من مصدرين:

أولهما: منقول عن كتاب عمدة العارفين للشيخ الأشرفاني؛ **وثانيهما**: معقول، وهو من جليل تراثنا المتواتر منذ ذلك الزمن حتى يومنا هذا.

لم يسبق أن عرف أهل وادي التيم في تاريخهم القديم والحديث شخصية روحية أو زمنية أحبوها وأكرموها مثلما أحبوا وأكرموا الأمير أبو الفوارس معضاد بن يوسف اللخمي أمير الغرب (غرب بيروت) من العام ٤١١هـ = ١٠٢٠م إلى العام ٤٢٣هـ = ١٠٤٠م(٢) الأمير معضاد هو فارس وادي التيم الأسطوري الذي تبتهج القلوب لذكره وتطرب النفوس لسماع أخباره فما من مرة ذكره فيها متحدث إلا وأردف مع مستمعيه عبارة ــ رضي الله عنه ــ تماماً كما تكرم الأولياء فهذه المحبة وهذا الإكرام للأمير معضاد من قبل التيامنة لم يكونا في الواقع إلا عرفاناً بجميل وإقراراً بفضل يوازي ما لمار جرجس الخضر عليه السلام من فضل على أهل تلك المدينة التي صرع التنين على شاطئها وأراح أهلها وأنقذهم من تقديم الضحايا المختارة إليه.

(1) ذخائر لبنان، ص ١٧٤.

كان ذلك في حدود العقد الثالث من القرن الحادي عشر للميلاد وفي فترة كانت من أشد الفترات حرجاً وأكثرها إيلاماً على الموحدين في وادي التيم. كان ذلك في أعقاب الردة الشهيرة التي قام بها سكين وطغمته، تلك الردة التي سبق وأشرنا إليها، وبالرغم من انقضاء ما يزيد عن تسعة قرون ونصف القرن على تلك الأحداث لا يزال الناس في وادي التيم يذكرون للأمير معضاد فضله يتبركون بذكره.

ماذا عن المرتد سُكَيْن وكيف أنهي أمره:

اسمه الكامل (مسعود الكردي)[1] ولقبه سكين بضم السين والنون المهملة والمعروف بالمراسلات باسم ابن الكردية، من قول إنه من البلاد الإيرانية، ومن قول آخر إنه من شمالي سوريا ومن مدينة حلب بالذات، يقول الشيخ الأشرفاني في مؤلفه إن كلمة سكين تعني «صغير الحمار» وأن مسعود هذا لقب بهذا اللقب لغرض التحقير، ولكننا نرى أن هذا اللقب لازم الرجل في الفترة التي لم يكن بعد قد زاغ فيها وحاد عن الطريق الصحيح، دليلنا على ذلك التقليد الذي أرسله له مولاي الشريف بهاء الدين والمعروف بـ(تقليد سكين) تاريخ التقليد العام ٤١٨هـ = ١٠٢٧م. ابتدأ هذا الرجل أمره موحداً نشطاً. الشيء الذي يعتقد معه أنه كان كسابقه نشتكين طويل الباع في مجال الحركات الباطنية التي سبقت الدعوة، وبموجب التقليد المشار إليه آنفاً (تقليد سكين) تسلم أمر الدعوة والدعاة في بلادنا وناله ما نال غيره من الاضطهاد المعروف بين أهل الدعوة بـ«محنة علي الظاهر» وقد مورس هذا الاضطهاد ضد الموحدين بقسوة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً بَلغت من فظاعتها أنهم كانوا يقطعون رأس الموحد ويعلقونه في عنق زوجته أو ابنته أو أخته وسكين هذا الذي صبر على المحنة في أقسى تصاعدها وأشد حدتها واستطاع. عجز ولم يستطع التقيد بسنن الدعوة التي من شروطها التقيد بأهداب الفضيلة واتباع سبل الصلاح والتقوى

(١) قلنا تقديراً أن اسمه أبا نصر منصور بن لؤلؤ بن هبة الله الشيرازي ـ الأمير حيدر.

وقيل فيه أنه عندما انكب أول الأمر على التعبد والنسك نحل جسمه لدرجة كان يرى معها الماء الذي يشربه منحدراً في بلعومه ولكن كل هذا لم يكن قائماً على أساس صالح لأن الواقع أثبت أن الرجل كان نهازاً للفرص مغامراً في طلب الجاه. ولما زاغ عن الخط المستقيم ترأس جماعة من سيئي السيرة والسريرة وأخذ يأتي وإياهم المنكرات بشكل فاق كل وصف وتجاوز كل حد، وكان واقع الحال آنئذ مساعداً لسكين على طغيانه فأظل بعض الضعفاء من الموحدين الذين أوكل إليه في الأصل أمر هدايتهم وصيانة شرفهم ودينهم. وكان انعطاف ردته حاداً، كان وعصابته يجتمعون دورياً وفي كل ليلة في منزل أحدهم يخمرون أولاً ثم يجبرون مضيفهم أن يقدم للعصابة امرأة لغرض الفحش والفجور، وكان لسكين هذا زميل نشيط . . . وصف بأنه كان أعمى البصر والبصيرة ونعت بصاحب الأفعال الروية يدعى أبو جمعة وكان لأبي جمعة هذا ابنة أنكرت على أبيها مفاسده وعلى الطغمة أعمالها وتبرأت إلى الله تعالى منهم. وكان والدها أبو جمعة يحاول استمالتها إلى جانبه بشتى الأساليب والمغريات وهي ترفض ذلك «وملخص مطلب الوالد السيء من ابنته ـ هي أن ترضى صالحة وهذا اسمها، رضي الله عنها، أن تكون ضحية ليلية للطغمة شأن غيرها ممن تقع عليهن القرعة. وكان والدها على ما يظهر يتعرض لضغط شديد من الطغمة بشأنها، ولكن مركزه الكبير بين الجماعة أبعد من ابنته صالحة الاغتصاب والقسر ـ كان يستمهلهم بشأنها آملاً أن تنظم إليهم يوماً ما بطيبة من خاطرها، إلى أن كان يوم وصل به الدور إلى بيت بوجمعة لقضاء السهرة فيه ـ وجاء دور صالحة وكانت العصابة قد ضجرت من عناد الفتاة وتعنّتها على حد قول رواة قصتها. وبمحاولة منها للهرب من المتوقع، ذهبت صباح ذلك اليوم إلى الحقول تجمع منها البقول البرية وهي تبكي وتضرع إلى الله أن ينقذها مما ينتظرها، وعند العصر كانت قد جمعت من البقول مطلبها، فعرجت بطريقها على العين لتغسل ما جمعت ـ وما يجدر ذكره أن هذه العادة لا تزال متبعة في قرى وادي التيم حتى يومنا هذا. أما البقول التي تجمعها النسوة فهي ما يعرف بقرص العنّا والعكّوب والمشّا والجرجير وغير ذلك وهذا يحدث عادة في أواخر الشتاء وأوائل الربيع، ولندع

الآن صالحة ـ الضحية المهيأة للتنين ـ تغسل البقول البرية على العين الواقعة قريباً من قريتي بكيفا وبيت لهيا والتي لا تزال على حالها تقريباً منذ ذلك التاريخ لنقول:

كان الدعاة ينقلون في كل مرة إلى مولاي الشريف بهاء الدين ـ الشكاوى الكثيرة عن أعمال الطغمة وما تأتيه من قبيح العمل، وقد تحول وادي التيم من (وادٍ أنور) تملأه التقوى وتشع الفضيلة من جنباته. إلى (وادٍ أخيب) تعيث الطغمة فيه، وتنال من الموحدين الصابرين بخروجها بينهم عن المألوف. فأرسل مولاي الشريف توبيخاً إلى سكين[1] تاريخه سنة ٤٢٦هـ بمحاولة منه لردعه عن سوء عمله وتعريف أمره للموحدين، ولكن كل ذلك لم يأت بنتيجة تذكر واستمر السيء سيئاً، وجاء مقتل الداعي الشهيد عمار ضغثا على إبالة فكان لا بد من عمل ما يعيد الأمور إلى نصابها. لم يكن من قوة تستطيع أن تتحرك يومذاك لترفع الضيم عن الموحدين في وادي التيم وتضع حداً لهذه الردة الشريرة، سوى سيوف اللخميين في غرب بيروت.. . فأرسل مولاي الشريف بهاء الدين إلى أمير الغرب معضاد بن يوسف يطلب إليه وضع حد لجماعة الردة، وما أن وصل الأمر إلى الأمير حتى هبّ على رأس قوة من رجاله اللبنانيين الأشداء قاصداً وادي التيم، لتنفيذ الأمر المطاع، وبعد مسيرة طويلة وصلت الرجال إلى محلة (الملول) القريبة من قرية عقبة راشيا. كانت محلة الملول في تلك الأيام دغلة عظيمة الشجر. وشأن كل قائد يخطط لعمل حربي استبقى الأمير خيالته في الغابة متسترة عن الأعيان وانطلق بمفرده نحو الجنوب يستطلع أخبار الطغمة. وأثناء سيره لاح له من بعيد ما يدل على وجود مورد ماء. فعرّج عليه ليسقي فرسه العطشى.

وكان على العين فتاة تغسل البقول...، والتقى الخيّر بالخيّرة.. التقى الايمان المتألق بالسيف القادر على حفظه وحمايته.. التقى الأمير معضاد بن

(١) ملاحظة: تاريخ تقليد سكين هو العام ٤١٨ للهجرة وتاريخ توبيخه العام ٤٢٦هـ فتكون المدة التي تظاهر فيها بالصلاح والتقوى حوالي الثماني سنوات.

يوسف كفيل الموحدين بصالحة وادي التيم.. ولم يكن أحدهما يعرف الآخر.

لم تستطع فرس الأمير الوصول إلى الماء العميق. فالتفت الأمير نحو الفتاة وقال:

ـ يا حرمي املأي الجرن لتشرب الفرس!

فلم يتلق رداً.. ولم تفعل صالحة ما طلبه الأمير منها. وكرر الأمير الطلب ثانية.. ولم يتغير موقف صالحة لأنها على ما يبدو كانت مشغولة بمصيبتها عن كل ما حولها.. ولما كرر الأمير طلبه للمرة الثالثة أجابته:

ـ علي من الهموم ما يكفيني.. «لن أسقيها ولو كانت فرس المير معضاد..».

وصعد الدم إلى وجه الأمير عندما سمع قولها وقال:

إنها ذاتها أيتها الفتاة.. فصرخت من الفرح.. لقد استجابتْ السماء لدعائها وشعرت بيد العناية تنتشلها من عالم الظلام والسوء.. فقال لها الأمير أأنت صالحة؟ فأجابته: نعم يا سيدي أنا ذاتها. وكان الأمير يسمع الكثير من فضائلها. فطيّب خاطرها وسألها. فأخبرته عن كل ما تعرفه عن الطغمة السكينية الشريرة وأخبرته أنهم سيكونون ضيوفاً على والدها في المساء. ودلته إلى مكان قريتهم المواجهة. وتم الاتفاق بين الأمير والفتاة، رضي الله عنهما، على ما يلي:

تعود الفتاة إلى منزل أبيها وتظهر للطغمة الشريرة موافقتها وقبولها أعمالهم وعندما يبدأون بمعاقرة الخمرة تتولى بنفسها توزيع الكؤوس عليهم بعد أن تكون قد أضافت ما أمكنها إضافته من مادة مخدرة ـ إلى الخمرة حتى يشمل الجميع تماماً ـ لأن المقصود كما يبدو من مجريات القصة. كان تصفية الطغمة كلها لا تشتيتها: أما الأمير معضاد فكان مطلوباً منه أن ينتقل برجاله عند حلول

الظلام إلى مكان ليس ببعيد عن بيت بوجمعة وبمواجهته بانتظار الإشارة من صالحة لينقض، وكانت الإشارة المتفق عليها هي ـ التلويح ثلاث مرات بسراج مضيء ـ تقوم بها صالحة عندما ترى ذلك مناسباً ـ حسب الوضع في الداخل.

عادت صالحة إلى البيت وهي بادية السرور وكان الجميع ينتظرونها فألقت كل ما جمعته من بقول أمام خيول القوم. فهللوا جميعاً لهذه البادرة الطيبة وهتفوا لها. فقالت لهم: لماذا الحزن وقومي في سرور.. سأشارككم أفراحكم وسأكون معكم كما تحبون.. فصفّق الجميع طرباً، وكان والدها أشد الجميع فرحاً وقال.. الحمد لله الذي ردت ابنتنا إلينا.

كانوا جميعهم يتسابقون لإستلام الكؤوس الملأى.. إرضاء لخاطر الفتاة، وكانت هي تلّح عليهم بالشراب وهم يستزيدون وفي ساعة متأخرة من الليل، هدأت الضجة ومالت الرؤوس من فعل الكؤوس.. وراح القوم يغطّون في سبات عميق، عندئذ قامت صالحة إلى خارج المنزل تلوّح بسراجها المنير.. حسب الخطة المرسومة، واندفع الأمير ومعه رجال لبنان الأشداء إلى داخل المنزل وانهالوا بسيوفهم على الطغمة يذبحونها بصمت إلا من ضجيج الدماء المتدفقة عبر المنافذ والأقنية إلى الطابق الأرضي.

أين الرؤوس الكبيرة؟؟

عند احتدام الكؤوس شعر أبوجمعة بالحر، فهبط إلى الطابق الأرضي ليستريح.. ولما تدفق الدم في أثره حسبه ماء واستغرب ذلك لعلمه أن الطقس كان صاحياً، فتناول من السائل شيئاً بيده وقربه من أنفه ليعوض بحاسة الشم ما فقده بحاسة البصر، فذعر وصاح: فعلتيها يا صالحة...

قام الأمير وصالحة يتفقدان الرؤوس الكبيرة بين القتلى، فلم يعثرا على الكبيرين: سكين وأبوجمعة، وصرخت صالحة: يا سيدي قتلت الحية وأبقيت رأسها.. وابتدأ الرجال بالبحث عن المطلوبين فوجدوا أبوجمعة مختبئاً في الطابق الأرضي فقتلوه، أما سكين فلم يقفوا له على أثر.

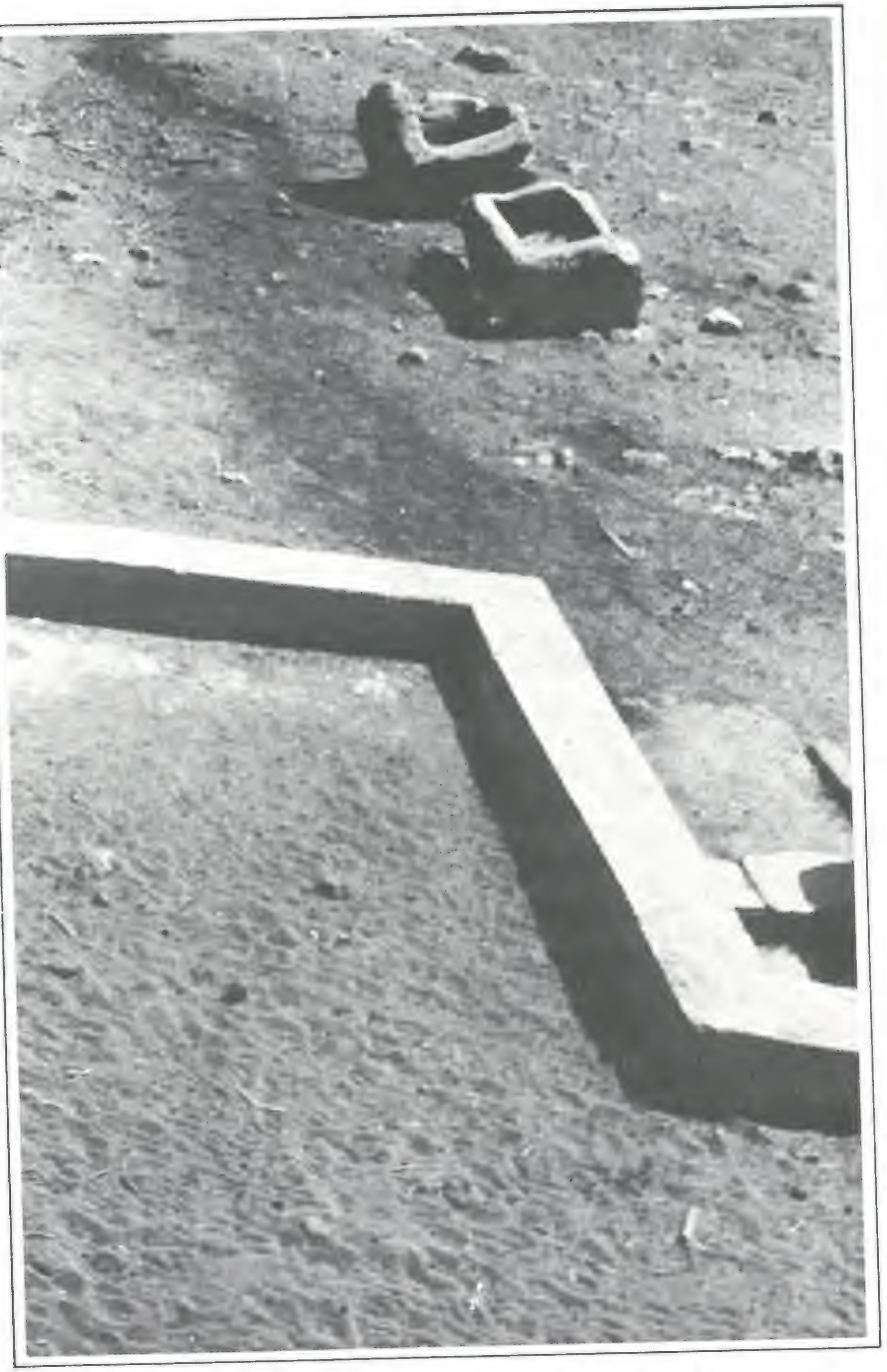

الأجران لا تزال على حالها.. وعين بكيفا في وضعها الراهن

كان سكين أثناء الشرب يلقي بالخمرة في ثيابه دون أن يشرب إلا اليسير منها، فمن قائل أنه فعل ذلك احترازاً منه وتخوفاً من تغيير موقف صالحة المفاجيء وتحسباً لما قد يحدث، ومن قائل أنه فعل ذلك ليكون أول من يتلقى الفتاة، ولكن عندما ابتدأت السيوف تعمل عملها أسقط في يده وولى هارباً، ومن قائل أنه تصعد جبل الشيخ عن طريق عقبة الفرس هائماً على وجهه حتى وصل إلى قرية عرنا ــ أجمل القرى المنتشرة على سفوح الجبل الشرقية، وكان صقيع الجبل قد أخذ منه كل مأخذ، فلما وصل القرية انحاز إلى محلة فيها تنور، وجلس يصطلي قرب امرأة تخبز الخبز، ويقال أن هذه المرأة كان اسمها أيضاً صالحة، وكانت تعلم مواصفات سكين وتعرف أخباره، فضمرت بنفسها شيئاً نحوه، ثم احتالت عليه بأن رمت في التنور المسجور بعض الأوعية التي تستخدمها في عملها وطلبت إليه بلهفة أن يعمل معروف ويلتقطه: اعمل معروف ما اسمك إلا بردان والتنور دافيء. ولما انحنى ليلتقط الوعاء المحترق انقضت عليه ودفعت به إلى الهاوية الملتهبة. . وأغلقت عليه، فاختصر المرتد الخطر طريقه إلى جهنم الحمراء، وأكملت هي المعروف الذي بدأته سميتها صالحة في وادي التيم.

وتكمل القصة، القول غير المسند، أنه: عادت المرأة إلى بيتها ومعها العجين الذي لم تتمكن من خبزه واضطرت بأن توزعه على مواطنيها كبولاً، ويقال أن أسرة هذه المرأة دعيت ببيت كبول نسبة لهذه الحادثة، ولا تزال هذه الأسرة حتى الآن تقيم في عرنا، وباسمها التاريخي بيت كبول[١] بعد أن كان اسم هذه الجماعة بيت شقفان.

هناك قولان حول الشقي سكين: القول الأول، هو ما سبق وأوردناه كما سمعناه، والقول الثاني، وهو جديد على كل حال بالنسبة لنا ولكنه مسند، أورده الدكتور كامل حسين في كتابه «طائفة الدروز» مؤداه: أن سكين ذهب إلى القاهرة وظهر فيها هناك على باب القصر الكبير في رجب من سنة ٤٣٤هـ =

(١) مخطوطة آل الفقيه.

١٠٤٢م، وادعى بأنه الحاكم قد عاد من غيبته، والتفت حوله جماعة من مؤيديه وأنصاره، ودارت معركة بين هؤلاء وبين رجال حرس القصر أسفرت عن انتصار رجال الحرس على سكين وجماعته، فهرب منهم من هرب وألقي القبض على الباقين ومنهم سكين الذي صلب مع بعض أعوانه[١]. فإذا صح القول يكون الهارب باتجاه عرنا أحد كبار أعوان سكين، ومن المعروف أمرهم لدى العامة.

حاتم في البئر:

تفرد المنقول المتواتر بهذه الخاتمة التي لم نجد لها أي مصدر منقول مسند فيما كتب حول هذا الموضوع، مفاد القصة: بعد أن استأصل الأمير شأفة الطغمة العابثة، تألفت في وقت لاحق من أولادهم ومؤيديهم جماعة جديدة، وقصدوا الأمير معضاد إلى بلدته فلجين للانتقام منه، وكانوا يرتدون الزي التقليدي لشيوخ الدين بمحاولة منهم لتضليل الأمير وإخفاء حقيقتهم عنه، وصباح ذات يوم أطل الأمير معضاد فرأى جماعة مقبلة نحو منزله، فلم يطمئن لما شاهد وأسرّ لزوجته بالأمر وبشعوره نحو أولئك الأغراب المشبوهين، وطلب إليها الحذر والحيطة، ولما وصلوا تفرس الأمير في وجوههم فتحقق ظنه بهم ولكنه رحب بمقدمهم وأدخلهم منزله، ثم دعاهم للجلوس، وبعد قليل أشار لزوجته فحملت ابنها الطفل على كتفها وانطلقت مبتعدة عن المنزل باتجاه عيّنه لها زوجها، وراحت تبتعد قدر المستطاع، تحاشى الأمير الجلوس بين ضيوفه بالرغم من إلحاحهم الشديد، وأوهمهم أنه يهيىء لهم طعاماً، فكان يخرج من المنزل ويراقب أين أصبحت زوجته وابنها، ثم يعود إليهم ويرحب بهم، وفي إحدى المرات تأكد من ابتعاد زوجته مسافة الأمان الكافية فانطلق في أثرها تاركاً ضيوف السوء في خيبتهم، ولما تأخر بالدخول عليهم، خرجوا في أثره وهم يركضون باحثين عنه هنا وهناك علهم يجدونه لينتقموا.

(١) طائفة الدروز، ص ٨٢.

لحق الأمير بزوجته واتجها معاً نحو بلدة العبادية، على ما يقال، ولحقتهم الطغمة بذات الاتجاه. في كل مرة كان الأمير وزوجته يلجآن فيها إلى مكان مناسب ليختبئا عن أعين المطاردين كان ابنهم الطفل ـ حاتم ـ يصيح وكأنه ينادي الطغمة قائلاً: «امي وبيي هون تعوا ليهم»، وكان يكرر الطفل نداءاته المجنونة. فقال الأمير لزوجته: يبدو أن هذا الطفل من معدن أولئك الأشرار، إرمي به في هذا البئر، ولم تتردد الأم لحظة واحدة وألقت بالطفل في بئر لا يزال قائماً ومعروفاً من الناس في خراج بلدة العبادية، دعي من يومها (بئر حاتم) ولا يزال هذا اسمه. واقترب المطاردون أكثر من الأمير فالتجأ هو وزوجته إلى مغارة هناك لم يهتد المطاردون إليها ولكنهم وقفوا قريباً منها يقولون لبعضهم «هون حس كـان»، ثم انطلقوا يبحثون عن مطلبهم في أماكن بعيدة، ونجا الأمير وزوجته من شر مستطير وقد دعيت تلك المغارة من يومها (مغارة حس كان) ولا يزال هذا اسمها حتى اليوم.

ليس في التاريخ المنقول شيئاً عن هذا القول لا من قريب ولا من بعيد، والمؤكد أن الأمير معضاد استمر أميراً على الغرب حتى توفي في العام ٤٣٢هـ = ١٠٤١م ولكنه عاش في ذلك الزمن أمير لخمي آخر اسمه الأمير معضاد ابن الأمير أبي بكر ابن الأمير حسام، عاصر هذا الأمير الأمير معضاد نفسه وتوفي بعده بستة عشر عاماً، أي في العام ٤٤٨هـ = ١٠٥٧م، واشتهر أمير آخر يدعى الشيخ زين الدين معضاد[1] الفلجيني، وكان شاعراً بارزاً، والله أعلم في جميع الأمور.

ماذا عن الأمير معضاد؟
وماذا عن ولايته على الغرب؟

المصادر التاريخية التي أشارت إلى هذا الأمير الكبير: دائرة المعـارف للبستاني ـ منشورات الجامعة ـ وذخائر لبنان ـ وغيرها، ذكرت أنه معضاد بن

(١) لبنان، مباحث علمية، منشورات الجامعة ـ ١٨، ص ٥٦٤.

همام ـ باستثناء مصدر تاريخي واحد ذكره باسم معضاد بن يوسف، وهذا المصدر الوحيد والموثوق بصحته ـ هو تقليد أرسله مولاي الشريف بهاء الدين إلى الأمير معضاد في العام ٤١٨ للهجرة = ١٠٢٦م موكلاً له به أمر الموحدين في الجبل اللبناني من سكان قرى المروج وعين عار، ويوصيه بهم خيراً، ومن مضمون التقليد يفهم أن الأمير معضاد كان يسكن قرية فلجين الواقعة إلى الغرب قليلاً من عاليه، وأن همام جده وليس والده.

أما سلسلة نسبه المباركة فهي التالية:

هو الأمير أبو الفوارس معضاد بن يوسف بن همام بن صالح بن هاشم بن الحسن بن فوارس[1] بن عبدالملك بن مالك بن بركات بن المنذر بن مسعود بن عون ابن الملك المنذر المغرور ابن الملك النعمان أبي قابوس ابن الملك المنذر بن ماء السماء اللخمي.

الولاية الزمنية:

كان أميراً على الغرب في أواخر القرن الرابع للهجرة، الأمير أبو الفضل مطوع ابن الأمير تميم ابن الأمير المنذر ابن الأمير النعمان ابن الأمير عامر حفيد الأمير ارسلان[2]، وكـان هذا الأمـير بطلاً مقـداماً وفقيهـاً عالمـاً توفي في العام ٤١٠هـ = ١٠١٩م، بعد وفاته انقسم الناس في الغرب ـ غرب بيروت ـ بشأن تولي الامارة بعده إلى فئتين: فئة تطلبها لابنه الأمير عمادالدين موسى، وفئة تطلبها للأمير أبو الفوارس معضاد، فرجحت بين النـاس كفة الأمـير عمادالدين موسى[3]. وبعد سنة من توليه الامارة تنازل عنها مختاراً على ما يبدو للأمير أبو الفوارس معضاد بن يوسف، لم نعرف سبباً لهذا التنازل الاختياري

(١) الأمير فوارس جاء مع أول من جاؤوا إلى لبنان ونزلوا في عبيه وتوفي فيها سنة ١٩٢ هجرية.
المصادر: دائرة المعارف للبستاني، طبعة بيروت، سنة ١٨٧٦؛ وذخائر لبنان، لإبراهيم الأسود؛ وأبو جعفر المنصور لعجاج نويهض.
(٢) أبو جعفر المنصور، عجاج نويهض.
(٣) ذخائر لبنان، ص ١٧٤.

سوى كفاءة الأمير معضاد ومحامده الكثيرة[1]. وقد أثبتت الأحداث المتعاقبة أن هذا التنازل كان خيراً وبركة على أهل وادي التيم، استمر الأمير بمنصبه حتى توفاه الله في العام ٤٣٢هـ = ١٠٤١م تولى بعده الأمير أبو الفضائل معروف بن علي بن عبدالله بن مذحج بن درويش، وتوفي في العام ٤٣٩هـ تولى بعده الأمير أبو الغارات شجاع الدولة عمر بن عيسى.

من عودة لا بد منها إلى الأمير فوارس بن عبدالملك جد الأمير معضاد وما قاله المؤرخون عن هذا الأمير الكبير «كان شجاعاً كريماً عالي الهمة، بعيد النظر، ابتنى في عبيه حصناً عظيًا وأنشأ بقربه ميادين للسباق ولتعليم الفروسية ورمي الجريد وطلق السهام، وكان له أحد عشر ولداً»[2] لم يصلنا سوى أخبار اثنين منهما: الأمير عبدالمنعم كبير إخوته«، والأمير الحسن أحد جدود الأمير معضاد.

أما الأمير معضاد، فقد تخلف له ابناً اسمه فوارس وتخلف لفوارس ابناً اسمه يوسف[3]، وابنة اسمها تقية. تزوجت الست تقية من الأمير علي ابن الأمير طعمة بن غالب، توفي هذا الأمير سنة ٤٦٣هـ = ١٠٧١م، وتخلف للست تقية منه ثلاثة أمراء هم: طعمة، وعبدالحليم، وعبدالرحيم. وتزوج الأمير يوسف حفيد الأمير معضاد بالست زهرة شقيقة صهره الأمير علي وتخلف له ولداً اسمه الأمير حليم، وتخلف لحليم ولداً أسماه علي، فحليم هذا وأبناء عمته الثلاثة وأولادهم جميعهم قتلهم بلدوين ملك الفرنجة مع من قتل أثناء غزوته الغادرة لغرب بيروت في العام ٥٠٤هـ = ١١١٠م، وانقطعت بموتهم سلالة الأمراء الفوارسيين. والملاحظ أنه لم يرد أي اسم لولد اسمه حاتم لا في من كانوا من جدود الأمير ولا في من جاؤوا بعده، طبقاً لخطيطة النسب التالية.

---

(١) من إشارة في كتابه «طائفة الدروز» يقول الدكتور محمد كامل حسين: إن هذا التنازل من الأمير عمادالدين موسى للأمير معضاد، ثم في أعقاب حروب بين الطائفة انتصرت فيها جماعة الأمير معضاد على ما يبدو. ولم نعرف المصدر الذي استقى الدكتور منه معلوماته.

(٢) ذخائر لبنان، ص ١٣٩.

(٣) يفهم من ذلك أن الأمير فوارس أسمى ابنه يوسف تيمناً بجده. ذات المصدر، ص ١٧٧.

خطيطة النسب رقم (٢)

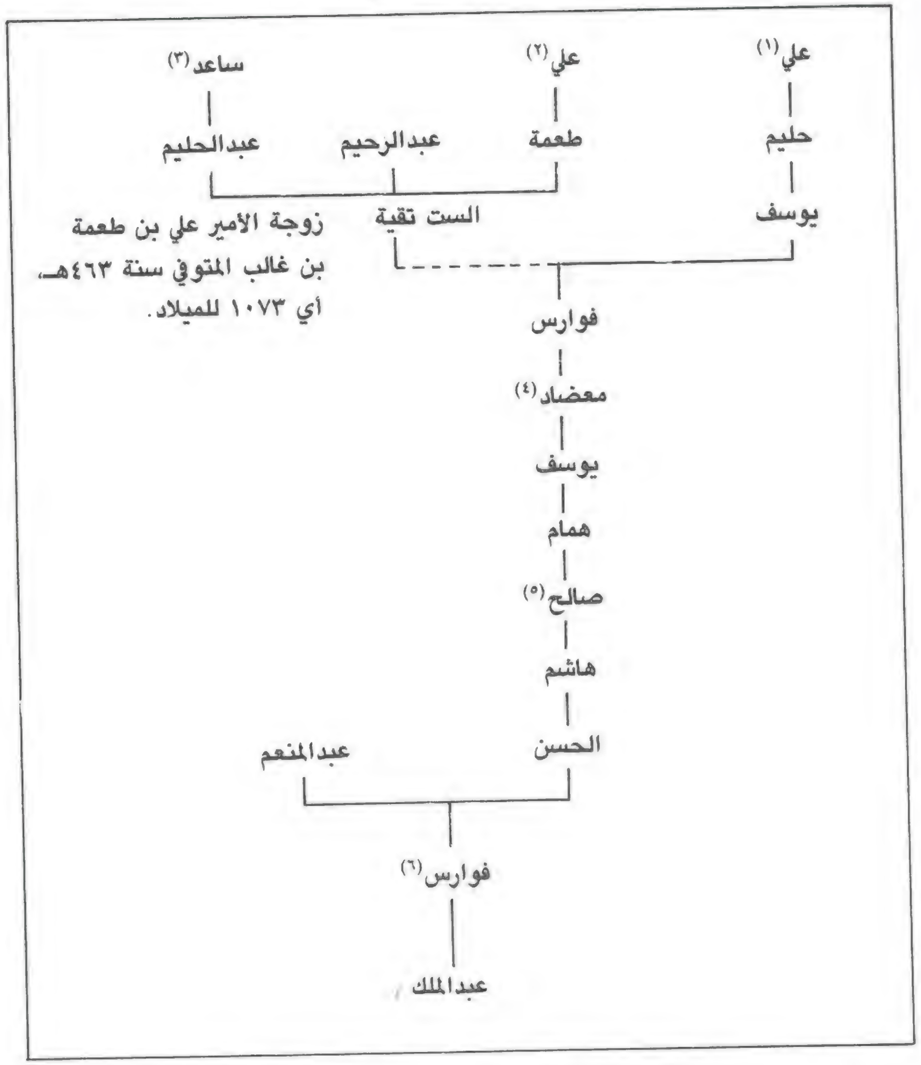

(١) كان للأمير علي أولاد وإخوة قتلهم بلدوين الصليبي سنة ١١١٠م.

(٢) قتله بلدوين أيضاً.

(٣) قتله بلدوين.

(٤) هو الأمير معضاد الذي نعنيه.

(٥) كان للأمير صالح ابنة تدعى عائشة تزوجت من الأمير منصور بن عز الدولة درويش الذي تزوج بالست صفية ابنة الأمير مفرج بن دغفل بن الجراح الطائي الرملي.

(٦) كان للأمير فوارس أحد عشر ولداً.

ماذا عن بلدوين..
وغزوته لغرب بيروت؟

بلدوين أو بغدوين هو أمير فرنسي أقامه الصليبيون ملكاً على الرها عند احتلالهم لها في بداية حملتهم الصليبية على البلاد العربية في العام ١٠٩٩م وعندما احتلوا بيت المقدس في شعبان سنة ٤٩٢هـ = ١٠٩٩م أقاموا أخاه غي ديفروا دي بويون ملكاً عليها فكان أول ملك على مملكة القدس اللاتينية، ولما توفي غودفروا تسلّم الملك بعده أخوه بلدوين واستمر حتى توفي في العام ١١١٩م[1].

وفي العام ٥٠٤هـ = ١١١٠م هاجم الملك بلدوين بيروت وحاصرها من البر والبحر وكانت المدينة يومذاك بعهدة الأمير شجاع الدولة الإرسلاني فتصدّى هذا الأمير للفرنجة وشلّ حصارهم وردهم خائبين عن المدينة، فعزم بلدوين على ضرب (غرب بيروت) بمحاولة منه لتدمير مصادر القوة التي تمد بيروت بالرجال والعتاد. فأرسل إلى فرنجة السواحل وجماعات المردة يطلب نجدتهم فأنجدوه واتفق معهم على الخطة التالية:

– يجتمع من في الشمال من فرنج ومردة في مدينة جبيل، كما يجتمع من في الجنوب من هذه العناصر في سهل الغازية القريب من مدينة صيدا.

– يأتي الشماليون عن طريق الجرد والجنوبيون عن طريق الساحل ويداهموا الغرب في وقت واحد، وبهذا تمكن بلدوين أن يفاجىء أمراء الغرب وينزل بهم خسارة فادحة، كانت من أقسى وأمرّ ما نزل بالغرب من كوارث، بحيث لم ينج من سكانه إلا (المختبىء والغائب) ومن الذين نكبوا بهذه الغزوة المدمّرة، الأمراء الفوارسيون أحفاد الأمير معضاد وأهله، قتل منهم من قتل، واستاق بلدوين الباقين أسرى ـ كان من جملة أسراه أولاد الست تقية حفيدة

---

(١) ذخائر لبنان، ص ١١٢؛ وتاريخ بيروت، لصالح بن يحيى.

الأمير معضاد وهم الأمير عبدالحليم وولده الأمير ساعد وشقيقه الأمير عبدالرحيم[1] وبعدها انحدر بلدوين إلى بيروت ليحاصرها مجدداً واستمر بحصاره للمدينة مدة شهرين سقطت بعدها في قبضته ففتحها وقتل الأمير عضد الدولة علي، وفي اليوم الثاني لإنتصاره أحضر بلدوين الأسرى إلى خارج المدينة وأمر بضرب أعناقهم.

كان متسلم مدينة صيدا يومذاك الأمير مجد الدولة فصالح الفرنجة على مال دفعه لهم إتقاء لشرهم وجاء إلى الغرب فوجده قاعاً صفصفاً يخيم على ربوعه البؤس والخراب فشرع بإعادة بناء المتهدم وترميم المتصدّع من قراه ودساكره ثم استقل بإمارته بتولية من طغتكين صاحب دمشق وذلك في العام ١١٢٦م.

كان من جملة الناجين من أمراء الغرب الأمير بحتر بن عضد الدولة علي. كان طفلاً أخفته أمه في عرمون حتى زال الخطر وانجلى الوضع، ولما قتل الأمير عضد الدولة تولى بعده الأمير بحتر فكان أعظم الأمراء شأناً وأبعدهم شهرة وأشدهم سطوة، نازل الفرنجة في معركة كبيرة جرت بينه وبينهم في كفرشيما بمحلة رأس التينة على نهر الغدير[2] سنة ٥٤٦هـ = ١١٥١م فانتصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وهرب الناجون منهم إلى مدينة بيروت التي كانت يومذاك في أيديهم، وكانت معركة نهر الغدير هذه من أبرز المعارك التي خاضها أمراء الغرب ضد الفرنجة وأبعدها أثراً.

---

(١) ذخائر لبنان، ص ١٧٩.

(٢) نهر الغدير هو نهر كان يأتي من أعالي بلدة كفرشيما ويصب في البحر مخترقاً الأرض التي يقوم عليها مطار بيروت الدولي وقد غيّب هذا النهر عند قيام المطار.

الجنادلة: أصحاب أول إمارة قامت في وادي التيم

الجنادلة من الجماعات العربية القديمة المعروف أمرها في وادي التيم وأصحاب أول إمارة قامت على أرضه وامتدت من بيروت والأصح من صيدا حتى مشارف دمشق متضمنة بعلبك والبقاع وقلعة الشقيف وجبل بني عاملة وكل ما في هذا المدى الحيوي من قلاع وحصون بما في ذلك شقيف تيرون الذي أشير إليه بأنه الجبل المطل على ثغر بيروت وصيدا.

لم تعمّر إمارة بني جندل طويلاً مثل غيرها من الامارات العربية التي قامت قبلها وبعدها على الأرض اللبنانية مثل إمارات: اللخميين والتنوخيين والمعنيين والشهابيين، ولم تعش إمارة بني جندل مزدهرة أكثر من ٥٧ سنة على وجه التقريب أي من سنة ١١٠٠م يوم ولّى الفاطميون جندل بن قيس البقاعي على وادي التيم[1] إلى سنة ١١٥٧م السنة التي انتزع فيها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بعلبك من الضحاك بن قيس الجندلي وأعطاها للأمير ظهير التنوخي. من هنا نرى أن العلاقات بين الجماعتين التنوخيين والجنادلة لم تكن حسنة بالرغم من اعتناق الفئتين مذهب الدرزية. في زمن الجنادلة ولد تاريخ وادي التيم المكتوب وخلال مدة إمارتهم جرت في البلاد أحداث هامة لم تزل تأثيراتها تتفاعل حتى اليوم، مثل تركيز الدعوة الدرزية والغزو الصليبي الأوروبي للبلاد العربية والصراع الدامي الطويل بينهم وبين الممالك الإسلامية التي ظلت تقاتلهم حتى أخرجتهم من الشرق كله، ومن مجريات الأحداث

(١) تاريخ الأمير فخر الدين، عيسى اسكندر المعلوف، ص ٣٧؛ والغرر الحسان للأمير حيدر، ط مصر، ص ٣٥٠.

والوقائع التاريخية نرى أن إمارة بني جندل تسنمت مكانها وازدهرت برعاية الدولة الفاطمية المهيمنة يومذاك على بلادنا ثم تقلّص نفوذها بتقلص النفوذ الفاطمي وزواله، وكان الوجود الصليبي على الأرض السورية واللبنانية عاملاً من عوامل استمرار إمارة بني جندل طيلة تلك المدة، لأنها كانت تحتل موقعاً عازلاً بين القوتين الكبيرتين، وكان من صالح الأفرنج أن تبقى. وقد ساءهم زوالها كما سنرى، ولكن السلاجقة استمهلوها حتى تقووا ثم قضوا عليها وأورثوا التنوخيين تركتها.

لم يرو عن الجنادلة أنهم كانوا كغيرهم من القبائل العربية الضاربة في شمالي سوريا وجنوبها من مرداسيين وكلبيين وبني الجراح وغيرهم يعملون لمصلحة من يدفع أكثر ويدخلون أنفسهم ومواطنيهم في أتون المنافسة الدامية بين القوى المتصارعة على السلطة من عباسيين وفاطميين وبيزنطيين، فتأججت الساحة المشرقية مع إطلالة القرن الخامس للهجرة، فالجنادلة الذين أقاموا ما يصح قوله «دولتهم» ما بين «دمشق وصيدا» وبهدوء فلم تسمع قعقعة السلاح إلا في المرحلة الأخيرة من عمر هذه الدولة التي لم تعمّر طويلاً، ورغماً عن ذلك كانت لهم حروبهم مع الباطنية أصحاب بانياس والدولة النورية الناشئة وأتابكة دمشق ففي عهد الجنادلة تفجرت الساحة التيمية داخلياً ونشبت حرب ضروس بين بعض فصائلهم وبين سكان عيحا من أهل الوادي وما سبق وما لحق هذه الحرب من مآسٍ لنا معها لقاء قريب.

من هم الجنادلة؟

يقول القلقشندي إن بني جندل بطن من هوازن العدنانية، وإنهم بنوجندل بن مرة بن هوازن منهم حبشي بن جنادة أحد الصحابة[1] ومنهم الشاعر الجاهلي سلامة بن جندل، أما ابن القلانسي القريب منهم الذي يدعوهم أبناء عمومته فيشير إلى أنهم مثله ينتسبون إلى تميم والتميميون بدورهم ينتسبون إلى: تميم بن مرّ بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن

(١) أنساب العرب، ص ٢٢٠.

عدنان[١]، وهنا يلتقي الرأيان بأن الجنادلة عدنانيون، كانت منازل بني تميم بأرض نجد واليمامة والبصرة وامتدت إلى العذيب من أرض الكوفة[٢] منهم بنو حنظلة وبنو دارم وبنو الحارث وبنو العنبر وبنو هذيل ومن رجالاتهم حكيم العرب أكثم بن صيفي وأبو بحر الضحاك المعروف بالأحنف ابن قيس وعروة ابن جرير أول خارجي «قال في صفين: لا حكم إلا لله» ثم الحرّ التميمي ولاهز بن قريض وأبو إبراهيم اسماعيل بن محمد بن حامد التميمي البصري الذي أخضع أبا ركوة الخارج على أمر الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي وهزمه بمساعدة الأمير مفرج بن دغفل الطائي أمير الرملة في فلسطين. أما الأحنف بن قيس كان قد حارب إلى جانب الإمام علي في صفّين، ضد معاوية وحدث أن التقاه بعدها معاوية فعاتبه قائلاً[٣]:

«والله يا أحنف ما أذكر مرة صفينّ إلا وكانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة».

فأجابه الأحنف: «والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا. والسيوف التي قاتلناك بها لفي إغمادها وإن تدنو من الحرب فتراً ندنوا منها شبراً وإن تمشي إليها نهرول إليها». ثم قام وخرج.

وكانت أخت معاوية تسمع القول من خلف حجاب فسألت أخاها. من هذا الذي يتهدد يا أمير المؤمنين؟ فأجابها هذا رجل إذا غضب غضب لغضبه ماية ألف سيف ولا يدرون لماذا غضب.. يفهم من هذا القول قوة تميم ووحدتها. ومن مآثر هذه القبيلة العربية الباسلة أنها هي التي وطدّت دعائم الإسلام في خراسان[٤] وقد اتصف الأحنف بالحلم والذكاء والرجولة وتوفي في العام ٦٧ للهجرة بعد أن عاش سبعين سنة.

فالذين عاشوا في وادي التيم إبان الدعوة من تميم كان منهم دعاة

(١) دائرة معارف البستاني، طبعة بيروت، ١٨٨٦.
(٢) أنساب العرب، حرف التاء مع الميم.
(٣) عن الدروز، أبو إسماعيل، ص ٥، عن الأعلام للزركلي، ووفيات الأعيان.
(٤) من مقال للواء الركن محمود شيت خطاب، في مجلة درع الوطن، أبو ظبي.

مثلما كان منهم عناصر ردة، وقد أشار ابن القلانسي إلى هؤلاء بلغة تعاطف وود وابن القلانسي هذا اسمه حمزة ابن أسد التميمي الدمشقي ولقبه أبو يعلى[١]. وهناك أبو يعلى آخر وهو ما وردت إليه رسالة الغيبة. وهذا الأخير نقيب الطالبيين فخر الدولة أبي يعلى حمزة ابن أبي العباس الحسني[٢] الذي اشتهر بموقفه ضد سنان بن عليان أمير بني كلب الذي حاصر دمشق سنة ٤١٦هـ = ١٠٢٥م يعاونه صالح بن مرداس وأحدث في أرباض دمشق أضراراً كثيرة فلما امتنعت المدينة عليه طلب من أهلها ثلاثين ألف دينار ليرحل غير أن القاضي فخر الدولة أبا يعلى منع أهل دمشق من تسليمه طلبه من المال وأشار بإنفاقه في الدفاع عن المدينة وأخذ الدمشقيون بمشورته وانتصروا على عدوهم والمقول إن رسالة الغيبة وردت من مصر إلى دمشق ليد أبي يعلى هذا داخل ضرف زيت، لكثرة وشدة المراقبة التي كانت مفروضة على أهل الدعوة في ذلك الزمان. وهناك أبو يعلى ثالث هو القاضي الفقيه الحنبلي المتوفي في العام ٤٥٨هـ الموافق للعام ١٠٦٧م[٣].

كان الجنادلة يدعون خارج بلادهم بالبقاعيين، أما في وادي التيم فكانوا يدعون باسمهم الحقيقي (الجنادلة) وهؤلاء الجنادلة البقاعيون ينتمون إلى جدهم جندل بن قيس البقاعي[٤] كان هذا الرجل من حكام البقاع المحليين تميّز بشجاعته وحسن تدبيره فنال حظوة لدى الملوك الفاطميين حكام مصر وسوريا يومذاك فولوه على وادي التيم وجبل بني عاملة وقلعة الشقيف وذلك في حدود السنة ١١٠٠ للميلاد كما سبق ومر معنا وبنى الأمير جندل قرية على سفوح حرمون الشرقية وحصّن قلعتها فدعيت قلعة جندل[٥] ولا تزال هذه الحاضرة عامرة حتى يومنا هذا كما لا تزال معروفة باسمها القديم (قلعة جندل). ومن

(١) الدروز، أبو إسماعيل، ص ٥.
(٢) الدكتور سامي مكارم، رافع أبي الليل، ص ٢٤٠.
(٣) الدكتور محمد فتحي عثمان: مجلة العربي الكويت. ع ٢٦٠.
(٤) تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، للمؤرخ عيسى اسكندر المعلوف، طبعة بيروت ١٩٦٦، ص ٣٧.
(٥) الغرر الحسان، طبعة مصر، ص ٣٥٠.

الأماكن الهامة التي كانت بعهدة الجنادلة شقيف تيرون وبعلبك وهذا ما جعلنا نعتقد بأن المدى الغربي كان باتجاه صيدا وليس باتجاه بيروت لأن الذين تحكموا في الجبال المطلة على بيروت هم الأمراء التنوخيون، وشقيف تيرون. القريب من مرج بسري وحارة الجنادلة دليل حسي على حدود إمارتهم لجهة الغرب والقول بأنهم تملكوا بيروت فهذا أمر لم نقع له على مستند والله أعلم.

الحرب بين جنادلة وادي التيم وباطنيي بانياس:

يقول ابن القلانسي: كان الباطنيون يلاقون الاضطهاد أينما وجدوا وكيفما اتجهوا من الحكّام والعامّة على السواء، ويصف لنا ابن القلانسي الذي لم يكن على ودّ مع الجماعة الباطنية على ما يبدو لأمر لم ندرك كنهه وصف سلوك هذه الجماعات وطبيعة تجمّعها بقوله[1]: «استغووا خلقاً كثيراً من جهّال الأعمال وسفساف الفلاحين من الضياع وغوغاء الرعاع مما لا لبّ له يصدّه عن الفساد، ولا تقّية تصدفه عن المنكر، فقوي شرّهم وظهر بقبح الاعتقاد سرهم، وامتدت أيديهم وألسنتهم إلى الأخيار من الرعية بالثلب والسبّ، وإلى المنفردين في المسالك بالطمع والسلب». وكان الملك ظهير الدين أتابك صاحب دمشق قد تسامح معهم وأعطاهم حصن بانياس فقوي أمرهم واشتد ساعدهم وحصنوا القلعة ورمموها وجعلوها معقلاً حصيناً لهم ثم عادوا وسلموها للإفرنج يداً بيد. فتحولت إلى رأس حربة في صدر الأمة. وبعد وفاة ظهير الدين تسلم الأمر بعده ولده تاج الملوك وكان هذا حذراً من الباطنيين، ولكن وزيره أبو علي طاهر بن سعد المزدقاني كان متفقاً معهم مباركاً أعمالهم محدثاً بذلك خرقاً كبيراً في سياسة سيده العامة.

كان وادي التيم في ذلك الوقت ينعم بالهدوء والطمأنينة بقيادة أميره الشاب برق بن جندل. وكان هذا الأمير الجندلي كما وصفه ابن القلانسي ــ

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢١.

ملاحظة: الباطنية كلمة تتميز بشمولها إذ هناك عدة طوائف ينطبق عليها الاسم ولم ندر أيها يقصدها المؤرخ ابن القلانسي ويخصها بعدائه.

بهيّ الطلعة كريماً شجاعاً ضرب المثل بفتوته، وبالرغم من حداثة سنه كان حكيمًا يدير شؤون إمارته بحنكة ورثها عن والده جندل بن قيس البقاعي، «ولأمر يريده الله على حد قول ابن القلانسي: عقد بهرام الباطني العزم على اغتيال الأمير برق حسداً منه وحقداً عليه ــ وما تجدر الإشارة لذكره أنه قامت في ذلك الوقت جماعة باطنية عرف أتباعها بالحشاشين وهم جماعة الصباح، يقال أن أفراد هذه الجماعة كانت تقدم على أعمال اغتيال الشخصيات الكبيرة المعادية لها بواسطة رجال يعملون تحت تأثير مادة الحشيش (حشيشة الكيف) وقد اغتالت هذه الجماعة عدداً كبيراً من ملوك العرب وأبطالهم وكذلك من أمراء الفرنجة من هؤلاء ريموند الثاني الصليبي[1] عرفهم الافرنج باسم أساسين أي الحشاشين ولا تزال هذه الكلمة تعني باللاتينية (الجريمة) بمعنى أساسينو (مجرم)، وعرف زعيمهم باسم شيخ الجبل.

احتال بهرام بأن أظهر الودّ للأمير برق ولما اجتمع به اعتقله وقتله (صبرا)[2] ويقول ابن القلانسي إن تأثير هذه الجريمة كان كبيراً فهزت المشاعر واستنكرها الناس «وأعلنوا في البلاد لعن القاتل وذمه في المحافل والمشاهد» وكانت ردة الفعل عند الجنادلة الأقوياء سريعة ومحكمة وحاسمة فاجتمعوا بقيادة الضحاك بن جندل شقيق الأمير المغدور به وتعاهدوا فيما بينهم على الثار ووضعوا رجالهم بوضع الحذر منتظرين الفرصة المؤاتية للانتقام من قتلة الأمير برق بن جندل.

كان بهرام في هذه الأثناء يتأهب بدوره لغزو وادي التيم ظناً منه أن مقتل الأمير برق فكّك الصفوف وأزاح من طريقه القيادة القادرة على التصدي له. فجاء سنة ٥٢٢هـ = ١١٢٩م بمجموعة من بانياس قاصداً الجنادلة، ولما اقترب من وادي التيم أمر رجاله بالتريث في مكان محجوب عن الأنظار ونصبت الخيام وآوى الرجال إليها بانتظار أمر جديد.

كان الجنادلة على علم بهذا التحرك الباطني فبثوا حوله العيون والأرصاد

(1) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢٢.

(2) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢١ ــ ٢٢٢.

وما أن نصبت خيام بهرام وأوى إليها الجند، حتى انقض عليهم الجنادلة التيميون بقيادة ضحاك بن جندل وباغتوهم ولم يتمكن الباطنيون من امتطاء خيولهم ويقول ابن القلانسي حول هذا الموضوع «أتى القتل على أكثرهم ضرباً بالسيوف ووجياً بخناجر الحتوف ورشقاً بسهام البلاء، ورجماً بأحجار الأقدار والقضاء»(١) فوجىء بهرام كغيره فأحاطت به الرجال وقطعّوه بالسيوف ـ ثم تقدم أحدهم وقطع رأسه ويده التي بها خاتمه وذهب بهما فيما بعد إلى مصر مهنئاً ومبشراً بهلاكه فنال هذا الرجل لأجل ذلك مكافأة كبرى وجائزة سنية. عاد التيميون من هذه المعركة منتصرين، وسبقتهم البشائر وعمت الفرحة وادي التيم كله، أما الباطنيون «فقد انقصفت شوكتهم وانفلت شكّتهم» وبعد بهرام تولى الأمر بينهم رجل يدعى إسماعيل العجمي «وكان شريك بهرام في أعماله» على حد قول ابن القلانسي فجدد إسماعيل اتفاقه مع الوزير (المزدقاني) وزير تاج الملوك الذي كان يراقب الوضع عن كثب فرأى أن وزيره رأس البلاء، فدعا إلى حفلة أقامها في قصره لقادته وكبار رجال حاشيته، حضرها الوزير المزدقاني وبعد انصراف المدعوين استبقى الملك وزيره لديه ثم أمر الجلاد بضرب عنقه ففعل، وانتشر الخبر بين الناس فارتاحوا له وتعرض كل باطني ومن يشتبه به أنه باطني للقتل ونهبت منازلهم ولحقت بهم أفدح الخسائر، ثم أمر تاج الملوك بصلب جماعة منهم على شرفات قلعة دمشق(٢).

كان مصرع الوزير المزدقاني يوم الأربعاء الواقع في ١٧ رمضان سنة ٥٢٣هـ عادت الجماعة الباطنية إلى مكامنها لتدبير الاغتيالات لتنال في الظلام ما عجزت عن تحقيقه في النهار.

اتصل إسماعيل العجمي بالإفرنج وسلم إليهم حصن بانياس يداً بيد، فتقووا بذلك وخطرت لهم فكرة مهاجمة دمشق واحتلالها فجمعوا رجالهم من

(١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٢ و٢٢٣ وتاريخ قلعة الشقيف لسليمان ضاهر، ص ٤٣، ويقول ضاهر حول هذا الموضوع: إن شيخ الجبل بهرام ابن أخت ابراهيم الأسد أباذي هو زعيم الاسماعيلية في حربه مع أهل وادي التيم خرج إليه الضحاك بألف رجل وكبس عسكره وقتل منهم مقتلة عظيمة وقتل بهرام نفسه وعاد من عاد من عسكره مهزوماً إلى بانياس.

(٢) ذيل وتاريخ دمشق، ص ٢٢٦.

الرها وطرابلس وانطاكية وأنزلوهم في بانياس وبلغ عدد من جموعهم أكثر من ستين ألف رجل أكثرهم من الرجالة، فعلم تاج الملوك بالأمر وأعلن التعبئة العامة بين شعبه «واستكثر من الخيل والسلاح» وفي شهر ذي القعدة من سنة ٥٢٣هـ = ١١٣٠م وصلت جيوش الافرنج وأخذت مراكزها في السهل أمام دمشق ثم خيموا هناك. وتحشّد جيش تاج الملوك بدوره قبالتهم وانتظر من الافرنج أن يقوموا بعمل ما، وطال الوقت ولكنهم لم يفعلوا شيئاً، وبعد استطلاع الأمر وجد تاج الملوك أن الافرنج قد أرسلوا كبار قادتهم ومشاهير أبطالهم إلى حوران لجلب المؤن والميرة وأنهم سيبدأون الحرب فور عودتهم فقرر أن يستبقهم وأرسل قسماً كبيراً من جيشه إلى سهل براق ليكمنوا للإفرنج القادمين من حوران، وهكذا كان وما أن أطلت جموع الافرنج وبغالهم المثقلة بالأحمال حتى تصدت لها خيالة العرب المتصفة بخفة الحركة وشدة البأس ودارت بين الجيشين معركة مريرة استعملت فيها جميع أسلحة ذلك العصر، وشدد العرب والأتراك ضغطهم على الافرنج وأثخنوا فيهم وما هي برهة حتى انهزم مقدم الافرنج (كليام دي بور)(١) مع فريق من خيالته ولم يكن بعض النهار حتى انتهت مقاومة الافرنج وامتلأ السهل بما خلفوه من أحمال وأثقال وخيل وسلاح وأسرى، وعاد الجيش إلى دمشق مظفراً منصوراً، وفي اليوم التالي تأهب الدمشقيون لمهاجمة معسكر الافرنج فواجهتهم أعمدة من الحرائق والدخان المتصاعد من المعسكر ولما وصلوه وجدوا أن الافرنج الذين كانوا فيه قد انسحبوا ليلاً مغطين انسحابهم بالحرائق فتعقبوهم وأدركوا كثيرين من المتخلفين منهم فقضوا عليهم، وعمت الناس الفرحة لزوال الخطر الجسيم الذي كان يتهددهم من هؤلاء الغزاة(٢). أما الباطنيون فقد تمكنوا من جعل أحد رجالهم خادماً في اسطبل تاج الملوك وأخذ هذا السائس يتربص بالملك إلى أن كان يوم جاء فيه الملك يتفقد خيوله فتقدم منه ذلك الباطني وطعنه بالسيف طعنة قاتلة(٣)، فألقي

(١) ربما الكلمة هي وليم دي بور.

(٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٦.

(٣) نفس المصدر.

القبض على القاتل وأعدم وتولى الأمر بعد تاج الملوك شمس الملوك. وذلك في العام ٥٢٦هـ = ١١٣٢م.

بعد انتصار الجنادلة على الباطنيين تقوّى الضحاكّ واشتهر أمره وذاع صيته وامتنع في حصن قلعة شقيف تيرون، ولم تكن العلاقات على ما يرام بينه وبين شمس الملوك الملك الجديد بسبب ميل الضحاك إلى شقيقه ومنافسه في الملك على ما يبدو بعد انتزاع قلعة الشقيف منه التجأ الضحاك إلى مجير الدين ارتق ابن شقيق شمس الملوك صديقه القديم، وفي حدود العام ١١٤٥م انتزع مجير الدين بعلبك من متسلمها نجم الدين أيوب ـ عامل الملك العادل نور الدين ووالد الملك صلاح الدين الأيوبي ـ وأعطاها للضحاك واستمرت بيده على ما يبدو حتى العام ١١٥٧م استعادها منه الملك العادل نور الدين، وكان الضحاك قد تمنع في بعلبك أثر استيلاء نور الدين على دمشق، ولم تكن العلاقات طيبة بين الضحاك ونور الدين، ولكن نور الدين تحاشى اللجوء إلى القوة مع الضحاك وكان هذا شأنه مع الحكام الوطنيين كي لا يلجأهم بحكم الظروف إلى الافرنج أعدائه وأعدائهم على السواء.

كان نور الدين على علاقة طيبة بالتنوخيين أمراء لبنان لمواقفهم المشرفة وتصديهم الدائم للافرنج، فلما استولى على بعلبك أعطاها لظهير الدين التنوخي وهناك ما يشير إلى أن الملك العادل نور الدين حاصر الضحاك وحاربه في قلعة جندل سنة ١١٦٠م[1] رجع بعدها الضحاك إلى وادي التيم مغلوباً على أمره ويقول صالح بن يحيى في تاريخه إن ملك دمشق يومذاك أعطى التنوخيين قريتين من قرى وادي التيم هما ضهر حمار (ظهر الأحمر) وتنورا قلت ربما كان مدلول ذلك أن قرى وادي التيم الباقية كانت معطاة لأمراء محليين باستثناء ظهر الأحمر وتنورا، ومن عودة إلى القول أن شمس الملوك اغتيل سنة ١١٣٤م فمن قائل أن والدته أمرت غلمانها بقتله لسوء خلقه[1] ومن قائل أن الباطنيين اغتالوه كما اغتالوا والده من قبله.

(١) تاريخ فخر الدين، المعلوف، ص ٣٧.
(٢) القول الأول للبستاني في دائرة المعارف، والقول الثاني للأمير حيدر في الغرر الحسان.

الضحاك رجل الجنادلة الكبير:

هو الضحاك بن جندل بن قيس من سلالة جندل البقاعي[1]، كان من ألمع الشخصيات في تاريخ الجنادلة وأبعدهم شهرة، ظهر على مسرح الأحداث في زمن الملوك السلاجقة وفي عهده تسنمت الامارة موقعها الممتاز فتضمنت وادي التيم وبعلبك وبلاد بشارة والبقاع، والمقول عنه أنه تولى بيروت قبل أن يتولاها ظهيرالدين التنوخي، وقيل فيه أنه كان داهية يتحامى بالمسلمين من الإفرنج ويتحامى بالإفرنج من الأمراء المسلمين الطامعين بامارته الواقعة بين الجماعتين وقد استفاد من هذا التناقض وقتاً طويلاً.

يقول الأمير حيدر[2] أنه في هذه السنة، أي في العام ٥٤٩هـ = ١١٤٤م عزل السلطان نورالدين محمود الضحاك عن وادي التيم وولى عليها الأمير ظهيرالدين التنوخي، وحين عزل الضحاك عن وادي التيم ولاه نورالدين على بعلبك. ويقول ابن القلانسي[3] في كتابه ذيل تاريخ دمشق، أنه في العام ٥٢٨هـ الموافق للعام ١١٣٤م نهض شمس الملوك إسماعيل ابن تاج الملوك في عسكره إلى شقيق تيرون الذي في الجبل المطل على ثغر بيروت وصيدا، فملكه وانتزعه من يد ضحاك بن جندل التميمي المتغلب عليه في يوم الجمعة لست بقين من محرّم منها. وجاء في بعض المصادر قلعة الشقيف، فأثار هذا الأمر حفيظة الإفرنج الذين كانوا يرون بالضحاك جاراً مهادناً على ما يبدو، وأخافهم الأمر فجمعوا جيشاً هاجموا به حتى حوران وخربوا أمهات القرى فيها، ولما رجعوا إلى البلاد التي في أيديهم وجدوا أن شمس الملوك قد غزا بدوره عكا وطبريا والناصرة، ونهب وسبى ولم يبق لهم شيئاً، ففت في عضدهم وأرسلوا إليه يطلبون تجديد الهدنة بينهم وبينه.

(١) الغرر الحسان، ص ٣٤٦.
(٢) ذات المصدر.
(٣) ذيل تاريخ دمشق، الصفحة ٣٤.

مصرع الضحاك في قريته بيت لهيا وانتقامه من قاتليه قبيل موته:

عرف الضحاك بن قيس بن جندل التميمي ـ أمير وادي التيم ـ في حياته عدوين: أولهما الملك العادل نورالدين محمود ملك ذلك العصر الموهوب الذي انتزع منه بعلبك وقلعة جندل وقزّم امارته، والعدو الآخر جماعة الباطنيين الذين فتكوا بأخيه وجرى بينه وبينهم ما جرى، وكان الباطنيون من أقدر الجماعات التي عرفها ذلك العصر على التربص والانتقام، لقد فتكوا بالكثيرين من أمراء المسلمين والفرنجة ـ وظل هؤلاء يحفظون للضحاك ما فعله بهم في معركته مع بهرام الداعية وقتله إياه، فصمموا على الانتقام من الضحاك الذي كان هو ومن حوله يعتقدون أن عامل الزمن ذهب بالشحناء والبغضاء من الصدور.

كان الباطنيون يبحثون في الخفاء عن وسيلة تمكنهم الانتقام من الضحاك فأرسلوا رجلين منهم إلى وادي التيم ـ الأول قواساً، والثاني نشاباً ـ واستأجر الرجلان منزلاً لسكناهما في مكان يقع قريباً من قرية بيت لهيا التي كان يملكها الضحاك ليكون هذا الأخير تحت مراقبة الرجلين في الذهاب والإياب، وكان الضحاك قد اعتزل السياسة وأخلد إلى الراحة وأخذ يهتم بأموره الخاصة على ما يظهر. ومع الزمن عقد الرجلان صداقة مع الضحاك وتقربا إليه بحكم صنعتهما حتى أنهما قاما عنده مدة من الزمن، وفي ذات يوم وبينما كان الضحاك راكباً مسيراً حول بيت لهيا وافق اجتيازه بمنزل هذين الرجلين[1]، فلقياه وسألاه النزول عندهما للراحة وألحا عليه في السؤال فنزل «والقدر منازلة، والبلاء معادلة» على حد قول ابن القلانسي. فلما جلس أتياه بمأكول وحين شرع في الأكل وثبا عليه فقتلاه وأجفلا، فأدركهما رجاله فأخذوهما وأتوا بهما إلى الضحاك وكان قد بقي فيه رمق، فلما رآهما أمر بقتلهما بحيث شاهدهما وهما يقتلان قبل

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٣.

أن تفيض روحه. ويكمل ابن القلانسي قوله: «وبعد موته قام مقامه ولده في امارة وادي التيم»[1]، دون أن يذكر لنا اسم ولده الأمير الجديد، ولكنه أشار إلى هذه الأحداث بأنها جرت في شهر شعبان من سنة ٥٤٣هـ = ١١٤٩م، وما تجدر الإشارة إليه هناك اختلافاً في التوقيت الزمني بين المؤرخين، فعند الأمير حيدر كان الضحاك في سنة ١١٦٠م حياً يرزق، وفي هذه السنة انتزع الملك العادل نورالدين محمود قلعة جندل من الضحاك. بينما ابن القلانسي الأكثر ثقة لقربه من أحداث ذلك العصر يشير إلى أن الضحاك كان يومها متوف منذ ١١ سنة.

كان الملك العادل نورالدين قد أعطى امارة وادي التيم للأمير ظهيرالدين التنوخي بعد أن أخذها من يد الجنادلة وذلك في حدود العام ١١٦١م = ٥٥٦ للهجرة، وبقي وادي التيم بتولي الأمير ظهيرالدين حتى انتزعه الفرنجة وألحقوا حاصبيا ببارونية صيدا الصليبية، واستمر هؤلاء في وادي التيم حتى أجلاهم عن ربوعه الشهابيون العرب في حدود العام ١١٧٣م. والمعتقد أن الملك العادل انتزع امارة وادي التيم من ابن الضحاك وخليفته. وما يجدر ذكره أنه عاش في بيت لهيا جماعة من أهل الفضل والعلم كتب عنهم ابن عساكر فيما كتب. منهم المحدّث يحيى بن حمزة الحضرمي البتلهيي وولده محمد[2].

ماذا عن قلعة جندل:

قلعة جندل اليوم هي إحدى قرى ما يعرف بإقليم البلان من أراضي الجمهورية العربية السورية، موقعها على السفوح الشرقية لجبل حرمون، موصوفة بطيب هوائها وعذوبة مائها، تقوم في وسطها قلعة قديمة يقال أنه بناها جندل جد الجنادلة، كما مر معنا، أعطت هذه القلعة اسمها للقرية، فكانت (قلعة جندل).

(١) ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، ص ٣٠٤.

(٢) معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ج ١٣ ص ٨١.

يقول المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف أن القلعة أقدم عهداً مما يظن، وأن كتابة باليونانية كانت موجودة على عتبة القلعة سنة ١٩٣٤ تدل على أن اسمها القديم هو (ساما آتي) وأن مدافن يونانية كثيرة متواجدة في تلك المحلة. يفهم من هذا القول أن بناتها الأوائل كانوا من اليونان القدامى الذين احتلوا بلادنا في أعقاب حملة الاسكندر المكدوني سنة ٣٣٣ قبل الميلاد، فيكون جندل والحالة هذه قد استحدثها وجدد بنائها، ثم توارثها من جاء بعده من الجنادلة إلى زمن الضحاك بن قيس الذي اعتصم فيها أيام الملك العادل نورالدين، واضطر هذا الأخير لمحاصرته فيها، ثم انتزاعها منه وهدمها. ويقول المؤرخ الأمير حيدر: «ومن ذرية جندل كان المقدم فايز. . . وقد أخذ القلعة منه الأمير محسن. . .»، لم يزد الأمير حيدر فيما كتبه عن هذين الرجلين أكثر من العبارة الآنفة الذكر، فتركنا في حيرة من أمرنا، وبمراجعة سلسلة نسب الأمراء الشهابيين رأينا أن الأمير محسن هو ابن الأمير مسعود بن عمر بن مسعود بن خالد ابن الأمير عامر الملقب بالاذرعي، وتوفي الأمير محسن في العام ٤٤٩هـ الموافق للعام ١٠٥٧م، أي قبل مجيء الشهابيين إلى وادي التيم بمئة وخمسة عشر سنة[٣].

وغابت عنا أخبار هذه القلعة حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وعلى وجه التحديد، أثناء حرب إبراهيم باشا المصري والدروز، حيث اتخذ الدروز من هذه القلعة معقلاً لهم، فهاجمهم فيها إبراهيم باشا واستولى عليها، ثم هدمها[٤]، ثم عاد ورممها وجعلها ثكنة لجنوده، فهاجمه الدروز فيها واستولوا عليها وهدموها.

لسنا بصدد كتابة تاريخ هذه القلعة ولكنها كأثر عظيم من آثار الجنادلة، رأينا أن الإشارة إليها موضوع ذو فائدة لما يشغلنا الآن وهو تاريخ الجنادلة.

---

(١) تاريخ الأمير فخرالدين المعني الثاني، طبعة جونية، ١٩٣٤؛ وطبعة بيروت ١٩٦٤، ص ٣٧.
(٢) الغرر الحسان، الأمير حيدر الشهابي.
(٣) الأمراء الشهابيين، ص ١٦. ليس من إثبات أن الأمير محسن هو شهابي.
(٤) تاريخ الأمير فخرالدين، للمعلوف.

الفصل الثالث

الأحداث المعروفة (بذبحة عيحا) بين الأمراء الجنادلة وعيحا بقيادة آل سباط ونتائج هذه الحرب الضروس

«المصادر المعتمدة لتدوين هذه الأحداث التاريخية، منها ما هو منقول عن كتاب عمدة العارفين ومخطوطة آل الفقيه. ومنها المعقول المتواتر على الألسن الموثوقة في وادي التيم وغير وادي التيم، كتراث تاريخي لجماعة حريصة كل الحرص على كلمة الصدق في تاريخها، وقد سمعت هذه القصة عشرات المرات من عشرات الأشخاص بصيغة واحدة لم تتغير ولم تتبدل».

(المـؤلف)

الأحداث المعروفة بذبحة عيحا:

رأينا أن العلاقات التي كانت قائمة بين جندل بن قيس البقاعي والملوك الفاطميين حكام مصر وسوريا، كانت علاقات ود وصداقة، وكان لجندل عند هؤلاء الملوك حظوة وحظ، فولوه على وادي التيم وغيره من البلاد المجاورة، خاصة في زمن الحاكم بأمر الله. كانت هذه العلاقة من الأسباب الدالة على أن جماعات كثيرة من الجنادلة كانت على مذهب التوحيد وممن استجابوا للدعوة وساهموا بتعزيزها، وليس ذلك افتراضاً، بل حقيقة أثبتتها الأحداث وأكدتها الوقائع التاريخية[١].

ولكن الصورة التي يحفظها الناس عن الجنادلة في وادي التيم وخاصة عند

---

(١) عمدة العارفين، المؤلف.

الدروز منهم، هي صورة ذات وجهين متناقضين، فهم، أي الجنادلة، إما محمودون جداً، وإما مذمومون جداً. وجاءت أقوال الشيخ الأشرفاني بشأنهم في المؤلف تؤكد هذا التناقض دون توضيح أسبابه ومبرراته. وكان من الطبيعي لعشيرة كبيرة مثل الجنادلة أن تسلك جماعاتها المقيمة في وادي التيم يومذاك أكثر من طريق وأن تتوزع في أكثر من اتجاه، في زمن كان من أخصب الأزمنة بالأفكار الجديدة والمعتقدات الناشئة.

ومن مجريات الأحداث نرى أن الجنادلة كانوا في وادي التيم فئتين متناقضتين ومتضادتين: فئة اعتنقت مذهب التوحيد فتهذبت نفوس أفرادها بالروحانيات وكان على على رأس هذه الجماعة الشيخ أبو الخير سلامة بن جندل الذي طالعنا خبره برحلة الداعي الشهيد عمار، ثم أخوه الشيخ أبو الحسن وابن عمه الشيخ أبو الفضل حمزة بن أبي منصور محمد بن جندل ومن لف لفهم، هؤلاء هم فئة المحمودين، يقابلهم من الجانب الآخر فئة كان في نفوس أفرادها من أثر اللات والعزى أكثر مما كان فيها من مفاهيم الإسلام، ورثت عن القرمطية شراسة رافقتها من ميادين الحرب والصراع التي أجلاها عنها العباسيون وعاشت في وادي التيم تكره كل من لا يقول قولها، وتظلم كل من لا يأتمر بأمرها، ثم انضمت إليها جماعة الردة فتألف من هذا التشكيل العجيب جاهلية جديدة ابتدأت بالمحنة وبالتجاوز على حقوق الآخرين وكراماتهم في وادي التيم، وكان رأس هذا التجمع يقيم في قرية يذما أو في قرية الشعيرة أو في كلتيهما معاً، هؤلاء هم فئة المذمومين.

اتسعت شقة الخلاف بين الجماعتين المتضادتين فلجأت الأولى إلى الحكمة والعقل فكان منها أعلام فضيلة وهدى، ولجأت الثانية إلى الظلم والسيف، فأنهى السيف أمرها.

ما يجدر ذكره أن مولاي الشريف بهاءالدين بعث برسالة إلى الشيخ أبو الخير وأخيه الشيخ أبو الحسن من الاسكندرية إلى قرية بكيفا في وادي التيم وصفها بها بـ «أكابر الوادي في منازل الدنيا»، ونعت الشيخ أبو الخير بـ «الدّين

النفيس»[١]. والمعلوم تاريخياً أن الشيخين اشتركا بحكم البلاد ـ وادي التيم ـ أو بضمانها، كما كان الحال جارياً يومذاك، بمعنى أنهما كانا من المجلين في مجالي الدين والدنيا.

عاصر هذا الثالوث الجندلي الخير ـ أبو الخير وأبو الحسن وابن عمهما الشيخ أبو الفضل ـ شيخاً آخر له ما لهم من كرامة، وبه ما بهم من تقية وفضل، هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل سباط من قرية عيحا، والمعروف من العامة باسم الشيخ أبو المعالي الذي قال عنه الشيخ الأشرفاني في مؤلفه «عمدة العارفين» أنه من أصغر مشايخ آل سليمان عمراً، وأكبرهم قدراً.

كانت يومذاك فئة المذمومين هي الأقوى والمسيطرة على الساحة في وادي التيم لأنها كانت مدعومة من السلطة الحاكمة، تتقوى عندما تضعف السيطرة الفاطمية وبالعكس.

كانت الناس تتجه بأبصارها نحو عيحا كونها القوة الوحيدة القادرة على التصدي لأمراء الجنادلة والوقوف بوجههم، وكان توقيت الانفجار يقترب من ساعة الصفر بين الجماعتين، إلى أن كان يوم أرسل فيه أمراء الجنادلة مأموريهم إلى بكيفا بطلب فتاة يقال أنها كانت على جانب كبير من الجمال، وهي ابنة شيخ صاحب جاه ونفوذ يفترض أن يكون أحد شيوخ بني جندل الثلاثة.

رفض الشيخ مطلب الأمراء أول الأمر، ولكنه عاد وتظاهر بالإذعان لغرض في نفسه وقال للمأمورين: إن لم يكن بد من تسليم الفتاة، فلتسلم إلى الأمراء أنفسهم لا إلى مأموريهم وعبيدهم[٢]، وحدد لهم موعداً لتسليمها إليهم على عين القرية ـ يفترض أيضاً أنها العين التي سبق والتقى عليها الأمير معضاد وصالحة ـ ورجع العبيد ينقلون إلى أسيادهم اقتراح الشيخ ووعده.

لم يكن الشيخ الجندلي يريد تسليم ابنته للأمراء ولكنه صمم على تلقين

---

(١) مصادر توحيدية.

(٢) عمدة العارفين.

أولئك الأشرار المتطاولين درساً قاسياً، في الوقت المحدد ذهب إلى العين ـ الموعد ـ مصطحباً معه سيفاً قاطعاً مخبأً تحت عباءته، ترافقه ابنته التي أسرّ إليها بما هو عازم على تنفيذه، انتظر قليلاً على العين، وإذا بالجماعة قادمة إليه، ولما وصلوا واقتربوا منه، تقدم نحوهم متظاهراً بتحيتهم، وبغتة، استل سيفه وانهال عليهم وقبل أن يفيقوا من ذهولهم كان قد قتل منهم ثلاثة أمراء وبعض العبيد وهرب الناجون منهم باتجاه قريتهم، ورجع الشيخ وابنته إلى بكيفا وأخبرا بما جرى معهما على العين، واحتاط الجميع من ردة فعل الذئب الجريح وأقر الرأي أن يذهب الشيخ ـ والد الفتاة ـ إلى عيحا ليحتمي هناك، فذهب إليها ونزل ضيفاً على شيخ القرية المفترض أن يكون هو نفسه الشيخ أبو المعالي الآنف الذكر، وأخبره بكل مجريات القصة وما وقع له مع الأمراء العابثين. وتراءت للشيخ المسؤول في عيحا مؤشرات الأخطار الكبيرة القادمة وراء أقوال ضيفه اللاجىء إليه، وأدرك بثاقب بصيرته أن نقطة الانفجار قد انتقلت من بكيفا وكل وادي التيم إلى قريته بكل ما قد تحمله معها وما قد تجره عليهم من مآس وآلام. فاستعان بالله، ثم رحب بضيفه وطمأنه، وانصرف للتفكير بمعالجة الوضع وكيفية التصدي لردة الفعل المتوقعة من جانب الأمراء الأقوياء.

في اليوم التالي لوصول الشيخ اللاجىء إلى عيحا، وصلت مجموعة من خيالة الجنادلة تطلبه، وكان الجميع يتوقعون ذلك، ولم يفاجئهم الشيخ المسؤول في عيحا برفض طلبهم، بل استدرجهم إلى حيث يريد هو، وطلب إليهم القيام لتناول الطعام الذي أعد لهم عند تشريفهم.. وبمناسبة العرس القائم في البلدة، فامتنعوا وأصروا على تنفيذ مطلبهم أولاً، فذكرهّم الشيخ وجوب احترام العادات والتقاليد المتبعة بين الناس في مثل تلك الحالة. وبعد إلحاح شديد من كلا الجانبين.. رضخ الأمراء الجنادلة الأربعون لرغبة الشيخ بأن يتناولوا الطعام أولاً، ثم يتسلموا اللاجىء المطلوب وينصرفوا.

كانوا من الكثرة بحيث مدت الأسمطة على أحد السطوح[١] الواسعة،

(١) عمدة العارفين.

وجلس الأمراء على المائدة بكل أبهة، ووقف خلف كل أمير منهم رجل من جماعة الشيخ بزي خادم يحمل منشفة وكأساً. لم يستغرب أمراء الجنادلة ذلك لاعتيادهم هذا النوع من التكريم في المحافل العامة. وكانت الإشارة المتفق عليها بين الشيخ ورجاله الخدم أنه: عندما يضع يده على لحيته ويقول بسم الله الرحمن الرحيم، ليبارك الطعام، ينقض فوراً كل واحد من الخدم على الأمير المولج بخدمته ويطعنه طعنة قاتلة بسكين حادة كان قد أخفاها بثيابه مسبقاً لهذا الغرض، وهكذا كان، وانهالت المدى لتودي بتلك الشحنة الكبيرة من المرتدين، وتفجرت الدماء غزيرة حتى امتلأ السطح منها وانسابت من المزراب وتدفقت عبر أحد أزقة البلدة الذي لا يزال حتى الآن يحمل اسم (زقاق الدم)، كما لا تزال آثار ذلك المنزل الذي يعتقد أن الذبحة جرت على سطحه قائمة واضحة المعالم، تتميز عما حولها بطابع أثري يجعل الاعتقاد بشأنها صحيحاً، وقيل أن عدد الأمراء الذين ذبحوا في عيحا كان أربعين أميراً لم ينج منهم أحد، ولم يكن هناك في الواقع إلا عرس مصطنع لا عريس فيه ولا عروس، ولكنها خطة ذكية محكمة الفصول أعدت بعناية لضرب المرتدين الأقوياء واستنزافهم، وبهذا انتهت المرحلة الأولى من الحرب بين عيحا وأمراء الجنادلة. بعض المراجع اعتبرت أن هذه الذبحة جرت في العام ٤٣٢ للهجرة الموافق للعام ١٠٤١ للميلاد[١].

ماذا عن عيحا؟

عيحا بلدة قديمة جداً في التاريخ، لا نملك مقومات تاريخها القديم. ولكن الآثار من حولها تدل على أن هيكلها الأثري الجميل، بني في وقت متأخر من حياتها الطويلة، وقد أشار روبنصون[٢] لهذا الأثر الرائع ودعاه هيكلاً، ولكن الكثيرين من أهل المحلة يدعونه (قلعة) ربما لأن موقعه الاستراتيجي يوحي بأنه قلعة للحرب أكثر منه هيكلاً للعبادة.

(١) مخطوطة آل الفقيه في عيحا وقلعة جندل.
(٢) روبنصون، يوميات في لبنان، دار المكشوف، ١٩٤٨.

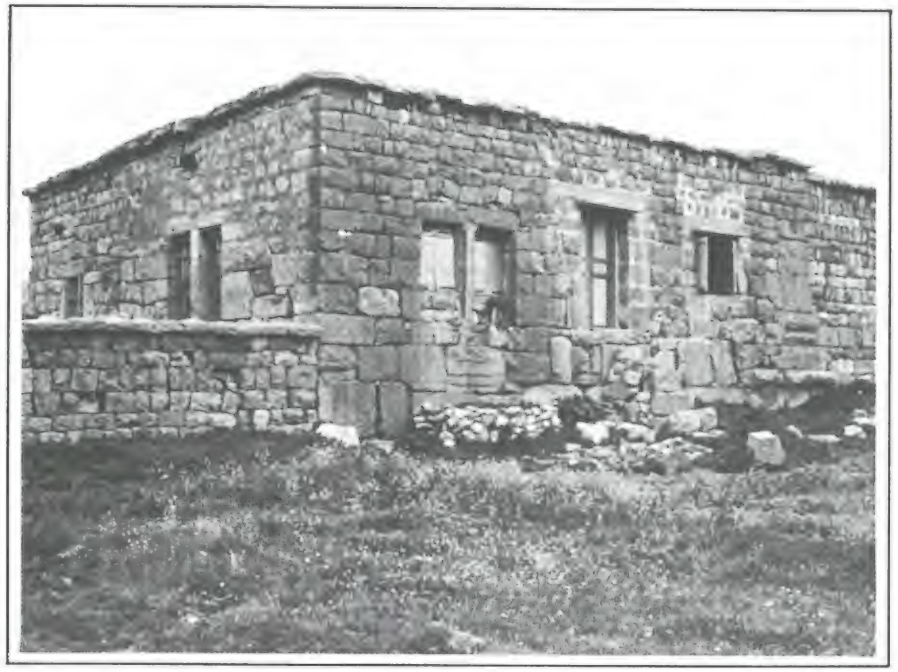

واجهتان للمنزل الأثري في عيحا والمعتقد أن الذبحة جرت على سطحه

.. وإلى جانبه زقاق الدم
في وضعه الجديد

يقول الدكتور فريحة[١] إن اسم عيحا سرياني معناه (عين الحيّ) ولفظه (عين هيا)، تقوم البلدة فوق مرتفع منبسط الأعالي يعلو ١٣٨٠ متراً عن سطح البحر[٢] وتشرف على سهل ينبسط تحت أقدامها ويحدق بالمرتفع على شكل نصف دائرة أما النصف الآخر للدائرة فيكمله جدار عظيم من التلال يعلو عن البلدة بقدر ما تعلو البلدة عن السهل فيحتضنها ويرد عنها تيارات الرياح الغربية والجنوبية التي تهب نحوها من أودية حرمون وشعابه الباردة. وينفتح قبالتها لجهة الشرق عبر الجبال المواجهة لها واد متصعّد نسبياً يجعلها تكتشف كل قادم إليها لمسافة ألفي متر تقريباً، كانت تخترق هذا الوادي في القديم طريق رومانية

---

(١) أسماء المدن والقرى اللبنانية، ص ٢٣١.
(٢) هذا العلو هو للنقطة الجيودوزية القريبة من البركة.

رئيسية صالحة لسير المركبات تصل جنوبي البقاع وما وراءه بدمشق، وقد أشرنا إلى هذه الطريق في مكان آخر من هذا الكتاب. موقع عيحا الرائع يبدو وكأن الطبيعة أعدته خصيصاً لتقوم عليه قرية.. ثم زودته بينبوع رقراق كان في الماضي أهم مصدر لمياه الشفة هناك وكان متصل مع القلعة بأقنية خاصة وسرّية. كانت عيحا في صدر الدعوة التوحيدية واحدة من أهم ثلاث حواضر في وادي التيم الأعلى هي: الكنيسة وكفرقوق وعيحا، وكان الكثيرون بين سكانها من العناصر اليمنية التي استوطنت الشام بعد الفتح شأنها بذلك شأن غيرها من قرى وادي التيم ودساكره، ثم لجأ إليها من لجأ من القرامطة وغيرهم، وفي زمن الدعوة كانت عيحا معقلاً من معاقلها الحصينة، ولا يزال فيها حتى الآن أثر تذكاري كناية عن (بيعة) للداعي الشريف بهاء الدين يرجع بتاريخه إلى الماضي البعيد، وقد شاهد روبنصون قرب هذا الأثر شجرة قال إنها أعظم وأضخم شجرة رآها في البلاد[1] ولا يفوتنا القول إن هذه الشجرة عاشت مئات السنين في مكانها بحماية احترام أهل القرية وقدسية صاحب المقام.

قد يستغرب أحدنا القول إن سكان عيحا في ذلك الزمان كان عديدهم أكثر مما هم عليه في أيامنا الحاضرة بخمسة أضعاف ـ يقول الشيخ الأشرفاني إن عديد مقاتليها كان ٢٧٠٠ مقاتل فلو اعتبرنا أنه كان يوجد مقاتل واحد بين كل أربعة من السكان ـ وهذا احتمال يقرب بواقعيته واعتداله من الحقيقة. لرأينا أن عديد سكان عيحا كان يومذاك ١٠٨٠٠ نسمة.

كان الأهلون في عيحا إسوة بغيرهم من سكان وادي التيم يعتمدون بمعيشتهم على محاصيلهم الزراعية وعلى ما تدره قطعانهم ومواشيهم الكثيرة من أجبان وألبان يباع بعضها في الحواضر القريبة ويستهلك البعض الآخر، وهذا لا يزال حال الكثير من القرى التيمية حتى اليوم، وكان للتجارة نصيب كبير من اهتمام الناس في ذلك الزمن خاصة الاتجار بالخيول والماشية والأسلحة الدمشقية

(١) روبنصون، يوميات في لبنان، دار المكشوف ١٩٤٨.

والأقمشة وغيرها من موجودات ذلك العصر التي كانت تنقل بين الداخل السوري والساحل على طرق تجارية معبدة بعض هذه الطرق يمر في عيحا نفسها، وليتصور المرء حال عيحا وقوتها وأي خلية نشطة تلك التي كان عديد مقاتليها ألفين وسبعماية مقاتل وعديد سكانها حوالي العشرة آلاف نسمة. تملك ما لا يقل عن ألفي رأس من الخيل وضعفي هذا العدد من الأبقار وتنتشر قطعانها الكثيرة من جبل الشيخ إلى ضهر الأحمر ومن طيوى إلى الفاقعة، كانت تلك القوة الضاربة عند الموحدين الدروز أشبه بخلية مكان الملكة فيها الشيخ أبو المعالي وعمالها مقاتلة أشداء في زمن الحرب، ورواد رحيق في زمن السلم.

كانت الطرق الرئيسية المؤدية إلى القرية أربع:

١ ـ **الطريق الغربية**: التي تربطها بوادي التيم الأدنى والبقاع، تأتي هذه الطريق من جهة عين البياض اليوم ثم تتصعد المرتفع ببطء حتى تصل تحت القلعة فيتفرع منها شعبة بإتجاه البركة عبر زقاق ضيق متصعد وتكمل الطريق الأساسية اتجاهها إلى الحارة الشرقية من جهة مقام مولاي بهاء الدين.

٢ ـ **الطريق الشمالية**: وتربطها بكفرقوق والكنيسة والشمال تسير بمحاذات السهل مبتعدة عنه عندما يكون بحيرة.

٣ ـ **الطريق الشرقية**: تمر عبر وادي المزراب باتجاه قرية رخلا السورية وهي طريق دمشق.

٤ ـ **الطريق الجنوبية**: الموصلة إلى راشيا والفاقعة والجوار التحتا.

المرحلة الثانية من الحرب بين عيحا والجنادلة:

كانت عيحا مرغمة على اتباع هذا المسلك مع أمراء الجنادلة لأنها كانت أمام حلين لا ثالث لهما. فإما أن تسلم الشيخ اللاجىء إلى حماها، لأعدائه وأعدائها بذات الوقت من المرتدين، وأما أن تتصدى للطغمة بكل ما في ذلك من وخيم العاقبة، ولأمر يريده الله على حد قول بعضهم اختارت الحل الثاني.

كانت البلدة موحّدة الرأي بقيادة الشيخ أبو المعالي[1] تقف معه حيث يريد الوقوف وتسير تحت أمرته متى شاء المسير. وكان للشيخ أخ من أمه وأبيه يدعى حصيّا وكان حصيّا أقرب بسياسته إلى أمراء يذما من خط أخيه الشيخ وحصيّا هذا نعته الشيخ الأشرفاني باللعين تعبيراً عن كراهية أهل الدعوة له وحقدهم عليه حتى بعد مضي مئات السنين. فلما وجد الرجل نفسه وحيداً في رأيه منبوذاً من قومه يتيمًا في محيطه آثر الرحيل فانتقل بعائلته إلى مكان موقعه بين عيحا وكفرقوق وبنى له ولمن معه بيتاً سكنه. لم يلحقه أحد من عيحا ليسترضيه ولم يذهب إليه أحد من كفرقوق يدعوه للسكن هناك فاستمر في منفاه الاختياري حتى قضى والمقول أنه بعد موته عاد أولاده ومن تخلف بعده إلى كفرقوق وسكنوها وصلح أمرهم فيها وانضموا إلى أخوانهم الموحدين[2]، وقد وقفت بنفسي على آثار البيوت التي سكنها حصياً في منفاه الاختياري دلّني عليها أحد الشيوخ من عيحا. فإذا هي آثار فقيرة حجارتها كتلك التي تبنى بها الحضائر.

القوى المتقابلة:

قال الشيخ الأشرفاني في مؤلفه أن عديد أمراء يذما من الجنادلة كان يومذاك ماية أمير وأربعماية مأمور وهذا ليس بالشيء القليل أبداً إذا علمنا أن الشهابيين الذين نزلوا وادي التيم فيما بعد واستطاعوا دحر الفرنجة على ساحته كانوا عشرة أمراء ومن معهم. وللجنادلة مثلما للشهابيين شهرة حربية عريضة وأصدق دليل على ذلك حربهم مع الباطنيين أصحاب بانياس في معارك الثأر للأمير برق بن جندل وما رافقها من مقدرة قتالية وتخطيط ناجح للكر والفر، والسؤال المطروح أمامنا الآن هو كم كان عدد مقاتليهم في حربهم مع عيحا؟

لو رجعنا إلى التنظيم العسكري الذي كان متبعاً في الجيش الفاطمي

(١) في مؤلف الشيخ الأشرفاني إشارة إلى أن الحدث الشهير المعروف بذبحة عيحا جرى بعد وفاة الشيخ أبو المعالي بزمن ليس بقليل.

(٢) في مخطوطة آل الفقيه ما يشير إلى أن أولاد حصيا نزحوا إلى الغوطة ولا تزال أعقابهم هناك.

يومذاك والذي يحدد ماهية أمراء الجيش[1] لوجدنا أنه كان هناك أمير مئة وأمير ألف، كما كان هناك أمير عشرة عند المماليك فيما بعد، وبما أن القبائل والعشائر كانت ولا تزال حتى الآن في جميع مواطنها تمنح لقب أمير لكبار رجالها لأغراض معنوية أكثر منها عسكرية، لذلك لم تكن ملزمة بتطبيق المفهوم العسكري للكلمة، فلو كان لكل أمير جندلي ثلاثون رجلاً ولكل مأمور خمسة طواشية «هذا ما كان عليه الحال أيام المؤرخ صالح بن يحيى»، لكان عديد مقاتلي الجنادلة ٥٥٠٠ مقاتل، وهذا التقدير هو في حدود الممكن والمعقول، ومن قول لا يزال متواتراً بين الناس في وادي التيم حتى الآن «أنه عندما جردت خيالة الجنادلة كان أولهم في بكيفا وآخرهم في الشعيّرة» والمسافة تزيد قليلاً عن خمسة آلاف متر. أما عدد مقاتلي عيحا فقد حدده لنا الشيخ الأشرفاني بصورة واضحة لا تحتاج للتقديرات والاستنتاجات التي قد تخطىء مثلما قد تصيب وهو سبع وعشرون ماية (٢٧٠٠) مقاتل منهم تسعماية من نسل الشيخ الأشابطة وحدهم، وكان لكل فئة من القوتين المتخاصمتين الجنادلة وعيحا أنصارٌ ومؤيدون في البلاد، ومن مجريات الأحداث بينهما نرى أن هذه الجماعات المتصارعة حاربت بفكر عسكري مبدع بكل ما لهذه الكلمة من أبعاد وما خلفها من مفاهيم وتقنيات.

كان الناس في عيحا يدركون تماماً ما ينتظرهم وما هم قادمون عليه من جراء ذبحهم أربعين أميراً من الجنادلة الأقوياء، فلم يغفلوا وبثوا العيون والأرصاد في كل اتجاه وتحولت القرية إلى معسكر شديد الحساسية بوضع الاستنفار الدائم، وبفعل خبراتهم في هذا المجال أدرك الجنادلة عدم قدرتهم على مباغتة القرية وكبسها كما اعتادوا أن يفعلوا، فاعتمدوا بحربهم معها طريقة جديدة هي في غاية المكر والدهاء كانوا يقومون بكبس القرية ليلاً بين الفينة والفينة ولكن القرية الحذرة لم تفاجأ ولو مرة واحدة لأنها بفعل رصادها الكثيرين

(١) كارن، دار المكشوف، طبعة بيروت ١٩٤٨، ص ١٦ عن بهاء الدين بن شداد، القاهرة ١٣٤٦هـ، ص ٢٩.

كانت تعلم بالغارة قبل وقوعها فتحبطها فوراً وتطارد المعتدين ملحقة بهم الخسائر، واستمر الحال على هذا المنوال زمناً طويلاً حتى اعتاد الناس هذا النوع من الحرب فملوها لأن وضعهم الدفاعي الدائم جعلهم في غاية الإرهاق، وهذا ما كان يسعى إليه الجنادلة تماماً وما كانوا يخططون له. وكان يوم أغار به الجنادلة قبيل الفجر على عيحا، وكانت القرية يقظة كالمعتاد فتصدت للمغيرين وطاردتهم فانهزموا هذه المرة باتجاه جديد، نحو جبل الشيخ بعكس ما اعتادوه في المرات السابقة فتعقبتهم الرجال في ذات الاتجاه، وتوغل الهاربون بعيداً وتوغل خلفهم مطاردوهم بقصد تصفيتهم مهما كلف الثمن ولما اجتاز الهاربون سطح الجبل إلى الجهة الأخرى توقفت المطاردة وعاد رجال عيحا المتعبون نحو قريتهم ولما وصلوا إلى ينبوع ماء يتفجر بارداً من مكان ما من الجبل توقفوا هناك ليشربوا ويستريحوا ثم راح معظمهم في قيلولة كانوا بأمس الحاجة لها، هذا الينبوع لا يزال قائماً في القسم الأعلى من جبل الشيخ لجهة الشمال ويعرف بعين جرناي[١].

كان الجنادلة المتظاهرون بالهزيمة... يراقبون الوضع من أعالي الجبل فتركوا القوم حتى استغرقوا في قيلولتهم وانقضوا عليهم فجأة من الأعالي، ونشبت المعركة بين الجماعتين في مثل هذا الوضع غير الملائم لأهل عيحا، فانهزم الناجون منهم إلى القرية وانضموا إلى من كان قد بقي فيها من مقاتلين، كان وقع الخبر على الناس صاعقاً لأن جميع من في القرية كان يعتقد انهزام الجنادلة ودحرهم وأنهم المنتصرون، وكانت أن انتهت معركة عين جرناي لصالح الجنادلة بفضل خطتهم المدروسة والمحكمة الفصول وما لبثت أن تدفقت جموعهم نحو القرية التي كانت قد قصمت ظهرها معركة عين جرناي...

تضررت عيحا كثيراً من هذه الحرب وكان أكثر من تضرر منها الأشابطة (آل شباط) لقد نزح الناجون منهم إلى أماكن عدة في البقاع والإقليم وتوزعوا في

(١) باعتقادي أن هذا الفصل من القصة مستعار من حرب التيامنة وباطني بانياس نظراً لخط سير الجماعة الذي هو في الأصل باتجاه بانياس.

كل اتجاه، وتقول مخطوطة آل الفقيه الموجودة لدى بيت الخطيب في قلعة الجندل التي ذكرت هذه الأحداث بما معناه أن آل شباط هم في الأصل من آل الفقيه وهم يمنيون من عرب الجنوب، وأنهم بعد شتاتهم وتركهم عيحا تجنوا ذكر نسبهم صراحة كي لا يتعرضوا مجدداً لأذى الجنادلة وتذكر المخطوطة الآنفة الذكر اسم العائلات التي تنتمي إلى آل سباط والتي لا تزال على مذهب الدرزية. كما هناك عائلات كثيرة نزحت إلى البقاع والغوطة اعتنقت المذهب السني ولاتزال. ومن عودة إلى قول الشيخ الأشرفاني في مؤلفه حول ما انتهت إليه تلك الأحداث: أن أكثر أملاك الأشابطة في عيحا ذهبت ديات لقتلى هذه الحرب ـ يفهم من هذا القول إن صلحاً جرى آخر الأمر بين الجماعتين المتقاتلتين لأن دفع الديات يجري عادة في أعقاب الصلح. أما عيحا فقد ظلت غائبة عن التاريخ حتى العام ٨٩٨هـ = ١٤٩٣م عادت يومها إلى الظهور كقوة مقاتلة تذود عن حياض الموحدين في الحرب التي نشبت بين الدروز وأهل داريا المدعومين من عسكر الشام وذكر ابن سباط أسماء قتلى هذه الحرب من عيحا وحوش بلاس[١].

ماذا عن يذما؟

يذما اسم لمحلة شهيرة في تاريخ وادي التيم خاصة وتاريخ الدروز عامة، يرتبط اسمها بالردة السكينية التي ظهرت في الوادي في حدود الربع الأول من القرن الحادي عشر للميلاد، وقد أتينا على ذكر هذه الردة التي كانت تتخذ من بلدة يذما قاعدة لأعمالها في أكثر من مكان من هذا الكتاب.

يذما اليوم، منطقة عقارية تابعة لقرية بكيفا في وادي التيم الأعلى تشكل رأس مثلث يتجه نحو الشرق، قاعدته في الجنوب والغرب قريتي تنورا وبيت لهيا، تقوم على كتف واد سحيق يخترق المنطقة عرضياً ويمتد من السفوح الغربية

(١) ابن سباط، ٤٠٨ و٤٠٩ و٤١٠، عن هذه الأحداث قال الدويهي في تاريخ الأزمنة، ص ٢٢٠، أنه سنة ١٤٩٤م = ٩٠٠هـ كانت الوقعة في ضاهر دمشق بين أهل داريا ومجاوريها وركب عسكر دمشق وقتل ناس من الأشرفية وغيرهم جماعة تزيد عن ماية قتيل.

من كهوف الوادي الأثري

لحرمون إلى ما بعد محلة الدلب الواقعة جنوبي ـ غربي بيت لهيا، ومن الآثار يستدل أن تلك المحلة كانت تشكل قطاعاً سكنياً كبيراً تجاوز عديد سكانه ذات يوم الأربعين ألفاً، أما الوادي بحد ذاته يبدو وكأنه إحدى المحطات القديمة للإنسان مثل أنطلياس وعدلون وغيرها، تمتلىء جنباته بالمغاور الطبيعية الفسيحة بشكل لم ير المرء له مثيلاً في البلاد الحورانية التي كانت تدعى في الماضي ببلاد المغاور ـ جورانو ـ ولا يخفى على عاقل أن هذا الوادي المليء بالآثار القيّمة، يشكل قطاعاً سياحياً هاماً، أين منه وادي قاديشا في شمالي لبنان. وباعتقادي أن في هذا الوادي المأهول وما حوله نزلت الهجرات العربية قبل الإسلام وبعده وأنه هو المقصود بالتسمية (وادي التيم)، ثم أعطي اسمه لذلك القطاع من الأرض اللبنانية الذي نكتب تاريخه الآن.

أجمل ما في تلك المحلة يذما، وأبرز ما بقي في يذما آثار قصر قديم يقال أنه كان لسكين، يقوم هذا القصر أو بالأصح ما بقي من آثاره فوق تلة صخرية تعلو ما حولها ومتداخلة في الوادي بشكل تبدو فيه وكأنها تشطر الوادي إلى شطرين على شكل شبه جزيرة في بحر من الهواء، ومع ذلك يمكن الوصول إليها بسهولة ويسر لأنها متصلة بالسهل من جهة بكيفا. أما القصر لم يبق ما يدل عليه سوى أسسه المؤلفة من حجارة متلاصقة توضح ما كان عليه من سعة ورحابة، لقد تهدم القصر تماماً وكأنه ورث اللعنة عن أصحابه ولم يبق من مقوماته سوى أثرين لا يختبط لهما موحد. . . وهما خمارة محفورة في الصخر يؤلفها (جرن كبير وبيدر)، ثم تخطيط على إحدى البلاطات للعبة الشطرنج أو أي شيء مماثل لها.

كنت قد جمعت بعض القطع الخزفية من تلك المحلة، ولما عدت إلى منزل مضيفي في قرية تنورا رجاني بحرارة أن أبقيها خارج المنزل لأنها من يذما الأرض الملعونة. . . فعلمت عندئذ السبب الذي أدى لتهديم القصر كلياً وبعثرة حجارته هنا وهناك. إنها النقمة التي لا زالت تعتمل في صدور التيامنة على ذلك المرتد سكين الذي كان في أحد الأيام سيد تلك المحلة.

بقايا من يذما

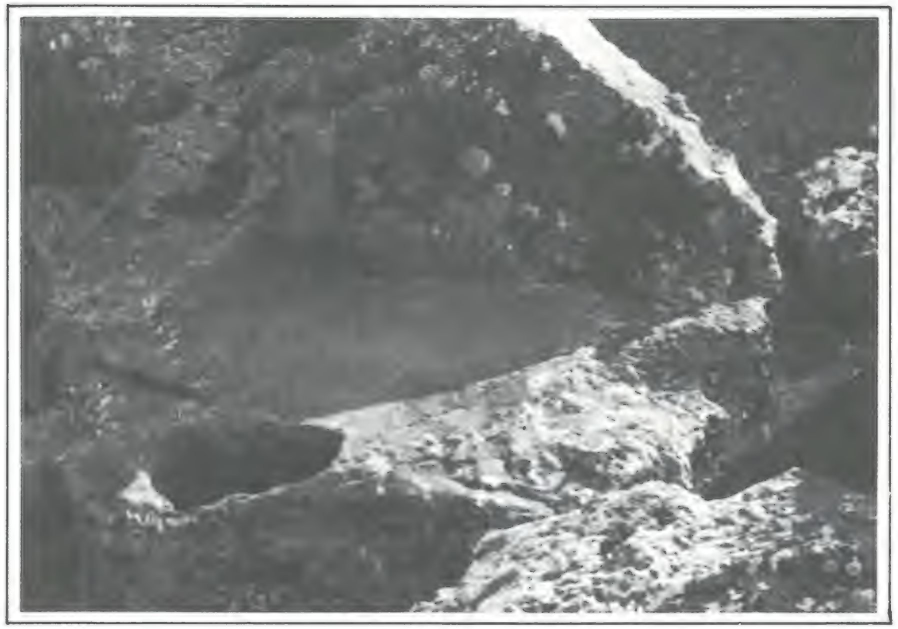

الخمّارة. . .

الحرب بين الدروز والنصيريين في وادي التيم ودور السلاجقة في هذه الحرب!

رأينا أن الحركة القرمطية كانت بمثابة زلزال حرك الأرض تحت أقدام العباسيين فانبروا لهذا الخطر المحدق بدولتهم وحاربوا القرامطة مع حلفائهم حتى تمكنوا في نهاية الأمر منهم وقصموا ظهورهم وشردوهم فوق كل صقع وتحت كل كوكب، وكان حظ وادي التيم من القرامطة وحظهم فيه على النحو الذي أشرنا إليه، وبنهاية القرن العاشر الميلادي كانت ساحة وادي التيم الضيقة تشهد مولد المذاهب الباطنية وكان كل واحد من الناس يأخذ الطريق الذي اختاره لنفسه، ولم تلبث أن برزت نتيجة لذلك قوتان كبيرتان في الوادي هما: الدروز والنصيرية، وفي أوائل القرن الحادي عشر، كان قد بدأ الصراع بين هاتين الجماعتين[1]، فتمكن الدروز من النصيريين وغلبوهم وأخرجوهم من وادي التيم. وهدرت دماء كثيرة في ذلك الصراع بالنظر لقوة الفريقين.

وبعد طرد النصيريين من وادي التيم استقروا في جبالهم الشهيرة بجبال النصيريين في شمالي سوريا، ومن قول[2] أن النصيريين استمروا في وادي التيم ومرجعيون حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي وكان إخوانهم في المنيطرة والعاقورة والبترون وغيرها من الأماكن يساندونهم بقتالهم ضد الدروز، وبالرغم من هذه المساعدة وذلك الدعم. تمكن الدروز منهم وطردوهم، وكان ولاة دمشق وصفد وطرابلس يعملون بدورهم لإضعاف أمر النصيريين فقاتلوهم وأخرجوهم من الجبال اللبنانية[3]، ولم يأت القرن الخامس عشر إلا وكان النصيريون قد انحصر وجودهم في جبال النصيرية المار ذكرها.

من أدعية النصيريين الباقية حتى الآن في وادي التيم تلك العبارة التي

---

(١) منشورات الجامعة ـ ١٨، ج ٢ ص ٢٩٩.
(٢) الدواني، ص ١١٧.
(٣) دواني القطوف، ص ١١٧.

تقول: «بحرمة الكواكب الزاهرة»[1] ويبدو أن هذه العبارة من آثار الصابئة في حياة الناس، ومرت فترة اضطهاد قام بها السلاجقة لكل الجماعات الشيعية التي لا تقول بالمذهب السني، ولحق الدروز والنصيريين الكثير من هذا الاضطهاد، ونالهم ما نال غيرهم من التعسف، فتصدوا له وحاربوه في حدود إمكانياتهم دفاعاً عن جامعتهم وكيانهم[2].

ماذا عن الدولة السلجوقية؟

السلاجقة هم من العنصر التركي، نسبت دولتهم إلى امير سلجوق بن تقاق الذي استولى على خراسان والموصل في حدود العام ١٠٤٠م، ومات هذا الأمير دون وريث، فتسلم الأمر بعده آلب ارسلان القوي فحارب الروم وانتزع من امبراطوريتهم عدة مقاطعات وخاض ضدهم معركة قاسية عرفت بوقعة الكبادوك، تمكن آلب فيها من الروم وأسر امبراطورهم، ثم قتل آلب سنة ١٠٧٣م بعد أن تم له فتح حلب والرملة وبيت المقدس، وتملك بعده ابنه ملكشاه، فقويت الدولة السلجوقية ونشط أمراؤها باحتلال بلدان كثيرة في سوريا وما بين النهرين وآسيا الصغرى، ولكن المنازعات الداخلية فيما بينهم مكنت الدولة الفاطمية من العودة مجدداً واحتلال أقسام كبيرة من السواحل السورية، وما يجدر ذكره أنه في هذه الفترة ازداد عدد الزهاد والعباد الذين اتخذوا من الجبال اللبنانية موئلاً لهم وأخذوا يعيشون على ما فيها من الأثمار المباحة «وعلى ما يصنعونه من الخوص والقصب الفارسي ويبيعونه من أهل المدن»[3]. قلت ربما كان هذا الزمن الذي عاشت فيه (الست شعوانة) صاحبة المقام الجديد في عميق من البقاع الغربي.

□ □ □

(١) منشورات الجامعة ـ ١٨، ج ٢ ص ٢٥٢.
(٢) ذات المصدر، رقم ٢، ص ٢٩٩.
(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المقدسي، ص ١٨٨.

الفصل الرابع

الحروب الصليبية
وادي التيم في قبضة الصليبيين

الصليبيون هم جماعة الافرنج الذين أثاروا الحروب على المسلمين في البلاد العربية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي بعد أن زحفوا إلى سوريا لغرض استخلاص بيت المقدس من أيديهم بحجة سوء معاملة الحجاج الأوروبيين الذين كانوا يتعرضون لمظالم العمال السلجوقيين والفاطميين وغيرهم أثناء زيارتهم القبر المقدّس.

دعوا بهذا الاسم لإتخاذهم الصليب شعاراً لهم رسموه على ملابسهم وأسلحتهم وراياتهم، كما دعيت تلك الحروب بالحروب الصليبية، كان الفرنسيون أشد الجميع حماساً لهذه الحرب فجاءت جماعاتهم بقيادة دوق لورين ـ غوديفروا دي بويون وأخويه بلدوين وانسطاش، ومن أوروبا سارت الكتيبة الصليبية الأولى في ربيع سنة ١٠٩٦م بقيادة رجل يدعى غوتيه وتبعهم بطرس الناسك المحرض الأول على هذه الحرب بجيش قوامه أربعون ألفاً من المشاة جلهم من فرنسا وألمانيا ثم لحقتهم جماعات أخرى غير مدربة ودون قيادة موحدة[1] ثم تبعهم جيش قوامه ١٥ ألف مقاتل بقيادة راهب ألماني اسمه (غوتسكلك). تعرضت هذه الجماعات أثناء مرورها في أوروبا الشرقية لهجمات الهنغاريين الذين أبادوها عن آخرها، لم تنل هذه الكارثة من عزيمة دعاة هذه الحرب وجهزوا جيشاً جديداً قوامه مائتي ألف رجل توجه هذا الجيش الكبير إلى البلاد المشرقية وبدأ عمله بذبح اليهود أينما وجدهم وحيثما صادفهم، وفي آسيا

(١) دائرة المعارف، البستاني، طبعة القاهرة ١٩٠٠، ج ١١، الصفحات من ١٤ إلى ١٧.

الصغرى تصدّى الأتراك الأقوياء لهذا الجيش ونكّلوا به وأسروا الكثيرين من أفراده ولكنه استمر في تقدمه نحو المشرق، كانت القسطنطينية مركز، تجمع هذا الجيش الأمر الذي أخاف الامبراطور البيزنطي الكسيس واعتقد بأن الهدف الأول والأخير لهذا الجيش هو مملكته، وكاد يشتبك مع الصليبيين بحرب لولا أن تدخل غوديفروا دي بويون وطمأن الامبراطور أن لا مطامع لهم في بلاده، ثم الموافقة على شروطه بأن يكونوا بأمرته إذا أرادوا البقاء حيث هم. وأن يعيدوا له البلاد التي أخذها منه الأتراك عندما يحتلوها. عبر هذا الجيش آسيا الصغرى إلى الأناضول وفي كيليكيا انفصل عنهم بلدوين متجهاً نحو الفرات إلى مدينة الرها فاحتلها، وأسس فيها أول إمارة صليبية في الشرق، وتابع الآخرون سيرهم نحو انطاكية فحاصروها ثمانية أشهر ثم فتحوها في ٣ حزيران من سنة ١٠٩٨م وتملكها أمير منهم يدعى بوهيموند ثم احتلوا معرة النعمان وحاربوا النصيريين في جبالهم ثم استولوا على طرطوس واللاذقية وصالحهم كل من صاحب حمص وعرقة، ثم اندفعت أرتالهم المقاتلة جنوباً نحو بيت المقدس على طريقين رئيسيتين سبق أن عبرهما قبلهم غزاة كثيرون من مختلف الأمم وفي مختلف العصور وهما:

١ ـ **الطريق الساحلية**: عبر الشاطىء الفينيقي حتى حيفا في فلسطين وسار على هذا الطريق غوديفروا دي بويون ومن معه.

٢ ـ **الطريق الداخلية**: عبر وادي العاصي فالبقاع فوادي التيم ففلسطين، سلك هذا الطريق «الكونت ريموند دي صنجيل الفرنسي (الغني) على رأس جماعة من الفرنسيين الجنوبيين البروفنسال».

دخل الصليبيون البقاع في شهر ربيع الأول من سنة ٤٩١هـ شباط ١٠٩٩م وتوجهوا نحو[1] فلسطين ووصلت جيوشهم إلى القدس وضربوا عليها الحصار، وكانت القدس بتسلّم افتخار الدولة الحاكم الفاطمي عليها فلم يستطع الصمود أمامهم وسقطت المدينة بيدهم يوم ١٥ تموز سنة ١٠٩٩م فدخلوها وأفحشوا بالقتل وانتهاك الحرمات لدرجة وصفوا فيها بأنهم كانوا

(١) منشورات الجامعة اللبنانية ١٨، ج ١، ص ٣٠٩.

بعيدين كثيراً عن مفاهيم المسيحية وتعاليمها. كان النزاع السلجوقي ـ الفاطمي قد أضر كثيراً بالمسلمين فأضعفهم وأتاح الفرصة للصليبيين لإقامة دولتهم في الشرق، وبالرغم من ذلك الواقع المؤلم، أحيط الصليبيون بموجة من العداء والكراهية امتدت من آسيا الصغرى حتى مصر وتزعمت الداخل دمشق وكان العداء للصليبيين مقياساً لوطنية الحكام من أهل البلاد ودليلاً على حسن جهادهم، وكانت الحملات الصليبية تتجدد وتتوالى لتلافي الخلل في وجودهم وتدعيم احتلالهم لبلادنا حتى بلغت بمجملها ثماني حملات أو تجريدات هي التالية[1]:

التجريدة الصليبية الأولى من سنة ١٠٩٦ ـ ١٠٩٩م،
التجريدة الصليبية الثانية من سنة ١١٤٧ ـ ١١٤٩م،
التجريدة الصليبية الثالثة من سنة ١١٨٩ ـ ١١٩٢م،
التجريدة الصليبية الرابعة من سنة ١٢٠٢ ـ ١٢٠٤م،
التجريدة الصليبية الخامسة من سنة ١٢١٩ ـ ١٢٢١م،
التجريدة الصليبية السادسة من سنة ١٢٢٨ ـ ١٢٢٩م،
التجريدة الصليبية السابعة من سنة ١٢٤٨ ـ ١٢٥٢م،
التجريدة الصليبية الثامنة والأخيرة من سنة ١٢٧٠ ـ ١٢٩١م،

أقام الصليبيون على الأرض التي احتلوها من بلادنا والممتدة من العريش في الجنوب إلى الاسكندرية في الشمال أربع إمارات هي[2]:

١ ـ إمارة الرها ـ الممتدة شرقاً إلى ما وراء الفرات.
٢ ـ إمارة انطاكية ـ وحدودها من طرطوس في فينيقيا وحتى جنوبي اللاذقية.
٣ ـ إمارة طرابلس ـ من المعاملتين قرب بيروت حتى حدود إمارة انطاكية.
٤ ـ إمارة القدس أو مملكة القدس ـ وكانت تشمل الأقسام الباقية بيدهم من أراضي مشتملة على مدن بيروت وصوُر وصيدا وعكا وشرقاً حتى البادية وكان لملك القدس اللاتيني الرأي المطاع والقول الفصل بين جميع الافرنج، وكان لهذه المملكة عدة بارونيات كان وادي التيم ذات يوم تابعاً لإحداها، ألا وهي بارونية صيدا.

كانت هناك أسر نبيلة من الصليبيين تبسط نفوذها على المدن التي

(١) تاريخ الأمير فخر الدين للمعلوف، ص ٣٩.
(٢) لبنان مباحث علمية ١٨، ج ١، ص ٣١٢ ـ ٣١٣.

بأيديهم. من هذه الأسر[1]: أسرة غوتيار في صيدا، وأسرة دي مونفور في صور، وأسرة ديبلين في بيروت وأسرة دي لمبرياك في جبيل، وأسرة دي صنجيل (كونت تولوز) على طرابلس وغيرها.

أجمع المؤرخون العرب والفرنجة على السواء أن الصليبيين لاقوا في البلاد العربية مقاومة شديدة وحروباً مريرة لم تهدأ ولم تخب نارها.

«. . وكان أمراء المسلمين قد أصلوهم منذ قدومهم حرباً عواناً. . ولم يجد الفرنجة يوم راحة خالياً من القتال والمناوشات»، وهنا شبه كبير بين واقع دولة الإسرائيليين اليوم ودولة الفرنجة بالأمس، كلاهما كيان غريب وخطر، تحسست الأمة خطره فانبرت له وستستمر تقاتله حتى تزيله، والتاريخ يعيد نفسه.

في الأمس تصدّى أبطال مسلمون من ملوك وأمراء وجماعات وأفراد للخطر الصليبي ولم يتركوا له فرصة ليستريح وينعم بالهدوء فوحدوا الصفوف إن طوعاً أو قسراً وحاربوا هذا العدو الغريب الخطر حتى قضوا عليه وعادت البلاد إلى أصحابها الشرعيين وأبرز تلك النخبة المجاهدة.

عماد الدين زنكي ـ سلجوقي (١١١٣ ـ ١١٤٦م):

احتل عماد الدين إمارة الرها الصليبية التي كانت أول إمارة لهم في البلاد الشرقية وأول إمارة لهم سقطت بأيدي المسلمين.

نور الدين محمود ـ سلجوقي (١١٤٦ ـ ١١٧٤م):

ورث نور الدين أباه عماد الدين فوحّد معظم البلاد الإسلامية ووحد جهود شعوبها لقتال الفرنجة فاتبع بذلك أسلوباً ناجحاً وزعزع أركان الوجود الصليبي كله وانتزع من أيديهم الكثير من المدن والقلاع والحصون واستطاع بالتالي أن يعطي المؤشرات العملية لزوالهم من البلاد المشرقية، أسماه بعض مؤرخي الفرنجة (نور الدين المروّع) ونور الدين من أعظم ملوك الإسلام قاطبة.

صلاح الدين الأيوبي (١١٧٥ ـ ١١٩٣م):

أكمل صلاح الدين رسالة سيده نور الدين بإكماله توحيد البلاد السورية

(١) ذات المصدر، ص ٣١٤.

والمصرية وخاض مع الفرنجة حروباً كثيرة ومعارك كبيرة كان أهمها معركة حطين التي جرت بينه وبينهم في سهل حطين في فلسطين بتاريخ ٣ تموز من سنة ١١٨٧م وتمكن فيها من دحرهم وأسر الملك لوزينيان وكثيرين آخرين من قادتهم وأمراء جيوشهم واستعاد القدس منهم ومدن كثيرة غيرها وقلّص وجودهم إلى شريط ساحلي ضيّق.

الظاهر بيبرس ـ مماليك (١٢٦٠ ـ ١٢٧٩م):

انتزع من الافرنج المدن والحصون الهامة التي بقيت في أيديهم مثل أرسوف وصفد وحصن الأكراد وحصن القرين وأزال إمارة انطاكية من الوجود، دعاه كتبتهم (بيبرس الهائل) ثم(بيبرس الصاعق) وذكر أن الافرنج قتلوا مملوكاً له فأجبرهم على دفع ١٥ ألف قطعة ذهبية ديّة للمملوك المقتول وخرّب قراهم القريبة من صور حيث اعتدي على مملوكه. وبالإضافة لحروبه مع الصليبيين فقد حارب بيبرس المغول وهزمهم في عين جالوت بقيادة سيده قطز الذي كان له الفضل الكبير بالتهيئة لقتال المغول.

قلاوون ـ مماليك (١٢٧٩ ـ ١٢٩٠م):

تملك بعد بيبرس وانتزع من الصليبيين المرقب وطرابلس والبترون وعكا ووضع الوجود الافرنجي في بلادنا على طريق الاحتضار.

الأشرف خليل ـ مماليك (١٢٩٠ ـ ١٢٩٥م):

أكمل رسالة والده قلاوون ومن سبقه من الملوك المسلمين بمحاربة الفرنجة، وفي عهده قضي نهائياً على دولتهم المشرقية «ولم يبق لهم موطيء قدم في البلاد»[1] فغادروها بحراً إلى أوروبا فكانت مدة وجودهم في البلاد العربية منذ احتلالهم أنطاكية سنة ١٠٩٨م إلى خروجهم من عكا سنة ١٢٩١م مائة وثلاث وتسعون سنة.

(١) دائرة المعارف البستاني، ج ١١، طبعة القاهرة ١٩٠٠، ص ٢٢.

ملاحظة: المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف اعتبر طيروش في البقاع، والصحيح أنها في جبال عين داره. واعتبر سبعل في الجبل، والصحيح أن هناك سبعل في البقاع والأخرى قرب بحمدون.

ماذا عن طيروش؟

وهل من صدام جرى حولها بين المعنيين والجنادلة؟

في كتابه «الأمير فخرالدين المعني الثاني الكبير» يقول المؤرخ الكبير عيسى اسكندر المعلوف أن لديه كتاباً يدعى «قواعد الآداب في حفظ الأنساب» وأنه لم يوفق لمعرفة اسم مؤلف هذا الكتاب، ومما يذكره المؤلف المجهول الاسم في كتابه هذا، بمعنى أن معارك ضارية نشبت بين جماعتين لم يحدد هويتها: إحداهما تسكن في طيروش، والثانية تسكن أو تقيم قيادتها ـ إذا صح التعبير ـ في قرية سبعل في البقاع.. ويقول حول هذا الموضوع: إن سكان طيروش كان منهم أبو الخير أخو فهد... وهم سبعة اخوة فقتل الدرغام، وهو من البقاع من أهل سبعل أبو الخير المذكور، وخفي أمره مدة من الزمن ولم يطل الوقت حتى عرف الناس بالأمر، ونشبت على أثرها الحرب بين أهل طيروش بلدة المعتدى عليه الذي هو أبو الخير، وبين أهل سبعل بلدة المعتدي الذي هو الدرغام!

واستظهر أهل طيروش على أهل سبعل وقتلوا الدرغام رأس البقاعية وأراد أهل سبعل الانتقام وقتل فهد شقيق أبو الخير، فلم يوفقوا، وبعد معارك حامية عاد البقاعيون القهقرى بعد خسارتهم أمام أهل طيروش ولم يطل الوقت حتى هجر أهل طيروش قريتهم نظراً لانقطاعها وكثرة ثلجها. ونلاحظ جيداً أن هذه الأحداث يحيط بها الغموض تماماً إن لجهة تاريخ حدوثها أو لجهة هوية القائمين بها.

وقد وفقت بالحصول على ما يصح تسميته بمخطوطة قديمة تشير إلى هذه الأحداث بالذات يفهم منها أن سكان طيروش هؤلاء كانوا من الجماعات

القيسية التي جاءت من شمالي سوريا أسوة باللخميين وبني بحتر التنوخيين. استقرت هذه الجماعة أول أمرها في طيروش تماماً كما نزل سابقوهم في المغيثة وضهر البيدر، وبعد مدة غير محددة ترك هؤلاء طيروش لكثرة ثلجها وهبطوا باتجاه الأقاليم اللبنانية الساحلية، وأن هذه الجماعة استجابت للدعوة التوحيدية ـ وأصبحوا دروزاً فيما بعد مثل سابقيهم الارسلانيين والتنوخيين. وقبل البحث في هذا السياق التاريخي، نشير إلى ناحية جغرافية هامة وهي: ماذا عن طيروش؟

طيروش اليوم، منطقة عقارية من خراج بلدة عين دارا موقعها في الشمال الشرقي من الجبل الذي يطل على بلدة قب الياس ـ ضهر البيدر ـ منذ زمن بعيد لا يزال هذا الموقع التراثي معروفاً باسمه الأول (طيروش)، ولا تزال فيه آثار سكنية متواضعة حول نبع ماء يدعى (عين البياضة). أما سبعل، فموقعها في مكان ما من سهل البقاع ليس ببعيد عن قب الياس.

والواضح من خلال نص المخطوطة التي وضعها مؤلفها بالشعر الشعبي: أن هذه الجماعة القيسية ـ سكان طيروش ـ كانوا في غاية القسوة والعنف، وكانوا قليلي العدد نسبياً لو قورنوا مع جيرانهم البقاعيين، وكانوا أيضاً أغنياء، الشيء الذي أغرى بهم جيرانهم من أهل سبعل. وفيما أراه أن هذه الجماعة هم المعنيون بالذات الذين جاؤوا ومعهم التلاحقة ـ بني تلحوق ـ وبني عزام وبني نكد، والجميع على المذهب منذ أن عرفوا لبنان وعرفهم. ونزوح هذه الجماعة من شمالي سوريا، أي المعنيين، جرى في حدود العام ٥١١هـ الموافق للعام ١١١٧ للميلاد، وهي السنة التي جرى فيها ذلك الصدام الكبير والدامي بين الأمير معن، رأس العرب الأيوبية، وبين الفرنجة الذين كانوا بقيادة بلدوين شقيق غوديفروا دي بويون الذي كان ينتقل على رأس خمسين ألف مقاتل صليبي في اتجاه اختلف بتعيينه المؤرخون، فمنهم من قال أنه كان آت إلى القدس ليتسلم فيها الملك بعد وفاة شقيقه غوديفروا، ومنهم من

قال أنه كان ذاهب بمن معه باتجاه الجبل الأسود فمسك عليه الأمير معن الطريق ونشبت بين الفريقين رحى معركة ضارية، جرت في ظروف غير متكافئة، دارت فيها الدائرة على المعنيين ومن معهم فانهزموا. وقصد الأمير معن بمن معه البقاع بأمر من طفتكين اتابك دمشق الذي أكرمه وقدر له جهاده حق قدره.

وفي كتابه «تاريخ لبنان الحضاري» يقول الأستاذ يوسف السودا: إن مجيء المعنيين كان أولاً إلى وادي التيم، ثم انتقلوا منه إلى لبنان في حدود العام ١١٤٤م، وكان برفقتهم من أشرنا إليهم سابقاً من العائلات الدرزية، فمعظم الذين أرخوا عن المعنيين قالوا أن مجيئهم إلى لبنان كان في حدود العام ١١٤٩م، وهذا يؤكد الموضوع ولا ينفيه. فمن السنة ١١١٧م إلى السنة ١١٤٩م اثنتين وثلاثون سنة، هذه المدة أمضاها المعنيون ومن معهم من التلاحقة والنكدية وبني عزام في وادي التيم وفي طيروش، كما نعتقد، لأن ضهر البيدر، هذه الوهدة الجبلية كانت دائمًا نقطة تجمع للعشائر العربية التي استوطنت في ما بعد الأقاليم اللبنانية، ففي إشارة للشاعر المؤرخ... عن نزوح جماعاتهم من حلب بعد معاناتهم الصعبة في الشمال السوري، يقول:

رحلنا من حلب في كل همي
أتانا سعدنا والنحس أدبر

ويكمل قوله:

في طيروش قررنا وطنا   وحمينا نجعنا بسيوف بتّر
ولكن البقاعية غزونا   عكسب موالنا هيك المقدّر!
كانوا جمعوا ألفين فارس   كنا مايتين ما فهش أكثر
بني معروف لاقوهم بسرعة   مثل سباع فوق خيول ضمّر

فيما أعتقد، إن عبارة بني معروف، هي عبارة متأخرة فهي أقرب لزمن الشاعر منه لزمن الأحداث التي يعنيها، ويكمل قوله:

صارت بينهم وقعة مهولي   جابوهم أسارى بيوم أقفر
ولما عرفت الباقين منهم   أن ولادهم أمرهم تعسّر

قاموا جمعوا جملة هدايا   من فضة وذهب أبيض وأصفر
وهم كدوا على طيروش حالاً   يفكوا أولادهم فيما تيسّر

بني معروف جابو بصوت واحد
هدايا ما منرضى شي مسوكر
فكاك الشخص بمدارس وحصيري
وما بنا عالفكاك رجال تحضر

ألا تفكهم منا نساهم   تابيقو معيرة في كل محضر

تصور كم في هذا القول من قسوة وعنف وكأني بالشاعر يريد أن يقول أن الذين تصدوا للجيوش الصليبية الجرارة والذين جاؤوا إلى الجبال اللبنانية وهم ينزفون دماً، يصعب على سكان سبعل من صانعي الحصر – «مفردها حصيرة وهي مفرش يصنع عادة من نبات الخوص المتوفر في غاب عميق» – أن ينالوا منهم فكانت شروطهم المذلة لافتكاك الأسرى البقاعيين، فالذين يعرفون تاريخ المعنيين وتاريخ الأسر التي رافقتهم وخاصة النكدية الأبطال، يعرف تماماً أنهم هم ساكنو طيروش وصانعو أحداث تلك الأيام.

هذا الاحتمال يؤكده تماماً مؤلف كتاب قواعد الآداب في حفظ الانساب الذي يشير إلى أن دخول المعنيين ومن معهم، كان عن طريق ظهر البيدر – وانهم استقروا أولاً في أراضيها الواسعة والصالحة لرعي الماشية. وفي فصل الصيف تقدموا نحو جبال عين داره حتى وصلوا طيروش، هبطوا بعدها إلى حيث يقع اليوم مقام النبي شمليخ، ثم إلى ما حول صوفر وسبعل وبطلون وبحمدون – وسبعل هذه غير تلك التي كانت قائمة في سهل البقاع والتي يكثر فيها

الخوص الذي تصنع منه الحصر ـ ثم عمروا حمانا وضهور الشوير وضاقت البلاد بهم لكثرتهم فنزل بنو معن والمقربون منهم بلدة دير القمر، وانتشر الآخرون في مختلف القرى الشوفية. . من هنا كان استيطان النكدية الدير حتى الأمس القريب.

أما قول المؤرخ الكبير عيسى اسكندر المعلوف بأن البقاعية المعنيين بالقول هم من الجنادلة، فهذا أمر يحتاج لتأكيدات تاريخية لم تتوفر عملياً فكان الظن، وبعض الظن إثمًا. . . لأن الجنادلة خارج بلادهم بقاعية أما داخل بلادهم فجنادلة. مع العلم أنه كان هناك حي كبير من العرب في البقاع من بني كلب، وقد أشرنا إليهم في مكان آخر من هذا الكتاب، بحيث دعي البقاع يومذاك بقاع كلب. ثم برزت قوة فيما بعد في البقاع أولهم بني الحمرا وآخرهم مقدمو البقاع بنو صبح أصحاب المعارك الشهيرة مع أهل وادي التيم، كما سنرى بعد قليل.

وادي التيم بين الإفرنج والتنوخيين:

علمنا أن الإفرنج كانوا قد استولوا على الجزء الأكبر من وادي التيم في فترة المد الإفرنجي نحو الداخل وألحقوا حاصبيا ـ حاضرته الكبرى ـ ببارونية صيدا الصليبية. ويذكر ابن القلانسي ذلك مشيراً إلى أن القسم الباقي من وادي التيم كان بيد التنوخيين. ولكن الذي لم نعلمه هو موقع ذلك الخط الفاصل بين الاثنين، بين ما يملكه الإفرنج وما يملكه العرب في وادي التيم. ونرى أن هذا الخط لم يكن في يوم من الأيام ثابتاً، بل كان يتجاذبه باستمرار مد وجزر، ومن جهة ثانية كان هناك قرى عربية بيد أصحابها العرب ويحكمها الإفرنج ويعاملون أهلها معاملة حسنة، وقد أشار إلى ذلك الرحالة ابن جبير الذي زار البلاد في تلك الحقبة من التاريخ ودوّن مشاهداته وملاحظاته عنها، ورأينا أن الإفرنج وصلوا بغزواتهم حتى حوران، وفي نفس الوقت لم يكن الساحل الصليبي بمنأى عن غزوات أمراء الداخل المسلمين.

وما تجدر الإشارة إليه أن قولاً متواتراً بين الناس سمعته عشرات المرات مؤداه أن الإفرنج كانوا في مغنسيا ـ منسيا ـ القرية الأثرية القريبة من ينطا والتي تحمل اسم ماغنوس الحاكم الروماني العام لسوريا في السابق. وأهمية هذا القول هو في المؤكدات التاريخية التالية:

١ ـ هناك أثر تاريخي موجود في تلك المحلة، وقرب هذا الأثر عين ماء تدعى (عين الدير) اسمها المتوارث حتى اليوم، والمؤكد أن الأثر التاريخي المجاور لها كان ديراً بلا شك.

٢ ـ يعرف هذا الدير حتى يومنا هذا باسم محيّر، لا هو عربي مثل دير البلح ودير العشاير ودير العدس مثلاً. . ولا هو روماني. إنه يدعى دير الجاوخ (JAWKH) والاسم كما يبدو ألماني، قلت: ربما كان هذا من أديرة الرهبانية التوتونية الألمانية صاحبة النشاط الواسع في بلادنا أثناء الاحتلال الصليبي لها. وكانت هذه الرهبانية تمتلك عدة قلاع وحصون وأديرة كثيرة، وكان بيدها حصن القرين الذي أشير إلى موقعه بأنه: قريب من وادي القرن وليس ببعيد عن صفد، ولكن ليس وادي القرن الواقع على طريق الشام ـ بيروت، على الحدود اللبنانية ـ السورية، إنه وادي آخر يقع شمالي فلسطين يخترق هضاب الجليل من الشرق إلى الغرب، حيث ينفتح على سهل الزيب، وكان الظاهر بيبرس قد انتزع هذا الحصن من الرهبان التوتونيين الألمان سنة ١٢٧١م ولا تزال محفوظات هذا الدير موجودة في ألمانيا. ومن قول للمؤرخ الكبير عيسى اسكندر المعلوف ما معناه: أن وادي القرن يعني فيما يعنيه وادي زحل، وأن من دعوه بهذا الاسم نسبوه إلى معبودهم زحل تبركاً وكذلك بلدة قرنايل ـ قرن ايل ـ أي زحل الإله[1]، وليس قرن الايل كما يزعم البعض.

(١) مجلة الآثار، العدد الأول، ١٩١١، صفحة ٢٧.

الشهابيون أمراء وادي التيم:

نظرة عامة: يتضمن تاريخ الشهابيين القسم الأعظم من تاريخ وادي التيم المنقول والواضح على امتداد زمني يبلغ ٦٥٩ سنة، أي من سنة ١١٧٢ يوم نزل الشهابيون في وادي التيم وانتزعوه من الإفرنج الصليبيين بقوة السلاح، إلى العام ١٨٤١م اليوم الذي انتهوا به كأمراء ذوي سلطة على لبنان، خلال هذه المدة أعطى وادي التيم للبنان حكامه طوال ١٤٤ سنة، أي من سنة ١٦٩٧م يوم انتخب اللبنانيون المجتمعون في مرج السمقانية أول أمير عليهم من بني شهاب القيسيين ممن يمتون بصلة الرحم إلى الأسرة المعنية وهو الأمير بشير الريشاني الأول ووصيه فيها بعد الأمير حيدر إلى سنة ١٨٤١م، المار ذكرها.

ولما كانت أحداث وادي التيم هي أهم ما يعنينا. نقول أنه خلال هذا الزمن الطويل كان التفاهم تاماً بين التيميين اليمنيين بمعظمهم، وحكامهم من آل شهاب القيسيين، ولم تتأثر ساحة وادي التيم بمثل ما تأثرت به ساحة الجبل اللبناني من حراء الصراع القيسي ـ اليمني، وليس معنى القول أنه لم يكن هناك تحزب، ولكن لم يكن هناك اقتتال، ودليلنا على ذلك أن نزوح العائلات والجماعات التيمية من وادي التيم إلى جبل الدروز في حوران، لم يكن بفعل أحداث سياسية ضاغطة، كما حدث للعائلات اليمنية في الجبل اللبناني بعد معركة عين دارا (١٧١١)، بل كان نزوحاً لأسباب محض اقتصادية استمر حتى العقد الثالث من القرن العشرين، ويبدو أن معركة عين دارا كانت أعنف حلقة متفجرة في سلسلة العداء القيسي اليمني الذي أنهته عملياً لصالح القيسيين.

ومن مجريات الأحداث، يتضح لنا أنه كان هناك تعاوناً واحتراماً متبادلين بين التيميين وأمراء الوادي من آل شهاب ولم يتغير الحال إلا عندما تغير الوضع على ساحة الجبل اللبناني في عهد الأمير بشير الشهابي الثاني، واستمر يسوء إلى أن انتهى بمقتل الأمير سعدالدين الشهابي سنة ١٨٦٠، بحيث قتله التيامنة الدروز في قصره وجروا جثته إلى الشارع العام، ويعزى التوافق التيمي الشهابي الذي عاش طويلاً إلى أسباب كثيرة أهمها:

١ ـ الأصالة والتشابه التاريخي بين الدروز والشهابيين ووحدة الغرض في الكثير من المواقف السياسية بالرغم من كثرة العناصر اليمنية بين التيامنة وقيسية الشهابيين.

٢ ـ العلاقات الطيبة بين المعنيين والشهابيين التي جعلت من امارة بني شهاب ـ في نظر وادي التيم الدرزي ـ امتداداً لامارة المعنيين الدروز في الجبل اللبناني، ونتيجة لذلك حل الشهابيون محل المعنيين برئاسة البلاد بموافقة جماعية لم يخرج عليها سوى الحزب اليمني.

ماذا عن الشهابيين؟

ينتسب الشهابيون إلى قريش اسم جدهم مالك ولقبه شهاب تبركاً بجده لأمه لأن أمَّه كانت من سلالة شهاب بن عبدالله ابن الحارث بن زهرة القرشي من رهط آمنة.

ينتمي مالك إلى مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر. وفهر هذا لقبه قريش وعرف به[1] وولد لمرة ثلاثة هم كلاب وتيم ويقظة، وكلاب ولد له قصي المسمى زيداً ولقصي عبد مناف ولعبد مناف عمرو الملقب بهاشم ولهاشم عبدالمطلب ولعبدالمطلب عبدالله ولعبدالله محمد نبي العرب صلى الله عليه وسلم، أما يقظة فولد له مخزوم ولمخزوم عمر ولعمر عبدالله ولعبدالله مغيرة ولمغيرة هشام ولهشام الأمير الحارث الذي أمره الخليفة الراشدي أبو بكر الصديق ولحارث مالك الملقب بشهاب الآنف ذكره الذي أمَّره الخليفة عمر ابن الخطاب وانتقل بأقاربه وعشيرته من الحجاز إلى حوران. ساهم الشهابيون بحملات الفتح مساهمة قيّمة وفعالة واستشهد منهم كثيرون وعند مجيئهم إلى حوران نزلوا في قرية (شهبا) وجرت مواقعة بينهم وبين بني عساف النصارى[2] ومنعوهم من الدخول إلى حوران سنة ٤٤هـ= ٦٦٦م واستمر الشهابيون في شهبا، وفي

(١) تاريخ الأمراء الشهابيين، د. هشّي صفحات ١٥ و١٦ و٢٧.
(٢) نفس المصدر.

حروب القرامطة استنجد أحمد بن طولون بالأمير عامر الشهابي على القرامطة فأنجده بخمسة عشر ألف مقاتل وبعد الانتصار عليهم توطن الأمير عامر في أذرعات (أزرع) فعرف بعامر الأذرعي. وتوفي الأمير عامر سنة ٢٧٥هـ = ٨٩٣م وكان الأمير عامر بالإضافة لشجاعته شاعراً مجيداً من شعره:

إني امـرؤ لست من قوم إذا اقتتلوا
رأوا الهـزيمـة منجـاة من القضب

هم الصـدور إذا حلوا الصدور وهم
أسد العجاج وأهـل المنزل الـرحب

هل اختار الشهابيون وادي التيم لنزولهم فيه أم كان مجيئهم إليه صدفة؟

قبل أن يذهب صلاح الدين الأيوبي إلى مصر بأمر من سيده الملك العادل نور الدين محمود. كانت تربطه بالأمراء الشهابيين علاقة ود وصداقة، لأنهم حاربوا مراراً بإمرته وفي مقدمة جيشه لذلك كان معجباً بهم محباً لهم، ولما تقوّى مركزه في مصر، حصل بينه وبين سيده نور الدين فتور وجفاء وكان نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يعالج الأمور بحكمة بالغة فاستبعد الانفجار بين ابنه وسيده، وكان قد وصل خبر هذا النفور بين القطبين الكبيرين إلى العامة فخاف الشهابيون الموالون لصلاح الدين العاقبة فاجتمعوا بقيادة أميرهم منقذ وقرروا النزوح إلى مصر إلى حيث يقيم صديقهم صلاح الدين، فنزحوا بعشائرهم من حوران باتجاه البلاد المصرية وكان عديدهم يومذاك حوالي الخمسة عشر ألفاً على رأسهم عشرة أمراء واستمروا بسيرهم حتى جسر بنات يعقوب في فلسطين.

لما وصل خبر نزوح الشهابيين من حوران إلى الملك العادل نور الدين محمود هاله الأمر وآلمه أن تترك البلاد هذه الجماعة المقاتلة الباسلة، وهو البعيد النظر الكبير الطموح فأرسل إليهم أحد خواصه مصحوباً بخلع وهدايا طالباً إليهم البقاء في البلاد والإقامة في أي مكان شاؤوا، وأعدا إياهم أنهم سيكونون

عنده في المنزلة التي هم فيها عند صلاح الدين، ومن جملة ما عرضه عليهم أن يأتوا إليه في دمشق ويسكنوا فيهـا، وبعد مشاورة فيما بينهم أجابوه بالقبول ولكنهم اعتذروا عن سكن الأمصار والمدن لأنهم اعتادوا سكن البادية، فسمح لهم بالإقامة حيث يطيب لهم المقام فجاؤوا إلى وادي التيم ونزلوا في بيداء ضهر الأحمر بين الكنيسة والجديدة[1].

كان القسم الأكبر من وادي التيم يومذاك بيد الإفرنج، والباقي منه بيد الأمير ظهير الدين التنوخي عامل الملك العادل فقلق الإفرنج لنزول الشهابيين هناك وبنوا برجاً حيث تقع قلعة راشيا اليوم لغرض المراقبة واكفهر الجو في وادي التيم وصار الناس يتوقعون صداماً بـين الجماعتـين. أخذ الفـرنجة يستقدمون الرجال إلى وادي التيم من مواقعهم البعيدة في صور وصيدا وعكا ويحشدون مقاتليهم في حاصبيا المحصّنة حتى قيل إن عدد ما حشدوه بلغ خمسين ألف مقاتل، وأجرى الشهابيون بدورهم استعداداً حربيـاً وكان أن التقى الفريقان مصباح يوم الخميس في ٢١ من شهر[2] صفر سنة ٥٦٩هـ الموافق العام ١١٧٣م وجرت بينهما معركة رهيبة أبدى فيها الشهابيون من الشجاعة والإقدام ما يفوق الوصف وأسفرت هذه المعركة عن وقوع ثلاثة آلاف قتيل من الإفرنج وثلاثمائة قتيل من الشهابيين (دفنوهم بثيابهم) وأرسلوا يخبرون الملك العادل بما جرى ويبشرونه، وفي اليوم الثاني تهيأت الجماعتان للقتال فبرز قائد من صفوف الإفرنج وأخذ ينادي الشهابيين بالعربية طالباً إليهم أن يرسلوا إليه

(١) في كتابه أضواء على جغرافية التطور التاريخي للمقاطعات اللبنانية يرى مسعود ظاهر أن الجديدة المقصودة هي جديدة مرجعيون. أما الأمير حيدر أحمد والشدياق والدكتور هشي فلم يحددوا أي جديدة هي المقصودة واكتفوا بذكر الكلمة دون تحديد، وفيما نراه أن المقصود بالقول هي جديدة يبوس التي تبعد عن الكنيسة حوالي العشرين كيلومتر شمالاً لأن التواجد الصليبي في حاصبيا وما حولها كان كثيفاً يومئذ بعكس ما كان عليه الحال في شمال وادي التيم ولأن الشهابيين باشروا فور نزولهم بتطهير جنوب وادي التيم من الفرنجة. والدليل الأهم هو أن الصليبيين ابتنوا البرج في راشيا لمراقبة الشهابيين المتواجدين شمالي وادي التيم على محور الكنيسة ـ الجديدة.

(٢) الغرر الحسان، ص ٣٥٢.

أقوى رجالهم لقتاله ومبارزته. فنزل إليه الأمير نجم ابن الأمير منقذ ولما التقى البطلان هجما على بعضهما فلم يقدر أحدهما على الآخر فتماسكا وسقطا عن جواديهما وبينما هما يتدحرجان على الأرض استل الأمير منقذ خنجر الإفرنجي وطعنه به فقتله[1] فانكسرت الإفرنج إلى الحولانية وقتل منهم خلق كثير وقتل من عشائر الشهابيين ستماية قتيل وأسر الشهابيون خمسماية أسيراً من الإفرنج أرسلوهم إلى الملك العادل نور الدين إلى دمشق، وانهزم قنطورا (كونت أورا) الفرنجي إلى حاصبيا وتحصن مع ثلاثماية من رجاله الأشداء في قلعتها الحصينة.

وصل الشهابيون بعد عشرة أيام إلى حاصبيا وهزموا الإفرنج المتحصنين في الجبال حولها ثم ضربوا الحصار على قلعتها.

في هذه الأثناء توفي الملك العادل نور الدين محمود، وجاء صلاح الدين من مصر ليتسلم تركة سيده، فوصل إلى الشام على رأس سبعماية خيال فخرج للقائه كل من في المدينة للترحيب بقدومه، كان ابن الملك العادل صغيراً تحت الوصاية لذلك كان صلاح الدين هو رجل الأحداث المناسب لمتابعة رسالة نور الدين.

استمر حصار الشهابيين لحاصبيا عشرة أيام وفي اليوم الأخير من الحصار، طلب[2] من فيها من الإفرنج الأمان فأمّنهم الأمير منقذ وسمح لهم بالخروج من هناك دون سلاح، ولكن القائد الإفرنجي قنطورا ومعه جماعة رفضوا التسليم ويبدو أن هؤلاء الفرنجة كانوا يتوقعون وصول نجدات جديدة لهم، ولكن الشهابيين لم يمهلوهم وهاجموا القلعة «ونقبوا جدرانها بالمعاول والقداديم» ودخلوا معاقل المحاصرين فقتلوا قنطوراً ومن معه وأرسلوا برؤوسهم إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي فأرسل يهنئهم بنصرهم ويمنحهم الولاية على الأراضي التي امتلكوها إلى ما شاء الله.

(١) ذات المصدر.
(٢) الغرر الحسان، ص٣٥٣.

أخاف انتصار الشهابيين من في قلعة الشقيف من الصليبيين فأرسلوا إلى الأمير منقذ يطلبون منه الهدنة فهادنهم، وهلّل المعنيون في الشوف لإنتصار الشهابيين على الإفرنج، ووجدوا بالقادمين الجدد إلى وادي التيم رفاق سلاح ومصير فقام الأمير يونس المعني إلى حاصبيا مهنئاً الشهابيين بانتصارهم واستمر بضيافتهم ثلاثة أيام وابتدأت بهذه الزيارة العلاقات الطيبة بين الجماعتين والتي استمرت طويلاً كما هو معروف.

يقول الأمير حيدر إنه في العام ١١٧٥م غزا الأمير يونس المعني إفرنج الساحل ودارت بينه وبينهم معركة كبرى انتصر فيها الأمير يونس وأوقع المعنيون بالإفرنج، وعندما هدأت الأحوال من هذا العام دعا الأمير يونس المعني الأمير منقذ الشهابي لزيارته في بلاده، وتمت الزيارة على النحو الذي أوردناه آنفاً وانتهت الزيارة بالمصاهرة بين الأسرتين.

توفي الأمير منقذ في حاصبيا سنة ١١٩٤م أيام الملك الظاهر عن ٦٨ سنة من العمر وكان أول أمير شهابي على وادي التيم[1]، وتسلّم الأمر بعده ابنه الأمير نجم الذي سبق وصرع القائد الإفرنجي في حلبة الصراع. وابتنى الأمير نجم الكثير من الدور والبيوت في حاصبيا وابتنى داراً جميلة على قمة جبل الشيخ لغرض الاصطياف هناك وقد ذكرنا ذلك فيما كتبناه عن حرمون ويحضرنا الآن قوله:

أهدى لنا من ربى نجد معطّرة
ومنظراً من ديار العجم والعرب

وفي حنين هذا الأمير إلى نجد موطن عشيرته الأول ما يذكرنا بالقول إن في تراب الأوطان لسحراً... توفي الأمير نجم سنة ٦٢١هـ = ١٢٢٤م وله من العمر ٧٦ عاماً، وتسلّم الأمر بعده ولده الأمير عامر أقوى الأمراء الشهابيين بعد جده منقذ، وفي زمنه تجددت المعارك بين الإفرنج والشهابيين، وكان الإفرنج

(١) لبنان مباحث علمية ١٨، ج ١، ص ٣٢٤، والغرر الحسان.

يستعدون لهذه الحرب منذ زمن بعيد على ما يبدو، وزحفت جيوشهم من قلعة الشقيف إلى وادي التيم ودارت المعارك بينهم وبين الشهابيين، فتضرر الشهابيون من هذه الحرب وبالرغم مما حاق بهم من خسائر استمروا يجالدون الإفرنج حتى وصلتهم نجدة من حلفائهم المعنيين بقيادة الأمير عبدالله ابن الأمير سيف الدين المعني كانت المعركة في سهل الخيام واستمرت ثلاثة أيام بلياليها ولما أطلت على الساحة بيارق المعنيين استبشر الشهابيون وقام رجال الشوف ورجال وادي التيم بهجوم صاعق على الإفرنج فأزاحوهم أول الأمر من مواقعهم وما لبثوا أن هزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، كانت هذه المعركة أول تعاون إيجابي مثمر بين الأسرتين العربيتين.

وصلت أخبار هذا الانتصار للملك الصالح الأيوبي في دمشق فسرّ به وأرسل إلى الأمير عامر الشهابي يهبه الإقطاعات في البقاع.

توفي الأمير عامر وخلفهُ في إمارة وادي التيم ولده الأمير قرقماز، وكانت أمه جارية رومية فاستخف به أبناء عمومته وأبوا أن يطيعوا أمره وائتمروا فيما بينهم لخلعه عن الإمارة، وكان الأمير قرقماز ذكياً عارفاً بما يجري حوله فاستبق الأحداث وعاجل المتآمرين عليه بأن قتل منهم ثلاثة أمراء وأمر رجاله بقتل عشرة من أتباعهم فإنصاع الباقون رهبة وأخلدوا للسكون.

المغول في وادي التيم:

«إنا جند الله في أرضه خلقنا وسلطّنا على من حلّ عليه غضبه، فليكن لكم فيما مضى معتبر. وبما ذكرناه وقلناه مزدجر. فالحصون بين أيدينا لا تمنع. والعساكر للقائنا لا تضر ولا تنفع. ودعاؤكم علينا لا يستجاب ولا يسمع. فاتعظوا بغيركم وسلموا إلينا أموركم قبل أن ينكشف الغطا ويحل عليكم الخطا. فنحن لا نرحم من شكا. ولا نرق لمن بكا. لقد أخربنا البلاد. وأفنينا

(١) تاريخ الأمراء الشهابيين، د. هشّي، ص ٣٥؛ والغرر الحسان، ص ٣٥٣.

العباد. ويتمنا الأولاد، وتركنا في الأرض الفساد. فعليكم بالهرب. وعلينا بالطلب».

هؤلاء هم المغول وهذه الأقوال مقتطفة من رسالة طويلة بعث بها قائدهم هولاكو إلى الملك الناصر صاحب حلب[١].

دخل هولاكو بغداد في سنة ٦٥٦ للهجرة في خلافة المعتصم، وأسلمها للنهب والسبي والسيف مدة سبعة أيام، ثم رحل عنها وأخذ معه الخليفة وأولاده وفي أول مرحلة قتلهم[٢] وتابع سيره إلى حلب وحاصرها ثمانية أيام فدخلها وقتل من أهلها أكثر مما قتل من أهل بغداد، وأخذت المسيرة الرهيبة تقترب يوماً بعد يوم حتى وصل المغول دمشق فحاصروا القلعة ورموها بعشرين منجنيقاً كبيراً فتشققت الأبراج ودخل المغول المدينة وامتلكوا القلعة وتابعت مسيرة الدمار تقدمها إلى وادي التيم فكانت أحداثها من أسوأ ما عرفت أرضه في تاريخها بقي وادي التيم بعد هبوب هذه العاصفة الرهيبة عليه حوالي الخمس سنوات خاوياً خالياً لم توقد فيه نار ولم يرتفع على أرضه جدار. على حد قول بعض الرواة[٣].. والجدير ذكره أن معظم العائلات الشوفية ذات الأصول التيمية رحلت في هذه الفترة إلى الشوف وعمرته[٤].

معركة عين جالوت:

إنها من المعارك الهامة والمؤثرة في تاريخ البلاد المشرقية عامة وتاريخ البلاد العربية خاصة لأن ما خلفته من دروس وعبر لا تزال ترتسم على واقع التاريخ

(١) هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب تولى حلب والشام ٢٣ سنة قبض عليه هولاكو وقتله عندما علم بانكسار جنده في عين جالوت ومن عجيب الصدفة أن يكون هذا اسم أول ملك وآخر ملك أيوبي.

(٢) بقتل المعتصم قضي على الدولة العباسية فتكون مدة حكم العباسيين ٥٢٤ سنة قام منهم سبعة وثلاثون خليفة أولهم أبو العباس السفاح وآخرهم المعتصم، الغرر الحسان، للأمير حيدر الشهابي، ص ٤٣٦، مع لفت النظر أن أحداث هذه الغزوة مأخوذة عن نفس المصدر.

(٣) الغرر الحسان، الأمير حيدر، الدكتور هشي، تاريخ الأمراء الشهابيين، ص ٣٦ و ٣٧.

(٤) تاريخ آل معن، مجلة المقتطف ١٩٠١، ص ١١٠.

العربي المعاصر، وأهم هذه الدروس هو ما نحتاجه لتوحيد قوانا المشتتة لمواجهة الغزوة الصهيونية الخطرة التي تتعرض لها بلادنا اليوم، ومعركة عين جالوت كانت أول معركة خاسرة للجيوش المغولية الرهيبة التي انطلقت من الشرق الأقصى واتجهت غرباً كالسيل الجارف مكتسحة كل مقاومة مهما بلغت مخلفة وراءها ركام المدن ورماد الحضارات. تحطّم هذا المد الطاغي في سهل بيسان من فلسطين على يد الجيش المصري العظيم مع ما انضم إليه من قوى سورية بقيادة السلطان المظفر قطز وقائده الكبير بيبرس البندقداري، وأصدق وصف لدينا عن هذه المعركة هو ما قاله بصددها صالح بن يحيى[1] يقول: جرت هذه المعركة الكبيرة في غوربيسان على عين جالوت يوم الجمعة في العشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ الموافقة للسنة ١٢٦٠ ميلادية، وكان يوم الوقعة يوم عظيم كان مع العسكر ثلاثماية طبلخانة أي (طبل دهول) لم يسمع لها صوت وهي تدق من عظم الضرب على الدروع (والقراقل) والخوذ وصراخ الرجال، ولما اشتد القتال هرب المغول باتجاه الشرق فالتقاهم القائد بيبرس وألحق بهم الخسائر الكبيرة، قتل في هذه المعركة القائد المغولي كتبغا وأسر ولده ولم يصب المغول بكسرة أكبر منها منذ أن خرجوا من الشرق وتشتت جيشهم الذي كان يبلغ عديده الأربعماية ألف مقاتل[2].

جاء المغول إلى البلاد الشامية في العام ٦٥٨هـ = ١٢٦٠م. ولكنهم حلوا في وادي التيم في عهد الأمير سعد الشهابي، ويبدو أن المغول اكتسحوا وادي التيم من شماله إلى جنوبه وكانت أخبار وحشيتهم قد سبقتهم إليه، فعم الخوف والذعر بين الناس وأخذ التيامنة بالنزوح إلى (جبل بني معن) إلى الشوف، فكانت قوافل النزّاح متلاحقة ومتصلة وارتفعت أسعار استئجار الدواب، وقد ثبت فيما بعد أن الذين نزحوا سلموا أما الذين بقوا فقد سحقتهم المحنة سحقاً، يقول الأمير حيدر بما معناه. رأى الأمير سعد خطورة الوضع ولاحت له بوادر

(١) عن تاريخ الأمير صالح بن يحيى.
(٢) الغرر الحسان، ص ٤٢٩.

الكارثة، فحاول جمع عسكر من أهل وادي التيم بقصد التصدي للمغول ولكن هيهات... لقد انشغل كل امروء بنفسه وبعائلته، فأرسل النساء والأولاد من قومه إلى حمى المعنيين بقافلة كبيرة أصحبها[1] بمائة فارس للحماية بقيادة أخيه الأمير علي الشهابي، تركت القافلة حاصبيا عند غروب الشمس وفي صباح اليوم التالي دخل المغول إلى وادي التيم وملأوا سهوله وحزونه وعاثوا في قراه ودساكره فنهبوا وأحرقوا وقتلوا وسبوا من وجدوه، وكان الأمير سعد وصحبه كيفما التفتوا يرون المغول وكأنهم الجراد الزحاف وتقع أعينهم على مشاهد تفتت الأكباد، ولكن ما الحيلة وقدرات المغول كبيرة جداً يصعب التصدي لها بمثل قدرات الأمير سعد المحدودة جداً ورغم ذلك جمع الأمير سعد من بقي من أخوته وأبناء عمومته مع من انضم إليهم من رجال وادي التيم فبلغوا ألف فارس وعزم على القيام بمغامرة جريئة، وهي أن انطلق بمن معه على ظهور خيولهم شمالاً يخترقون المد المغولي الزاحف كالجراد واتخذوا وجهتهم سهل البقاع وهم يشقون طريقهم بين صفوف المغول المتدافعة كتائب إثر كتائب كانت خيول التيميين تخترق المغول كالسهام المارقة وهي تندفع شمالاً باتجاه البقاع وخيالتها يضربون بسيوفهم من يفاجئونه من المغول والقتلى تتساقط من حولهم واستمر الحال على هذا المنوال من الصبح حتى الظهر[2]. وعند الظهر وصل الأمير سعد بمن بقي معه إلى مرج الشميت القريب من كفرمشكي هناك أحكم عليهم المغول الطوق بقصد إبادتهم، فأدرك الشهابيون أنهم أمام تجربة قاسية فجمعهم الأمير سعد وجعلهم في كتيبة واحدة بعد أن لاحظ النقص الهائل في صفوفه. ولما اجتمعوا «قرأ وإياهم الفاتحة واستمدوا العون من الله وارتفعت أصواتهم يودعون بعضهم بعضاً ثم قوموا الأسنة وأطلقوا الأعنة واخترقوا الحلقة المغولية الجهنمية من حولهم وهم يضربون بسيوفهم من يعترض طريقهم» بشجاعة أذهلت المغول وأثارت حقدهم فانطلقوا في أثر الأمير سعد وجماعته ولما وصل الشهابيون إلى صحراء كامد كانت الشمس توشك أن تغيب وكانت خيول التيامنة منهوكة تعبة

(١) عن الغرر الحسان وأخبار الأعيان، الصدياق، ص ٣٩.
(٢) الغرر الحسان، ص ٤٥٠؛ أخبار الأعيان، م الجامعة ٤٠.

أضناها الجهد، فترجل الفرسان عن ظهور الخيل ليريحوها بعض الوقت وإذا بالمغول يتعقبونهم ويتسابقون بالوصول إليهم، فأسرعوا يمتطون خيولهم وابتعدوا عن كامد فوصلوا مخاضة الليطاني وقطعوها، وهناك توقف المغول عن المطاردة وكان الليل قد أرخى سدوله، فاستراح الشهابيون قليلاً ثم صعدت خيولهم الجبل حتى وصلوا إلى سطحه، وهناك شعروا بالطمأنينة فنزلوا عن خيولهم وراح كل واحد يضمد جراحه ولم يكن واحد منهم دون جراح، أما الأمير سعد فبعد أن ربط جراحه انطرح على الأرض وراح لا يعي من أمر نفسه شيئاً. ولم يكن سواه بأحسن حظ منه، وعند شروق الشمس نهضوا وراحوا يتفقدون بعضهم بعضاً فوجد الأمير أنه فقد من رجاله سبعماية من أصل الألف التي انطلق[١] بها من حاصبيا منهم اثنان من أخوته وثلاثة من أبناء عمه والتفتوا نحو وادي التيم فإذا بالغبار والدخان يملآن فضائه، بقي الأمير سعد ومن معه على سطح الجبل حتى صلاة الظهر فصلّوا، وإلا بالأمير علي الذي رافق العائلات إلى الشوف يصل وبصحبته عشرين فارساً وكانوا قليقي البال لمعرفة ما جرى للأمير سعد وصحبه فوجدوهم على تلك الحالة. ركبوا جميعاً وانتقلوا إلى البصيّل القريبة من نبع الصفا حيث تقيم عائلاتهم بمن بقـي من رجالهم، وبقي الأمير سعد وجماعته في الشوف حوالي الخمسة شهور كانت قد هدأت الأحوال وانحسرت موجة المغول عن البلاد وعن دمشق وعادت باتجاه الديار الحلبية وكان هذا التراجع بسبب انكسارهم أما العساكر المصرية والسورية الظافرة من جهة. ومن جهة ثانية حصول أحداث هامة في بلادهم أوجبت عودتهم إليها، عاد الأمير سعد وجماعته بعد ذلك إلى حاصبيا فوجدوها خاوية قد أكلتها النار فنزلوا خارجها وأخذوا بإصلاح البيوت ثم ابتدأوا يراسلون من بقي من أهل البلاد في جبل الشوف ويدعوهم للعودة إلى ديارهم.

بقي الناس خائفين من عودة المغول فأبطأوا بالعودة إلى وادي التيم، أول من ابتدأوا بالعودة كانوا أهل حاصبيا ثم أهل القرى المجاورة لها فعمرت

(١) الغرر الحسان للأمير حيدر، تاريخ الأمراء الشهابيين، د. هشي، ص ٣٦ ــ ٣٧.

نتيجة لذلك وادي التيم التحتية وبالتدريج عاد أهل وادي التيم كلهم إلى وطنهم ويقال أنه حصل بعدئذ قحط وجدب حتى أكلت الناس بعضها على حدّ قول الأمير حيدر، ثم عاد وحدث بعد ذلك وباء شديد أهلك كثيراً من الخلق وكان من ضحايا هذا الوباء الأمير سعد الشهابي، كانت وفاته رحمه الله في العام ٧٢١هـ = ١٣٢١م وتولى الإمارة بعده ولده الأمير حسين ولنا مع هذا الأمير لقاء قريب في أحداث هامة.

التيميون يقاتلون المغول في حمص:

لم تنه معركة عين جالوت وجود المغول تماماً في بلادنا واستمر على ما يبدو وجودهم في شمالي سوريا، إلى أيام الملك المنصور قلاوون فقرر هذا الملك الكبير القضاء عليهم وجاء بجيشه من مصر إلى البلاد الشامية لهذا الغرض وطلب إلى أمير وادي التيم الشهابي الحضور إليه برجاله لمعاونته بحربه المقبلة مع المغول فهب أمير وادي التيم لمساعدة السلطان ومعه أربعة آلاف مقاتل، والتقى الجيشان فيما حول مدينة حمص وجرت بينهما معركة ضارية انتهت بانتصار السلطان قلاوون ودحر المغول الذين انسحبوا شمالاً وهم يلعقون جراحهم.

بعد هذا النصر الرائع عاد أمير وادي التيم إلى بلاده فلاقته الناس بالفرح والابتهاج وبالزينات وبعد مدة جاءت إلى وادي التيم وفود المعنيين وشيوخ الشوف لتهنئة الأمير الشهابي بالنصر الكبير فالتقاهم بالإكرام والترحيب واستمروا في ضيافته ثمانية أيام، وقد جرت معركة حمص الآنفة الذكر في شهر رجب من سنة ٦٨٠هـ = ١٢٨٢م يقول الأمير حيدر والدكتور هشي في كتابه تاريخ الأمراء الشهابيين إن أمير وادي التيم كان يومذاك الأمير قرقماز الشهابي الذي عاش بقية حياته مهاباً محترماً وتوفي الأمير قرقماز سنة ٦٥٥هـ = ١٢٨٧م[١] بعد أن أمضى ٢٩ سنة في ولايته.

(١) تاريخ الأمراء الشهابيين، ص ٣٥ ــ ٣٦؛ الغرر الحسان، ص ٤٥٠.

حرب البقاعية وأهل وادي التيم:

أحداث محلية ذكرها المؤرخون وعرفها الناس بهذا الاسم، ولم تكن في الواقع، إلا تحريضاً خارجياً لمقدمي البقاع، لضرب الأمير حسين الشهابي أمير وادي التيم بسبب عدم مشاركته بحرب الكرك أسوة بغيره من أمراء البلاد الذين شاركوا بتلك الحرب يومذاك إلى جانبه ضد أخيه، وفيما يلي عرض عام للأحداث التي تسببت بهذه الحرب:

في سنة ١٢٩٣م قتل الملك الأشرف خليل، الذي سبق ذكره وأشير إليه بأنه أخرج آخر إفرنجي من البلاد، وبعد مقتله أخذ الوزراء وأمراء الجيش يسيطرون على الدولة ويتلاعبون بمقدراتها، فيخلعون من ملوكها من يشاؤون وينصبون من يشاؤون، شأنهم بذلك شأن من سبقهم من الأوصياء على الخلافة العباسية في بغداد وغيرها، وبعد مقتل الأشرف تسلم الأمر أخوه محمد بن قلاوون وتلقب بالملك الناصر، وفي ١١ من محرم سنة ٦٩٤هـ = ١٢٩٥م خلع الملك الناصر عن كرسي الملك وجلس بدلاً منه رجل يدعى زين الدين كتبغا وتلقب بالملك العادل، وبعد مضي سنتين، أي في العام ١٢٩٧م، غلبه على الملك حسام الدين لاجين وتسلطن، ثم تلقب بالملك المنصور، وجاء لاجين هذا، إلى الملك الناصر المخلوع يقول له: لو كانوا يخلون لك الملك لتركته لك، ولكنهم لم يفعلوا ولن يدعوك تتملك، وأنا مملوكك ومملوك والدك من قبلك سأحفظ الملك لك حتى تكبر، ونصحه بأن يذهب إلى قلعة الكرك. لم يكن الملك الناصر هذا قد بلغ الخامسة عشر من عمره، فقال للاجين: أحلف لي بأنك تبقي على حياتي إذا ذهبت، فحلف له، وسافر الملك الناصر إلى الكرك واحتمى بقلعتها.

وفي العام ١٢٩٩م قتل لاجين في القاهرة، واجتمع الأمراء وأولي الأمر هناك وأرسلوا إلى الملك الناصر الموجود في الكرك، فرجع إلى القاهرة وتولى الملك فيها، للمرة الثانية، بعد قليل جاءت الجيوش التترية بقيادة قازان غازية

(١) أخبار الأعيان، ص ٤٠.

البلاد السورية وتأهبت الجيوش المصرية وسارت بقيادة الملك الناصر الذي كان قد بلغ الخامسة عشر للقاء العدو، والتقى الجمعان قريباً من مدينة حمص بتاريخ ١٧ ربيع الأول من سنة ٦٩٩هـ = ٢ كانون الأول من سنة ١٢٩٩م، وانتصر التتار على المصريين، ورجع[1] الملك الناصر الفتى مخذولاً إلى القاهرة، وتعرض كثيراً على ما يبدو لانتقاد اثنين من كبار قواده هما سالار وبيبرس الخاشنكير، وهذا الأخير غير بيبرس البندقداري العظيم.

ولاحظ الملك الناصر أن قائديه يدبران لخلعه فاستبقهما بأن أعلن أنه ذاهب للحج. وفي طريقه عرج على قلعة الكرك وتحصن بها. في هذه الأثناء نادى بيبرس بنفسه ملكاً على البلاد وتلقب بالملك المظفر، ظلت دمشق موالية للملك الناصر فعزم على زيارة المدينة، ولما وصلها استقبلته بالزينات والترحاب، ثم جمع الجيوش واتجه نحو مصر لاستعادة سلطانه، فلما علم بيبرس بذلك هرب من البلاد تاركاً الملك. واستعاد الملك الناصر محمد بن قلاوون عرشه للمرة الثالثة، واستمر مالكاً حتى العام ١٣٤١م، حيث توفي وتولى الأمر بعده ولده سيف الدين أبا بكر وتلقب بالملك المنصور.

تناوب على ولاية دمشق في ذلك الوقت كل من: عز الدين أيبك الحموي، ثم جمال الدين أقوش الافرم، ثم شمس الدين قراسنقر، ثم سيف الدين كراي، ثم جمال أقوش، ثم سيف الدين تنكز[2]، ثم علاء الدين الطنبغا، وبعد مضي سنة على تولي أبا بكر، خلعوه وولوا مكانه أخاه شرف الدين كجك، ثم خلعوه وولوا مكانه أخاه شهاب الدين أحمد ــ وكان هذا الأخير بقلعة الكرك، ثم خلعوه ونصبوا مكانه أخاه إسماعيل ولقب بالملك الصالح عماد الدين إسماعيل، ولكن أحمد تمرد على خالعيه ورفض أمرهم وتحصن في قلعة الكرك، فأخذ أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل يعد

(١) أخبار الأعيان، ص ٤٧٦.
(٢) ذات المصدر، ص ٤٧٧ ــ ٤٧٨.

العدة لحربه[١]، وطلب من أمراء البلاد أن يجندوا الرجال، وأمرهم بالمجيء إلى الكرك. وجاءت العساكر من مصر ومن جميع البلاد السورية باستثناء وادي التيم، لأن الأمير حسين الشهابي رفض طلب السلطان بكثير من الإباء ولم يشارك في هذه الحرب التي لا معنى لها[٢].

من الأمراء الذين شاركوا في هذه الحرب: الأمير التنوخي ناصرالدين الحسين أمير الغرب وبيروت وصيدا، أرسل تجريدة لبنانية بلغت خمسماية رجل بقيادة شقيقه الأمير عزالدين، ولما وصلت هذه التجريدة اللبنانية إلى الكرك انضمت إلى عساكر النيابات وحاربت هناك وقتل قائدها الأمير عزالدين بعد أن أظهر من البطولة ما يفوق الوصف، وتمكن الملك الصالح إسماعيل من قتل شقيقه أحمد واحتلال حصن الكرك، وقد أشار صالح بن يحيى إلى أن الحزن كان قد عم الغرب لمقتل الأمير عزالدين، ورثاه شقيقه الأمير ناصرالدين الحسين بأرق القصائد. أما عن السلطان أحمد، فقد قيل في كرمه الشيء الكثير، منها أنه كان يقذف الأعداء من حصن الكرك بسهام مذهبة مكتوب عليها[٣]:

ومن جودنا نرمي العداة بأسهم
من الذهب الابريز صيغت نصولها

يداوي بها المجروح منها جراحه
ويشري بها الأكفان منها قتيلها

(١) أخبار الأعيان، ص ٤٠.
(٢) لبنان في التاريخ، د. حتي.
(٣) عن تاريخ صالح بن يحيى المنشور في المشرق.

معركة سهل عيحا..
وانتصار الأمير حسين الشهابي:

رأينا أن الأمير حسين الشهابي أمير وادي التيم لم يشارك في حرب الكرك إلى جانب من شاركوا فيها، فاعتبر ذلك موالاة منه للسلطان أحمد الممتنع في الحصن، الشيء الذي أغاض الملك الصالح عمادالدين إسماعيل ومن حوله، فقاموا بتحريض مقدمي البقاع وعلى رأسهم ابن صبح[١] الذي كان يسكن قرية حّمارة[٢] لمهاجمة الأمير حسين الشهابي وتخريب وادي التيم، وكان المحرضون يدركون، على ما يبدو، أن الأمير أقوى من أعدائه، فكان أن تعاون ابن صبح مع مقدم آخر اسمه جمعة الحرباني النابلسي وهومن جبل نابلس، وفي يوم من شهر صفر من سنة ٧٤٥هـ = ١٣٤٤م هجم مقدمو البقاع على وادي التيم وعاثوا في قراه ودساكره وتمكنوا أول الأمر من نهب وحرق ثلاث عشرة قرية من قراه، «وسلمت الكنيسة وكفرقوق وعيحا من النهب والحريق»[٣].

وكان من نتيجة هذه الأحداث أن انقطعت السابلة في وادي القرن ووادي الزبداني لانعدام الأمان، في هذه الأثناء كان الأمير حسين غائباً عن وادي التيم، كان في الحولانية. وعندما وصله الخبر، أسرع بالعودة إلى بلاده، ولما وصلها جمع رجاله وصدم مقدمي البقاع صدمة هائلة في بيت لهيا، فهزمهم إلى سهل المحيدثة، ثم جرت معركة فاصلة في سهل عيحا انجلت عن انهزام المقدمين ومقتل خمسماية رجل من جنودهم، وأسر المقدم جمعة الحرباني، وهرب المقدم ابن صبح من المعركة الخاسرة إلى الأمير سعدالدين المعني في الشوف لاجئاً إليه، ويقول الأمير حيدر أن هذه المعركة جرت بين الأمير حسين ومقدمي البقاع في سهل عيحا سنة ٧٤٠هـ = ١٣٣٩م، ثم ذكرها ثانية سنة ٧٤٣هـ =

(١) في تاريخ صيدا عبر حقب التاريخ ما يشير إلى أن نائب صفد شهاب الدين بن صبح، وهذا أنجد حامية صيدا التي حاربت الصليبيين واقتدى أسرى المسلمين.
(٢) تاريخ الأمراء الشهابيين، د. هشي، ص ٣٧.
(٣) تاريخ صالح بن يحيى؛ والدويهي في تاريخ الأزمنة، ص ١٧٨.

١٣٤٢م. وأخبرني شيخ من كفرقوق أنه يعرف مكان صخرة في الكنيسة مدون عليها رقم ١٣٤٤، قلت ربما كان ذلك إشارة إلى هذه الحرب.

توقفت هذه الفتنة بفضل المساعي الحميدة التي بذلها الأمير سعدالدين المعني الذي جاء من الشوف إلى قرية مشغرة وأصلح الأمر بين الجماعات المتناحرة.

كانت وادي التيم الفوقية ميداناً لهذه الفتنة، فأحرق مقدمو البقاع القرى والدساكر التيمية، ولكن أحداً من المؤرخين لم يذكر لنا أسماء القرى المتضررة، وفيما نراه أن معظمها كان قائمًا في المجال الذي ندعوه اليوم خراج قرية ينطا، بحث لا تزال آثار هذه الدساكر قائمة، منها محلتي الاليون ورويس التين وغيرهما، ومن قول منقول عن المتقدمين من شيوخ ينطا أن قريتهم أحرقت ثلاث مرات في تاريخها المعلوم لديهم: المرة الأولى في هذه الحرب، أي في العام ١٣٤٤م، والمرة الثانية أحرقها أسعد باشا العظم أثناء خلافه مع أمراء وادي التيم الشهابيين، والمرةالثالثة أحرقها الجيش الفرنسي في يوم العاشر من شهر شباط سنة ١٩٢٦.

أما الاليون المجاورة لينطا والتي تُرى الآن خرائب، فكان آخر من نزح منها بيت حمود القاطنين اليوم في قرية مجدل بلهيص.

توفي الأمير حسين الشهابي سنة ١٣٤٩م بعد أن أمضى في ولايته على وادي التيم تسعاً وعشرين سنة[١]، وقد اتصف هذا الأمير بالشجاعة وشدة البأس، وتسلم الامارة من بعده ولده الأمير أبوبكر. وفي عهد هذا الأمير، أخذت راشيا في النمو والازدهار، وكان الأمير أبوبكر يتردد إليها ويبقى فيها أياماً لغرض الصيد والقنص، فرأى أن يبني فيها مسكناً له، وأخذت الناس تقتدي به ويبدو أنه كان يشجع على ذلك. والأمير أبوبكر هوالذي بنى خان حاصبيا للصدقات وإيواء الغرباء، فكانت بادرة طيبة منه حفظها له

(١) أخبار الأعيان، منشورات الجامعة، ج ١ ص ٤٠.

الجميع، وفي العام ١٣٨٠م توفي الأمير أبوبكر في حاصبيا عن ٦٢ سنة من عمره، وكان قد اشتهر بكرمه وسخائه.

ومن قول لابن سباط: أن الأمير أبا بكر بن شهاب قتل على جسر ديرزنون انتقاماً لقتل ابن الصواف في قلابات عين فجور[١] ـ ابن الصواف هذا من كبار الرؤوس اليمنية ويعتقد، إذا صح القول، أن مقتل الأمير أبوبكر القيسي كان ثأراً لمقتل ابن الصواف ـ ، وتسلم الامارة في وادي التيم من بعده ولده الأمير محمد، أهمل هذا الأمير شؤون امارته وانصرف إلى المسرات والخلاعة. وفي زمانه، أي في العام ١٤٠٠م، جاءت الطفرة المغولية الثانية إلى البلاد المشرقية بقيادة تيمورلنك، فعم الخوف وادي التيم كما عم غيره من أقاليم بلادنا، وارتحل جميع سكانه إلى جبل الشوف[٢].

كان الناس لا يزالون يتذكرون جيداً ما لحق بأهلهم من شديد الأذى في زمن الأمير سعد عندما جاء التتار بقيادة هولاكو، ولكن أقدام موجة التتار الثانية لم تطأ أرض وادي التيم، فعاد التيامنة النازحون من جبل الشوف إلى منازلهم بعيد رحيل تيمورلنك عن الأرض السورية. وفي سنة ١٤٠٤م توفي الأمير محمد بن أبي بكر وكانت مدة ولايته ٢٤ سنة، وتسلم الأمر بعده ابنه الأمير قاسم وقد شارك هذا الأمير في المعركة التي جرت في الدامور بين الفرنج وبين ملك دمشق داود الجركسي، وقد انتصر هذا الملك وحلفاؤه الشهابيون على الافرنج في هذه المعركة. وتوفي الأمير قاسم سنة ١٤٤٢م عن ٦٠ سنة من عمره و٣٦ سنة من ولايته، وتسلم بعده ابنه الأمير أحمد الشهابي وهو الأمير الذي خربت الكنيسة في أيامه.

(١) الدروز، أبوإسماعيل، ص ١٣.
(٢) الغرر الحسان، ص ٥٠٥.

تيمورلنك، أو الطفرة المغولية الثانية

نحو البلاد السورية:

«لقد نزع الله الرحمة من قلوبنا، والويل كل الويل لمن لم يكن من حزبنا، فعزيزكم لدينا ذليل، وكثيركم عندنا قليل، فإننا ملوك الأرض شرقاً وغرباً وآخذون كل سفينة غصباً، فاسرعوا إلينا برد الجواب من قبل أن ينكشف الغطا ويقع الحرب والسطا، وتوقد الحرب نارها وترمي عليكم شرارها وينادي عليكم منادي الفنا، وقد أنصفناكم إذ راسلناكم ونثرنا لكم جواهر هذا الكلام... والسلام».

هذا القول من رسالة تيمورلنك إلى الملك الناصر أبا السعادات بن الظاهر برقوق ملك مصر والشام في مستهل القرن الخامس عشر الميلادي[1]. «قال تيمورلنك: أنه لا يجوز أن يكون على الأرض إلا ملك واحد مثلما لا يوجد في السماء إلا إله واحد»[2]. حاصر سيواس فأخرج إليه أهلها ألف طفل يستعطفونه عليهم، فأمر فرقة من خيالته هجمت عليهم وداستهم بسنابك الخيل، ولما فتح بغداد أمر بقتل جميع أهلها، فدامت المذابح ثمانية أيام، وأمر ببناء ١٢٠ هرماً من الرؤوس المفصولة عن أجسادها، وقد جاء بفظيعة لم يسمع الناس بمثلها في فتحه شيزاور: فقد قتل جميع أهلها ما عدا ألفين منهم اعتبرهم من الحجارة، فبنى بهم عدة بروج من اللبن ـ الطوب ـ ولما فتح دلهي في بلاد الهند، قتل فيها ماية ألف أسير، ثم أخرب الهندستان وأتى من الفظائع ما لا يسمح التاريخ بنقل تفاصيله.

كثيرة هي الأحداث المؤلمة التي سارت في ركاب التتار، ونكتفي منها بذكر ما جرى بينهم وبين العثمانيين أصحاب القوة الناشئة يومذاك:

كان السلطان با يزيد العثماني هو القائد المؤهل للوقوف بوجه الهجمة

(١) الغرر الحسان، ص ٥٠٧.
(٢) دائرة معارف القرن العشرين، ج ٢ ص ٧٣٠.

المغولية الشرسة وكسر حدتها وتخليص البلاد المشرقية من شرها، وكان تيمورلنك يحسب لقوة العثمانيين الناشئة حسابها، فعزم على تحديها في بلادها واتجه بجيوشه الكثيرة إلى البلاد العثمانية، وكان السلطان با يزيد يملك جيشاً كبيراً قوامه الخيالة والمشاة، وعلى رأس جيشه الكبير اتجه السلطان العثماني لملاقاة العدو إلى جنوبي شرقي البلاد، اعتقاداً منه أنه سيلتقي الجيوش المغولية في تلك النواحي، ولكن تيمورلنك على ما يبدو كان يضلل العثمانيين وينتقل في بلادهم من مكان إلى آخر دون أن يدعهم يفهمون قصده. وفي سهل أنقرة الفسيح نزلت جيوشه واستراحت بعد أن احتكرت الينابيع الموجودة في ذلك السهل لصالحها، وسرعان ما وصل الخبر إلى السلطان با يزيد: أن تيمورلنك حط رحاله في سهل أنقرة، فجاء السلطان بجيشه مسرعاً نحوه ولما وصل كانت الجيوش العثمانية متعبة وبغاية الإرهاق من جراء سيرها الطويل والحثيث.

أما التتار فكانوا قد نالوا قسطاً كبيراً من الراحة هم وخيولهم، وفي هذا الجو نشبت الحرب بين القوتين. قبيل الظهر تمكنت الخيالة المغولية من اختراق الصفوف العثمانية التي قاتلت ببسالة منقطعة النظير واستدارت نحو المشاة فتضعضعت صفوف الترك وانهزموا وتفرقوا في ذلك السهل الفسيح وتبعهم التتار يقتلون ويأسرون، وكان من جملة أسراهم السلطان با يزيد العثماني نفسه، فلما مثل أمام تيمورلنك، ضحك منه، فاستاء السلطان با يزيد وقال له: أتضحك من ملك غدر به زمانه؟ فأجابه تيمور: لا، إني أضحك من القدرة التي أعطت الدنيا لأعرج مثلي ولضرير مثلك، وكان تيمور أعرج فعلاً. وكلمة لنك معناها: الأعرج، حسب أقوال مؤرخي حياته[1]، وفي المساء أقام تيمورلنك حفلة عشاء كبرى لضباط جيشه وأجلس السلطان با يزيد إلى جانبه وأمر نسائه الأسيرات أن يخدمن على السفرة.

وسأل تيمورلنك السلطان با يزيد قائلاً: ماذا كنت ستفعل بي لو كنت قد ربحت الحرب؟ فسكت السلطان، ثم أعاد تيمورلنك السؤال عليه، فرد

(١) عن تاريخ ابن عربشاه.

الجزء الثالث

السلطان با يزيد قائلاً: كنت سأضعك في قفص من حديد وأصعد فوقك كلما أردت امتطاء حصاني، فقال تيمور: هذا ما سأفعله بك بالضبط، واستمر يعامله تلك المعاملة السيئة حتى توفي السلطان با يزيد في أسره[1].

كانت وطأة الغزو التتاري ثقيلة جداً ورهيبة جداً على جميع البلاد المشرقية، وقد نال البلاد السورية منها الشيء الكثير وخاصة الحواضر الكبرى مثل حلب ودمشق. أما حمص، فلم يتعرض لها تيمورلنك كما يقال احتراماً منه لقبر خالد بن الوليد فيها، ولا يزال إلى اليوم يتردد بين الناس قول مفاده: أن كثيراً من الينابيع وموارد المياه في البلاد الحوارنية وغيرها كانت قد جفت وغارت في باطن الأرض، لأن تيمورلنك كان يأمر بوضع مادة الزئبق فوقها، ولما كان الزئبق أثقل من الماء بثلاثة عشر مرة، كانت الماء تغور في باطن الأرض.

لم تطأ أقدام التتار في غزوة التيمورلنك أرض وادي التيم ولكن الناس كانت قد جفلت ونزحت إلى جبل الشوف هرباً من المحنة المتوقعة، واستمر التيميون يترقبون حتى عاد التتار أدراجهم شرقاً، فعادوا هم إلى بلادهم.

□ □ □

(١) عن تاريخ ابن عربشاه، مؤرخ سيرة تيمورلنك.

الفصل الأول

وادي التيم قطاع تراثي هام..
إنه متحف للعادات ومستودع للعاديات

مدينتنا المعاصرة أشبه ما تكون بهيئة الأمم المتحدة من الداخل، أممية مهرها الشمول بطابعه فتجاوزت المحدودية والحدود إلى مشاركة بين عالم ساهمت دوله وشعوبه بخلقها وإبداعها وبالتالي الانتفاع بفوائدها الجليلة. لذلك لا نجد كبير فرق بين ما نشاهده في بيروت وما نشاهده في مرسيليا أو جنوا أو الإسكندرية مثلاً... أما تراثنا فهو مجموعة العادات والتقاليد والأزياء والمثل والأعمال التي اعتمدت نهجاً وأسلوباً خاصاً بسلوكنا الاجتماعي عبر حقب تاريخنا الطويل، فالاقتباس عن الحضارات المجاورة والامتزاج بالآفل منها ساهما في تكوين وإغناء أي تراث لأي شعب في هذا العالم الذي لم يكن يوماً إلا متكاملاً، ولكن من الصعوبة بمكان الاهتداء إلى مطارح التراث القومي لبلد ما إن لم نستطلع أريافه لنلتقي القرية التي يعيش التراث في قديمها، أجل الأرياف هي الينابيع الصافية والأصيلة للإنسان، فوادي التيم من هذه الناحية يشكل قطاعاً غنياً بالتراث بكل ما لهذه الكلمة من أبعاد ومعانٍ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نورد بعضاً من التراثيات.. التي لا تزال تعيش في وادي التيم منذ عصور وأزمنة موغلة في القدم:

١ ــ في مجال الزراعة:

ولا يخفى ما للزراعة من أهمية في حياة الإنسان منذ القديم. إنها الخطوة الأولى التي ربطته بالأرض وشدّت «أفكاره الحائرة وقدمه الجوّاب» إلى مكان

ثابت مستقر دعاه فيما بعد وطناً وعلى هذا الوطن أقام مجتمعه الأول، ولما حاول الحصول على طعامه من خيرات الأرض، ابتكر أول ما ابتكر المحراث فكان ذلك المحراث البدائي الذي يجره إنسان ثم طوره مع الزمن لآخر تجره الحيوانات هذا النوع من المحاريث لا يزال مستعملاً في وادي التيم وعلى وجه الخصوص في الأماكن التي يتعذر على المحاريث الآلية العمل فيها أو الوصول إليها والفلاح التيمي هو الوحيد في هذا العالم الواسع الذي لا يزال يستخدم في أعماله الزراعية كلمات بعضها من أصل بابلي أو سرياني أو آرامي وفي ذلك ما يثبت أن المحراث جاء إلى بلادنا أول ما جاء من بابل منذ أكثر من خمسة آلاف سنة بالرغم من أن فلاحينا يتبعون بعملهم هذا الطريقة المصرية القديمة التي تبينها الرسوم على الآثار الفرعونية وهي أن الثورين يشدان بكتفيهما عند الحراثة وليس بقرونهما كما هي الحال في معظم البلاد الآسيوية، وعن مجلة المشرق قولها إن كلمة فدان بابلية في الأصل وهي اسم الخشبة التي يشدّ إليها الثوران عند عملية حراثة الأرض وتدعوها العامة (نير) ومع مرور الوقت صارت هذه الكلمة تعني في بلادنا الثورين مجتمعين، ثم صارت تعني مساحة الأرض التي يحرثها الفلاح على ثوريه في يوم واحد (Acre).

كثيرة هي الكلمات المستخدمة في هذا المجال والتي ليست من جذر عربي نورد بعضها على سبيل المثال:

(خشكار) وهي صفة التربة القليلة العمق ـ ضحلة وسريعة الجفاف.

(نقّار) يقال أرض نقّار لتلك التي تتواجد فيها صخور ظاهرة أو خفية تعيق سير المحراث فيها.

(عبي) يقال عن الزرع إنه عبي عندما تكون سنابله متقاربة وكثيفة وهذا يحصل عادة في التربة الجيدة والمغلالة.

(دلّيل) الدلّيل هو عكس العبي تماماً.

(عرمة) تعني «تلة» منها كلمة عرامون والتيميون يدعون الدريس الذي

نعمته النوارج والذي يجمع على شكل تلة صغيرة بقصد تذريته يدعونه ـ عرمة[1].

(شنقة) هي اسم شبكة من القنب أو غيره يستعملها الفلاحون لنقل السنابل من الحقل إلى البيدر على شكل حملة ذات شقين لتوازن المنقول على ظهور الدواب ويدعون المنقول (شنقولي).

ثم كلمات حاكورة وتجمع حواكير ثم صاعور ومعناه صغير الماعز وسياق (قشاش) شليف «شكارة» بيدر وغيرها الكثير من الكلم غير العربية في أصلها التي يستخدمها الفلاح التيمي في عمله الدهري ولكن لا يفهمها سامع ولا يفقه معناها إلا من كان فلاحاً من وادي التيم.

أما الأدوات التي كان الفلاحون يستخدمونها منذ آلاف السنين والتي تبينها الرسوم المصرية القديمة منها المذراة وهي آلة خشبية على شكل ذراع تنتهي بكف ذات أصابع يرفع بواسطتها الدريس إلى أعلى فيفصل الحب عن التبن بواسطة الهواء ثم الأطباق والمكانس كان المصريون يصنعون هذه الأشياء من لحاء الحلفاء والنخيل[2] والبردي وغير ذلك من الأدوات الزراعية لا يزال الفلاح في وادي التيم يصنعها بيده ويستعملها في مجال الزراعة حتى يومنا هذا.

وهناك مفردات آرامية تتناول نواحٍ عدة من الحياة العامة في حياة التيامنة مثل الكلمات: دقّر ـ برّا ـ سكّر ـ جوّاً ـ زاح ـ طبلية وكثير غيرها من أسماء النباتات والبقول[3].

(١) المشرق، س ١.

(٢) تاريخ الزراعة، عمر أبو النصر، ص ٩٥ و٩٦.

(٣) تاريخ طرابلس، ص ٤٤.

٢ ـ الأزياء التراثية في وادي التيم :

أقدم الأزياء التراثية وأبرزها في وادي التيم هي العمامة، خاصة تلك التي يعتمرونها الشيوخ من بني معروف ثم العباءة، أما العمامة التي نعرفها هي على أنواع وقياسات مختلفة أشهرها ثلاث:

□ **العمامة الأزهرية:**

ويعرفها العامة باسم «لفّة» من لفّ الشيء أي طواه أنها كما هو معروف الزيّ التقليدي لشيوخ الأزهر وعلمائه، ربما منذ إنشائه، مؤلفة من قطعتين: طربوش مغربي أحمر لا يزيد ارتفاعه عن موازاة الرأس، ثم قطعة من القماش الأبيض تلفّ عليه من الخارج ولا يزيد علو هذه العمامة عن خمسة وعشرين سنتيمتراً، ما زالت هذه العمامة تحتفظ بشكلها القديم والمميّز، إنها لباس الرأس التقليدي للأجاويد من بني معروف ويدعونها فيما بينهم ـ تاج مولاي بهاء الدين ـ ويفهم من قولهم. إن مولاي بهاء الدين كان يعتمرها أثناء وجوده في مصر، وحتى الآن لا فرق يذكر بين عمامة شيوخ الأزهر وبين عمامة شيوخ الدروز في وادي التيم وغير وادي التيم وفيما أرى أن الطربوش الأحمر زي مغربي جاء مع جيوش المعزّ الفاطمي من أفريقيا الشمالية إلى مصر، وفي الديار المصرية أضيفت اللفة البيضاء إلى الطربوش الأحمر، وأصبحت الشعار الرسمي لشيوخ الأزهر وعلمائه، لذلك لبسها المقتنى بهاء الدين بشكلها الحالي، واقتداء به تعمّم بها الموحدون من شيوخ بني معروف ولا يزالون.

ومن العمامة الأزهرية اشتقت العمامة ذات الذؤابة التي نشاهدها في بعض قرى المتن والجرد وعاليه أما أكثر العمائم أهمية واحتراماً هي اللفّة المدوّرة ويعتمرها الخاصة من الشيوخ. وتختلف عن الأولى بكبر حجمها وشكلها، فتبدو وكأنها العمامة التي يلبسها ملوك اليمن إنها بقايا تراث يمني توارثته الجماعات التي تعود بأصلها إلى البلاد اليمنية.

□ **العمامة التقليدية ـ الكلاسيكية:**

عنها يقول الأب لويس شيخو «إن العمامة أول ما شاعت وشاع استعمالها

في اليمن والعراق»، وهذه العمامة تتألف من قطعة واحدة من القماش تعتمر في البلاد المشرقية وريف مصر والسودان وأفريقيا وهي ذات لون أبيض وقد تكون سوداء أو خضراء لإعتبارات دينية لا مجال لشرحها والمقول إن الهند هي موطن العمامة الأول ومنها انتقلت إلى اليمن والعراق وغيرها من البلاد وتناولت الموضوع الصحراء ببساطتها المعهودة، فكانت عمامتها أقل تعقيداً بكثير من العمامة الهندية، منها العمامة العربية التي قال فيها أبو الأسود الدؤلي:

«العمامة جنّة في الحرب. ومكنة من الحرّ ومدفأة من القرّ، ووقار في النوادي. وزيادة في القامة. وهي تعد من ميزات سادة العرب».

□ **العمامة الحديثة:**

وتدعى من العامة (شرخاني) وهي مؤلفة من قطعتين: طربوش نمساوي علوه حتى الثلاثين سنتيمتراً ويدعى بعضه مجيدي نسبة للسلطان عبدالمجيد العثماني. أو عزيزي نسبة للسلطان عبدالعزيز، ثم قطعة من الشال الكشميري الأصفر تلفّه من الخارج حتى منتصف علوه وتجمع هذه العمامة بين القديم والحديث وهي لباس الرأس عند الكثيرين من الرجال في دمشق وحماة وحلب وأنطاكية والقدس.

□ **العباءة:**

العباءة لباس قديم بين الناس في وادي التيم مثله في الأقاليم المشرقية الأخرى، وبقدر ما توضح في هذا الزي ملامح الصحراء وبساطتها إذ تبدو وكأنها خيمة صغيرة متنقلة. بقدر ما يصعب تحديد الزمن الذي اعتمدت فيه لباساً للرجال والنساء على السواء في أول الأمر. والعباءة التيمية التي نعنيها على نوعين: ما هو فضفاض واسع. وما هو بحجم الجسم تماماً، وكلاهما من الصوف ومبتور الأكمام، وهذا الزيّ وأعني به الكم المبتور أو النصفي ـ يعكس صورة تراثية مجيدة وتقليد تاريخي عمره أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان. يرجع إلى زمن هاني بن مسعود الشيباني القائد الذي قاتل الجيوش الكسروية في معركة ذيقار الذي حدد تاريخها المستشرق الكبير تيودور نولدكه انها حدثت فيها

بين العام ٦٠٤ و ٦١٠ للميلاد وقد طالعنا أخبار هذه المعركة في مكان آخر من هذا الكتاب، ويقول المسعودي في كتابه مروج الذهب[1]. أنه بعد خطبة هاني بن مسعود الرائعة في العرب قبيل المعركة مع الفرس. عمد سبعماية من فرسان بني شيبان إلى قطع أكمامهم ليسهل عليهم التحرك بخفة للضرب بالسيف... ولما كانت هذه المعركة قد انتهت بنصر عظيم للعرب عامة وللشيبانيين وحلفائهم خاصة وقد اعتنقت هذه القبائل جلها أو بعضها الدرزية فيما بعد أصبح من غالي تراثهم من تلك الأحداث أمران هامان: تكريم هاني بن مسعود الشيباني بين من بقي من هذه الجماعات على الدرزية كما تكرّم الأولياء تماماً، ولباس الحرب... العباءة ذات الأكمام المبتورة واستمر هذا مفهوم القوم لما يذكّرهم بأيام مجيدة، لبسها مقاتلوهم في جيش الأمير فخر الدين وفي جيش الأمير بشير فيما بعد[2] وفي حروب اللجاة وإقليم البلان ووادي التيم، وكانت هذه العباءة قد لفتت نظر الرحالة الايطالي جيوفاني ماريتي فقال عنها في كتابه (فخر الدين أمير الدروز الكبير) إنها لباس الشباب ورجال الحرب من الدروز، ومواصفاتها، أنها قصيرة الأكمام مفتوحة الصدر تنتهي فوق الركبتين بقليل. ومنها المقّلمة بخطوط بيضاء وسوداء أحدهما بعرض أصبعين ويتجهان عامودياً وهي لباس الخاصّة أيضاً من الشيوخ الأجلاء وهذا ما أعطاها امتيازاً بينهم ويقولون إن مولاي بهاء الدين ارتدى هذا النوع من العباءات، أما الفضفاض منها فيكون عادة من الصوف الأسود وهي اليوم لباس المناسبات عند الشيوخ، وقد تكون صفراء اللون تدخل في صنعتها خيوط القصب والتطريز عندها تكون لباس الزمنيين من التيامنة ويقول الريحاني عن العباءة الضيقة والتي دعاها العباءة الأميرية إنها تراث يمني لأنه شاهد اليمنيين في جبالهم يرتدونها.

(١) مروج الذهب، منشورات الجامعة ١١، ج ١، ص ٣٢٠.
(٢) قلب لبنان ٢٠٧ دعاها أمين الريحاني العباءة الأميرية واعتقد أنها تراث يمني لأنه شاهد اليمنيين يرتدونها في جبالهم وهذا ما يؤكد أن معظم الأزياء التقليدية بين الدروز هي يمنية في الأصل مثلها العادات الاجتماعية والتقاليد الموروثة.

ومن الألبسة التراثية والتاريخية التي لا تزال معتمدة في وادي التيم:
الكوفية والعقال: لباس الرأس عند الشباب، والكوفية من القماش الناعم وقد تكون من الحرير الجيد لونها على الغالب والأكثر رواجاً هو الأبيض وقد تكون سوداء، لا يقل قياسها عن المتر المربع، ويكون إطارها الخارجي محاطاً بشراريب من نفس لونها وبأحجام متفاوتة وقد تبلغ الشرابة حجم الإجاصة المتوسطة. تطوى الكوفية على شكل مثلث وتوضع على الرأس بحيث تكون قاعدة المثلث إلى الأمام وتثبّت بالعقال. والعقال على نوعين:

□ العقال الأسود:

ذو العصابتين، يتراوح قطر الواحدة منها بين ٢ و ٤ سنتيمترات وله شرابتان تتدليان إلى الخلف حتى منتصف الظهر.

□ العقال الشريفي:

نسبة لأشراف مكة ـ الحسين بن علي وأولاده ـ وهذا العقال الجميل يشبه الإكليل الروماني إلى حد كبير بحيث يتألف من عصابة عريضة مصنوعة من الحرير والقصب عرضها حوالي ١٥ سنتيمتراً وتكون خماسية أو سداسية الأضلاع ويلبس هذا العقال أيضاً فوق كوفية من النوع المناسب له.

□ السروال:

ويقال الشروال: ويكون عادة من الكتان الأسود ذو ساقين يبدوان وكأنهما ساقا جزمة وله وسط متدلٍ، ويثبت على الخصر برباط وهو من بقايا الأزياء العثمانية القديمة (لباس الانكشارية) «يكمله عادة صدرية من نفس اللون وقباء.

□ الحجاب:

الحجاب من أقدم وأشهر الأزياء النسائية المتوارثة في وادي التيم كما في غيره من أقاليم بلادنا، وقلما كانت تشاهد تيمية في الماضي غير محجبة، وكما نعلم حكمت المدنية المعاصرة على الحجاب بالزوال وانتصرت عليه إلى حد

كبير، وكانت المسيحية في وادي التيم أسبق رفيقاتها إلى خلع الحجاب، واختصرنه الآخريات بالمنديل ويقال الفوطا: لباس الرأس التقليدي عند التيميات، وهي كناية عن قطعة من القماش الأبيض الناعم تغطي الرأس والكتفين حتى منتصف الظهر وتطوى من الأمام بحيث تجعلها المرأة لثاماً تتنقب به، واللثام عند التيمية يضيق وينفرج تبعاً لظروف البيئة التي تعيش فيها، وقبل أن يختفي هذا الزي في معميات التاريخ ومخلدات التراث نقول إن الحجاب قديم جداً بين الناس وأن «رفقة غطت وجهها بحضور اسحق» وأقرّ أول متشرع في التاريخ حمورابي الكلداني[1] الحجاب بشريعته وداخل حدود معينة، «وعثر على نقود تعود لزمن الآراميين عليها صورة لامرأة محجبّة، يعتقد أنها ترمز إلى إحدى الآلهة الوثنية» وبعد أن تقلص ظل الوثنية استمرت للحجاب حرمته «ومن أقوال بولس الرسول أنه ينبغي على المرأة أن تغطي رأسها عند الصلاة، كي لا تحسب من الأماء والبغايا»[2].

٣ ــ اجتماعيات وعلاقات عامة:

كانت ولا تزال إلى حد ما.. تسير التقاليد والعادات الاجتماعية في وادي التيم طبقاً لقواعد وأصول متوارثة تتصف بالحكمة وتتحلّ بالواقعية والتهذيب ولكن تناول هذه العادات الجميلة في بعض نواحيها ما يدعونه بالتمدّن.. فشوّه جمالها وأفقدها الكثير من معناها وبالتالي أحادها عن خطها التراثي وأحل محلها عادات مهجّنة مستهجنة تنقصها الموضوعية ويعوزها الوقار.

نتناول بحديثنا الآن المناسبتين الاجتماعيتين الأساسيتين في حياة الناس في كل مكان وزمان ألا وهما المآتم والأعراس نصف الأمر طبقاً لما كنا نشاهده يحدث في أوائل الخمسينات من هذا القرن.

---

(١) خمسة آلاف سنة في تاريخ الشرق الأدنى، المجلد الأول، ص ٢٣٢، فيليب حتي.
(٢) ذات المصدر.

□ المآتم:

عندما تتأكد وفاة شخص ما من القرية، يكلّف المنادي إعلان خبر الوفاة للأهلين، فيختار هذا أحد السطوح العالية والملائمة فيقف عليها ثم ينادي بأعلى صوته قائلاً: «يا سامعين الصوت صلوا عالنبي أولكم محمد وثانيكم علي وثالثكم فاطمة بنت النبي فلان الفلاني عطاكم عمرو إنشاء الله بسلامة أعماركم» انتهى.

تصوركم لهذا القول من معنى وأبعاد تاريخية، فضلاً عن ذلك أنه يوضح هوية القوم على حقيقتها، مسلمون شيعيون فاطميون.

بعد المناداة يتوقف كل عمل في القرية إجلالاً واحتراماً للمناسبة القاهرة، ثم يبدأ الجميع بالتأهب للذهاب إلى حيث يقام المأتم، فيتنادى أهل كل حيّ فيما بينهم ويجتمعون ثم يتبادلون التعزية وإذا حدث وكان هناك سوء تفاهم بين اثنين يزول فوراً وتصفو القلوب احتراماً للموت ثم يتجه الجميع نحو المأتم بوفد موّحد يخيم عليه الصمت ويجلله الوقار، في هذه الحالة يكون أهل المأتم مجتمعين في مكان فسيح ومناسب قريباً من مأتمهم وحالما يطل عليهم وفد المعزّين يقفون ويتهيأون لاستقباله ثم يتواجه الجميع في صفّين متقابلين وبعد أن يأخذ كل واحد مكانه في صفه وتهدأ الحركة تماماً يتكلم مبتدئ التعزية كبير جماعة المعزين ثم يتبعه الآخرون، وتتم التعزية بعبارات متكاملة وموجزة ومعبّرة كقولهم:

خاطرنا عندكم، إنشاء الله بسلامة أعماركم، عظّم الله أجركم... إلخ...

وبعد الانتهاء من تقديم مراسم التعزية: يحيّي كبير المعزّين أهل المأتم بقوله: صباح أو مساء الخير.. بعدها ترفض الصفوف ويعود أهل المأتم إلى أمكنتهم بانتظار وفود جديدة، ويأخذ الآخرون الأمكنة المخصصة لهم.

في هذه الأثناء يخيّم على الساحة صمت تام ينصرف فيه كلّ واحدٍ إلى

التأمل والتفكير بمصيره كأحسن ما تكون الصلاة في جو يشعرك بهيبة الآخرة ورهبة الموت.

لو استعرضنا بالتفصيل ما مر من هذا الموضوع حتى الآن لتبينت لنا المعطيات الجليلة التالية:

توقف العمل فور إعلان خبر الوفاة وفي ذلك إجلال لقدرة الله الممثلة هنا بالموت، واحترام للمتوفي ولذويه المفجوعين الذين يجدون بذلك العزاء والمؤاسات بمشاركة الناس لهم.

ــ في مصالحة المتخاصمين من أبناء الحي الواحد في هذه الفترة بالذات ما يملأ قلبيهما بالخشوع والتواضع ويقربهما بالتالي من الله ويضفي على المجتمع كله قيمًا روحية عظيمة.

ــ عدم المجيء فرادى لتقديم التعزية. بل ضمن وفد موحّد وكبير، والهدف من ذلك عدم إرهاق أهل المأتم بالوقوف طويلاً لتقبل تعازي كل واحد بمفرده، فضلاً عن ذلك أن قدوم الجماعة وتقديمها التعازي على شكل وفد يخلق جواً من الاحترام والتهيب والوقار تعوزه هذه المناسبة الاجتماعية. أما القاء التحية بعد الانتهاء من تقديم التعازي يعطي الأولوية والأهمية للمناسبة الممثلة بالموت، لأن التحية في مثل هذا الوقت تعتبر محض شخصية.

في حالات خاصة تنعى القرى المجاورة وإذا حدث وكان المتوفي شاباً يزين محمله وتندبه الشباب بألحان عذبة وبأقوال تجمع بين إظهار المناقبية والتفجع والرثاء بشكل يجعل المأتم في وادي التيم أكثر المآتم حشمة وأغناها بالوجدانية في العالم كله.

وللأسف الشديد عبث التجديد... ببعض النواحي من هذه التقاليد الرائعة والعادات التراثية الفاضلة فأدخل عليها فولكلورية رخيصة، فصرنا نسمع ندب الشباب يؤدى بألحان الحداء وكأن الناس في عرس للرقص لا في مأتم للتأمل والصلاة ثم هناك تلك البدعة غير المستحبة وهي المصافحة والتقبيل بين جماعة المعزين وأهل المأتم ثم التدخين والتحدث بصوت عال وغير ذلك من الأمور التي ترفضها تقاليدنا ويمجها تراثنا، وما تجدر الإشارة إليه أن

التقاليد حصرت الخطابة والندب في أسبوع المتوفي أو أربعينه[١] أما يوم الأجر فلله ولمن يسعى لينال الأجر.

ومن التقاليد المتبعة في هذه المناسبة أنه إذا التقى إثنان وكان أحدهما في مأتم يبادره الآخر القول ــ عظّم الله أجرك ــ فيجيبه: أجرك عند الله عظيم ــ وهذا القول يسبق عادة كل تحية.

ومثلما حددت التقاليد للرجال طريقهم ومهامهم في هذه الحالة كذلك حددتها للنسوة اللاتي يتوافدن لدى سماعهن الخبر إلى المأتم وينشدن ندباً جميلاً ومؤثراً يتناولن فيه مآثر الراحل كما يتناولن ذكر بعض من قضوا من أبناء القرية فيجعلن للمأتم قاسمًا مشتركاً بينهن وفي هذه الحالة تنشد امرأة بمفردها وترد عليها جماعة منهن على شكل جوقة قال فيها أحد المستشرقين الأجانب هو جيوفاني ماريتي «أنها أجمل سمفونية سمعها في حياته».

□ الأعراس:

التيميون لا يفرقون بالأهمية والواجب بين عرس ومأتم كلاهما سنّة من سنن الحياة (وفرض) يلزم المساهمة به وحق يجب تأديته نحو اخوان «يجب أن نكون معهم بأفراحهم وأتراحهم» إنه أمر يتساوى في ساحته الغني والفقير والرفيع والوضيع وفي هذا المفهوم مثالية لا نظير لها في أرقى المجتمعات وأكثرها تهذيباً، كثيراً ما كنا نشاهد القرويين يتهيأون ويهيئون ليوم عرس، بعض هذه الأعراس كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، وأكثر من ذلك كانوا يتخذونها لتأريخ أحداثهم كمناسبة هامة، ومن يشاهد حلقات الدبكة والرقص الفرادي والجماعي والولائم العامرة والابتهاج المرتسم على وجوه الناس يقول أن العاطفة قد استبدت بالقرية وأخرجتها عن وقارها بعفوية تسير بها نحو الاستزادة من هذه المباهج البريئة، وما يحدث في الأعراس أمر يطول شرحه إذا أردنا التطرق إلى كافة جوانبه ونكتفي هنا بوصف الطريقة التي يتقبل فيها العريس وذووه تهاني المهنئين:

(١) فخر الدين أمير الدروز الكبير، ص ٥٨.

يقف العريس عادة بين أهله ورفاقه ويكون بأحسن زينته ومن حوله أشبينيه، والأشبين عادة مأخوذة عن تقاليد الكنيسة، عندما يتواجه العريس ومن حوله بوفد القادمين للتهنئة. يبدأ التهنئة كبير وفد المهنئين ويتبعه الآخرون وتكون العبارات كالعادة مقتضبة ومعبرة منها:

مبارك مهمكم، إنشاء الله بيتهنى العريس والعاقبة للعزّابية... إلخ وفي هذه الحالة تجيز التقاليد المصافحة والتقبيل ولا حرج. بعدها يتوجه القادمون إلى الأماكن المخصصة لهم وينضم من يريد من الفتيان والشباب إلى حلقات الدبكة والغناء إذا كانت قائمة، وفي الأعراس تتوافد النسوة وخاصة الفتيات منهن إلى حيث توجد العروس ويحيطنها بالمباهج والتكريم ويجلينها بألحان عذبة وتكون كلمات الجلوة في غاية الرقة والتهذيب والإشادة بجمال العروس وقد لا تكون جميلة إلى حد الوصف والإشادة. ولكن التقاليد والعادات في وادي التيم يعطينها حقها ويكرمنها في يومها هذا... وهذا من حقها لأنها مهيأة لتحمّل مصاعب هذه الحياة... ولأنها مدعوة مختارة للمشاركة في بناء هذا الكون العظيم.

٤ ــ اللغة العربية الصحيحة

موطنها وادي التيم:

وليس في ذلك من مغالاة.. لا يمكن أن يسمع المرء اللغة العربية من المحيط إلى الخليج بشكل مضبوط وموزون. مثلما يسمعها في وادي التيم حتى في لهجاته المحلية، والتيمي صغير كان أو كبير. فلاح كان أو موظف يلفظ الروادف على حقيقتها دون أي تعديل أو تبديل بشكل يميّزه عن جميع أنحاء العالم العربي كله. فالتيمي يلفظ: الـ ث ذ ض ظ ش س غ ق بكل دقة وضبط، وهذا الأحكام اللغوي يعود برأيي إلى عاملين هامين: أولهما عراقة الأصول العربية بين الناس، وثانيهما الدقّة التي تتطلبها قراءة كتب الحكمة والتي أصبحت مع الزمن أصالة مميّزة، فالقلم ليس ألم. والتراث ليس تراس. والشمس ليست سمس. والذهب ليس زهب. وغير ذلك من التحويرات اللفظية التي يذهب بعضها بالمعنى جملة وتفصيلاً.

٥ ــ مفاهيم وقيم:

الخيال التيمي يترجل عن جواده احتراماً منه لقطعة خبز ملقاة على الأرض ليرفعها عن مواطىء الأقدام وبعضهم يغالي فيترجل لأجل حبة من العنب، والأطفال شأن الكبار في ذلك فإذا حدث وداس أحدهم كسرة من الخبز تراه ينفعل ويستغفر وكأنه ارتكب إثمًا. شاهدت كثيرين في حياتي يلتقطون كسرة الخبز ويقبلونها ثم يبعدونها عن مواطىء الأقدام، وعندما تسأل أحدهم، عن ذلك؟ يجيبك على الفور «إنها نعمة الله..» تصوركم في هذا القول من خلق وأدب وحقيقة، لم توجد هذه المفاهيم بطريق الصدفة بين الناس، ولكنها من غالي تراثهم وكثيراً ما أشارت كتب الحديث إلى احترام الخبز ـ وقد جاء في صحيحي مسلّم والبخاري، وفي الجامع الصغير للسيوطي قولهم:

«أكرموا الخبز فإن الله أكرمه. فمن أكرم الخبز أكرمه الله».

«أكرموا الخبز فإن الله أنزله في بركات السماء، وأخرجه من بركات الأرض».

«أكرموا الخبز فإنه من بركات السماء والأرض. من أكل ما يسقط منه على السفرة غفر له».

وعلى هذا المبدأ كانت تسير التقاليد في وادي التيم...

٦ ــ من آثار الصابئة في حياة الإنسان في وادي التيم:

أتذكر عندما كنت صبّياً كنت أسمع جدتي في ليالي الشتاء الباردة تترنم بأنشودة حزينة وجميلة مطلعها:

يا مشتري السعد حلّفتك بالربّ البار
خذلي سلامي معك للخمسة الأطهار
خذلي سلامي وقبّل لي أياديهم
واحكي لهم ما جرى وابكي وبكّيهم

إلى آخر الأنشودة...

ويبدو أن هذه الأنشودة البسيطة في تركيبها العميقة في معانيها العجيبة في مراميها، قيلت في فترة من الاضطهاد القاسي والمرير الذي كان يسحق الناس من أهل جدتي.. وما أكثر ما لحق بالدروز من ظلم واضطهاد.. تحضرني حكاية عين صوفر يوم ذبح ابراهيم باشا خمسماية شيخ درزي وخرّب بلادهم وسلخ جلد مقدّم دير القمر وهو حيّاً وقتل الأمير قرقماز المعني ظلمًا وعدواناً لمجرد وشاية لم يجر فيها تحقيق وهي أن الدروز هم الذين نهبوا أموال الخزنة السلطانية في جون عكار في أرض لم تكن تحت سلطانهم، وبعد قليل ظهرت براءتهم ولكن كان قد سبق السيف العذل.

ومشتري السعد هنا هو كوكب المشتري (جوبيتر) أما لماذا قرن اسمه بلقب السعد.. واللقب كما يبدو كريم.. هذا ما كان يحيّرني، بالإضافة إلى ذلك الدعاء الذي كنت أسمعها تردده عند الشروق «أشرق نور الله. جل جلال الله..» فأتعجب من هذا الربط بين الشمس وبين الله جلت قدرته.

لم أكن أعرف يومذاك إنني من بلاد كان أهلها يعبدون الشمس والمشتري ويقيمون لهما الهياكل العظيمة في حمص وبعلبك وتدمر وغيرهما وبالرغم من انتصار اسم الله الحق على المفاهيم الوثنية وبالتالي زوالها. بقي منها أثر على ألسنة الناس وليس في قلوبهم على أي حال في أرض غنية بالتراث القديم. في وادي التيم...، وهناك واقعة أخرى أشار إليها الأب لويس شيخو بقوله: إن جهّال العرب كانت تعبد الأشجار. منها شجرة عظيمة كان موقعها قرب مكة تدعى بذات أنواط، وكانت الجماعات الجاهلية تجتمع تحت ذات أنواط في وقت معينّ وهناك يعلقون أسلحتهم في أغصانها ويمتنعون عن الحرب قربها، كما كانوا يعلقون على هذه الأشجار أسمالاً لهذا دعيت بذات أنواط ــ والأنواط بالمعنى المعروف هو القسم القماشي من الوسام الذي يحمل الشارة المعدنية (الرصيعة).

فهذا الأثر الذي اختفى في البلاد الحجازية وغيرها بقي ما يذكّر الناس به في وادي التيم.

بالقرب من بلدة راشيا الوادي شجرة ضخمة تشاهد جيداً من المارّة على الطريق العام قبل البلدة بقليل تدعى (شجرة أم شراطيط) وكما نرى أن الاسمين لمدلول واحد والأنواط بحد ذاتها (شراطيط) والعادة التي كانت متبعة بين الناس حتى الأمس القريب هي أن كل مار أو مارة قرب هذه الشجرة يلزمه أن يعلق عليها بعض الأسمال والخرق أنها ذات أنواط بعينها.. بدون قداسة طبعاً ولكن مع شيء من الاحترام وهذا ما أبعد عنها فؤوس الحطابين فنمت مع الزمن وأصبحت من عظيم الشجر، والمعروف تاريخياً أن قدامى الفينيقيين كانوا يقيمون معابدهم على التلال والمرتفعات ويغرسون قربها أشجاراً بغالبيتها من السنديان الذي يعمّر طويلاً، ولا نزال في وادي التيم نرى أشجاراً ضخمة وعتيقة جداً تقوم فوق بعض المرتفعات وإلى جانب كل شجرة مزار لصدّيق أو مقام لولي بعضهم معروف وبعضهم لا نعرف عن أمره شيئاً وبين التيامنة المتدينين مشاركة في الإيمان يرى بها المبصرون أنفسهم أمام الحقيقة القائلة: إن مجاري الإيمان المتعددة تصب في بحر الله الواحد. فالدروز والسنّة من التيامنة يكرمون بيعة للخضر عليه السلام في قرية عين عرب وينذرون لها. ولنفس صاحب البيعة بيعة أخرى في قرية عيثا الفخار باسم مار جرجس تكرمها الجماعات الأرثوذكسية.

٧ ــ مظاهر الاحترام ومفاهيم تراثية ترقى إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة:

الاحترام بين الناس بأشكاله المتنوعة والمتعددة كان منذ أن كانت الناس...، والمعروف عن وادي التيم ــ وطن الكلمة المهذبة والتصرف اللائق ــ أن المجاملات تزدهر بين أبنائه بكل ما فيها من سلبيات وإيجابيات.. فهنا يحجم التيمي عن مناداة الرجل أو المرأة باسميهما مجردين، بل باسم ابنهما الأكبر: أبو صالح.. أم صالح... إلخ، وذلك بدافع الاحترام. وليس هذا التقليد في الواقع وقفاً على التيامنة وحدهم، ولكنها عادة تعم العالم العربي من مشرقه إلى مغربه بشمولية طاغية. يقول جواد بولس[1]: إن قدامى الفينيقيين

(١) لبنان والبلدان المجاورة، ص ٢٢.

كانوا يدعون آلهتهم بأسماء غير أسمائها الحقيقية احتراماً لها وتكريماً. مثلاً: بعلة جبيل كانوا يدعونها (عشتاروت)، وأدونيس: هو الإله الفينيقي هاي تو. ترى هل هذا التقليد فينيقي عرّب، أم عربي عُمّم؟؟

بالإضافة إلى ذلك هناك كلمات عمرها يزيد عن الثلاثة آلاف سنة، بعضها لا يزال يتردد بين التيامنة كقولهم: زرعنا بعل.. هي وبعلها. فالزرع البعل هو الزرع الذي تسقيه الأمطار ــ والأمطار مسقطها الإله. والرجل بعل زوجته، أي إلهها، وهذا الامتياز الرجالي... ! تراث قديم جداً كما يبدو، ثم هناك كلمة: سفط، فاعلها سافط ومعنى القول: «الأجاويد سفّيطاً، يعني أن الأجاويد متسامحة بحقوقها الشخصية في الحالات التي توجب السفط والمسامحة. ويقول العارفون أن هذه الكلمة قديمة جداً في التاريخ وهي فينيقية في أصلها[١]، ترقى إلى نظام السوافط الذي قام في صور سنة ٥٦٤ قبل الميلاد.

اعتمد أهل صور هذا النظام الشبيه بنظام القضاة بعد وفاة ايتوبعل، وكانت صور قد اقتبست هذا النظام عن قرطاجة، وعن قرطاجة تعلمه الرومان وطبقوه في بلادهم تحت اسم نظام القناصل، لقد ذهب كل شيء وتبدّل، وبقيت مثل هذه الكلمات التراثية تتردد في وادي التيم، وطن التراث العريق.

٨ ــ ملاهي تراثية في وادي التيم:

أتذكر جيداً كما يتذكر الكثيرون غيري ممن كانوا وهم صبية يتلهون بلعبة الكعاب الشهيرة، تلك اللعبة التي لها قواعد وأصول وطرق مختلفة وخاصة بممارستها. لم نعد نجد بين صبية اليوم من يلعب هذه اللعبة، وهذا ما يثبت أن جيلنا هو فاصل بين جيلين لكل منهما مفاهيمه الخاصة به.. والكعاب: مفردها كعب، وهي عظمة في رجل الحيوان تعمل كمفصلة بين الساق والفخذ،

(١) ذات المصدر.

ملاحظة: يقول الأستاذ بولس بما معناه: أن كلمة أدون تعني الإله ولكن عندما نقول أدونيس فكأننا نقول إلهنا.

الشيء الذي يمكّن الحيوان من طي رجله بسهولة ويسر، وللكعب شكل هندسي جميل وحجم لا يزيد عن حبة الكستناء إلا قليلاً لأن المفضّل منه ما هو للغنم أو للماعز، ولهذه العظمة ذات الشكل المكعب أربعة وجوه ولكل وجه تسمية خاصة، فأعلاه يدعى آبل ويرمز للملك، وأدناه يدعى قيط ويرمز للوزير، ووجهه يدعى جور ويرمز للعاشق، وقفاه يدعى ظهر ويرمز للحمار. أما الكلمات التي يستعملها اللاعبون ليست من العربية بشيء، إنها سريانية أو آرامية على الأرجح، وقد تعودنا أن نجد كل قديم على ساحة وادي التيم ولكنه بذات الوقت مغلف بألف سؤال: فكلمة خرمي تعني مرتبة أول اللاعبين، ثم كلمة زقر، وتأتي كلمة زقرهم، بمعنى رماهم ليصيبهم. وكلمة جرتوف، وتعني الكعب القديم المتآكل... إلخ. ولكن الملفت للنظر في هذا الموضوع هو ما يدعى بلعبة الخوطا ومفادها: أنه قبل أن يباشر اللاعبون لعبتهم يرسمون دائرة يتوسطها خط، على هذا الخط تصف الكعاب، ويحذر على اللاعبين الدخول إلى الخوطا، بل يرمون الكعاب من خارجها، فالدائرة المرسومة مع الخط الذي يتوسطها تشبه إلى حد بعيد حرف (خوطا) من الأبجدية اليونانية القديمة، فهل هذه اللعبة يونانية في الأصل؟

وهناك ما يشير إلى أن هذه اللعبة كانت دارجة ذات يوم في (فرنسا وإسبانيا) ولا يستبعد أن يكون الصليبيون اقتبسوها مع ما اقتبسوه من تقاليد وعادات البلاد المشرقية. ففي منتصف القرن الرابع عشر كان النبلاء في فرنسا وغيرها يمارسون هذه اللعبة، كانت تسلية الكبار وليس الصبية، كما كان الحال عندنا. وقد أشار إلى ذلك (رينار) في ما دعيَ بالهجو البورجوازي في تقليده الذي انتقد فيه الواقع الاجتماعي لطبقة النبلاء الفرنسيين في تلك الأيام بقوله[١]:

المعاشرات السيئة تتسلط على العقول
هذا يلعب بالكعاب وذاك يحيي الحفلات

(١) تاريخ الحضارات العام، ج ٣ ص ٤٨٥.

هذا يجادل وذاك يحارب
كلهم كرماء وذو مال وفير، ولا يعلمون من أين تأتيهم الأموال.

أما الإسبان، فكانوا يلعبون بالكعب على سبيل المقامرة بحيث قسموا جهاته الأربع بين رابح وخاسر، وبالتالي مقدار الخسارة والربح لكل جهة على الطريقة المعروفة بالطغراء والنقش.

لقد انتهت هذه اللعبة تماماً كما انتهى غيرها من الألعاب المسلية للصغار والكبار على حد سواء، وأعطت مكانها لألعاب جديدة ليس لها على أي حال براءتها ولا بهجتها.. انتهت ولكن بقي لها أثر يذكر الناس بها في وادي التيم.

٩ ـ أنصاب ورموز قديمة:

الآثار التاريخية في وادي التيم من الكثرة والتنوع بحيث يتطلب حصرها وتعريفها صعوبة دونها صعوبة معرفة حقيقة أمرها وصحيح تاريخها، وهذا يتطلب مجهوداً ضخماً من الوجهتين: المادية بكل ما لهذه الكلمة من أبعاد، والعلمية المبنية في الأصل على معرفة التاريخ القديم خاصة منه: الكنعاني ـ الفينيقي، واليوناني ـ الروماني، والعربي ـ الإسلامي، اليمني منه بوجه خاص.

بعض هذه الآثار من رموز وأنصاب لا تزال إلى الآن معروفة وواضحة الغاية والغرض من إنشائها وذلك من خلال تعامل إنسان اليوم معها، هذا التعامل المتوارث جيل عن جيل وعبر حقب التاريخ، فهناك أنصاب تشفع في الإنسان.. وأخرى تشفع في المواشي والسائمة والنباتات.. وكلاهما يحظى بالاحترام، وقد اخترت لمطالعتي هذه بعض منها وهي التالية:

إلى الغرب من ينطا وعلى تلة تشرف على معظم سهل البقاع الجنوبي يقوم أثر قديم يدعى (ايلون) أو النبي ايلون على حد قول البعض، وقد سعيت جاهداً لمعرفة شيئاً عن هذا الأثر ـ النبي ـ فرجعت إلى الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد باحثاً منقباً فوجدت اثنين بهذا الاسم، أولهما ايلون الحثي الذي تزوج يعقوب بابنته بسما ـ تكوين ٢٦: ٣٤، ثم ايلون

الزوبولوني من سبط زوبولون أحد القضاة ـ قضاة ١٢: ١٣. والاسم بحد ذاته كنعاني وليس عبري، وذلك بالرغم من وروده في مصادر توراتية، وهذه حقيقة لا تؤكدها الهيمنة الكنعانية على بلادنا في عصور التوراة الأولى وحسب، بل تؤكدها الأسفار الكنعانية ذاتها.

المؤرخ الفينيقي سنكن يتن قال قولاً نقله عنه مؤرخ آخر جاء بعده بألف سنة هو فيلون الجبيلي[1]، حول أساطير قدامى الفينيقيين وتقاليدهم، وموضوع الأسطورة يدور حول بناء المدن الفينيقية الساحلية.

تقول الأسطورة: أن الإله (ايل) أول ملوك جبيل اقترن بالآلهة بروث، ثم بنى مدينة فدعتها زوجته باسمها، فكانت بيروت اليوم. ويقول الأستاذ الريحاني في كتابه قلب لبنان[2]: أن الأقوام السامية القديمة عرفت هذا الإله ـ ايل ـ باسم ايليون وعليون، بمعنى أن كلمة ايل تعني الإله الأوحد؛ وايليون أو عليون تعني الإله العلي الأعلى، لأن استبدال الحرف ألف بالحرف عين وبالعكس، أمر اعتادته الشعوب السامية لسهولة الاستعمال ولا يزال القول للأستاذ الريحاني[2] صحيح «أوليست الهمزة الرديفة الدائمة للحرف ألف هي القسم الأهم من الحرف عين في لغة العرب؟؟». وبعودتنا إلى الموضوع لا بد من الإشارة إلى أنه تقوم في المكان، الآنف ذكره ـ مقام النبي ايلون غربي ينطا ـ شجرتان عتيقتان من السنديان، الأولى اتسعت قرقارتها حتى شملت الجذع كله واستدار لبها إلى الخارج فأخذ محل قشرتها الخارجية التي استدارت بدورها إلى الداخل وأخذت مكان اللب فيه. أما أغصانها فقد تقزمت وأخذت لون الصخر وصلابته فبدت وكأنها هيكل عظمي لتلك الديناصورات المنقرضة، أما أطراف الأغصان فقد احتفظت ببعض الاخضرار وكأن هذه السنديانة الدهرية تأبى الخضوع لناموس الفناء...

---

(١) قلب لبنان، ص ٤٠٨ ـ ٤٥٩، وقد أشير في مراسلات تل العمارنة الشهيرة إلى مدينة كنعانية اسمها ايلون، وأشير إلى موقعها أنه قرب عمواص. واعتقد بعض كبار المؤرخين أن هذه المدينة هي ذاتها ايالون المذكورة في سفر يشوع ١٩: ٤٢.

(٢) قلب لبنان، ص ٤٠٨ ـ ٤٥٩.

والسنديانة الثانية، تبدو أحدث عهداً من الأولى، وإن بدت أكبر حجماً وأشد نضارة لأن القرقارة التي ابتدأت تحدثها الأيام في جذعها، لم تبلغ بعد حجم البطيخة المتوسطة، وهذا ما يعطينا فكرة عن عمر الأولى المقدر بمئات عدة من السنين، وإذا علمنا من الدكتور حتي(١) أن إقامة المزارات للآلهة على رؤوس التلال، وغرس أشجار السنديان قربها، عادة فينيقية قديمة درج القوم عليها لغرض تكريم آلهتهم، لأدركنا أن ايلون هذا الإله الفينيقي وربما كان أول اسم للإله بالمعنى التوحيدي للكلمة عند الشعوب القديمة، لا يزال هذا الرمز يحتفظ بمواقعه القديمة في وطن التراث القديم في وادي التيم.

أما النصب الآخر فموقعه في قرية كفرقوق المجاورة لينطا، وهذا النصب واضح الهوية إلى حد كبير، كما سنرى. إنه عبارة عن مدخل لبقايا متهدمة كانت تشكل في الماضي هيكلاً جميلاً لم يبق الزمن منه إلا على بقايا متناثرة هنا وهناك في القرية وبين جداراتها. والمدخل المذكور يؤلفه حجران متقابلان يشكلان عضادتي المدخل الشرقي للهيكل بعلو ١٧٠ سنتم تفصلهما مسافة متساوية مع علوهما وعلى الحجرين كتابة رومانية قديمة منقولة، كما هو وارد «وأستغرب كيف لم يشر إلى هذه الكتابة الواضحة قدامى المستشرقين والرحالة أمثال روبنصون مع أنه زار المحلة كما يتضح من أقواله»، والعادة المتبعة في القرية والجوار أنه عند حدوث أمراض بين المواشي والقطعان خاصة الأمراض الموسمية كالحمة القلاعية وغيرها. يوجه الراعي قطيعه إلى تلك المحلة ويجعلها تمر بين الحجرين ــ المدخل ــ فتشفى من أمراضها ولا يزال إلى الآن من يعتقد بصحة هذا الزعم من أبناء المنطقة. والواضح من كل ذلك أن هذا الهيكل المتهدم الذي لا يزال مدخله قائماً هدم في زمن الامبراطور قسطنطين بمحاولة منه لاقتلاع جذور الوثنية لأن الهيكل المذكور كان مكرساً للإله بان إله الرعاة والمواشي والبراري عند قدامى اليونان والرومان، وقد بالغ الرومان بتكريم هذا الإله وأقاموا له عدة هياكل منها هيكل حول منابع الأردن العليا التي كانت مكرسة له قرب مدينة بانياس السورية الواقعة على سفوح حرمون الجنوبية، وأن

(١) لبنان في التاريخ، د. حتي.

اسم المدينة بانياس(١) جاء اشتقاقاً من اسم الإله بان إله الرعاة والمواشي والبراري عند اليونان والرومان. أما الكتابة المدرجة على النصب، فقد وضحت فيها عبارة بان (BEN) كما نشاهد:

OYCJT BEN ABO CEXXWUOYEX
Σ AXUCNOCE ⊓OHC

١٠ ــ ملامح يمنية في وادي التيم:

عمل وادي التيم قبيل سني الفتح عمل (الموزع العام) أو ما يدعى بالترانزيت كمب (Transit Camp). للهجرات العربية الإسلامية المتدافعة من بحور الرمال باتجاه بحور المياه(٢) بعض هذه الموجات الآتية من البلاد اليمنية نزلت في ربوعه ولا تزال عاداتها وتقاليدها تشكل أهم وأبرز مظاهر الحياة العامة في الوادي.

يقول أمين الريحاني عن مشاهداته في البلاد اليمنية أثناء رحلته فيها خلال العقد الثالث من هذا القرن أنه عندما يلتقي يمنيان يبدءان التحية بأن يأخذ أحدهما بيد رفيقه ويقبلها، فهذا المظهر من مظاهر التحية ــ مبادلة تقبيل الأيدي ــ هي التحية التقليدية بين التيامنة خاصة بين الدروز منهم، أما وضوح الأصول اليمنية بين التيامنة فأمر لا غبار عليه، ويبدو أن الجماعات اليمنية التي حطت رحالها في الوادي كانت على شيء من القوة والسيطرة كما أنها كانت لا تزال شديدة الحنين إلى موطنها الأول، فكان أن أعطت المواقع والأراضي التي نزلتها في وادي التيم أسماء مواقع وأراض مشابهة لها في البلاد اليمنية، وهذا ما فعلته في كل مكان نزلت فيه، إن في سوريا ولبنان أو في البلاد الأندلسية فيما بعد. على سبيل المثال: هناك واد موقعه في خراج ينطا يدعى وادي بكا ــ كنا نعتقد أن الوادي المذكور منسوب إلى قرية بكا القريبة من ينطا ولكن المتضح أنه تسمى باسم واد مشابه له في البلاد اليمنية (وادي بكّه) ــ وهناك واد آخر بهذا

(١) مباحث توراتية، تعريب دار المكشوف، ج ٢ ص ٥٣؛ مجلة الآثار، عدد شهر حزيران لسنة ١٩١٢، الصفحة ٣٧٠، عيسى اسكندر المعلوف.
(٢) وكذلك لبعض الهجرات الداخلة إلى فلسطين أو الخارجة منها.

الاسم في أندلس الأمس وإسبانيا اليوم في مكان كانت قد نزلته جماعات يمنية إبان فتح البلاد، عنه يقول ابن القوطية القرطبي في كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس»: إن وادي بكه في الأندلس يخترقه نهر البرباط الذي يخترق بحيرة خاندا والسهل الفسيح المحيط بها ليصب في المحيط الأطلسي، ثم هناك قلعة الغراب، تلك الصخرة الشاهقة القائمة على كتف ينطا. بحيث تبدو للناظر وكأنها الاكروبول.. أما تسميتها بقلعة الغراب فقد جاء لمكان مشابه لها تماماً في البلاد اليمنية، هذا ما يدلنا عليه العلامة الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه «المسيحية وآدابها بين عرب الجاهلية» فيما يقوله عن قلعة الغراب في البلاد اليمنية. وقال أيضاً حصن الغراب، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن التيامنة وحدهم في البلاد السورية واللبنانية يدعون مجموعة الصخور العالية عن الأرض والصعبة الولوج باسم (القلعة)، والقلعة ـ كما هو معروف ـ اسم يطلق على مجموعة الحصون والأبنية العسكرية المحاطة بأبراج تجعل الدخول إليها صعباً، وهناك أيضاً، وفي خراج ينطا بالذات، جبل يدعى (جبل جحّاف)، وحول هذا الاسم يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان[1]: إن جحاف اسم لجبل في اليمن وهناك سكة بنيسابور ينسب إليها الوزير التاجر الجحافي المتوفى سنة ٣٤١هـ.

وهناك أيضاً وفي خراج ينطا بالذات، حقل الخولان، والاسم غني عن التعريف به. وخولان: مخلاف من مخاليف اليمن. والقول لياقوت[2] وهو اسم لقرية كانت موقعها قرب دمشق دفن فيها أبا مسلم الخولاني اليمني الأصل، فضلاً عن ذلك أن خولان من أشهر القبائل اليمنية اليوم. إن ما أشرت إليه حول هذا الموضوع ما هو إلا قليل من كثير، وغيض من فيض، يجعلنا نعتقد أن وادي التيم أغنى البقاع السورية اللبنانية بالتراثيات والعاديات على حد سواء، خاصة اليمنية منها.

(١) معجم البلدان، طبعة القاهرة، ١٩٠٦، ص ٦١.
(٢) ذات المصدر، ص ٤٨٣ و ٤٨٤.

الفصل الثاني

تاريخ بلدة الكُنيسة

«السلام عليك أيتها الأطلال المنفردة، أيتها القبور المقدسة والجدران الصامتة. أنت التي ابتهل إليها، وإليها أرفع صلاتي».

(فولني)

في بلادنا قرى ودساكر كثيرة تحمل هذا الاسم، وما نحن بصددها الآن هي بلدة الكنيسة الخربة والواقعة في منتصف الطريق بين قريتي كفرقوق وينطا من قضاء راشيا. والكنيسة المذكورة كانت في الماضي من أقدم وأكبر الحواضر في وادي التيم. قبل أن تتحوّل من خلية تعجّ بالحياة والحركة. إلى بلاقع يلفها الصمت.

كتابة تاريخ الكنيسة، بجمع المتواتر منه وحفظه بين دفتي كتاب. رغبة قديمة في نفسي كنت أتمناها وأتحاشاها في آن. يدنيني منها الواجب نحو أمومة التراب والتاريخ. وتقصيني عنها رهبة الولوج في متاهات التاريخ ومعميات السنين، بإمكانيات متواضعة ومؤكدات قليلة ونادرة يستحيل معها الادلاج عبر طريق ضاعت معالمها على امتداد نيّف وخمسة قرون. ومنذ أن ضمّها الفناء إلى غنائمه الكثيرة. والكنيسة ترقد في أحضان العدم الباردة بهدوء وصمت لم يعكره قلم باحث عارف. ولا معول منقّب عاقل، أما المستشرقون وأصحاب المبادرات في هذا المجال فلم يجدوا في الكنيسة ما وجدوه في انطاكية وتدمر والرها أو غيرها

من حواضر ذلك العصر ليكتبوا عنها ويسجلوا تاريخها. فكان من المقدر لها أن تضيع، أو تكاد. ولكن. هل تغيب في لجّة النسيان وإلى الأبد. حاضرة مثل الكنيسة. في إقليم تراثي مثل وادي التيم، بين قوم اشتهروا بالمحافظة على تاريخهم وترابهم مثل بني معروف؟ كلا هذا لم يحدث، وما أهملت الأقلام تدوينه. لم تهمل الأذهان حفظه وترصينه، وسنّة هي أن يأخذ الجديد محل القديم في حياة الناس، وكان الجديد من الكثرة والتنوّع في وادي التيم على امتداد خمسة قرون. ما هو كاف لجعل أخبار الكنيسة في حكم النسيان. وكنت أرى فيها بيننا من شيوخ، أنهم الجيل الأخير الذي يحفظ شيئاً من تاريخ الكنيسة. عن هذه الحقبة التاريخية الهامة والمجهولة من تاريخ وادي التيم غير المكتوب. فإذا هم قلة لا يتجاوز عددهم عدد بنات نعش، وقد جاءت أقوالهم متوافقة، ولا يخفى ما لهذا التوافق من قيمة تاريخية. واقتصر عملي على السعي والمقارنة. السعي وراء الأخبار من بطون الكتب وأقوال المحدثين، ومقارنة فيما بينها من جهة ومع القليل المدوّن من جهة ثانية لنخلص إلى نتيجة يقبلها العقل والتاريخ ليصحّ معها نقل تاريخ الكنيسة من أقوال متواترة معقولة يهددها الضياع. إلى أحداث مدونة منقولة يحفظها الاهتمام، حتى انتظم هذا العقد ولا أقول اكتمل، وكان جهد سعدت ببذله بغظ النظر عن محدودية عطائه.

ينطا ـ يحيى حسين عمار

جولة أفق
على موقع الكنيسة وواقعها:

«إن المحيط الأثري الذي جرت فيه حوادث الأوديسة يفهم بشكل أفضل لو قاسمنا البحارة الإغريق في الأرخبيل وفي الجزر الأيونية حياتهم اليومية».

(ضو)

كثيرة هي الخرائط التي كنا نشاهد عليها اسم الكنيسة كبلدة قائمة موقعها بين قريتي كفرقوق وينطا في قضاء راشيا، وكنا نستهجن ذلك ونستغربه لعلمنا أن الكنيسة خربة مهجورة منذ زمن بعيد ونتساءل لماذا تظهرها الخرائط؟ وكأنها قائمة فعلاً وبعد تقصي الأسباب تبين ما يلي:

إن الخرائط المشار إليها، منقولة عن الخريطة العثمانية الموضوعة سنة ١٩١١ بإشراف خبراء من الألمان وبمقياس: ١:٢٠٠٠٠٠، وبعد الاحتلال الفرنسي ترجمة مصلحة الجغرافية هذه الخرائط إلى الفرنسية واستمرت تعمل بموجبها حتى العام ١٩٢٧ وفي العام ١٩٤٥ تسلّم الجيش اللبناني هذه المصلحة. ثم وضع خرائط جديدة للبلاد سنة ١٩٦١ بمقياس: ١:٥٠٠٠٠ لم يرد فيها اسم الكنيسة ولا غيرها من الأماكن المشابهة لها مثل قرية عردات القريبة من طرابلس.

موقع الكنيسة كثير الشبه بالموقع الذي تقوم عليه بلدة عيحا، وكأنهما من اختيار واحد، مرتفع تقوم عليه القرية. وينبسط أمامه سهل تحميه من الخلف سلسلة تلال. والفرق بينهما هو أن عيحا تتجه نحو الشمال بينما الكنيسة تتجه نحو الشرق وبعلوّ واحد عن سطح البحر تقريباً. تشكّل سلسلة التلال القائمة خلف الكنيسة حدودها الغربية مع جاراتها القرى البقاعية التالية: عين عرب ـ

خربة روحا ـ وكفردينس[١]، تبتدىء هذه السلسلة قريباً من الظهر الأحمر وتنتهي في ينطا أعلاها في الجنوب جبل الشيخ فرج ١٥٣٧ متراً وفي الوسط جبل البياضة ١٦٧٤ متراً وفي الشمال قلعة الغراب ١٥٨٠ متراً. وهذه السلسلة من التلال. متوازية مع سلسلة تلال مقابلة لها يفصل بينهما في الوسط سهل الكنيسة. تتوسط هذا السهل بركة هي أجمل ما يشاهد المرء في تلك المفازة الجافة. تستمد هذه البركة ماءها من بئرين مجاورين لها وقد اندملا الآن وشحت مياههما بفعل الإهمال[٢]. كانت البركة تشكل المورد الرئيسي لمواشي أهل الكنيسة التي اشتهرت بكثرتها في ذلك الزمن، وكان فائض البركة من المياه في فصلي الشتاء والربيع على الأقل، يجري غرباً مع ما ينضم إليه من روافد محلية، ثم ينحدر غزيراً نحو وادٍ يدعى وادي الطواحين وفي اسم هذا الوادي ما يغني عن التعريف به، ولا تزال إلى اليوم آثار المطاحن المائية بادية للعيان في أكثر من مكان في جوانبه.

لقد ذهب كل شيء ولم يبق على حاله هناك سوى البركة. كما كانت منذ أن كانت الكنيسة، تستقبل الشمس في الصباح. وتودعها في المساء بصمت ثقيل يخيّم على تلك البراري الموحشة.

من معاينة الأطلال والآثار في الكنيسة وبالتالي المساحة التي تحتلها هذه البقايا والآثار نرى أن الكنيسة كانت مدينة بكل ما للكلمة من معنى وأن الآثار فيها تعود كما يبدو لأزمنة ثلاث أولها ما ندعوه الآن مجازاً:

□ **الزمن الأول**: من آثاره الغرف المكعبة والمحفورة كلياً في الصخر والتي تشبه

(١) يبدو أن بناة هذه القرية الأوائل كرسوها لإله الخمر ديونيسيوس.
(٢) شيوخ من كفرقوق وينطا قالوا لي إنه في القديم عندما كان الناس ينزلون إلى أي من البئرين المذكورين أعلاه كان يتعذر عليهم رؤية سطح الجبل جبل الشيخ بفعل العمق المقدر بحوالي الخمسة أمتار أو يزيد، أما اليوم فقد تساوى البئران بالأرض وشحت مياههما.

إلى حد كبير الآثار المتواجدة في قرية رخلا السورية والتي تبعد عن الكنيسة حوالي العشرين كيلومتراً شرقاً[١].

□ **الزمن الثاني**: أو الزمن اليوناني ـ الروماني أشهر آثاره هيكلين جميلين لا تزال أروقة أحدهما ظاهرة للعيان وحجارته المنحوتة الضخمة بكامل روعتها منقوش على بعضها رسم زهرة الأقحوان الكثيرة التواجد في تلك المحلة.

□ **الزمن الثالث**: أو الزمن العربي والأخير من آثاره المنازل البسيطة والتي لا تزال جداراتها قائمة إلى حد ما ولا تفرق بشيء عن مثيلاتها التي لا تزال قائمة حتى اليوم في قرية كفرقوق المجاورة لها.

أما بالنسبة لتوزيع الآثار في ذلك الموقع الأثري نرى أن الكنيسة كانت تقسم إلى ثلاثة أحياء سكنية هي التالية:

□ **الحيّ الشمالي**: وكأنه حي الميسورين وأصحاب الأملاك وفيه آثار هيكل رائع يدعونه الناس في أيامنا الحاضرة بالقصر الشرقي.

□ **الحيّ الجنوبي**: يمتاز هذا الحي بموقعه المشرف على القرية كلها وعلى ما حولها من أراضي ويتضمن هذا الحي أروع الآثار وأكثرها قيمة.. بقايا لهيكل يشاهد على بعض حجارته رسوم ونقوش بديعة وهذا الأثر يعرف من العامة في أيامنا هذه بالقصر الغربي. وعلى مقربة من القصر توجد مدافن منحوتة في الصخر بشكل جميل ومتقن يجعلك تعتقد أنها كانت لسراة القوم الذين لم يباعدوا بين قصورهم وقبورهم...

(١) يعجب العالم من أن مدينة جبيل هي الحاضرة الوحيدة من حواضر العالم القديم والتي لا تزال مأهولة منذ حوالي السبعة آلاف سنة، وفيما أراه أن المعجزة الثانية هي قرية رخلا السورية تلك التي أشرنا إليها آنفاً والتي يتكشف كل يوم فيها عن أثر جديد عمره آلاف السنين مثل الأقبية والمسارب والمعاصر المحفورة بأكملها في الصخر، ولا تزال هذه القرية المعجزة والرابضة في أحضان حرمون تحتفظ باسمها الأول وقد وردت أكثر من مرة بأخبار التوراة وبالاسم نفسه راخلاً وأحياناً راخال.

الكنيسة: بقايا أحياء وحطام جدران...

□ **الحيّ الغربي**: وكأنه القسم الذي أضيف إلى البلدة في العهد العربي، بيوته بسيطة الحجارة ومتقاربة من بعضها تبدو وكأنها بيوت العامة من الناس.

كثيرة هي المنازل التي لا تحتاج إلى كبير عناء لتقوم من جديد، أما الكنيسة في حالتها الحاضرة فهي منطقة عقارية يتقاسم ملكيتها أهالي ثلاث قرى مجاورة لها هي: ينطا كفرقوق وبكا، وقد حوّل الفلاحون ساحاتها وأفنيتها إلى حقول يزرعونها بالحبوب لذلك كدسوا الكثير من حجارة بيوتها على شكل رجم كبيرة تظهر على بعضها آثار الحريق بشكل يبدو وكأنه بصمات الكارثة المروّعة التي حلت بالكنيسة وأزالتها من الوجود.

أثناء تجوالي هناك عثرت على الكثير من القطع الخزفية وأدهشني أن أجد بعضها وكأنه حديث الصنعة لا يزال يحتفظ بطلاء زاه ولامع، متنوع الألوان والأشكال فمنها ما طلي بالأحمر أو بالأخضر أو بكليهما معاً، ومنها ما يدل على أنه كسرة لخابية أو أبريق أو جرة أو قنديل، أما الأشياء الزجاجية فكثيرها ملوّن متقن وبسماكة تتراوح بين ما يصلح للكؤوس وما يصلح للصحاف، ووفرة تلك القطع الخزفية وكثرة وجودها هناك. يجعلك تعتقد وكأن القرية كانت بأجمعها مصنعاً للخزف ثم تهدّم وتبعثرت محتوياته في كل مكان، وقد علمت من الفلاحين الذين يقومون بعملهم بين تلك الآثار أنهم كثيراً ما يجدون جراراً وصحافاً وأشياء كثيرة أخرى من الأدوات التي كان الناس يستعملونها في ذلك الزمان كالفؤوس والقناديل وغيرها، ولكن القرويين يحطمون هذه الأشياء ولا يهتمون إلا بما يعتقدونه ذهباً دون الاهتمام بالناحية التراثية المفيدة. أحد الشيوخ[١] من كفرقوق أخبرني أنه يعرف مكان صخرة في الكنيسة مدون عليها: (سنة ١٣٤٤) ونتذكر أن هذه السنة هي السنة التي جرت فيها الواقعة الكبيرة بين مقدمي البقاع وأهل وادي التيم والتي سبق وأشرنا إليها، ويبدو أن أحد الأهلين البعيدي النظر عمد إلى تأريخ هذا الحدث الهام للذكرى. وأخبرني شيخ من ينطا[٢] أنه في أوائل هذا القرن كانت لا تزال بعض أشجار التوت

(١) هو الشيخ سليم صالح.

(٢) هو يوسف أسعد جبر.

القصر الغربي

القصر الشرقي

والجوز وغيرها من الأشجار المثمرة والتي يغرسها الناس عادة حول منازلهم لغرض الاستفادة من أثمارها كانت لا تزال قائمة في الكنيسة وأنه شاهد الكثير منها وهو صبياً، أي في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر.

مستشرق في الكنيسة:

كان ذلك في صيف سنة ١٩٢٠م. وفي شهر تموز على وجه التجديد، عندما جاء إلى قرية ينطا أحد ضباط الجيش الفرنسي يحمل خريطة معلّقة على وسطه بالإضافة إلى مسدس ومطرة، فتجمع القرويون حوله بدافع الفضول، طلب الرجل إلى المتجمهرين حوله أن يذهب أحدهم معه إلى الكنيسة فتطوع أحدهم وذهب معه، وعندما وصلا المحلة أخذ الغريب بمعاينة الأماكن والآثار، وقال لمرافقه: الذي نعلمه أن المياه جارية صيفاً وشتاءً في الكنيسة وأستغرب كيف لا أرى شيئاً من هذا، وكان قد نفذ منها الماء، ويبدو أن البركة والبئرين المجاورين كانت في حالة جفاف تام، فقال الغريب لمرافقه: هلم بنا إلى البئر الثالثة قد نجد فيها ماء، فدهش المرافق لعلمه أنه لا يوجد هناك ما يدعى ببئر ثالثة وأخبر الغريب ذلك، ولكن هذا الأخير أصر على قوله وأكد لمرافقه أن بئراً ثالثة توجد فعلاً في أعالي القرية، وانتقلا إلى المكان الذي حدده هذا الغريب وابتدءا بالبحث هنا وهناك حتى عثرا على فوهة بئر قديمة، وقام الاثنان بحفرها إلى عمق معين وما لبث تراب البئر الندي أن أصبح موحلاً ثم ظهر الماء واستجمعا منه ما كفاهما لري ظمأهما.

الكنيسة والتاريخ المكتوب...
وهل كانت تدعى: كنيسة بني حمام؟

أقدم مواجهة عثرت عليها بين التاريخ المكتوب والكنيسة تعود إلى العام ١١٧٢م وهو العام الذي نزلت فيه القبائل الشهابية وادي التيم في أيام

(١) أخبرني هذه القصة علي نعيم من كفرقوق عن لسان حسين أحمد اشتي من ينطا وهو الذي رافق الرجل إلى الكنيسة. وكان رحمه الله يحسن اللغة الانكليزية بفعل هجرته إلى أميركا.

من آثار قرية القبي الواقعة غربي دير المشاير والتي اعتقدها بعض المؤرخين
(حارة القبة في الشويفات)

الملك العادل نورالدين محمود، حدد المؤرخون نزول هذه العشيرة الكبيرة فيما بين (الكنيسة والجديدة)، وقيل أيضاً: «في بيداء ضهر الأحمر بين الكنيسة والجديدة» كان ذلك منذ ثمانماية سنة تقريباً، كانت الكنيسة يومذاك حاضرة عامرة. أما المواجهة الثانية فقد جاءت بعد ١٧٠ سنة من المواجهة الأولى، وتاريخها: مستهل شهر صفر من سنة ٧٤٥ للهجرة الموافقة للسنة ١٣٤٤ ميلادية، أي منذ ستماية وأربعين سنة، وذلك بمناسبة الحرب القاسية التي أعلنها مقدمو البقاع ومعهم جمعة الحربالي من جبل نابلس على الأمير حسين الشهابي، وقد سبق وأشرنا إلى هذه الحرب تحت عنوان: حرب البقاعية وأهل وادي التيم، ونتذكر الآن أن هذه الحرب قامت بتحريض من الملك الصالح عمادالدين إسماعيل من ورثة السلطان قلاوون، لعدم مشاركة الأمير حسين الشهابي ـ أمير وادي التيم ـ في الحرب التي قامت في الكرك بين الملك الصالح وأخيه السلطان أحمد، وقد تحدى الأمير حسين الملك الصالح وأنزل بمقدمي البقاع والنابلسي ـ الآنف ذكره ـ هزيمة منكرة وقتل من أتباعهم خمسماية رجل وأسر جمعة الحربالي النابلسي نفسه، وأشار إلى ذلك المؤرخ الأمير صالح بن يحيى القريب من أحداث ذلك العصر، قوله:

«في سلطنة الملك الصالح إسماعيل جرت الواقعة بين البقاعية وأهل وادي التيم وذلك في مستهل شهر صفر من سنة ٧٤٥هـ = ١٣٤٤م وقتل من الفريقين جماعة كثيرة وأحرق من وادي التيم ثلاث عشر قرية، وهو جمعة الحربالي من جبل نابلس، وسلمت الكنيسة وكفرقوق وعيحا من النهب والحريق، وانقطع الدرب بوادي التيم وكذلك بوادي الزبداني». يفهم من هذا القول أن الكنيسة بعد هذه الحرب استمرت آهلة عامرة.

وأشار صالح بن يحيى في كتابه «تاريخ بيروت» إلى اثنين من كبار الأمراء اللبنانيين تزوجا من الكنيسة هما الأمير علم‌الدين سليمان معن ـ المعروف بالرمطوني، وابنه الأمير سيف‌الدين غلاب، وأشار المؤرخ في احدى المرات إلى الكنيسة بقوله (كنيسة بني حمام). وساورني شك فيما إذا كانت هناك كنيسة أخرى قد تكون المقصودة بقوله، مثلاً قرية الكنيسة القريبة من قرية كفرقطرة في

الشوف، أو تلك الموجودة في بعلبك. ولكن تأكد لي ــ بما لا يقبل الشك ــ أن الكنيسة هي المقصودة دون سواها(١)، وكان للأمير علم الدين سليمان أملاك مجاورة للكنيسة وهي قرى: عيثا ــ عيثا الفخار اليوم، ثم معيسنون ــ ميسلون اليوم ــ القريبة من بلدة الديماس على طريق دمشق، ثم قرية القبي ــ وقرية القبي هذه، اعتقدها بعض المؤرخين بأنها حارة القبة في الشويفات، والصحيح أن القبي المذكورة هي قرية تقع قرب دير العشاير لجهة الكنيسة، ولا تزال آثارها قائمة حتى اليوم ــ وبحكم تواجد الأمير علم الدين في تلك الناحية كان من الطبيعي أن يزور الكنيسة لقربها من أملاكه هناك، وبالتالي أن يختار عروسه منها، وهكذا فعل ولده الأمير سيف الدين غلاب الذي ورث عن والده إقطاعاته في تلك المحلة: عيثا ــ معيسنون ــ والقبي.

الأمير علم الدين سليمان الرمطوني
يتزوج بأميرة من الكنيسة:

أربعة من الأمراء التنوخيين لقبوا بالكبير تمييزاً لهم عن سواهم وهم: الأمير جمال الدين حجي بن محمد، وأخيه سعد الدين خضر، وناصر الدين الحسين بن سعد الدين خضر، والأمير علم الدين سليمان الملقب بالرمطوني الذي تزوج بأميرة من الكنيسة. يقول صالح بن يحيى في تاريخه عن هذا الأمير أنه كان قوي النفس، تجله الناس وتهابه، وأنه عاصر ناصر الدين الحسين أمير التنوخيين القوي، وكان ناصر الدين يجلس الأمير علم الدين عن يساره ويجلس ابن عمه شجاع الدين عن يمينه ــ وشجاع الدين ابن عم ناصر الدين ــ ولما تولى الأمير ناصر الدين الحسين الامارة، أعطى إقطاعاته لعلم الدين وأزوجه ابنته، ولم يحدث في السابق ــ على حد قول المؤرخ ــ أن تزوج أحد من سلف علم الدين بامرأة من ذرية ناصر الدين، فأمير هذا شأنه لا يختار عروسه إلا من

(١) هذه عادة درج عليها قدامى التيامنة بأن يدعو كل قرية من قراهم بلقب معين، مثل قولهم: كفرقوق الدبس ــ كفير العبس ــ كوكبا أبو عرب... إلخ.

أُسر كبيرة تتناسب ومكانته بين قومه، ثم عاد الأمير سيف الدين غلّاب بن علم الدين سليمان وتزوج من الكنيسة أيضاً وحذى الابن حذو أبيه.

لم تكن عروس الأمير علم الدين وعروس ابنه سيف الدين غلّاب الوحيدتان اللتان حملتهما الهوادج من الكنيسة إلى غرب بيروت، لقد كن كثيرات وفي الاتجاهين، ولكن كثيرة هي الحقبات التاريخية من حياة الكنيسة خاصة ومن حياة وادي التيم عامة التي ضاعت في متاهات الزمن ومجهوله.

وما دمنا في معرض الحديث عن هذا الأمير الكبير، يجدر بنا أن نشير أن هناك تضارب بين أقوال بعض المؤرخين الذين كتبوا تاريخ هذا البيت ــ بيت علم الدين سليمان الرمطوني. فالأستاذ كمال الصليبي يقول بما معناه(١): «أن المعنيين كانوا جبّين: جب قرقماز بن يونس، وجب علم الدين بن معن، ولما انقرض المعنيون المثلون بجبّ قرقماز كان يجب أن يحل محلهم بالامارة أبناء عمومتهم آل علم الدين لا أنسبائهم آل شهاب ــ أمراء وادي التيم، والذي ساعد على تزكية الامارة لبيت شهاب هو الأمير حسين المعني ابن الأمير فخر الدين الذي بقي حياً في الآستانة ولم يعدم نظراً لصغر سنه، ويبدو أنه كان متأثراً بالعداوة التي كانت قائمة بين أهله وبين آل علم الدين. وأن اعتبار آل علم الدين من سلالة علم الدين سليمان الرمطوني مغالطة تاريخية مقصودة رتبها الشهابيون بواسطة المؤرخ حيدر أحمد الشهابي واستغلتها الأسرة الشهابية لغرض المصلحة والوراثة»، انتهى.

أما الأمير أمين آل ناصر الدين فيرى غير هذا الرأي ويقول بما معناه(٢): أن الأمير علم الدين معن هو تنوخي ومسكنه الأصلي في عبيه، وكانت داره في الشمال الغربي منها وفيها توفي، وفي أواخر سنة ٧٠٠هـ = ١٣٠١م انتقل بعض ذراريه إلى رمطون بسبب خصومة وقعت بينهم وبين أنسبائهم التنوخيين ــ وقد أشار صالح بن يحيى إلى تلك الخصومة ــ وفي رمطون تكاثروا، فكان

(١) جريدة النهار، بتاريخ ١٩٧٥/٢/٥.
(٢) أوراق لبنانية، صفحات ٣٦٩ و ٣٧٠ و ٣٧١.

منهم الأمير عمادالدين حسن التنوخي أول من تلقب منهم بالقاضي وهو الذي بنى جسر القاضي وجد الأمراء آل القاضي اليوم. والأمير علم الدين سليمان الرمطوني جد الأمراء آل علم الدين، ويشير المؤرخ إلى أن قرية (ادميث) التي كان يملكها أولاد الأمير علم الدين سليمان ــ صالح بن يحيى يؤكد ذلك ــ لا تزال ملكاً لآل القاضي وآل علم الدين، ولا يزال لآل القاضي فيها منازل وأملاك حتى اليوم.

نضع هذه الوقائع التاريخية أمام القراء ونعود إلى موضوعنا الأساسي وهو تاريخ الكنيسة: كانت تربط التنوخيين بالتيامنة أواصر إخوة متينة، وكان التيامنة الدروز ــ شأن غيرهم من الدروز في كل مكان ــ يرون في التنوخيين السلالة التراثية المجيدة التي تحدر من أصلابها رجال أعلام خدموا الدعوة بتضحية وإخلاص، وقدموا لها المناخ الأمني الملائم داخل وخارج امارتهم اللبنانية السعيدة لتنمو وتزدهر. ويخبرنا الأمير صالح بن يحيى شيئاً عن التعاطف الذي كان قائماً بين قومه وأهل وادي التيم، منها: أنه بينما كان راجعاً إلى عبيه في شهر أيلول من سنة ١٤٢٥م بعد مشاركته بالحملة التي جردها الملك برسباي على قبرص سنة ١٤٢٤م. وعندما كان يهم باجتياز سهل البقاع، كمن له في صغبين رجل يدعى أمير حاج، من بني الحمرا الذين أجلاهم التنوخيون عن بيروت(١)، وكانت العداوة شديدة بين الجماعتين القويتين. علم الأمير صالح بما هو مدبر له، فانحاز إلى وادي التيم وبقي هناك مدة من الزمن ثم شكل التيامنة وفداً كبيراً لمرافقة الأمير وحمايته، ولما رأى أمير حاج كبر الوفد المرافق للأمير صالح امتنع عن التصدي له، وتابع الأمير سيره إلى وطنه بأمان.

كانت الكنيسة يومذاك حاضرة عامرة، كما كانت أكبر القرى التيمية وأقربها لخط سير الأمير، ولا أظنه إلا كان ضيفاً عليها. وما تجدر الإشارة إليه،

(١) كان بنو الحمراء يقيمون في ظاهر بيروت، فاصطدموا بالتنوخيين أمراء البلاد وحماة الثغر، وجرى بين الجماعتين القويتين اقتتال تمكن التنوخيون في نهايته من إجلاء بني الحمرا إلى البقاع، فاستقروا في مشغرة، ولا تزال محلة الحمرا في رأس بيروت تحمل اسم هذه الجماعة حتى اليوم.

أنه بعد عودته من حملة قبرص عاش صالح بن يحيى أحد عشر سنة، ثم توفي في العام ١٤٣٦م ــ كانت الكنيسة لا تزال عامرة حتى ذلك الوقت.

اللقاء الثالث والأخير
بين الكنيسة والتاريخ المكتوب

كان ذلك في فترة اعتكاف الأمير جمال الدين عبد الله السيد قدّس الله سرّه في دمشق. وقد جاء على ذكر الكنيسة في رسالتين بعث بهما إلى الشيخ عبدالقادر الريان شيخ الكنيسة بالذات في ذلك الوقت، ويبدو أن هاتين الرسالتين أرسلتا إلى الشيخ عبدالقادر بينما كان حاجّاً إلى بيت الله الحرام ــ يقول قدّس الله سرّه في الرسالة الأولى: «أحوال الكنيسة والدير مضطربة نسأل الله أن يصلح حالهما» والدير المقصودة بهذا القول، هي دير العشاير(١) اليوم والمجاورة للكنيسة. ويبدو أن خلافاً بين القريتين حصل في ذلك الزمن لسبب لم نعرفه تماماً ولكننا نشعر بحدته لدرجة أنه أقلق عقّال الدروز يومذاك ــ ربما بسبب مراعي الماشية. مجرد اعتقاد مبني على مبدأ (اليوم ابن الأمس) كانت مواشي الكنيسة كثيرة جداً وكانت تجوب تلك الأنحاء بما فيها جبال دير العشاير الغربية، وهذا الأمر لا يزال إلى اليوم مصدر نزاع بين القرى المتجاورة في وادي التيم وغيره.

أما الرسالة الثانية. فتحمل نبأ الكارثة الرهيبة.. يقول الأمير قدّس الله سرّه فيها «مات مزهر وشهد عليه أهل الباطل بالرحمة فابتلوا الجماعة نعزيكم ببلدتكم الحقيرة الكنيسة».

خلف هذه الكلمات القليلة تختبىء أحداث كبيرة جداً وهامة جداً وما يمكن الاستدلال عليه. هو أنه كان يعيش في الكنيسة رأس يدعى مزهر وكان معاصراً للشيخ الريان وكان لمزهر هذا أعوان في القرية وربما خارجها أيضاً ولم يكن مزهر على رأي الشيخ عبدالقادر الريان المتوافق تماماً مع رأي الأمير السيد قدّس الله سرّه، وأعوان مزهر الذين أيدّوه في حياته دون أجر. رحموه في

(١) في مخطوطة آل الفقيه أشير إلى الدير باسم (دير أبي العشائر).

مماته دون استحقاق. . فرأى الأمير السيد إن ما حلّ بهم، كان عقاباً لهم. ومن خلال أقواله نرى أن الأمير السيد كان مطلعّاً تماماً على أحوال الكنيسة ومهتمًا بها وكان بينه وبين الشيخ الريان أحاديث سابقة حول شؤونها، أشير إلى هذا الاهتمام بالرسالتين الموجهتين منه إلى الشيخ عبدالقادر.

أمضى الأمير السيد يومذاك اثنتي عشرة سنة في معتكفه بدمشق، عاد بعدها إلى عبيه بناء لإلحاح الناس ورجائهم. ويقول الأستاذ عجاج نويهض في كتابه (التنوخي) إن الأمير عبدالخالق ابن الأمير السيد ووحيده «توفي على الأرجح أثر عودة والده من دمشق» وكانت وفاة الأمير عبدالخالق في سنة ٨٧٦هـ = ١٤٧٢م فتكون السنوات الاثنتي عشرة التي أمضاها الأمير السيد في دمشق هي من سنة ١٤٦٠م إلى سنة ١٤٧٢م «خلال هذه المدة خربت الكنيسة» في سبعينات القرن الخامس عشر الميلادي، فيكون قد مرّ على خرابها حوالي الخمسماية سنةّ «نحن الآن في العام[1] ١٩٧م» وما كنا لنعلم ذلك لولا رسالة الأمير السيد للشيخ عبدالقادر الريان، أما الأمير فقد عاش بعد وفاة ابنه الأمير عبدالخالق ثماني سنوات حيث توفاه الله في العام ٨٨٤هـ الموافق للعام ١٤٨٤م، وما تجدر الإشارة إليه، أن تاريخ وفاة الأمير عبدالخالق متفق عليه تماماً بين المؤرخين الذين أرخوا أخباره. أما المختلف عليه بينهم هو تاريخ ولادته. يقول ابن سباط إنه ولد في العام ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م فيكون قد عاش ثماني عشرة سنة أما عند أبي علي مرعي فقد عاش اثنتين وعشرين سنة، ويرجح الأستاذ عجاج نويهض أن الأمير عبدالخالق لم يزد سنّة يوم وفاته عن الثامنة عشرة.

قصة خراب الكنيسة

يرويها لنا التاريخ غير المكتوب:

كان ذلك في يوم من أيام الصيف وكانت جماعة من أهالي الكنيسة قادمة من جبل الشوف بموكب عروس، سلك هذا الموكب الطريق التقليديّة التي

(١) كتبت هذه المطالعة في العام ١٩٧٢.

تقطع السلسلة الغربية، الباروك ـ عين اللجّة ـ كفريا ـ سهل البقاع ـ وادي أبو عباد. وعند وصول الموكب إلى العين الواقعة فوق قرية عزّي وقرب وادي الفالوج، حطّوا رحالهم على النبع ليستريحوا ويريحوا رواحلهم المتعبة، وكان يوجد ساعتئذ على النبع المذكور قطعان ماعز يملكها بعض أهالي القرى البقاعية المجاورة، فطلب أهل الكنيسة من الرعاة ماعزاً ليأكلوا لحمها أثناء قيلولتهم، فرفض الرعاة طلبهم، لا نعرف ما إذا كان القوم طلبوا ذلك لقاء ثمن، ولكن الذي نعلمه أنهم قاموا إلى غرضهم بالقوة وذبحوا ماعزاً دون رضى رعاتها. وعند الانتهاء تابعوا سيرهم نحو قريتهم.

عاد الرعاة في المساء إلى قراهم وأخبروا أصحاب الماعز قصتهم مع أهل الكنيسة، ولم تكن العلاقات طيبة بين أصحاب الماعز وأهل الكنيسة فجاءت هذه الحادثة ضغثاً على إبالة وأصاب شررها الوقود المناسب. فهاجت الخواطر وأضمر القوم لأهل الكنيسة شراً، وكان قد سبق هذا الحادث حادثة مماثلة هي أن جماعة من البقاعية. . كانت قادمة بعروس من الشرق ـ قطنا وضواحيها ـ وعند مرورهم في الكنيسة جاء من ألقى أمامهم العَمْدَةَ، حسب العادة التي كانت متبعة في ذلك الزمان.

وحدث أن الشباب من جماعة الموكب ـ العرسية لم يجدوا بينهم من يستطيع رفع العمدة، فاتخذ أهل الكنيسة من ذلك سبيلاً للسخرية منهم الشيء الذي آلم الجماعة وأزعجهم، وتابعوا سيرهم وهم مهانون.

وهناك حالة ثالثة تروى على الشكل التالي:

كان رجلاً قادماً من (جبل الشوف) إلى الكنيسة ومعه ابنتاه لا نعلم ما إذا كان الرجل من الكنيسة أصلاً أم ضيفاً عليها، وبعد أن اجتاز الرجل وابنتاه وادي أبو عباد، التقى بجماعة من الشباب فاعجب أحدهم بإحدى البنتين وطلبها للزواج من والدها ولكن الوالد رفض طلب الشاب، ورفضت الفتاة أيضاً تبعاً لرفض والدها، فاقتادهم الشاب وصحبه قسراً إلى قريته ـ وقد تكون قرية عزّي نفسها ـ وهناك استبقى الشاب الفتاة التي أعجبته وأطلق والدها وأختها الثانية مهدداً إياهما بالموت إذا التفتا خلفهما. . فاحتج

نبع الفالوج في حالته الحاضرة

الباقي من آثار قرية عزّي المجاورة لنبع الفالوج

الوالد وبكت الفتاتان ولكن ذلك كله لم يجد نفعاً أمام إصرار الشاب المعجب الواله. . وصل الرجل وابنته إلى بلدة الكنيسة وأخبرا الناس بما جرى لهما على الطريق فهاجت الخواطر واستنفرت القرية وقـرّ الرأي على الانتقام، وعند حلول الظلام. استطاعت الفتاة الأسيرة الفرار من أسرها واللحاق بوالدها وأختها، وفي صباح اليوم التالي ركبت خيالة الكنيسة وانطلقت مغيرة نحو قرية الشاب العاشق. . فهاجمتها وألحقت بها أضراراً كبيرة.

كل هذا كان من أسباب التوتر بين الكنيسة وجاراتها البقاعيات، ولنعد الآن إلى الموضوع الذي يشغلنا وهو كيف تم خراب بلدة الكنيسة؟.

بين أواخر أيلول وأول تشرين الأول من كل سنة، يبدأ الفلاحون بزراعة القمح في حقولهم التي تعتمد في ريها على الأمطار الشتوية، وهذه الطريقة التي لا تزال متبعة حتى يومنا هذا في وادي التيم والبقاع والغوطة وحوران، تدعى (زراعة العفير) ففيها يذهب الفلاحون إلى حقولهم بعد منتصف الليل بقليل إذا كان القمر بدراً، وقبيل طلوع الضوء في الليالي الباقية، وينهون عملهم اليومي عادة قبل الظهر يعودون بعدها إلى بيوتهم. هذا هو الوقت الذي اختاره أعداء الكنيسة لمهاجمتها والفتك برجالها. فجاءت جماعاتهم ليلاً وكمنوا بعيداً عن القرية ثم ربطوا جميع الطرق المؤدية منها وإليها، وأخذوا يلقون القبض على كل فلاح ذاهب إلى حقله في تلك الساعة المتأخرة من الليل ويذبحونه، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أول النهار ودون أن يدري أحد داخل القرية ما يجري خارجها كانت العملية قد أفرغت الكنيسة من معظم فلاحيها أو مقاتليها الأشداء. وعند طلوع الشمس هجم القوم على القرية واعملوا فيها السيف والنار فقتل من سكانها من قتل وفرّ الناجون منهم إلى قرية كفرقوق المجاورة ينقلون إليها خبر الكارثة المروعة.

استنفر الناس في كفرقوق واجتمع أولو الأمر فيها في منزل شيخ القرية وقـرّ الرأي على ملاقاة القوم وقتالهم قبل أن يدهموهم في بيوتهم، وكان توقعهم صحيحاً وفي محله تماماً. لأنه بعد حرقهم الكنيسة. أسكرت القوم نشوة النصر فحزموا أمرهم واتجهوا نحو كفرقوق ليفعلوا فيها ما فعلوه بالكنيسة.

يتيم بطل ينقذ الموقف:

اجتمع رجال قرية كفرقوق في بيت شيخ القرية وأخذوا يستعدون للمعركة التي اعتبروها واقعة حتمًا بينهم وبين البقاعية. . فوقف أمام المؤتمرين غلام من القرية وقال لهم: سأذهب معكم إلى القتال. فلم يجبه أحد أول الأمر استصغاراً لشأنه من جهة، وشفقة عليه من جهة ثانية، ثم عاد وكرر طلبه وألحّ، فقيل له: ليست الحرب بالأمر السهل الذي تتصور. إنها مهمة صعبة لا يصلح لها من الرجال. إلا من يوقف المشط في شعر لحيته. فأجابهم الغلام: لا لحية لي كما ترون، ولكنني أستطيع إيقاف المشط في لحم ذهني. وأمام إصراره أجابوه: أنت وشأنك.

عرف هذا الطفل اليتيم بين الناس بلقب «كشوّع» والكلمة سريانية تعني عند أهل القرى التيمية (الجدي) صغير الماعز الذي تنفق أمه ويضطر الرعاة لإرضاعه من عنزات القطيع بالتناوب، وفي ذلك دلالة على طفولة هذا الغلام البائسة، لقد قضى أبواه وهو طفل فكفلته جدته وكانت ترضعه المحسنات من نساء القرية، ونشأ فطناً نبيهاً. وعندما بلغ الثامنة من عمره أخذ يسطو على شجيرات التوت المتواجدة بكثرة في القرية وينتزع منها قضباناً يجعلها نشاباً يتمرّن على رميها بقوسه الصغير، فأكسبته التجربة والتمرين المستمر مهارة وحذق في رمي النشاب وصار باستطاعته غرس نشابه في أيّ مكان يريده، وعلى مسافات متفاوتة بمهارة وليم تل. . .

في منتصف الطريق بين الكنيسة وكفرقوق اتخذ الكفارقة مواقعهم القتالية في أمكنة ملائمة لهم، ووضعوا على بعض الصخور ألبسة وعمائم ليوهموا المهاجمين أنهم كثيرون، في هذا الوقت كان كشوع قد حمل قوسه ورزمة كبيرة من النشاب التي يتقن صنعها ورميها وذهب إلى أبعد ما ذهب إليه قومه وتخفّى تحت زيزفونة قائمة على جانب الطريق وجلس يترقب. . وبعد قليل تناهت إلى أسماعه جلبة القوم وضوضاءهم، وعلى مقربة منه رأى كَلْبَيْ صيد يجوسان الطريق فرماهما وأرداهما وبعد قليل أطل مقدم القوم خيالاً فسدد كشوع قوسه

نحوه وأطلق منه نبلة أودعها كل حذقه ومهارته فراحت تصفر في الهواء واستقرت في عنق المقدم فأردته وحدثت بلبلة بين الجماعة المهاجمة وكرر كشّوع إطلاق نباله وكانت كلها موفقة وصائبة ثم تدخل الكفارقة في القتال وأكرهوا المهاجمين على الانهزام غرباً، بعد أن فقدوا عدداً من رجالهم وخيالتهم وتعقب كشوع القوم وهو يطلق نباله ويتخفّى بين الصخور، ولما ابتدأ المنهزمون يتسلقون الجبل تراجع الكفارقة إلى مكان المعركة، كي لا يؤخذوا من علٍ، ودعوا تلك المحلة التي جرت فيها هذه المعركة (وادي المكسر) ولا يزال هذا اسمها حتى اليوم، أما الجماعة المنهزمة والمتجهة غرباً فوصلت إلى مكان يطل على قراهم فدعوه مطل الفرج ولا يزال هذا اسمه أيضاً حتى اليوم، وقد علمت من مصادر ثقة في قرية كفرقوق أن (جب الزيزفون) الذي تخفّى تحته كشوع استمر في مكانه حتى صيف سنة ١٩٦٨ يومها اقتلعته جارفة تابعة للمشروع الأخضر كانت تعمل باستصلاح الأراضي في تلك المحلة.

بعد الذي حدث رجع الكفارقة إلى قريتهم وهم يهزجون فرحين بانتصارهم وعند وصولهم إلى القرية. افتقدوا بطلهم الصغير كشوع فلم يقفوا له على أثر فعادوا يبحثون عنه في تلك البرية وهم ينادون «يا كشوع. . يا كشوع» ولكن أحداً لم يجبهم واستمروا بتقدمهم نحو الكنيسة وهم ينادونه، ومن مكان بعيد أجابهم، فهرعوا نحوه فوجدوه جالساً على صخرة وممسكاً بقوسه، ولما سألوه عن سبب بقائه أجابهم كنت أتوقع عودة القوم، وقال لمن حوله: أطلقت عليهم تسع وتسعين نبلة اعتقدها جميعها صائبة ولم يبق معي سوى واحدة فقط سأطلقها الآن، إليكم شجيرةَ الملول تلك. سأقطع منها غصناً ثم سدد قوسه وأطلق سهمه نحو الشجرة التي عيّنها ولم يلبث أن تدلى الغصن المصاب. . . ولا تزال إلى الآن الحقل التي وجد بها كشوع تدعى (حقل كشوع) وهذا اسمها منذ ذلك الحين، وهذا أمر ثابت تماماً، ويبدو أنه كان لكشوع أقارب في الكنيسة وآله مصيرهم. عاد الكفارقة ومعهم بطلهم الصغير وهم يهزجون له فرحين بلقائه، وقد أكرموه بأن جعلوه بعدئذ شيخ شباب القرية وتلك كانت عادة متبعة استمرت حتى القرن التاسع عشر في قرى وادي التيم

وغيره من الأقاليم، وقد أخبرني أحد الثقاة في كفرقوق أن الشيخ يحيى الحناوي من شيوخ عقل جبل الدروز أخبره أن كشوع هذا. اسمه الحقيقي (محمد الحناوي) فأما أن يكون اسمه محمد فهذا أمر مؤكد لأن أهل القرية أسموه بعدئذ محمد العريس تكريماً له ـ وأتذكر الآن كلمة كانت تقال بين الناس للصبيان المجلّين ـ بقولهم لهم ـ يا عريس ـ يا شاطر ـ أو ـ يا قبضاي ـ أو أي شيء من هذا، وأما أن يكون من بيت الحناوي. فهذا أمر لا نستطيع إنكاره أو إثباته، ولكن المعروف أن بيت الحناوي في جبل الدروز أصلهم من قرية كفرقوق يقول حنا أبي راشد في كتابه (جبل الدروز) إن جدهم شبلي ابن علي الحناوي كان قد هاجر من كفرقوق إلى قرية عتيل في جبل الدروز.

لكل حاضرة شيخ، وشيخ الكنيسة هو:

الشيخ عبدالقادر الريان:

كان الشيخ عبدالقادر الريان شيخ الكنيسة في الفترة التي زالت فيها من الوجود وابتلعها العدم، وكان الشيخ عبدالقادر واحد من أربعة شيوخ كبار عاصروا فريد عصره وإمام دهره الأمير جمال الدين عبدالله السيد قدس الله سرّه، وساروا متقفين آثاره في سبل الصلاح والتقوى، وهؤلاء الأربعة الكبار هم:

ـ الشيخ محمد البقعسماني، من بقعاسم في إقليم البلان.
ـ الشيخ صلاح الدين الحلبي، من حلب الشهباء.
ـ الشيخ أبو علي عبدالملك، من الجرد الأعلى.
ـ والشيخ عبدالقادر الريان، من الكنيسة في وادي التيم.

وقد رأينا أنه كان بين الأمير السيد والشيخ مكاتبة في الفترة التي كان فيها الأمير معتكفاً بدمشق، ويقال أن الشيخ كان يومذاك حاجّاً إلى بيت الله الحرام في البلاد الحجازية، وقيل غير ذلك. كان الناس في وادي التيم يجلون الشيخ عبدالقادر ويحترمونه غاية الاحترام، ومن الأقوال التي لا تزال متواترة حتى يومنا هذا، أنه عندما كان الشيخ يرسل مواشيه الكثيرة ـ «الماعز منها» ـ إلى بلاد بشارة لإشتائها هناك في أول فصل الشتاء من كل سنة، بحيث تعود إلى

وادي التيم في أول فصل الربيع، كان يضطر لمرافقة رعاته إلى مقصدهم أو إلى مكان معين من طريقهم، وعند عودته إلى الكنيسة، كانت تلاقيه الناس من القرى والدساكر التي يمر بمحاذاتها، ويدعونه لزيارتهم فتتركه قرية وتستلمه أخرى، فيصل إلى الكنيسة عند أول الربيع مع قطعانه العائدة من مشتاها.

العائلات النازحة من الكنيسة

والمعروف أمرها بيننا حتى الآن:

الشواهد التاريخية الثابتة والصور الحية لوجه الكنيسة التاريخي والتي لم تبل مع الزمن ولم تختف في رماد الكارثة هي التالية:

أولاً: العائلات التي كانت تعيش في الكنيسة ونزحت عنها عند خرابها ولا تزال تقيم في مختلف البقاع السورية واللبنانية، وقد وفقنا إلى معرفة بعض هذه العائلات، خاصة تلك التي لا تزال على المذهب الدرزي.

ثانياً: تسمية قطاعات ومواقع زراعية في الكنيسة ذاتها والتي لا تزال بأسمائها الأولى دون تغيير أو تحريف يذكر، وهذا يضعنا في الجو الصحيح للقصة. أما العائلات النازحة فقد انتقل معظمها أول الأمر إلى كفرقوق، فمنهم من بقي له وجود في كفرقوق، ومنهم من عاد وتوزع في مختلف الأنحاء. وقد عرفنا منهم العائلات التالية:

□ **المغوّش**: تقيم هذه العائلة في وقتنا الحاضر في قرية خلخلة من أعمال جبل الدروز، ولا يزال إلى الآن قطاع أرض زراعية في محلة الكنيسة يدعى (خندق المغوّش).

---

(١) إن أرسال التيميين لمواشيهم إلى بلاد بشارة لغرض إشتائهم في تلك الأماكن الدافئة عملية قديمة جداً في حياة إنسان وادي التيم، تعود إلى زمن الآراميين ـ فيليب حتي ـ.

ملاحظة: الريّان في اللغة: ضد العطشان، فالشجر الريان: من تنعم واخضر، ويقال فلان ريان من العلم، أي رواء منه.

☐ **سرايا**: من هذه الأسرة من هو مقيم في كفرقوق حتى الآن، ومنهم من هو مقيم في مدينة السويداء.

☐ **جربوع**: كانت هذه الأسرة في الكنيسة وكانت من أصحاب الأملاك الكثيرة فيها، وبعد خرابها نزحوا إلى كفرقوق ومنها إلى السويداء وبقيت لهم أملاك في كفرقوق حتى العقد الأول من هذا القرن.

☐ **الحناوي**: كان آل الحناوي من الأسر الكبيرة عندما كانوا في الكنيسة، ولا يزال إلى الآن قطاع أرض في الكنيسة يعرف بخندق الحناوي، نزحوا إلى كفرقوق ومنها إلى جبل الدروز.

☐ **السخي**: وهم فرع من آل الحناوي ومن سكان كفرقوق سابقاً.

☐ **أيوب**: من هذه الأسرة من هم الآن في دير العشاير ومنهم من هو في بلدة قنوات في الجبل.

☐ **يونس**: الباقون من هذه الأسرة على المذهب الدرزي في ديرقوبل، والمتنصرون في تنورين وغيرها.

☐ **فراشة**: مثل سابقاتها كانت تقيم هذه الأسرة في الكنيسة، بعضها الآن مقيم في جبل الدروز.

☐ **الديك**: لا نعلم إلا بعض بيوت لهذه الأسرة في بيروت والجبل.

☐ **الكنيساني**: آخر عهدنا بهذه الأسرة أنها كانت تقيم في قرية عين قني القريبة من مجدل شمس في هضبة الجولان.

☐ **عمّار**: هذه الأسرة في ينطا وفي مغر المير من إقليم البلان، نزحت من الكنيسة في الأصل إلى قرية رخلا المجاورة ثم انتقلت من رخلا إلى ينطا.

☐ **عزّي**: تقيم هذه الأسرة في مدينة السويداء.

☐ **الشومري**: آل الشومري، من سكان مدينة صلخد اليوم.

☐ **اشتي**: نزحت هذه الأسرة مع النزّاح من الكنيسة إلى كفرقوق ومنها إلى

ينطا، وبعضها في مدينة السويداء، والمقول أنهم أثناء وجودهم في كفرقوق استمروا يستثمرون أراضيهم في الكنيسة، ولما انتقلوا منها إلى ينطا استمروا أيضاً باستثمار تلك الأراضي لقرب موقعها من ينطا. وهناك موقع في الكنيسة يدعى حقل اشتي، والاسم آرامي، يقول عنه الريحاني أن معناه بالعربية السقّا أو الساقي[1].

☐ **جنبين**: من هذه الأسرة من هم في جبل الدروز، ومنهم من هو في القرى البقاعية على مذهب السنة.

قلنا أن ما ذكرناه هو بعض ما تمكنا معرفته من أسر الكنيسة النازحة، ومن ملاحظة لا بد منها هو أن تسمية قطاع الأرض الزراعية بالخندق أمر لا وجود له إلا في الكنيسة، ومن احتمال هو: أن الفلاحين كانوا يحددون حقولهم في السهل بخندق، وربما استعمل هذا الخندق لغرض الري أيضاً، والله أعلم بكل الأمور[*].

الأمير أحمد الشهابي
يعاصر أحداث الكنيسة الأخيرة:

توفي الأمير أحمد الشهابي سنة ١٤٧٥م عن ٦٣ سنة من عمره، بعد ٣٤ سنة من ولايته على وادي التيم، وقد وصف بأنه كان عاقلاً وحليمًا[2]، فيكون والحالة هذه قد عايش الأحداث التي سبقت والتي رافقت خراب الكنيسة دون أن يشير المؤرخون إلى أية ردة فعل عنده حول هذا الموضوع. فهل كان هناك تحول في العلاقات بين دروز الوادي وأمرائه من آل شهاب؟

تسلم الأمير علي الشهابي امارة وادي التيم بعد وفاة والده الأمير أحمد،

---

(١) الريحاني في قلب لبنان.

(*) ملاحظة: يعود كبير الفضل بمعرفة أسماء هذه الأسر التي سبق ونزحت من الكنيسة إلى المرحومين علي محمود فايق من راشيا، وعلي نعيم من كفرقوق.

(٢) أخبار الأعيان»، الجامعة ١٩، ج ١ صفحة ٤١.

وكانت والدة الأمير علي أميرة معنية، ونشب خلاف حاد بين الأمير علي وبين عمه الأمير بكر الشهابي، وتمكن الأمير بكر من ابن أخيه وأسره، ثم أودعه السجن، واستمر الأمير علي في سجنه حوالي الثلاثة شهور تمكن بعدها من الهرب، ويعتقد أن هناك من ساعده وسهل له سبل الفرار، لأنه عندما خرج من سجنه وجد مجموعة من الخيول مسرجة وعلى إحداها سيف، تقلده ثم اختار أجودها وانطلق هارباً إلى حمى خاله الأمير يونس المعني في الشوف عن طريق حاصبيا ـ كامد فالباروك، واتصل الخبر بالأمير بكر فأرسل جماعة من رجاله يتعقبون الأسير الهارب فلم يتمكنوا منه وكانوا قد استمروا بمطاردته حتى كامد، عادوا بعدها من حيث أتوا، ولما ابتدأ الأمير يصعد الجبل سقط جواده من شدة الإعياء ونفق، ومر على الطريق بائع زبيب، تقدم منه الأمير علي وهو شاهر سيفه وطلب إليه: أعطني راحلتك وخذ حلية هذا الجواد وإلا قطعت رأسك، فوافق البائع مرغمًا على طلب الأمير الذي لم يكن يعرفه، وانصرف كل منهما في حال سبيله، وعند الصبح وصل الأمير علي إلى بعقلين ودخل منزل خاله الأمير يونس المعني الذي رحب به وأكرمه، استمر بضيافته حوالي السنة كان خلالها يراسل أنصاره في وادي التيم.

وصف الأمير بكر الشهابي بأنه كان شرساً وفاحشاً(١)، لذلك تحولت الناس عنه إلى ابن أخيه الأمير علي، فتشجع هذا الأخير على العودة إلى وادي التيم، ووصل إلى القرعون ولاقاه إليها ماية فارس من أنصاره، ولما علم الأمير بكر، طلب إلى بقية الأمراء الذهاب معه لمحاربة الأمير علي، فوعدوه ولكن أحداً منهم لم يذهب، ولم يكن معه سوى غلمانه، والتقيا في مرج الشميسة، ولما دارت المعركة انقض الأمير علي على الأمير بكر وطعنه بالرمح في صدره فقتله، وقتل ثلاثين من رجاله وتابع سيره إلى حاصبيا، واستعاد امارته، واستمر الأمير علي في ولايته على وادي التيم إلى أن توفي في العام ١٤٨٨م، وكان له ولدان هما عثمان ويونس، توفي عثمان بالوباء مثل والده، وتسلم الامارة بعده شقيقه

(١) ذات المصدر.

الأمير يونس واستمر بولايته حتى العام ١٥٠٢م(١)، فتوفي وتسلم الامارة بعده ابنه الأمير منصور وعاصر هذا الأمير الأمير فخرالدين عثمان المعني الذي تسلم امارة الشوف، فذهب الأمير منصور وهنأه وجدد معه التحالف، وفي زمن هذين الأميرين جرت واقعة مرج دابق الشهيرة بين العثمانيين والمماليك التي فتحت أبواب سوريا أمام السلطان سليم العثماني، كما سنرى.

□ □ □

(١) أخبار الأعيان، الجامعة ١٩، ج ١ ص ٤٢.

الفصل الثالث

ماذا عن راشيا..؟
وهل صحيحها ريشيا؟

هناك رأيان حول تاريخ راشيا القديم. الأول تفرد به الشيخ الأشرفاني في كتابه عمدة العارفين (المؤلف). والثاني أجمعت عليه المراجع الزمنية بمعقولها المتواتر ومنقولها المدوّن. ويبلغ الفرق الزمني بين الرأيين مايتي سنة على وجه التقريب، وكلنا يعلم أن الشيخ الأشرفاني لم يذكر المصادر التي أخذ عنها بالتفصيل فجاءت أقواله باغلبيتها غير مسندة، ولكن عندما يتكلم الشيخ عن أمور وأحداث لها علاقة بالدعوة ورجالها، ترانا نثق بقوله تماماً لأن الشيخ فقه ذلك وسمعه بتواتر عن مصادر صادقة حريصة على حقيقة تاريخها، ومن خلال ذلك نورد أقوال المؤلف حول راشيا وهذا ما يعنينا الآن.

جاء الشيخ الأشرفاني بمؤلفه على ذكر (ريشيا) بموضوع رجل يدعى طراد، وكان طراد هذا من سكان قرية الفاقعة القريبة من (ريشيا). «والفاقعة اليوم منطقة عقارية تابعة لراشيا تبعد عنها حوالي الخمس كيلومترات لجهة الجنوب وفيها من الآثار ما يدل على أنها كانت مأهولة في القديم». وكان لطراد المذكور علاقة بسكين (مسعود الكردي أو منصور الكردي) الذي سبق وطالعنا أخباره مع الأمير معضاد وصالحة، وحدد صاحب المؤلف علاقة طراد بسكين أنها «مصاهرة بأخت ومجاورة للسكن» ولم ندر ما إذا كان سكين متزوجاً بأخت طراد أم العكس، وأشار المؤلف إلى طراد أنه من الذين شاركوا بشهادة الزور على نصر أبو الفتوح بالتهمة التي استعارها الأشرار لتدنيس سمعة نصر «وبعد أن أصلح طراد حاله انتقل من قرية الفاقعة إلى قرية ريشيا فسكن بها إلى

أن مات ومكان داره معلوم فيها إلى الآن» أي لزمن الشيخ الأشرفاني الذي يكمل قوله: بأن لطراد سلالة في قرية رخلا.

ويبدو من مجريات الأحداث، أنه عندما ظهرت براءة نصر وارتدت التهمة إلى صدور أصحابها، توجهت نقمة الناس إلى مزوري القصة، فأفاقت ضمائر بعضهم وندموا.. من هؤلاء طراد.

هذه الأحداث جرت في حدود العقد الثالث من القرن الحادي عشر للميلاد أي سنة ١٠٣٠م تقريباً، وطبقاً لهذا القول نرى أن ريشيا كانت عامرة في ذلك الزمن.

أما الرأي الآخر. قال به البستاني في دائرة المعارف وغيره مؤداه: أنه عند نزول الجماعات الشهابية في وادي التيم حوالي العام ١١٧٢م «ابتنى الإفرنج برجاً للمدافعة ضد العرب الشهابيين» مكان هذا البرج حيث تقع القلعة اليوم «ولما حل الشهابيون محل الصليبيين بحكم البلاد جددوا بناء هذا البرج واتخذوه قاعدة لحكمهم».

لا يزال هذا البرج في مكانه الأول في الجهة الجنوبية ـ الغربية من القلعة وفي مكان هو من أبرز الأمكنة التي تقوم عليها مجموعة الحصون أو الأبراج التي تؤلف القلعة اليوم. وهو المعروف من العامة ببرج الريش كما سنرى.

برج الريش:

اختار الصليبيون لبناء البرج المذكور أحسن المواقع وأكثرها ملاءمة للرصد والمراقبة فجعلوه على مرتفع يعلو حوالي ١٣٨٠ متراً عن سطح البحر يخيل للناظر منه وكأنه فوق جناح طائر يحلق في أجواز الفضاء، وتنبسط تحته مساحات كبيرة من الأرض ومن ثلاث اتجاهات رئيسية أبرزها الشمالية (الخطرة) حيث تقع الكنيسة وما حولها مكان نزول العشائر الشهابية، وتطل على البرج من الخلف قمة التل المعروفة بالمنشار يفصلها عنه فسحة من الأرض تبدو وكأنها رقبة حصان ضخم. وفي منتصف المسافة بين البرج وقمة التل يوجد ينبوع (عين

ماء) كانت تستقي منه حامية الحصن، وكان يحيط بالنبع دغلٌ كثيف الشجر كثير الطير، لذلك كان ملتقى الصيادين، وكان الصيادون يخلفون وراءهم على العين في كل مرة كثيراً من ريش الطيور المصطادة فدعيت العين من الناس بعين الريش كما دعي البرج القائم إزاؤها ببرج الريش، هذا ولم يزل موقع عين الريش معروفاً من معظم أهالي البلدة في أيامنا الحاضرة[١].

مع الزمن أخذ الناس يبنون المنازل فيما حول البرج، وقامت نتيجة ذلك مجموعة سكنية هي ما يعرف اليوم بالحارة الفوقا، فكان أن دعيت هذه القرية الناشئة ريشيا وأخذت ريشيا تنمو وتتسع في مختلف الاتجاهات لما شيّد بها من أبنية جديدة بتشجيع من الأمراء الشهابيين خاصة الأمير أبا بكر ابن شهاب[٢] الذي كان يأتي من حاصبيا إلى راشيا ويقضي فيها أياماً لغرض الصيد والقنص فبنى له بيتاً فيها ثم اقتدى به الناس، فيكون الأمير أبا بكر شهاب المسبب الأول بقيام مدينة راشيا، وفيما اعتقده أن عمار راشيا وازدهارها تسبب بخراب الفاقعة بحيث أصبحت هذه الأخيرة بعد قيام راشيا مكاناً منعزلاً موحشاً فانتقل من فيها إلى راشيا. وربما ذلك لأسباب أمنية أيضاً، ولم تفقد الناس أملاكها في الفاقعة بل استمروا يستثمرونها واستمرت مواشيهم تجوب تلك الحزون الجبلية الشاسعة.

وفي العهد المعني، وعلى وجه التحديد في عهد الأمير فخر الدين الثاني، كانت راشيا قد تساوت بالأهمية تقريباً مع حاصبيا، وحدث أنه في العام ١٠٤٠هـ = ١٦٣٠م توفي الأمير أحمد الشهابي وحصل خلاف بين ولديه وورثته الأميرين قاسم وحسين فتكلّف الأمير فخر الدين بإصلاح الحال بينهما بحيث أعطى الأول حاصبيا وما إليها وأعطى الثاني راشيا وما إليها، ويقول البستاني في دائرة المعارف (حرف الراء) إن الأمير أفندي الشهابي اهتم كثيراً بأمر راشيا

---

(١) مكان عين الريش قرب منازل آل علبة في الوقت الحاضر.

(٢) قتل هذا الأمير فيما حول جسر دير زينون انتقاماً لمقتل ابن الصواف في قلابات عين فجور في صراع على ما يبدو كان بين القيسية واليمنية علمًا أن بني الصواف هم من غلاة اليمنيين.

وأولاها الكثير من عنايته لأنه كان قد تسلمها بعد مقتل شقيقه الأمير منصور.

وما نود قوله الآن أن الاسم الصحيح لتلك الحاضرة الجميلة هو (ريشيا) وليس راشيا، به عرفها الناس في القديم وبه ذكرها كبار المؤرخين مثل الشيخ الأشرفاني والشدياق والبستاني والدكتور أسد رستم وغيرهم، والدليل الآخر على صحة هذا القول أن هناك أسرة تنتسب إلى البلدة المذكورة تدعى (آل الريشاني) وليس الراشاني: من هذه الأسرة من هو مقيم في راشيا نفسها ومنهم من هو مقيم في الشويفات وغيرها بالإضافة لذلك إن معظم الشيوخ في قرى وادي التيم ودساكره لا يزالون حتى الآن يدعونها ريشيا وفيما نراه أن هذا التعديل الذي طرأ على الاسم (راشيا بدل ريشيا) جرى في حدود الربع الأول من هذا القرن فقط أي في عهد الفرنسيين وأصبح على كل حال الاسم الرسمي للبلدة.

ماذا عن حاصبيا؟

حاصبيا ـ كلمة سريانية معناها (قرية الجرار)[1] وقيل بلاد الفخار[2] اتخذها الشهابيون قاعدة لإمارتهم عندما احتلوا وادي التيم في حدود العام ١١٧٣م وأنشأوا فيها قلعة حربية على أنقاض حصن صليبي كان قائمًا فيها وعندما احتل الصليبيون وادي التيم ألحقوها ببارونية صيدا. وحاصبيا بلدة قديمة جداً في التاريخ أعطاها موقعها ـ على منافذ فلسطين والبقاع أهمية كبرى يبدو أنها لعبت دوراً هاماً بالدفاع عن البلاد ضد العبرانيين الذين حاولوا التوسع شمالاً في زمن الملك شاول ومن إشارة في التوراة إلى ذلك بما معناه أن الكنعانيين القدامى سكان تلك المحلة تصدوا لشاول ومنعوه من التوسع باتجاه منافذ حماة، يشوع ١١: ١٧ و١٣: ٥.

كانت حاصبيا مركزاً كبيراً لعبادة البعل عند الجماعات السورية القديمة، أُقيم فيها نصب كبير في القديم ـ لبعل جاد أو بعل كاد ـ وهو نفسه بعل حرمون الذي أعطت الجماعات الكنعانية اسمه للجبل العظيم المطل على البلدة من

(١) أسماء المدن والقرى اللبنانية، د. أنيس فريحة.
(٢) تاريخ الأمراء الشهابيين، ص ١٧.

الشرق إطلالة رائعة فهمها القدامى أنها (إطلالة إلهية) وحاصبيا تلك الحاضرة الزاهرة هي المحور الذي تدور حوله أهم الأحداث التي أوردناها في هذا الكتاب لأنها عاصمة وادي التيم الأولى في القديم كما رأينا وفي الحديث لأن حولها تقوم خلوات البياضة مركز تعبد الأجاويد من شيوخ الدروز.

الأتراك العثمانيون:

من سنة ١٥١٦م السنة التي احتلوا فيها بلادنا بعد انتصارهم على المماليك في مرج دابق. إلى السنة ١٩١٨م السنة التي هزمهم فيها الحلفاء وأجلوهم عن البلاد اللبنانية والسورية. أربعماية وسنتان هي من أقسى ما عاناه شعبنا وأطول مدة قضاها محتل على أرضنا بعد الرومان.

العثمانيون من الشعوب التتارية التي عاشت أول أمرها في التركستان[1] ثم هاجروا منها بقيادة زعيمهم سليمان شاه إلى خوارزم كان عددهم يومذاك خمسة آلاف نسمة فقط. شاركوا بمعركة كبيرة جرت بين المغول وبين السلطان السلجوقي علاء الدين كانوا فيها إلى جانب السلطان فانهزمت المغول وقدّر السلطان السلجوقي للعثمانيين فضلهم فأقطعهم أرضاً قرب أنقرة اليوم وأخذ سلطانهم ينمو وساعدهم يشتد وصاروا يغزون الروم ويستولون على ما بيدهم من بلاد بعدها توغلوا في البلاد البلقانية، وحتى القرن الرابع عشر الميلادي، كان قد قام منهم سلاطين عظام أسسوا ملكاً قويّاً. وفي سنة ١٤٠٢م غزاهم تيمولنك وغلبهم كما سبق ورأينا. ولكن سرعان ما ضمدوا جراحهم ونظموا صفوفهم وتابعوا مسيرتهم، وفي سنة ١٤٥٣م تمكن سلطانهم محمد الفاتح من الاستيلاء على مدينة القسطنطينية ـ أعظم مدن ذلك العصر، وقضوا بذلك على الدولة البيزنطية. وأخذوا مكانها المتفوق في آسيا الصغرى على أبواب أوروبا.

كانت دولة المماليك تهيمن على البلاد العربية بعد أن أجلت الصليبيين عن مصر وسوريا وكان لملوكها علاقات طيبة مع شاه العجم عدو العثمانيين مما أثار

(١) عن دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي.

حفيظة السلطان العثماني. ثم رفض المماليك الاعتراف بالسلطان سليم العثماني كانت هذه أهم الأسباب التي عجلت بدفع عجلة الحرب بين الدولتين المسلمتين القويتين دولة المماليك وعلى رأسها السلطان قانصوه الغوري. والدولة العثمانية وعلى رأسها السلطان سليم.

معركة مرج دابق
في ٢٤ آب سنة ١٥١٦م:

عندما عرضت البندقية على السلطان قانصوه الغوري لأول مرة، رفض استخدامها في جيش المماليك مفضلاً عليها السيف، بحجة أنها تحدّ من شجاعة المقاتل بجعله يتناول عدوه من بعيد بدلاً من أن يصدمه مباشرة.

في ذلك الوقت كان السلطان سليم العثماني قد أدخل المدفع في تسليح جيشه الذي جاء به إلى مرج دابق لمحاربة المماليك. ولم يكن المدفع معروفاً يومذاك في البلاد المشرقية، فبالإضافة لأخطار هذا السلاح الجديد على الصفوف، كان له خطر من نوع آخر، ألا وهو الضغط على أعصاب المقاتلين في الجهة الأخرى بفعل صوته «الذي كان يبشر بولادة عهد جديد من عهود الصراع بين الناس».

«تظاهر السلطان العثماني بالمفاوضات ولم يكن يريدها، وكان غرضه من طلب المفاوضات إيهام العالم الإسلامي أنه ليس بداعية حرب، وليمنع المماليك من الاستعدادات الحربية الكبيرة للقتال»، وكان قد سبق معركة مرج دابق بين المماليك والعثمانيين معركة من نوع آخر وهي أن السلطان العثماني اتصل بمسؤولين في الحملة المماليكية أو اتصلوا به، منهم خاير بك والي حلب من قبل الغوري، ورأس الخيالة في ميمنة الصفوف(١)، وبجان بردى الغزالي من كبار المماليك. ولم يكن الغوري دون علم بخيانة هؤلاء ولكنه(٢) لم يقدر الموقف حق

(١) تاريخ لبنان العسكري، ص ١٣٩.
(٢) دائرة معارف القرن العشرين، ج ٩ ص ١٢٤.

قدره، فدفع رأسه ثمناً. وقد دلت الأحداث أن الجيش المماليكي كان قوياً وأنه كبد العثمانيين من الخسائر أكثر مما تكبده في هذه المعركة التي حسمتها الخيانة لصالح العثمانيين، والتي قصمت ظهر المماليك إلى الأبد.

لما احتدم القتال وهدرت المدافع العثمانية لوى خاير بك عنان جواده وانسحب من المعركة بمن معه، فاختل النظام في صفوف المماليك وتضعضعوا، فأخذ السلطان الغوري ينادي ويدعو للثبات وللالتفاف حول السنجق، ولكن أحداً لم يستجب له، وكانت يد القدر أطول من يده، فسقط مشلولاً عن ظهر جواده، ومات تحت نعال الخيل، وقيل أنه طعن نفسه بمدية طعنة أودت بحياته، وانهزم المماليك.

أكمل العثمانيون احتلال البلاد السورية ووصل السلطان سليم إلى دمشق بتاريخ ٩ تشرين الأول، وفي ١٢ منه، وصلت الوفود للتهنئة وكلف الأمراء الوطنيون الأمير فخرالدين عثمان المغني التكلم باسمهم، فلاقت كلمته استحساناً وارتياحاً لدى السلطان، فثبته في ولايته ومنحه لقب سلطان البر، وتتبع العثمانيون آثار المماليك إلى مصر واحتلوا القاهرة بتاريخ ٢٢ كانون الثاني من سنة ١٥١٧م بعد أن هزموا المماليك المجتمعين بقيادة طومان باي ابن شقيق السلطان الغوري(١)، ثم ألقي القبض على طومان باي وصلب على باب زويلة، وانتهت دولة المماليك.

كانت معركة مرج دابق من المعارك الهامة في التاريخ، كما كانت ذات تأثير كبير على مستقبل البلاد العربية إجمالاً، لقد دخلت تحت حكم سيد جديد لا تزال إلى اليوم تعاني من مساوىء حكمه، لأن العهد التركي كان أسوأ العهود وأكثرها ظلاماً «وكان ولاتهم يتسابقون بالمجيء إلى بلادنا لأنهم يرون فيها البقرة الحلوب(٢) وكان الاغتصاب والاختلاس عملاً تفرضه الضرورة لتغطية نفقات الموظفين وتسديد حساباتهم، وقد تعاقب على ولاية الشام ٣٣ والياً خلال ماية

(١) دائرة معارف القرن العشرين، ج ٩ ص ١٢٥.
(٢) النكبات، لأمين الريحاني.

عام». وكتب قنصل بندقي[1] إلى أميره يقول: «كان منصب الوالي يكلف من ٨٠ ألف إلى ١٠٠ ألف دوكاً، أي من ٤٠ إلى ٥٠ ألف ليرة ذهبية، ومنصب الدفتردار كان يكلف من ٤٠ إلى ٥٠ ألف دوكاً، أي من ٢٠ إلى ٢٥ ألف ليرة ذهبية».

ومن عودة إلى القول أن السلطان سليم توفي في العام ١٥٢٠م وخلفه في الحكم ابنه السلطان سليمان القانوني، وخطر للغزالي الذي سبق وخان سيده الغوري في مرج دابق أن يعصى على العثمانيين ويعلن نفسه ملكاً، فأرسل إليه السلطان الجديد حملة بقيادة فرهارد باشا لتأديبه وجرت بين الوالي المتمرد والجيش العثماني معركة كبيرة في محلة القابون قرب دمشق، انتصر فيها العثمانيون وقتلوا الغزالي بتاريخ ٢٧ كانون الثاني سنة ١٥٢١م، ولاقت البلاد الأمرّين من ظلم الانكشارية الظافرين وكان العثمانيون قد أجبروا الخليفة العباسي بالتنازل لهم عن الخلافة الدينية الإسلامية ففعل بحكم الظروف، واستمرت الخلافة معهم ـ طبقاً لوجهة نظرهم ـ حتى العام ١٩٢٤ يوم ألغاها الغازي مصطفى كمال وخلع السلطان عبدالمجيد الثاني آخر سلطان عثماني.

امارة بني معن في لبنان:

تربت الامارة المعنية في مهد تنوخي وبرعاية التنوخيين، ثم ورثت مجدهم فيها بعد، وكان لتاريخ هذه الامارة ـ خاصة في عهد الأمير فخرالدين المعني الثاني ـ دور هام في تاريخ العرب يتساوى مع دور الامارة الحمدانية في حلب، وينظر إلى عهد الأمير فخرالدين المساوي لعهد الأمير سيف الدولة وكأنه العهد المعني كله، أو كأن الامارة المعنية نشأت بنشوئه وزالت بزواله. والحقيقة هي أن المعنيين أنجبوا رجالاً كباراً قبل فخرالدين وبعده، ولكن الناحية الهامة والبارزة في حياة هذا الأمير البطل: هو أن عهده كان الأساس الذي قامت عليه الوطنية اللبنانية، وكان ولادة عهد جديد من التعاون بين مسيحيي الجبل ودروزه،

(١) صيدا عبر حقب التاريخ، ص١٩٣.

لذلك نعتبره مؤسس وحدتنا الوطنية ومنشىء استقلالنا، ولولا أن اصطدم طموح فخرالدين بقلعة العتوّ العثماني الشرس، لتغير تاريخ الشرق كله.

كان العثمانيون يحسبون يومذاك من أقوى دول الأرض، كانوا خلفاء مسلمون يعتمرون التاج البيزنطي، بالإضافة لهذا كله، كانوا يسيطرون على معظم بلاد حوض البحر المتوسط.

كان التنوخيون موالون لدولة المماليك، بينما كان المعنيون موالون لدولة بني عثمان. وبعد معركة مرج دابق وانتصار العثمانيين فيها، أخذت كل جهة مكانها الطبيعي، فتألق نجم المعنيين. ولكن الحال تغير كثيراً بالنسبة للمواطنين، لأن الساحة اللبنانية التي كانت هادئة تقريباً أيام التنوخيين، تأججت في العهد المعني ودفع الدروز خاصة، واللبنانيون عامة، ثمن كل خطوة معنية نحو المجد.

كانت شكوك العثمانيين تتزايد حول هذا الأمير اللبناني الذي امتلك من حلب شمالاً إلى القدس جنوباً، ومن تدمر شرقاً حتى البحر الأبيض المتوسط غرباً. وكان فخرالدين محظوظاً جداً لأن الأتراك كانوا يعانون من مشاكلهم الأوروبية والإيرانية المجاورة، وإلا لما كان تمكن أن يعيش عهده ما عاشه.

لم يكن في تصرف الأمير فخرالدين ما يشير إلى أنه عمل ضد السلطان مباشرة، كما لم يتأخر بدفع المترتب عليه للخزينة السلطانية. وقالت والدته ـ الست نسب ـ للكجك أحمد باشا: «ليس بذمتنا قرش واحد لخزينة السلطان»، وهذا ما كان يعرفه الكجك جيداً. ولكن الذي أغاض العثمانيين وولاتهم من فخرالدين هي: تطلعاته الاستقلالية، وقوته العسكرية النامية، والمعاهدات التي عقدها مع أمراء توسكانا، ثم إعجابه الذي كان يبديه بالبلاد الأوروبية التي كانت على أبواب نهضة شاملة وفي جميع الميادين. وكان فخرالدين يحلم بأن يجعل من امارته اللبنانية مثالاً صحيحاً مقتبساً لما شاهده بأم عينه في أوروبا من حضارة ورقي، في الوقت الذي كان فيه المجتمع العثماني غارقاً في غياهب الجهل.

كان وادي التيم موال دائمًا للامارة المعنية، إن من جهة حكامه الشهابيين ـ أنسباء المعنيين وحلفائهم القدامى، أو من الجماعات التيمية التي كانت ترى في إمارة بني شهاب في وادي التيم امتداداً لامارة بني معن القائمة يومذاك في جبل الدروز ـ جبل بني معن ـ وباعتقادي أن ذلك كان من أهم عوامل التفاهم الذي كان قائمًا بين أمراء وادي التيم وسكانه، وتحمل التيميون عامة، والشهابيون خاصة، قسوة الحكم العثماني بكل رحابة صدر في سبيل المعنيين وبسببهم، دون أن يتحولوا عن هذا الولاء تحولاً يذكر.

قصة سلب الخزنة السلطانية
في جون عكار واتهام الدروز بها
ومسلسل الظلم العثماني الذي أعقبها:

يقال أن معظم الذين كتبوا بموضوع سلب أموال الخزينة في جون عكار استقوا معلوماتهم من مخطوطة الشيخ شيبان الخازن التي لا تزال موجودة حتى اليوم في خزانة كتب سيدة بكركي.

ولنتذكر الآن أن الأمير فخرالدين المعني الأول الذي منحه السلطان سليم العثماني لقب (سلطان البر) في شهر تشرين الأول من سنة ١٥١٦م، عاد العثمانيون وأعدموه سنة ١٥٤٤م بواسطة مصطفى باشا والي الشام، بتهمة الخروج على طاعة الدولة العلية.. وكان للأمير فخرالدين ولدان: هما قرقماز ومنذر، توفي منذر وهو صغير ـ ماريتي ـ وتسلم قرقماز الامارة بعد والده، وكان كفؤاً لمنصبه، جديراً به.

تزوج هذا الأمير من أميرة تنوخية هي الست نسب ـ والأرجح نسيبة[1] ـ شقيقة الأميرين منذر وسيف الدين التنوخي، وفي إشارة لماريتي ما يدل على أنه كان للست نسب شقيقة متزوجة من الأمير شرف الدين القاضي التنوخي.

(١) فخرالدين أمير الدروز الكبير، ص ٤٢، ماريتي.

ولد للأمير قرقماز من الست نسب[1] صبيّان: فخرالدين سنة ٩٨٠هـ = ١٥٧٢م وسمي على اسم جده لأبيه، ويونس في أواخر العام ١٥٨٥م. وحدث أنه في هذا العام ـ أو في العام ١٥٨٤م عن الدويهي ـ بينما كانت قافلة متوجهة إلى الآستانة تنقل خراج البلاد المصرية إلى خزينة السلطان، وأثناء مرورها في جون عكار، تصدى لها اللصوص وسلبوها ـ قيل أنهم من آل فريخ، فاتهم العثمانيون الدروز بهذا العمل، بالرغم من أن المحلة التي جرى فيها السلب كانت تابعة لآل سيفا الأكراد، لا لآل معن الدروز. وأوعز السلطان مراد الثالث لصهره إبراهيم باشا والي مصر، بالتجييش والاقتصاص من الدروز، فجهز هذا الأخير حملة عسكرية قوامها عشرون ألفاً من المرتزقة، جاء بهم من مصر والشام وحلب وقبرص ـ ماريتي ـ واتجه بهم نحو بلاد الدروز، وعند وصولهم إلى القدس لاقاهم أمراء بني الحرفوش وبني فريخ الذين كانوا على عداء مع الأمراء المعنيين، لاقوهم بستة آلاف مقاتل وقدموا لإبراهيم باشا الهدايا الثمينة[2]. كان اتهام الدروز بهذا العمل باطلاً، كما هو واضح، وبدلاً من أن يعمد الوالي العثماني إلى التحقيق لتنجلي له الحقيقة ويعرف المسؤولين الحقيقيين عن هذا العمل، عمد إلى الإدانة الفورية الطائشة وصب جام غضبه على الدروز.

من هو إبراهيم باشا هذا؟؟

هو واحد من اثنين ومن ولاة مصر بالذات بهذا الاسم، ابتلي بهما الدروز.. أما الثاني فهو إبراهيم بن محمد علي باشا المشهور في حروب اللجا، وسيأتي ذكره فيما بعد.

كان إبراهيم باشا صهر السلطان مراد الثالث ووزيره وكان ضابط الانكشارية في الآستانة، ثم ولي مصر، وفيها أمر بهدم الأهرامات اعتقاداً منه

(١) الاسم الصحيح هو نسيبة، حيث لا يزال هذا الاسم دارجاً بين الأسر الدرزية خاصة، واللبنانية عامة. أما الاسم نسب، فقد أنكره بعض المؤرخين.

(٢) ماريتي، ص ٣٢.

بأنها تتضمن كنوزاً.. ثم عاد ورضخ للنصيحة وأقلع عن فكرته وسلمت الأهرام[1]، وشارك هذا القائد في حروب الدولة في المجر والنمسا وانتصر في بعض المعارك، ثم توفي في بلغراد حوالي العام ١٦٠١م.

يقول ماريتي إن إبراهيم باشا لما جاء. نزل فيما بين صيدا وبيروت وفي دائرة المعارف للبستاني ما يشير إلى أنه «نزل في مرج عرجموش قرب زحلة وقطع طريق البحر والبقاع عن الدروز»[2]، طلب الباشا من الأمير قرقماز التسليم له، فامتنع الأمير قرقماز عن التسليم لأنه كان قد ورث تجربة كبيرة عن عدالة العثمانيين..، أما باقي الأمراء منهم الأمير محمد عساف من غزير والأمير محمد ابن جمال الدين من عرمون والأمير منذر التنوخي من عبيه ـ ربما كان هو ذاته شقيق الست نسب ـ فقد سلموا لأمر الباشا ويقول ماريتي إن إبراهيم باشا سعى لذلك بواسطة من معه من الأمراء الحرافشة وبني فريخ الذين في حملته، ثم استدعى إليه الأمير شرف الدين القاضي التنوخي المفترض أن يكون عديل الأمير قرقماز فجاء إليه وقدم له الهدايا كما قدم ١٥٠ من رجاله ليكونوا في حملة الباشا، فقبل الباشا ذلك كله وأثناء الزيارة قدمت للأمير التنوخي القهوة والحلوى، ثم قدمت له العطور دليلاً على انتهاء الزيارة ولما خرج ألقي القبض عليه وأودع السجن[3].

هل حصل صِدام بين الدروز وإبراهيم باشا يومذاك؟

المصدر الوحيد لهذا الصدام هو ماريتي الذي يقول: «أما ابن معن فلم يتحرك من مواقعه المتفوقة وهاجم مؤخرة الجيش العثماني ومزقها» وفي أقوال المؤرخين العرب ما يشير إلى أن إبراهيم باشا لم يأخذ وضعية الهجوم ويصعد إلى

(١) عن البستاني من دائرة المعارف.
(٢) في كتابه تاريخ الأمير فخر الدين الثاني، يقول عيسى اسكندر المعلوف أن مرج عرجموش هذا موقعه بين قب الياس وكرك نوح، أي بلدة الكرك القريبة من زحلة، ص ٤٦.
(٣) فخر الدين أمير الدروز، ص ٣٤ ماريتي.

عين صوفر. إلا بعد أن أخذ الأمير قرقماز وضعية الدفاع ولجأ إلى مغارة في شقيف تيرون القريب من جزين ويبدو أن الأمراء اللبنانيين لم يوافقوا الأمير قرقماز على الحرب، عند ذلك صعد الباشا إلى صوفر واستدعى إليه شيوخ الدروز فلبّى كثيرون منهم الدعوة معتمدين في ذلك على براءتهم من المنسوب إليهم، فعمد الباشا إلى البطش بالوافدين إليه وقتل منهم مقتلة عظيمة، قال حتى إنه قتل من عقال الدروز ووجهائهم ستماية نفر، وغيره قالوا خمسماية وماريتي قال ٣٥٠، ثم سلخ جلد مقدم دير القمر الدرزي وهو حيّاً، وقام بنهب القرى الدرزية ثم ساق حملته إلى حيث يختبىء الأمير قرقماز. ولما كانت المغارة حصينة جداً ويصعب امتلاكها أمر بأن يوقد الحطب الأخضر على منافذها بقصد إماتة من فيها اختناقاً بالدخان يقول ماريتي إن الأمير قرقماز لم يمت يومذاك بل مات مسموماً فيما بعد من أحد خدمه.

ماذا حدث بعدئذ لأسرة الأمير قرقماز؟

يقول المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف[1]: اضطرب المؤرخون في تربية الأمير عند بيت الخازن فمنهم من لم يذكرها مثل البطرك الدويهي ومن نقل عنه ومنهم من أثبتها مثل الأمير حيدر والشدياق، وفي تاريخ الشيخ شيبان الخازن المخطوط في دير سيدة بكركي يقول ما نصّه بالحرف:

> «إنه حين وفاة والدهم ـ أي فخرالدين ويونس ـ خافت عليهم والدتهم من خوالهم يعدموهم! وكان في الباب رجل من بيت بوهرموش فهذا وقعت به والدتهم على إخفاء الأولاد وأما هو لم كان يركن إلا في رجل يقال له أبو مصلح من عاليه الذي هو هارب من الأمراء بيت علم الدين فخدم بيت معن فسلمه الأولاد وخرجيّة وأمّنه بأن لا يوضعهم بموضع إلا من عكار وشمال فتوثّق الشيخ بوهرموش من المذكور ومشى بهما ليلاً فما استصبح إلا في انطلياس إلى عند صاحبه الخصوصي إبراهيم ابن الشدياق سركيس كبير اخوته وأنضجهم، فأخبره بعدما حلفه فيما توقع وبما أنه كان مجدّ حوادث نحو عكار لم يعرف بهم

(١) تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، ص ٥٠ و٥١.

الشيخ أبو هرموش وضعهما عند إبراهيم ورجع بيومه إلى بيته إلى الشوف أخبر الشيخ أبو هرموش أنو سلمهم لرجل صديق يقفي بهم عكار أوفق من أن يبقى معهما يعرفوه وينعرف من الغيبة. وبعد رجوع أبو مصلح إبراهيم نقل أولاً إلى برج الدرج الذي هو دير ماريوسف الآن (ماريوسف بحرصاف) إذ لم يكن له جوار ولا عليه مجال ومنه انتقل إلى بلونة بأرض عجلتون. بعد الست سنوات كان بلغ عمر الأمير فخرالدين ١٢ سنة (والمشهور أنه ١٨ سنة) وهو نبيل فما عاد (تهدأ) مع إبراهيم وعيلته، فتوجه منهم إثنان بنوع لاوند على أن قصدهم الخدمة بجبل بيت معن «والمقصود هنا بالقول: إن إثنين من بين الخازن ذهبا بزي اللاوند أي العسكر غير النظامي وقصدوا الشوف في الظاهر لغرض الخدمة وفي الحقيقة ليتعرفوا على أهل الأولاد» لأن أبو مصلح الذي جاب الأمراء كان مات بغتة من غير ما علم غيرو في موضعهم، ولا زالوا كذلك «أي الاثنان الخازنيان» إلى أن داروا جملة قرى من الغرب والمتن والجرد والشوف إلى أن وصلوا إلى السمقانية إلى عند بوهرموش الذي كان أخبرهم أبو مصلح عنه ولما أفهموه أنهم غرب (غرباء) من صوب ديرة طرابلس الشمالية فتنفس الصعداء وأخذ يتأوه على بيت معن بزايد (بزيادة) عما كانوا شاهدوه من أغلب الديرة لأن في حكومة سيف الدين جار على القيسية حتى أنه حرمهم قولة (الهوبر) في آخر الرويد بعدما كانوا يستعملوها اليمنية بقولة (يا لمعروف). انتهى.

المقصود هنا هو الأمير سيف الدين التنوخي على الأرجح والمعروف أن التنوخيين هم قيسيون أيضاً كما أن بيت علم الدين هم كذلك قيسيون ولكن المصلحة هي التي على ما يبدو كانت تقرر الحزبية والاتجاه السياسي وليس العكس. فأصبح آل علم الدين يمنيين بالمصلحة.

ويكمل الشيخ شيبان الخازن قولاً «يلخصه لنا المعلوف بما يلي:

«أن أبا هرموش أخذ يفحصهم إذا كانوا سمعوا عن أحد في أرض عكار فأجابوه أنهم سمعوا وما صدّقوا ووعدوه إنهم سيجلبون المعنيين من عكار وهكذا فعلوا وكان أبو هرموش تحقق أن ثلث اليمنيين يتمنون رجوع الحكم للمعنيين فوق تمني القيسيين فعاد الخازنيان بالمعنيين إلى السمقانية فبوصولهم إلى داره

وهو في السوق نمي إليه الخبر فجمع من حوله واحتفلوا بالمعني وقام الرويد وفي آخره «يا لهوبر وعين المير فخر الدين» فاجتمع إليه نحو ١٥٠ رجلاً من الشوف فحملوا الأمير إلى بعقلين وبايعوه الحكم».

وفي أقوال أخرى إن الشيخ أبا نادر الخازن سلم الأولاد إلى خالهما الأمير سيف الدين التنوخي بعد أن زالت الغمة وهدأت الأوضاع وأن الأمير سيف الدين سلّم أكبرهما فخر الدين إمارة الشوف، ومن عودة إلى القول إن إبراهيم باشا استمر في مخيّمه مدة ٢٤ يوماً ـ والقول لماريتي ـ غادر بعدها البلاد إلى الآستانة مصطحباً معه أسراه فمن قائل إنه أبحر من طرابلس ولكن ماريتي يقول إنه أبحر من بيروت مصطحباً معه مسلوباته من أموال الدروز وغنائم لا تحصى من الحرير والأقمشة فكانت حمولة عشرين سفينة تركية.

في الآستانة ظهرت للسلطان براءة الأمراء اللبنانيين فأعادهم إلى بلادهم معززين وثبتهم في إقطاعاتهم. وبعد هذه النكبة التي ألمت بالأمير قرقماز ووفاته سنة ١٥٨٦م (ماريتي) سيطر على البلاد الأمراء آل الحرفوش وآل فريخ وهم من عرب البقاع الأقوياء وغيرهم من أعداء المعنيين.

وظلوا في تسلطهم على البلاد حتى استعادها منهم الأمير فخر الدين ابن قرقماز.

الأميرة الكبيرة نسب التنوخية:

لم تحظ إمرأة في تاريخنا القديم والحديث بالاهتمام والاحترام اللذين حظيت بهما الست نسب والدة الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير، لقد تلقت النكبة التي حلت بأسرتها وعشيرتها بصبر وتعاملت معها بحكمة ودراية فخففت من حدتها وكانت أول مساهم في قيام عهد هو أروع عهود الإمارة المعنية وأكثرها إشراقاً. قبيل المحنة. أرسلت ولديها فخر الدين ويونس إلى مخبأ أمين من (غدر الأتراك)، ولما انجلت الغمّة عن سماء لبنان تسلّم أكبرهما وهو الأمير فخر الدين إمارة الشوف على النحو الذي أوردناه آنفاً.

عن هذه الأميرة التنوخية يقول ماريتي بما معناه: كانت ذات مهارة فريدة، وكانت من أجمل نساء الدولة بارعة في نصائحها صريحة وشجاعة متضلعة في اللغة العربية التي كانت تكتبها بمهارة، وكانت شاعرة. ولدى الدروز أغانٍ لطيفة من نظمها، وقد دونت لها أمثال وحكم[1] وكان ذهنها المتفتح يبينّ لها عواقب الأمور، ولو سمع زوجها منها. لما ذهب ضحية خيانة خادمه المرتشي الذي دسّ السمّ لسيده، كانت تشكك في إخلاص هذا الخادم دائمًا. وأثناء وجود ولديها في مخبأهما كانت تذهب لتزور أسرة شيبان لترى أولادها دون أن تدعهما يعرفانها وكانت تبكي لدى مشاهداتها، ولكنها كانت تتحامل على نفسها وتخفي شعورها[2]، كي لا تتسبب بهلاكهما، وكانت الضرورة تقضي كتمان الأمر، ولما عاد الهدوء إلى البلاد، وأخذت الأمور تجري في مجراها الطبيعي. ابتدأت هذه الأميرة المشهورة بذكائها وحدّة عفتها على حد قول ماريتي. تهيء الأنصار والمؤيدين لإبنها الأمير العتيد، فأخذت تسرّب الأخبار أن أسرة معن لم تنقرض وسرت الشائعة ووجدت من يصدقها، ولاقى ذلك استحساناً عند الجميع حتى عند أعدائهم اليمنيين[3] وكانت قلوب الدروز تحن لهذه العائلة[4].

أما فخر الدين ويونس فقد كان هناك فارق في السن بين الإثنين يبلغ حوالي العشر سنوات تقريباً. يقول ماريتي إن يونس تربى تربية قاسية فنشأ صعب المراس محباً للسلاح ولركوب الخيل وقد حاولت أمه تهذيب طباعه فلم تفلح كثيراً[5] أما عن نشأة فخر الدين فيقول إنه تربى بين النساء حتى

---

(١) ماريتي: فخر الدين أمير الدروز الكبير، ص ٤٧ ـ ٤٨.

(٢) نفس المصدر، ص ٤٨.

ملاحظة: يشير ماريتي إلى الأمير فخر الدين فقط وأن والدته كانت تذهب وتزور أسرة شيبان لتراه.

(٣) ماريتي، ص ٥١.

(٤) نفس المصدر.

(٥) ماريتي، ص ٥٥.

الخامسة من عمره وفي سن السادسة[1] حدث تغيير كبير في نظام حياته حيث ابتدأ يتعلم القراءة والكتابة وفي الخامسة عشر من عمره عندما برز للملأ قدّم له الشعب التمنيات بمظاهر الفرح والابتهاج وذلك في حدود العام ١٥٩٨ والمقول إن خاله سلّمه الإمارة في العام ١٥٩٠م، وكان لقبه دائمًا أمير الدروز الكبير[2].

بعد موت الأمير قرقماز فقد المعنيون وحلفاؤهم نفوذهم الكبير وسيطر أعداؤهم مثل بني الحرفوش وبني فريخ وغيرهم، وكان هذا الخلل أول أمر عالجه الأمير فخر الدين الشاب عند تسلمه الإمارة.

الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير:

كثيرون هم المؤرخون الوطنيون والأجانب الذين أرخوا حياة هذا الأمير الكبير أو تناولوا أخباره فيما كتبوه، وأبرز هؤلاء كلهم:

الشيخ أحمد الخالدي الصفدي في كتابه ريح الأمير فخر الدين المعني» والشيخ أحمد من الذين عاصروا الأمير وعرفوه عن كثب بالإضافة لذلك كان الشيخ الصفدي من بطانة الأمير، فكان لما كتبه في هذا الصدد قيمة تاريخية كبرى. ثم الراهب الإيطالي جيوفاني ماريتي في كتابه (فخر الدين أمير الدروز الكبير) وماريتي هذا زار بلادنا مرتين: الأولى في عام ١٧٦١م والثانية في صيف سنة ١٧٦٧م. ثم المحبيّ في كتابه خلاصة الأثر ثم الأب بولس قرأ لي في كتابه (فخر الدين ودولة توسكانا) ثم وستنفيلد المستشرق الألماني في كتابه (فخر الدين أمير الدروز) ثم المؤرخ العلامة عيسى اسكندر المعلوف في كتابه (تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني)، ومن الرواد مثل سانديز وموندريل وغيرهم، وقد كثرت في الآونة الأخيرة الكتابة عن هذا الأمير الكبير الذي يعتبره اللبنانيون

---

(١) ماريتي، ص ٤٨.

(٢) ماريتي، ص ١٦٠.

مؤسسة دولتهم ورائد وحدتهم. ونكتفي بما نكتبه الآن عنه بلمحة عامة عن حياته. وكنا قد أشرنا إلى التعاطف الذي كان قائمًا بين أهل وادي التيم وبين المعنيين أمراء الشوف، وقد عاش وادي التيم زمناً طويلاً وهو يقف تحت مظلة معنية.

ولد الأمير فخر الدين المعني في بلدة بعقلين ـ الشوف في السادس من آب سنة ١٥٧٢م ولما قرعت النكبة العثمانية أبواب الدروز بيد إبراهيم باشا والي مصر بسبب قضية سلب الخزنة في جون عكار المار ذكرها، كان عمر الأمير فخر الدين يومذاك ١٢ سنة وما من شك في أنه استوعب تلك الأحداث المشؤومة ونشأ وهو متأثر بها وفي نفس الوقت كان يحمل في صدره الكثير من التطلعات والأماني التي جسّدها في شبابه. فكان مجلياً في كل ما عمله وما نذر نفسه له.

في العام ١٥٩٠م تسلّم مقاليد إمارة الشوف، كان عمره يومذاك ١٨ سنة وباشر أعماله الكبيرة في سنّ مبكرة، ويقول ماريتي إن الأمير فخر الدين انتزع بيروت من الأمير يوسف عساف وقتل شقيقه الذي كان يدافع عنها في العام ١٦٠٣م، ومن خلال تتبّع مراحل حياته نرى أن الأمير فخر الدين أكدّ على الأمور الثلاث التالية واعتمدها قاعدة له في عمله بإصرار رجل الدولة القدير فكانت من أسباب نجاحه وما ناله من مجد، وهي:

١ ـ الإدارة السليمة الحازمة.
٢ ـ القوة العسكرية الضاربة.
٣ ـ الخزينة العامرة.

□ الإدارة السليمة الحازمة:

يقول ماريتي: إن الأمير فخر الدين كان ينظر لمعاونيه من زاوية ما يعملانه. لا من زاوية ما يعبدانه. تصوركم في هذا القول من واقعية وفهم. ويقول كارلو ما شينجي رئيس البعثة التي أوفدَها دوق توسكانا إلى بلاد الأمير فخر الدين: «إن فخر الدين ما كان يترك للقدر شيئاً ليتصرف به. بل كان هو

يخطط ويدبر»(١) وقال بيجيه الفرنسي أنه كان لدى الأمير فخر الدين سجلّان: الأول لتدوين الأشخاص الذين في ولايته. والثاني لقيد الأشجار المثمرة وأنه كان يحصي الأغنام والأبقار والماعز ويأخذ ضريبة عنها، وكثيراً ما كان يترك الأمور السياسية ليتفرغ لمراجعة هذه القيود وضبطها. وكان يسرّه أن يرى بلاده عامرة بالسكان أكثر من كل مدن الشرق وأن شعبه في يسر وسعة عيش والسلام يعم بلاده.

□ القوة العسكرية الضاربة:

بعد موت الأمير قرقماز المعني، خلت الساحة للأمراء المحليين المناوئين لبني معن، مثل بني الحرفوش وبني فريخ وبني عساف وغيرهم، واستمر هذا الوضع حتى تولى الأمير فخرالدين الامارة، فكانت أولى أعماله تحطيم هذا الطوق العدائي الذي يحيط بامارته، وتفرغ بعدها للأمور الأكثر أهمية، وقد وفق بخضد شوكة هؤلاء الأعداء وإذلالهم، واتسعت حدود امارته وتقوت قدراته، وأنشأ قوة حربية تتناسب مع أهدافه الكبيرة وتطلعاته البعيدة، فكان جيشه أقوى جيش في الشرق العربي بعد جيش السلطان العثماني، واستمر يعمل بدأب وجهد متواصلين حتى تمكن من أن يوسع حدود ممتلكاته لتشمل فيما بين القدس وحلب، وبالإضافة لذلك استولى على معظم القلاع والحصون الواقعة في هذا المدى الحيوي الهام، فرممها وحصنها وشحنها بالمقاتلة، فكانت له بمثابة نقاط ارتكاز هامة مكنته من السيطرة على ما حولها من بلاد.

«وقد أحصى الأب بولس قرألي، خمسة وأربعين قلعة وحصناً منها» ولكن الخالدي الصفدي زاد هذا العدد، وكانت مقدرة الأمير فخرالدين موضع اهتمام الناس في الشرق والغرب على السواء. قال دوسيهيس الفرنسي: »«أن الأمير فخرالدين(٢) كان يستطيع أن يجند عشرة آلاف مقاتل في عشرة أيام بخلاف السكمان الذين كانوا يحرسون تخوم بلاده»، وقال بيجيه، وهو فرنسي أيضاً:

(١) عن تاريخ الأمير فخر الدين الثاني المعني الكبير، المعلوف.
(٢) المعلوف أيضاً.

«كان عدد جيش الأمير فخرالدين ٢٥ ألفاً». وفي رسالة بعث بها المسيو دي سيزي سفير فرنسا في الآستانة إلى ملك فرنسا لويس الحادي عشر سنة ١٦٢٤ يقول فيها: «أن الأمير فخرالدين يستطيع أن يجند ٣٠ ألف مقاتل إذا شاء»، وقال سانديز الإنكليزي، المؤرخ الذي زار بلادنا في العام ١٦١٠: أنه، أي الأمير فخر الدين، لا يغتر البتة بجيوشه القوية الكاملة العَدد والعُدد والمجهزة كل التجهيز لليوم العصيب، وأن جيشه مؤلف من أربعين ألف مقاتل من الجنود المدربة يدفع لهم رواتبهم في حينها، وبينهم مغاربة ومسيحيون.

وقد تميز جيش الأمير فخرالدين بتماسكه وتآلف عناصره ووحدتهم من وطنيين وأجانب، وقد أذهل هذا الجيش الأتراك بمقاومته وبصلابة المدافعين من عناصره عن القلاع والحصون يوم سافر الأمير إلى أوروبا، وقد عجز أحمد باشا الحافظ القائد العثماني من أن ينال من هذا الجيش أو من القلاع التي يدافع عنها. ولعل أبرز معارك المعني على الإطلاق كانت معركة عنجر التي خاضها ضد الوالي العثماني مصطفى باشا والي الشام، ومن معه من الأمراء اللبنانيين الناقمين على بني معن مثل آل الحرفوش، وقد جرت هذه المعركة في العام ١٦٢٣م وأسفرت عن انهزام الوالي العثماني وتشتيت جيشه ووقوعه أسيراً بيد الأمير فخرالدين الذي أحسن معاملته.

□ **الخزينة العامرة:**

حرص الأمير فخرالدين على تنمية موارده المالية وتعدد مصادرها، فكانت له خزينة عامرة قادرة في كل الظروف على تلبية المتطلبات الكثيرة التي كانت تواجهه، وقد مكنته أمواله من أن يتخطى عقبات كثيرة، وهيأت له الأعوان والأنصار في البلاط العثماني نفسه، ولا يخفى أن الرشوة ازدهرت تماماً في عهد بني عثمان وكانت إحدى مقومات عهدهم السيىء.

يقول ماريتي أن ثروة الأمير كانت تقدر بعشرة ملايين قرش، وأنه كان يتقاضى سنوياً عن كل ماية شجرة زيتون ٣٠ قرشاً شرقياً، وعن كل ماية شجرة توت ستة قروش، وقال أنه كان يأخذ ثلث الحصة من القطن والحبوب

والخضار، وآخرون قالوا: الخمس[١]. وفيما نراه أنه كان يأخذ الثلث من الذين يعملون في أرضه خاصة، وتلك عادة لا يزال يعمل بها في بلادنا حتى أيامنا الحاضرة، ويقول ماريتي[٢]: أن الأمير فخرالدين كان يزرع لحسابه الخاص الكثير من أشجار التوت لتربية دود القز. أما الخمس فيعتقد أنه كان يتقاضاه عن الأملاك العامة كضريبة أميرية. وكان يأخذ عن كل فدان للفلاحة تسع ريالات[٢]، وعن كل سفينة كانت ترسو في موانىء بلاده خمسين قرشاً عن العام الواحد، كما كان يتقاضى مبالغ عن البضائع التي كانت تمر من البحر إلى الشام وبالعكس ـ ترانزيت ـ ويقول بيجيه: أن الأمير كان يستثمر من أمواله حوالي مليوني ايكوس، كان يدفع منها للسلطان العثماني ستين ألف فقط، وينفق الباقي على جنوده البالغ عددهم ٢٥ ألفاً، وكان دخل مدينة صيدا في زمانه مائتي ألف ايكوس في كل عام. وقال سانديز الإنكليزي: أن الأمير فخرالدين كان يعامل التجار الأوروبيين معاملة حسنة وكان يأخذ منهم مكوساً على بضائعهم ـ ضريبة تبلغ ٣٪ ـ، وكان يعطي التسهيلات لتجار البندقية رعايا حلفائه ـ آل مدسيس ـ ويعاملهم معاملة خاصة، وقد اقتنى مركبين حربيين حولهما لنقل البضائع واستخدم فيهما خمسين بندقياً ـ فينيسياً[٤].

يفهم من هذا، أن الأمير كان يطرق جميع الأبواب التي تساعد على تنمية موارده المالية، وقد اتهمه ماريتي بالجشع والطمع وقال أنه كان يتقاضى مبالغ لا بأس بها كحصة عن جلود المواشي التي كانت تذبح أو تنفق في بلاده.

أجمع واصفو الأمير فخرالدين أنه كان معتدل القامة يميل إلى القصر، حنطي اللون إلى شيء من السمرة، شعره أسود وكثيف، وعيناه سوداوتان ذات نظرات نافذة، أما لحيته فلم يحلقها منذ زواجه الأول، وكان قوي البنية سليم الجسم. (ماريتي).

---

(١) تاريخ الأمير فخرالدين المعني الثاني، ع ١؛ المعلوف، ص ٢٣٣.
(٢) ماريتي، ص ١٣٤ و ١٣٥.
(٣) تاريخ الأمير فخرالدين المعلوف، ص ٢٣٢ و ٢٣٣. والايكوس: ثلاث فرنكات.
(٤) نفس المصدر.

«وصفه تشرشل بك الإنكليزي بقوله: كان نشيطاً مقداماً، عاقلاً، ذكياً، حالماً، بذل جهده في سبيل مصلحة بلاده وعامل الناس بالمساواة». (المعلوف).

وقال سانديز الذي زار بلادنا حوالي العام ١٦١٠م، عنه: «كان قصير القامة، شديد البأس، قوي، عمره أربعين سنة، (أروغ من ثعلب)، لم يكن طاغية ولم يقدم على عمل كبير إلا برأي أمه».

وقال عنه الشيخ أحمد الخالدي الصفدي: «ما سمعت منه الكلمة الفاحشة». (الصفدي).

وقال دوسيهيس: «أنه، أي الأمير فخرالدين، أول أمير وأعظم حاكم في الدولة العثمانية كما كان السلطان مراد الرابع أعظم ملك وأقوى سلطان، وكان يكتب إلى المعني: الأمير الشهير والبطل».

وقال بيجيه: «كانت نفسه تنزع إلى درس العلوم واقتباس المعارف، فكان مولعاً بعلم اللاهوت والكيمياء، مهتمًا بالأدوية وكان عنده مصور فرنسي رسم له ١٥٠٠ نوعاً من النبات، وقال أيضاً: أنه كان يستظهر على أعدائه ومناوئيه بحسن فراسته ودقيق تمييزه.

وقال ماريتي: أن الأمير فخر الدين كان مطلعاً على تاريخ الاسكندر الكبير الذي يكن له الدروز احتراماً خاصاً.

وقال عيسى اسكندر المعلوف، المؤرخ العلامة: أن المعني اقتبس من مدنية أوروبا ونقل منها إلى بلاده ما يناسبها، فعمم الزراعة: القطن والأرز والزيتون،وحسن الصناعة خاصة صناعة الصابون، فكانت معامله تنتج القناطير المقنطرة، وذكر أنه أرسل مرة مركبين ملأنين صابوناً إلى الآستانة لمدبره فيها لتسديد أموال متأخرة عليه وعمم صناعة النسيج والحياكة، وتربية المواشي، وصناعة البارود، وزراعة التبغ، ولكنه حرّم التدخين.

(١) عن تاريخ الأمير فخرالدين المعني الثاني، لعيسى اسكندر المعلوف.

كان الأمير فخرالدين يحسن اللغتين التركية والإيطالية، ومن قول: أنه عرب عن الإيطالية رواية ماتيلدا. ويقول الأب روجيه الفرنسيسكاني أن الأمير أطلعه على كتاب ألفه في أصل أسرته المعنية[١].

كان الأمير فخرالدين متزوجاً من أربعة نساء[٢]:

الأولى: **أميرة ارسلانية هي ابنة الأمير جمال الدين الارسلاني وشقيقة** الأمير محمد، وهي أم الأمير علي بن فخر الدين.

الثانية: **ابنة الأمير علي شقيق يوسف باشا سيفا**، وهي والدة ابنه الأمير حسين الوحيد الناجي من سلالة فخرالدين، كما سنرى لاحقاً، ووالدة ابنه حسن أيضاً[٣].

الثالثة: **سرية بيضاء**، والدة ابنه الأمير منصور.

الرابعة: **ابنة الشيخ الظافري وشقيقة الحاج محمد الظافري**، ومن قول للأمير حيدر: أن الظافري هو الشيخ مظفر العنداري القطب اليمني الكبير، كان اسمها خاصكية وكانت على غاية في الجمال، وكانت أحب نسائه إليه، اصطحبها معه إلى توسكانا عندما سافر إليها، وهي أم أولاده حيدر وبلك «وحسن».

وكان للأمير ابنتان: ست النصر، وكانت متزوجة من ابن يوسف باشا سيفا، وفاخرة، كانت متزوجة من أحمد ابن الأمير يونس الحرفوش، والمعروف أنه كان للأمير فخرالدين ابنة ثالثة من زوجته خاصكية توفيت معهم في توسكانا ورفضت والدتها أن تدفنها في أرض غريبة، واصطحبوا جثمانها معهم إلى لبنان.

أما الأمير علي، ابنه البكر، الذي رافقه في أكثر أيام حياته، فقد ولد في

(١) ذات المصدر، ص ٢٤١.
(٢) تاريخ الأمير فخرالدين، المعلوف، ص ٤١.
(٣) أخبار الأعيان، ص ٣٥٠.

بعقلين سنة ١٥٩٨م وترعرع على السياسة والمجد، وعندما بلغ السابعة عشر من عمره ـ أي في العام ١٦١٥م ـ اقترن بابنة الأمير علي منصور الشهابي أمير وادي التيم[1]. عن هذه الأميرة التيمية يقول ماريتي[2]: سنة ١٦١٥م، تزوج الأمير علي الابن البكر للأمير فخرالدين بسيدة (درزية) اخترتها له جدته الست نسب اسمها (سالابي غوبار؟)[3]، وكانت امرأة ضليعة في علم الطب والجغرافية والفلك وكانت تعرف لغات غير اللغة العربية، وفي العام ١٦٢٦م ولد لعلي ابنه البكر قرقماز، وفي العام ١٦٢٨م ولد لعلي ابنه الثاني أحمد، وفي السابع من آذار سنة ١٦٣٢م توفيت زوجة الأمير علي عن ٢٩ سنة من عمرها «وكانت ذات شخصية فذة وقلب رقيق، تشارك البؤساء شعورهم، وتهتم بأمور الفقراء، ولم تترك فرصة تمر دون عمل خير، ولكن الأمير علي كان مولعاً بجياده أكثر من ولعه بتلك السيدة الفاضلة التي حزنت عليها الناس كثيراً، خاصة الست نسب والأمير فخرالدين، وقد أمر الأمير فخرالدين ببناء سبيل المياه في مدينة صيدا عن روحها». (ماريتي).

الأمير فخرالدين يجزىء وادي التيم
بين الأميرين علي وأحمد
أولاد الأمير منصور الشهابي:

مر معنا أن الأمير علي ابن الأمير فخرالدين تزوج من أميرة شهابية من وادي التيم، هي ابنة الأمير علي منصور الشهابي. لم يذكر لنا المؤرخون الوطنيون اسمها ولكنه ليس على أي حال الاسم الذي ذكره ماريتي وهو (سالابي غوبار)، بل تصحيفاً للاسم الصحيح الذي لم نتمكن من معرفته، وكان الأمير أحمد عم الفتاة يريد تزويجها بابنه، إلا أن والدها رفض

(١) ذات المصدر، ص ٢٤٥.
(٢) فخرالدين (ماريتي)، ص ١٧٥، ١٧٦، ٢١٧، ٢١٨.
(٣) ليس هذا الاسم بصحيح على أي حال، ولم نتمكن من معرفة صحيحه.

ذلك وزوجها من الأمير علي بن فخرالدين، فاغتاض الأمير أحمد واتسعت شقة الخلاف بينه وبين شقيقه إلى درجة كبيرة، وجرت بالفعل بينهما معركة في قرية شويا، انتصر فيها الأمير علي على شقيقه الأمير أحمد.

أرسل الأمير علي يخبر الأمير فخرالدين المعني ما جرى وينقل له واقع الحال، فرأى الأمير فخرالدين أن يصلح الحال بين الشقيقين المتنازعين وجاء من بيروت إلى مشغرة لهذا الغرض، ومن هناك أرسل مشايخ الشوف إلى وادي التيم للتوسط وإصلاح الحال، وبالتالي لإيجاد حل، فتم الاتفاق على إعطاء الأمير علي الشهابي «وادي التيم التحتية»: حاصبيا وقراها، وإعطاء شقيقه الأمير أحمد «وادي التيم الفوقية»: راشيا وقراها، وعلى هذا تم الاتفاق.

كانت علاقات الأمير فخرالدين مع شهابيي حاصبيا أحسن مما كانت عليه مع شهابيي راشيا، ولكن حكمة الأمير بمعالجة الأمور وحدت حلفاءه الأقوياء من بني شهاب، وجرت مكاتبات بالصلح والوفاق بينه وبين الأمير أحمد الشهابي. ويقول الخالدي أن الأميرين التقيا على جسر القرعون واتفقا على أن يكون كل منهما عوناً للآخر، وكان الأمير فخرالدين يدرك أنه على أبواب معركة مع العثمانيين، وأنه بحاجة لتوحيد صفوفه والتنسيق مع أصدقائه، وهذا ما أثبتت الأحداث صحته، كما سنرى.

معركة عنجر...
ومشاركة الشهابيين والتيامنة فيها
إلى جانب الأمير فخر الدين:

كانت معركة عنجر من أبرز المعارك التي خاضها الأمير فخر الدين مع ولاة الدولة العثمانية وها نحن نورد ما قاله الشيخ الخالدي الشاهد الثقة حول هذا الموضوع: «...

«... كان الأمير في قب إلياس هو والعشير وبعد وصوله إلى الخيام وصل محمد بلوكباشي العنتابي... وأخبر أن مصطفى باشا الشام وكورد حمزة وجميع عساكر الشام والأمير يونس بن الحرفوش والأمير عمر بن سيفا نقلوا

الأوتاق إلى خان ميسنون، فأرسل الأمير فخر الدين الأمير محمد ابن الأمير علي ابن الشهاب بجميع رجال بلاده إلى قرية حلوا وهي في أطراف بلاد البقاع فجمع الأمير أحمد ابن شهاب رجال بلاده وجاء إلى عند ابن أخيه الأمير محمد لقرية حلوا وسببه أنه حين كان الأمير فخر الدين في مدينة جنين صار بينه وبين الأمير أحمد بن شهاب مكاتبات بالصلح والاتفاق وبأن الماضي لا يعاد «يبدو من خلال هذا القول إنه كان للأمير أحمد مواقف عدائية ضد الأمير فخر الدين»[1] ووعده الأمير بأن يعطيه البقاع لأجل الانتفاع، وأن الأمير فخر الدين لما جاء إلى جسر القرعون جاء إليه الأمير أحمد المذكور واجتمع به في حال الليل واتفق معه أن كلاً منهما يكون عوناً للآخر ثم عاد الأمير أحمد وجمع رجاله وتوجه كما ذكرنا إلى عند ابن أخيه الأمير محمد فرحل باشا الشام وجميع العساكر من خان ميسنون إلى سهل الجديدة فصاروا قريبين رجال الإمارة أولاد الشهاب فأرسلوا إلى الأمير فخر الدين يعلمونه بقرب العسكر منهم وبما صار لهم من المضايقة وإن ما لهم قدرة على الوقوف قبالة العسكر المذكور فأرسل إليهم الأمير فخر الدين أنهم يأتوا إلى عنده لقبّ إلياس ليكونوا كومة واحدة فلا يقدر عليهم أحد من الناس وبعد رواح القاصد إليهم بذلك عاد اعتمد رأي الأمير فخر الدين على أن يرسل للأمير أحمد بن الشهاب وابن أخيه الأمير محمد انهم يجوا برجالهم إلى نبع عنجر ونحن نهار غد نكون بجميع الرجال عندكم فنقلوا من حلوا إلى عنجر ومع وصولهم إلى عند البرج الخراب الذي على التل تجاه نبع عنجر طل عليهم من وادي المجدل أوايل العسكر[2] وكان مثل البحر الزاخر لأنه كان أزيد من إثني عشر ألف نفر تجمع من عسكر الشام عموماً ورجال بيت ابن سيفا ورجال بيت ابن الحرفوش والأمير عباس والأمير حسين بن نجم وسكمانية وعرب وتركمان ولم يتركوا أحداً ممن يقدروا على جمعه. فإمارة أولاد الشهاب ورجالهم مسكوا التل والبرج الذي ذكرناه وأرسلوا يعلموا الأمير فخر الدين بوصول العسكر إلى نبع عنجر ففي الحال ركب الأمير فخر الدين من قب إلياس وقسّم الرجال والناس فجعل طايفة السكمانية الجديدة وطائفة سيف بلوكباشي الذين جاؤوا من عند الأمير مدلج مع رجال بلاد الغرب والمتن كومة واحدة مع ولده الأمير

(١) كتاب تاريخ فخر الدين المعني الثاني، للشيخ الخالدي الصفدي، منشورات الجامعة اللبنانية ١٦، ص ١٤٨ و ١٤٩.

(٢) عن تاريخ الأمير فخر الدين المعني الكبير، وتاريخ لبنان العسكري وما كتبه المحيي في خلاصة الأثر والشدياق.

علي وأهل الشوف مع رجال بلاد الغرب والمتن كومة واحدة مع ولده الأمير علي وأهل الشوف مع أخيه الأمير يونس كومه واحدة والرجال الموجودين مع بني متوال مع مصطفى كتخدا ومشوا من قب إلياس ضحوة النهار أربع الآيات وعدة الجميع أربعة آلاف رجل من أهل الثبات غير رجال أولاد الشهاب وكان مقدارهم ألف رجل وذلك بعد أن فرّق على العشير البارود لكل رجل منهم أوقيتان وأما عساكر الشام لما وصل إلى نبع عنجر علقة الكاينة بينهم وبين رجال أولاد الشهاب فمشى عليهم العسكر أزلام السكمانية والخيل مشية واحدة بطبولهم وزمورهم وبيارقهم وأطلعوهم من قرية المجدل حتى أوصلوهم إلى كعب البرج وضايقوهم وملكت سكمانية ابن سيفا وابن الحرفوش البلد وبقي دخان بارود الكاينة صاعداً إلى جوّ السما وصار مثل الغمام الأسود وقد سدّ الفضا وهم في أحمى الكاينة وقد طلت عليهم الرجال التي جاءت من قب إلياس وكان نهار الأربعاء ثامن عشر محرّم الحرام من السنة[1] المذكورة فعلموا بوصول الأمير فخر الدين فتراخت عزايمهم عن رجال أولاد الشهاب بعد أن كانوا مجدين وقويت شهامة الإمارا أولاد الشهاب ورجالهم فركضوا بالسيوف على سكمانية بين الحرفوش وبيت سيفا وأطلعوهم من قرية مجدل عنجر فتوجهوا إلى عند خيالتهم وصفوا في السهل قبلي نبع عنجر بيارقهم وإيالاتهم وبقيت خيام أوتاقهم وراهم منصوبة ووقفوا لإنتظار عسكر ابن معن فجاءت مشيت الأمير فخر الدين والرجال الذي معه من جانب الشمال على الثغرة التي تنفذ على نبع عنجر ومشيت الأمير علي على برج المجدل الذي كان فيه كاينة أولاد الشهاب بجميع من معه من العسكر ومشية الأمير يونس بن معن بالرجال الذين معه من الجانب القبلي تحت قرية المجدل فلما طلت عليهم الإلايات المذكورة من المواضع المزكورة وركضت عليهم مقدار مايه خيال ركضة واحدة، فانفكت آلايات مصطفى باشا وقامت الغبرة فانطلقت عليهم جميع الخيالة والأزلام فتبعوهم إلى طاحون عنجر ومسكوا منهم أزيد من مايه رجل والذي قُتل منهم قتل وما ألهى عنهم غير الأوتاق لأنه كان عظيًما نحواً من ألفي خيمة وغنمت عساكر ابن معن في ثقلهم وجمالهم وبغالهم وأما مصطفى باشا بكلربكي الشام فما أمكنه الانهزام مع المنهزمين فمسك قبضاً باليد فلما وصل إليه الأمير فخر الدين وولده الأمير علي نزلا عن خيلهما وقبّلا ذيله وعينوا معه محمد بلوكباشي القزار ليوصله إلى قبّ إلياس. . . وعساكر الشام غالبو راح على وادي التيم وعنجر فلحقهم بعض

(١) ١٠٤٣هـ = ١٦٣٣م.

ناس من عشيرة ابن معن والعسكر فقتلوا منهم وأخذوا بيارق ومكسباً والذي سلموا منهم غنموا في عددهم وقنعوا بالسلامة وكذلك غنم فيهم أهل الزبداني من بلاد الشام...».

ويشير المؤرخ إلى أنه بعد الانتهاء من المعركة ذهب الأمير ومعه مصطفى باشا إلى بعلبك بلاد ابن الحرفوش ويبدو أن الأمير أباح لرجاله نهب مستودعات ابن الحرفوش بحيث يقول المؤلف «حواصل الحنطة والشعير وكانت أزيد من ثلاثين حاصلاً لبيت الحرفوش وتلك غير الحواصل التي وجدت لهم في قرايا بعلبك والبيادر فجا الدور إلى أهالي بلاد كسروان وجبيل والبترون وبشري في نقل الغلال وكذلك أهل البقاع وصاروا يزقونها بالليل والنهار حتى أهالي وادي التيم وعرب آل الفضل» والمتضح أن أهل الشام وأعيانها كانوا ضد هذه الحملة التي قال مصطفى باشا نفسه أنه كان مرغمًا عليها تحت ضغط كرد حمزة وقد كتب مصطفى باشا لمتسلمه في الشام ليلقي القبض على المسببين ويقول المؤرخ «... فقامت أهالي الشام بأعيانها فمسكوا منهم كورد باكير وأربعة أو خمسة أنفار ما بين بلكباشي وايكجري (انكشاري) وخنقوهم في القلعة».

وفاة الست نسب...
أول مؤشرات زوال عهد الأمير فخر الدين:

كان الأمير فخر الدين يحترم والدته الست نسب كل الاحترام ويمتثل لكل ما تمليه عليه وكان يستشيرها قبل إقدامه على أي عمل هام وكانت بدورها تمده بالرأي المصيب وتسدي إليه النصيحة العاقلة والمخلصة، وقدمت هذه الأميرة التنوخية الكبيرة للإمارة المعنية كل جهدها ورعتها رعاية ناجحة أثناء غياب ابنها في أوروبا، وتحملت الكثير من المشقات بهذا الخصوص خاصة لبقائها في أسر أحمد باشا الحافظ مدة من الزمن في دمشق، كانت وفاة هذه الأميرة الكبيرة في ١٥ كانون الثاني سنة ١٦٣٣م عن ٦٨ عاماً من عمرها الذي أمضته في الجهاد.

كان الأمير فخر الدين شديد الحزن عليها وتشاءم كثيراً عند موتها، وكان

في الواقع حدسه صادقاً وظنه صائباً ويقول ماريتي عن وفاتها بما معناه: توفيت الست نسب بقصرها في دير القمر في ١٥ كانون الثاني سنة ١٦٣٣م (تتفق أقوال وستنفيلد وماريتي حول هذا التاريخ) عن ٦٨ عاماً من عمرها. فعند نبأ مرضها انتقل إلى عندها الأمراء فخر الدين ويونس وعلي، فعانقت ولديها وحفيدها وكلمتهم بحنان الأمومة وشعور المرأة القوية، وأرادت أن تتكلم أكثر. ولكنها لفظت أنفاسها وهي بين يدي أفراد عائلتها. وانطوت تلك الصفحة الجميلة والمشرقة من تاريخ لبنان.

أصدر السلطان مراد الرابع أمراً للصدر الأعظم خليل باشا بتجريد الجيوش لغرض القضاء على الأمير فخر الدين، فقام الصدر الأعظم بجمع الجيوش من جميع أنحاء المملكة «من حدود بلاد الروم إلى بلاد مصر» فتجمع لديه نتيجة لذلك حملتين أو تجريدتين كبيرتين الأولى برية بقيادة الكجك أحمد باشا والثانية بحرية بقيادة أمير البحر العثماني القبودان جعفر باشا، وكان قد سبق للأتراك أن جهزوا حملتين كبيرتين على الأمير المعني. الأولى في العام ١٦١٣م بقيادة أحمد باشا الحافظ فاضطر الأمير للجوء إلى دوق توسكانا ولم يصب هيكل الإمارة المعنية بكبير سوء. والحملة الثانية سنة ١٦٢٣ بقيادة مصطفى باشا والي الشام، انتصر الأمير فخر الدين على هذه الحملة في موقعة عنجر الشهيرة وأسر الباشا نفسه.

وها هي الحملة الثالثة التي نحن بصددها الآن، حملة عام ١٦٣٣م، «بمعدل حملة كبيرة كل عشر سنوات»، وقبل أن نتابع سير الأحداث يحسن بنا أن نتعرف على أخبار الكجك أحمد باشا قائد الحملة البرية. الكجك كلمة تركية معناها الصغير، والكجك أحمد أي أحمد الصغير كان قد تربى عند الأمير فخر الدين ومع الزمن أصبح أحد بلوكباشيته، وفي كتابه تاريخ الأمير فخر الدين يقول عيسى اسكندر المعلوف[1] ما معناه أن الأمير فخر الدين كان

(١) تاريخ الأمير فخر الدين، المعلوف، ص ١٩٠.

ملاحظة: الصدارة العظمى في الدولة العثمانية يومذاك هي بمثابة رئاسة الوزارة في أيامنا الحاضرة.

قد كلف الكجك أحمد المكوث في وادي التيم ليجبي الأموال الأميرية هناك ويقبض من الأمير علي الشهابي عشرين ألف قرش خدمة، وبعد أن أنجز الرجل مهمته جاء إلى بيروت حيث كان يقيم الأمير فخر الدين ليحاسبه على الأموال التي قبضها، ويبدو أنه طلب من الأمير منصباً أو مالاً فلم يعطه الأمير ما طلبه، فحنق الكجك عليه وترك خدمته وقصد الآستانة ودخل في خدمة الدولة وساعده الحظ وترقى في المناصب حتى بلغ رتبة الوزير فكان كل همه الانتقام من سيده الأول وأخذ يوغر عليه صدر الدولة «وانقلب الصديق فكان أعلم بالمسرة» ولما قررت الدولة القضاء على الأمير المعني أوكلت للكجك قيادة الحملة البرية.

المذنّب الكبير
يتخذ مسراه نحو النهاية:

قلنا أن الأمير فخر الدين كان مديناً بطول عهده إلى المشاكل الكثيرة التي كان يعانيها البلاط العثماني في أوروبا وإيران، وكان للأمير أعداء كثيرون نافذو الكلمة في الدولة أشهرهم الكجك أحمد باشا الذي كان عاملاً في أول عهده عند الأمير فخر الدين ثم تركه وانقلب عليه شأن خلفه الجزار باشا الذي كان عاملاً عند الأمير يوسف شهاب ثم انقلب عليه وكانت نهايته عن يده، أما أكثر الأمور التي أوغرت صدر السلطان مراد الرابع هي أخبار تلك المعاهدات التي عقدها الأمير مع أمراء توسكانا وغيرهم وكان ذلك ممنوعاً على جميع أمراء الدولة ولا يجوز ذلك إلا للسلطان نفسه، لو نفذت تلك المعاهدات تماماً لكانت كافية لهز أركان السلطنة العثمانية على حد قول ساندیز، ولكانت عصفت بالعرش العثماني الذي كان الفساد قد بدأ ينخر في قوائمه. وقد أطل الأمير فخر الدين على العالمين الشرقي والغربي بقوة جعلت منه سلطاناً ثانياً، وعن ذلك يقول المحبي في كتابه خلاصة الأثر: إنه لم يبق أمام الأمير فخر الدين إلا دعوى السلطنة، ويقول جورج ساندیز ما معناه: أن خطر الأمير

فخر الدين على الدولة العثمانية كان أكبر من خطر شاه العجم بدليل أن خبيرين قالوا له، أي لساندیز أن الأتراك سيوجهون جميع قواتهم في العام المقبل لمقاتلة فخر الدين لذلك هم يتقربون من مصالحة شاه العجم ومهادنته، وكتب السفير الفرنسي في الآستانة لمليكه ما معناه: إن عسكر الشام وحلب أخذ يهتم بمقاتلة فخر الدين بدلاً من مقاتلة شاه العجم، بمعنى أن فخر الدين شغل الأتراك عن حربهم الإيرانية.

الحرب بين الأمير فخر الدين والعثمانيين
تبدأ في وادي التيم:

وصلت أخبار الحملة العثمانية الكبيرة إلى مسامع الأمير فخر الدين فاستعد لمجابهتها وقام بتوزيع الرجال على القلاع والحصون التي يملكها وكانت هذه من الكثرة بحيث استوعبت عدداً كبيراً من الجند. فتضعضعت بذلك قوة الأمير القتالية على حد قول وستنفيلد، وكان الكجك العالم بأحوال البلاد يجري اتصالاته مع من بقي من الأمراء من آل الحرفوش وآل سيفا والحزب اليمني المناوىء لفخر الدين فانضم هؤلاء برجالهم إلى حملة الكجك ومن الذين ظلوا على ولائهم للأمير فخر الدين. الأمير علي الشهابي أمير وادي التيم والتيامنة. وكان الكجك قد عسكر بجيشه في سعسع فأرسل منها قوة إلى وادي التيم للتنكيل بحلفاء الأمير فخر الدين من بني شهاب فكان أن ألحقت هذه القوة ضرراً بالغاً في وادي التيم ويقول وستنفيلد إن ذلك حدث في ١٨ آب سنة ١٦٣٣م.

ميزان القوى بين العثمانيين والمعنيين:

قدر عدد جنود القوة العثمانية بـ ٨٠ ألف رجل يقودهم عدد كبير من الباشاوات[1] بينهم ألفان من انكشارية الآستانة نفسها، أما الأسطول البحري بقيادة

(١) تاريخ لبنان العسكري، الأمير موريس شهاب، ص ١٥٧ و ١٥٨.

جعفر باشا فكان مؤلفاً من ٢٢ سفينة حربية (غرابا) وقام هذا الأسطول بمهاجمة مدينة صيدا في شهر آب من السنة ذاتها وكان الأمير فخر الدين قد أغرق في مدخل ميناء صيدا مراكب محملة بالحصى ليمنع الأسطول العثماني من الرسو فيه.

أما قوة الأمير فخر الدين فكانت موزعة على النحو التالي[٢]:

٦٠٠٠ مقاتل مع الأمير علي أرسلوا إلى عجلتون.
٣٠٠٠ مقاتل مع مملوك الأمير أرسلوا إلى قلعة بانياس.
٣٠٠٠ مقاتل أرسلوا مع الأمير حسين بن فخر الدين إلى شمالي لبنان.
٢٠٠٠ مقاتل من رجال الشوف و ١٢٠٠٠ سكماني مع الأمير فخر الدين نفسه.

أما الشهابيون حلفاء الأمير فخر الدين فقد جمعوا ما توفر لديهم من رجال في راشيا.

كانت تجزئة هذا الجيش خطأ تكتياً، لأنه فتت تلك القوة الضاربة المستقدرة وقزّمها.

معركة سوق الخان:

سوق الخان محلة قرب حاصبيا ولجهة الغرب منها، أما الخان المقصود بالتسمية فهو خان قديم كان قد بناه هناك الأمير أبو بكر بن شهاب لإيواء الغرباء والمسافرين من الناس، فكان أن أعطى اسمه لتلك المحلة التي تعرف حتى يومنا هذا بسوق الخان، وقد جرت في تلك المحلة أولى معارك الكجك أحمد باشا والمعنيين قتل في هذه المعركة الأمير علي ابن الأمير فخر الدين كما قتل فيها الشيخ غضبان العماد إلى جانب الأمير علي. ووردت أخبار هذه

(٢) ذات المصدر.

المعركة الهامة بصيغ مختلفة ونحن هنا نرويها كما أوردها كل من جيوفاني ماريتي ثم الشيخ الخالدي الصفدي، يقول ماريتي بما معناه[١]:

كان الأمير علي وعمه الأمير يونس يعتمدان على الشجاعة المطلقة وكانا قليلا الحذر، نصحهما الشيخ أبا نادر بإتخاذ وضع المناورة وعدم التورط بمعركة فاصلة مع العثمانيين، وكان اللبنانيون يقومون بغارات موفقة على العثمانيين بقيادة الأمير علي ويعودون من غاراتهم دون أن ينال الجيش العثماني منهم منالاً حتى أنهكوه. فضاق العثمانيون ذرعاً بذلك واستدرجوا الدروز إلى السهل وهناك دارت رحى معركة كبرى هاجم فيها الأميرين علي ويونس بشجاعة فائقة وبقي الوضع غير واضح عدة ساعات، ثم ابتدأ يميل لصالح الدروز ولكن حدث أن أصيب حصان الأمير علي فسقط أرضاً ثم أصيب الأمير علي نفسه كما أصيب عمه الأمير يونس وقتلا فانهزم الدروز تاركين الميدان دون أن ينفع تشجيع الأمير حسن بن فخر الدين الذي اندفع يجابه العدو بنفسه حتى وقع أسيراً.

وأرسل المنتصرون رأسي الأمير علي وعمه الأمير يونس إلى دمشق.

أما الشيخ أحمد الخالدي الصفدي فيقول[٢]:

«الكجك أحمد تم مستقيم في سعسع يجمع رجال، فجاء من قال له أن رجال بني شهاب مجمعه في رأس البلاد، فعند ذلك عين عليهم ركبة عشرة آلاف نفر ووصلوا إلى قرية عرنا غياب الشمس، وكان في عرنا ناس من وادي التيم هربوا ورجعوا حذروا البلاد. منهم من هرب ومنهم من غالط وتم. فلما طلعت الشمس وشافوا العسكر هربوا أهل وادي التيم صوب الشوف فلحق منهم العسكر بعض ناس قتلوهم وأخذوا بعض نسا وأولاد وحرقوا حاصبيا والقرى التي في جيرتها وقرايا مرجعيون ورجع العسكر نزل على النهر الذي عند الخان.

(١) فخر الدين أمير الدروز، ماريتي، ص ٢٥١.
(٢) تاريخ الأمير فخر الدين الثاني، منشورات الجامعة اللبنانية ١٦، الصفحات ٢٤٦ و ٢٤٧.

«وأما الأمير علي بن معن وصل تلك الليلة إلى بانياس وأعلم بوصوله إلى الأمير علي بن شهاب فرد له الجواب إنك أدركني في رجال. فركب ابن معن في الليل ولما أشرف على الطريق فسأله الأمير عن عسكر الدولة فقاله له إنهم نحو ألف وخمسماية رجل ومحل ما شافوا رجال ابن شهاب عسكر الدولة كل من توجه أخذ أولاده وهرب وما تبقى إلا المعروف، فعند ذلك تم ماشي عسكر ابن معن، فعندما شافته الدولة دخل عندهم حساب عظيم فطلع صعدك باشا حاكم حماه إلى ظهر الجبل وأشرف على عسكر ابن معن فرآهم في قلة لأنهم كانوا هربوا قبل ذلك الوقت الذي صمد نحو ألف رجل لا غير فدار إلى خلف ظهورهم وحطوهم مواسطة وعلق الكون فما مرق من عسكر ابن معن إلا القليل ومن الأمير علي جاه رمح في كتفه ارتمى وما حدا عرفه إلا واحد يقال له حسين باشا من ديرة الشام فنزل قطع رأسه وقطعوا جميع الروس الذين قتلوهم وأخذوهم إلى سعسع عراضة ورأس الأمير علي قدام الروس فحضر كجك أحمد وأولاد العرب وشهدوا له أن هذا الرأس رأس الأمير علي بن معن فسجله عند القاضي وأرسله إلى إسلامبول».

لم يقتل الأمير يونس مع ابن أخيه الأمير علي في معركة سوق الخان كما زعم ماريتي ويقول الشيخ الخالدي الصفدي في هذا الصدد: «كان أخوه الأمير يونس مختفي في بلاد بشارة في برج يقال له برج دوبية فأرسل له الباشا ناس مسكوه ومسكوا أولاده الأميرين ملحم وحمدان وجابوهم إلى عند الباشا فقال للأمير يونس كم تدفع عليك وعلى أولادك حتى سيبكم فإن ما فيكم أمر سلطان فدفع له مالاً جزيلاً وقال له مالي مخبا أطلق منا أحد يجيبو فأطلقوا الأمير ملحم وآخّروه أهل الشوف حتى يجيبوا المال وكانت حيله على الباشا حتى خلصوه ومحل ما عرف الباشا حط المير يونس تحت العذاب حتى مات هو وابنه وعاش الأمير ملحم إلى سنة ١٠٦٨هـ وتوفي في شهر ذي الحجة[١]. انتهى.

بعد أن ألقى الكجك القبض على الأمير فخر الدين وأولاده رجع إلى

(١) كتاب تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، للشيخ أحمد الخالدي الصفدي، منشورات الجامعة اللبنانية ١٦، ص ٢٤٨.

دمشق ومن هناك أرسل أسراه إلى إسلامبول، وفي دمشق حضر إليه الأمير قاسم الشهابي فوعده الكجك خيراً وطيّب خاطره فاطمأن الأمير قاسم وأرسل إلى ابنه والمتخفين من أقاربه يقول: عودوا إلى الوطن الكجك وعدنا خيراً، فرجع الأمراء الشهابيون إلى بلادهم في وادي التيم، وبعد قليل أرسل لهم الكجك محصّل أموال ثم أعقبه بستين نفر من الجنود وأخذ الناس في وادي التيم يحذرون بيت شهاب من هؤلاء وبيت شهاب مطمئنون لأن الأمير قاسم عند الكجك، ثم أرسل الكجك سراً إلى قائد جنده في حاصبيا بأن يقتلوا الأمير علي الشهابي وولديه الأمير محمد والأمير حسين ووجه قوة من جنده إلى راشيا لقتل الأمير أحمد وهو بدوره قتل الأمير قاسم الموجود عنده وقد تم ذلك في يوم واحد[١].

أما الأمير ملحم بن معن الناجي من شبكة الكجك أخذه ناس من الشوف إلى بلاد عجلون ليحتمي عند بيت طرباي، فعلم الكجك بمكان وجوده وأرسل قوة من جنده إلى بيت طرباي يطلب منهم تسليمه إياه فسلمّوه إليهم وجاؤوا به وعند وصولهم إلى خان الشيخ[٢] نزلوا هناك ليباتوا ليلتهم فهرب الأمير ملحم من على سطوح الخان والتجأ إلى عبارّة للمياه قريبة من الخان فقام الجند بالبحث عنه فلم يقفوا له على أثر وكان هو يراهم في مجيئهم وذهابهم ولما انصرفوا من هناك قام من مخبأه وغير ثيابه ثم سار متخفياً حتى وصل إلى قرية عرنا الواقعة على سفح جبل الشيخ الشرقي ولجأ إلى بيت رجل هناك وكان الرجل يمني أي من الحزب المعاكس للأمير ملحم فأكرم الرجل الأمير ملحم دون أن يعرفه ولكنه لاحظ أن ضيفه رجل ذو شأن ولما عرفه بعدئذ أصبح هذا الرجل قيسياً مثله كما أصبحت القرية بأجمعها قيسية أي على حزب القيسيين[٣]

(١) أخبار الأعيان، الشدياق، ص ٣٧١.

(٢) المقصود بالقول كما أرى هو خان الشيح وليس خان الشيخ فالأول مكانه فيما بين الجولان ودمشق وهذا يوافق خط سير القوة العائدة من عجلون إلى دمشق. أما الثاني فهو خان الشيخ في عاليه ومكان آخر قرب مكسي في البقاع وكلا المكانين بعيدين تماماً عن الموضوع.

(٣) أخبار الأعيان، ص ٣٧٢.

ومن مخبأه في عرنا أخذ الأمير ملحم يراسل أنصاره في الشوف ويتصل بهم وفي سنة ١٦٣٥م اجتمع عنده في عرنا جمع من أنصاره فنهض بهم إلى الشوف وهناك تقاطرت عليه أنصاره من كل حدب وصوب وكان والي الشوف يومذاك من قبل الكجك الأمير علي اليمني فجمع الأمير علي رجاله وانضم إليه مدبر الكجك والتقى الفريقان: الأمير ملحم والأمير علي اليمني في محلة قرب مجدل المعوش تدعى المقيرط ودارت هناك بينهما رحى معركة كبيرة أسفرت عن انتصار الأمير ملحم ومقتل مدبر الكجك وهرب الأمير علي علم الدين وقتل جمع غفير من عسكر الأمير علي علم الدين، وبعد انتصاره تقوّى مركز الأمير ملحم وكثرت عصبته.

وقف الأمير ملحم المعني وقفة بطل يجابه الأحداث الصعاب ويستعيد مركز أسرته شيئاً فشيئاً ويقول ماريتي كما يقول غيره أن إنتصارات الأمير ملحم أساءت إلى قضية عمه الأمير فخر الدين الذي كان لا يزال في إسلامبول والذي كان قد نال عطف السلطان واحترامه فعفى عنه. فأخاف الأمر أعداء الأمير في البلاد فأخذوا يشيعون على مسامع السلطان أن ما يجري في لبنان بواسطة الأمير ملحم المعني ما هو إلا بإيعاز من عمه الأمير فخر الدين فصدّق السلطان القول وعاد وأمر بإعدام الأمير وأولاده ولم يعف إلا عن ولده الأمير حسين نظراً لصغر سنه أو نظراً لشفاعة أحد المسؤولين الكبار به وهو القوبودان جعفر باشا.

الشيخ الفاضل،
والكجك أحمد باشا:

في حملته على المعنيين ألحق الكجك أحمد باشا أذى وضرراً كبيرين بالدروز في مختلف مواطنهم ولم يكن هذا الطاغية العثماني ليفرّق بحملته الحربية تلك بين المعنيين كأسرة حاكمة في لبنان وبين الدروز كطائفة من رعايا السلطان.

كان يعيش يومذاك في وادي التيم شيخ متعبد عظيم الفضل والتقوى لقبّه الناس بالشيخ الفاضل فغلب لقبه على اسمه الحقيقي، كان الشيخ في تلك

الآونة المؤلمة من تاريخ الدروز خاصة ولبنان عامة في ذروة تألقه الروحاني، فرأى الكجك أنه لو ألقي القبض على الشيخ وطلب من الدروز افتداءه بالمال لما توانوا عن دفع كل مطلوب فيحصل بذلك على مبلغ كبير من المال، وعلم الشيخ بما يدبّر له في الخفاء فقال لمن حوله «لو قدر الله عليّ ووقعت فحرام على من يدفع علي قرشاً أو مصرية أما الروح فمقصّر عنها وأما الجسم فيفعل فيه ما يشاء وخلاصي في ذلك» وانتشر الخبر بين الناس وعلم الكجك بالأمر وبالحرم الذي وضعه الشيخ فأقلع عن فكرته ومن قول غير مسند مؤدّاه إن جماعة من جند الكجك ذهبت إلى الشيخ في منسكه ورجعوا دون أن يمسوه بأذى لما رأوه فيه من تقشف.

أما اسم الشيخ فهو محمد ولقبه أبي هلال ولد في قرية كوكبا[١] من وادي التيم الأعلى في أواخر القرن العاشر الهجري وتوفي ليلة الجمعة ٢٢ شعبان سنة ١٠٥٠ هجرية الموافقة للعام ١٦٤٠م كان رحمه الله من الفقهاء العارفين والمتعبدين البررة أوصى قبيل وفاته أن لا يكون له قبر معلوم وأن تدفن جثته في أرض تحرث بدافع تواضعه الجم ولكن التيامنة أقاموا له في قرية عين عطا مدفناً تحول إلى بيعة تزورها الناس للتبرك والتكريم وقد جرى على هذه البيعة المباركة في الآونة الأخيرة الشيء الكثير من التحسينات وأقيمت فيها إنشاءات جديدة وساحة عامة.

معركة وادي القرن
وانتصار الأمير ملحم المعني فيها
على جيش بشير باشا والي الشام سنة ١٦٥٠م[٢]:

بعد معركة المقيرط في ضواحي مجدل المعوش، وانتصار الأمير ملحم المعني فيها على أعدائه، وقتله مدبر الكجك أحمد باشا، تفتحت أعين الحزبيين المناوئين للمعنيين أكثر على الواقع القاسي الذي ابتدأ يهز كيانهم، وكانوا

(١) التنوخي، ص ٢٨٤.
(٢) أخبار الأعيان، ص ٣٧٢ و ٣٧٣.

يعتقدون أنهم سيطروا على البلاد وخلت لهم الساحة بعد أن زال الأمير فخرالدين المعني تلك العقبة الكأداء التي كانت تعترض طريقهم وتقض مضجعهم، وكانت قوة هذه الجماعة المناوئة للمعنيين في تعاطفها مع الولاة العثمانيين واتفاقها معهم في الهدف، ووالي الشام الذي كان برتبة وزير، كان سيداً مطلق الصلاحية في أحوال البلاد والعباد، وبقدر ما كانت الحزبية المتطرفة شديدة الضرر على الوطن والمواطنين، كانت تقع على قلوب الولاة برداً وسلاماً باعتبارهم الوحيدين المستفيدين من الاقتتال المحلي، فكانت تمكنهم من ضرب الرؤوس الوطنية بعضها ببعض. وكان هؤلاء الولاة ـ على أي حال ـ يغيظهم أن يروا حاكمًا وطنياً قوياً، أياً كان لونه السياسي ومبدأه الحزبي.

راح الأمير علي علم الدين يغري بشير باشا والي الشام ويؤلبه على حرب الأمير ملحم المعني، ولاقى المشروع استحساناً عند بشير باشا وجهز لهذا الغرض جيشاً قوياً قاده بنفسه بعد أن انضم إليه أعداء المعنيين كالعادة.

علم الأمير ملحم المعني بأمر هذه الحملة فقرر استباق الأحداث وملاقاة الحملة إلى مكان مناسب وبعيد عن بلاده، فاختار وادي القرن الذي ستعبره الحملة العثمانية القادمة من دمشق لا محالة، فكان قراره موفقاً لأبعد حد. وفي شعاب وادي القرن ومساربه الضيقة والمغلقة التي لا تصلح بتاتاً للمناورة لصعوبة تحرك المشاة والخيالة فيها، وكان أن سبق لقرامطة وادي التيم أن هزموا في تلك الوادي جيشاً عباسياً عرمرماً، في تلك الأماكن الصعبة كمن الأمير ملحم المعني وعسكره للحملة العثمانية ولبثوا ينتظرون. وبعد مدة من الزمن وصلت طلائع حملة بشير باشا وعبرت في الوادي كالفأر الذي يساق إلى المصيدة، وفي الوقت المناسب. وعندما أصبح العثمانيون في قبضة المتربصين، انهالوا عليهم من الأعالي بالنار الحامية يطلقونها وبالصخور الكبيرة يدحرجونها عليهم فمزقوا الحملة شر ممزق وانهزم الوزير بشير باشا بمن بقي معه من الأحياء باتجاه دمشق، ورجع الأمير ملحم المعني وعسكره إلى بلاده مظفراً منصوراً.

معركة وادي بكا
وانتصار المعنيين فيها:

بعد عودة الوزير بشير باشا إلى دمشق كان الغيظ يأكل قلبه وعوامل الثأر والانتقام من الأمير ملحم المعني تتنازع نفسه، ولكنه كان عاجزاً، فأخذ يتحين الفرصة المناسبة لكسر شوكة هذا الأمير الذي كان يتقوى بعد كل معركة ويتعزز مركزه بعد كل انتصار، إلى أن كانت سنة ١٦٥٣م وفيها جاء الأمير علي علم الدين إلى بشير باشا يشكو إليه الأمير ملحم المعني وحلفاءه الشهابيين أمراء[١] وادي التيم، وهما الأمير قاسم والأمير حسين الشهابي ـ وكان الأمير حسين متزوجاً من ابنة الأمير ملحم المعني ـ أنهم أهلكوا رجاله وأزاحوه عن دياره، وأن الأمير ملحم استولى على أمواله ـ ومما تجدر الإشارة إليه أن الأمير علي علم الدين وأثناء سيطرته على الوضع أثناء غياب الأمير فخرالدين فتك بالأمراء التنوخيين وأبادهم عن بكرة أبيهم أثناء دعوتهم إياه لتناول الطعام على مائدتهم في عبيه ـ وتكفل الأمير علي لبشير باشا بأنه سيعطيه مالاً كثيراً مقابل توليته على بلاد الشوف وتوابعها، وأن يصحبه بعسكر من عنده لقتال الأمير ملحم. فوافق الوزير بشير باشا على أمل أن يصيب عصفورين بحجر واحد: يربح أموالاً، وينتقم لهزيمته في وادي القرن التي لم يكن قد مر عليها سوى ثلاث سنوات. فقلد بشير باشا الأمير علي علم الدين ولاية الشوف وتوابعها، ثم أصحبه بجيش للقتال وجلس ينتظر النتيجة، وسار الجيش إلى مقصده دون أن يعبر هذه المرة في وادي القرن تحسباً واحترازاً، ولكنه عبر واد آخر باتجاه وادي التيم، ألا وهو وادي بكا الشهير والقريب من قرية ينطا.

كان الأمير ملحم وحلفاءه الشهابيون يراقبون الوضع عن كثب ويتقصون الأخبار، فعلموا بأمر الحملة الجديدة واستعدوا لها، وكالعادة لاقوها قبل أن تصل إلى ديارهم ونازلوها في تلك الأماكن الشديدة الوعورة واصطفوا في واد هناك نحو ثلاث ساعات، وكانت النتيجة أن انتصر الأمير ملحم مجدداً وهزم

---

(١) أخبار الأعيان، ص ٣٧٣ و ٣٧٤.

الحملة العثمانية الثانية، ولكن في هذه المرة ظل يلاحق فلولها حتى أبواب دمشق[١].

كانت معارك الأمير ملحم وانتصاراته قد أحدثت ضجة عظيمة في البلاد وخاصة في إسلامبول، فكان لها أثران كبيران: الأول سلبي، وقد أساءت إلى موقف الأمير فخرالدين الذي كان لا يزال أسير السلطان مراد الرابع، وكان السلطان يحترم الأمير ويظهر له من التسامح ما أزعج أعداء الأمير من عثمانيين ومحليين، ويقال أنه كان على وشك أن يعيده إلى بلاده، وجاء من يهمس في أذن السلطان أن الأمير فخرالدين وراء كل ما يحدث في البلاد السورية فتغير عليه السلطان وأمر بإعدامه وإعدام أولاده. والأثر الثاني، كان إيجابياً، بحيث أعاد سلطة المعنيين وعادت راياتهم تخفق من جديد كما عادت مقدرات البلاد إلى أيديهم وأثبتوا على أنهم الأقوى، دائماً بالرغم مما يعترضهم من صعوبات وما يتعرضون له من نكبات.

وفي سنة ١٦٥٤م أرسل الأمير ملحم إلى والي دمشق مبلغ ثلاثون ألف قرش، فأنعم عليه بولاية صفد، وفي سنة ١٦٥٨م وبينما كان الأمير ملحم يقوم بجباية الأموال السلطانية من بلاد صفد، مرض هناك بالحمى وكان يومها في عكا، فجاء منها إلى صيدا وفيها توفي، ودفن هناك في مقابر المعنيين.

الأمير أحمد المعني
ينتقم من العمادية:

حدث أن الشيخ سرحال العماد، رأس العمادية، تولى إمارة الشوف بأمر من أحمد باشا الكوبرلي والي الشام، وذلك على أثر تواري الأميرين أحمد وقرقماز المعني من وجه الدولة، أثناء ذلك تقدم الشيخ سرحال يطلب إحدى الأميرات المعنيات للزواج فلم يؤذن له، ويبدو أن التقاليد لم تكن تسمح يومذاك للشيخ بأن يتزوج من أميرة، هذا بالإضافة إلى أن المعنيين اعتبروا امارة الشيخ

(١) أخبار الأعيان، ج ١ ص ٣٧٤.

سرحال ضربة لهم، ولكن إذا راجعنا مسلسل الأحداث التاريخية التي مرت فيها العلاقات بين آل معن وآل عماد نرى أنه كان هناك تعاطفاً كبيراً ومشاركة مصيرية بين الأسرتين، مثلاً: الشيخ غضبان العماد قتل إلى جانب الأمير علي ابن الأمير فخرالدين في معركة سوق الخان، والشيخ أبو عذرا العماد قاتل إلى جانب الأمير ملحم المعني في قب الياس ضد آل علم الدين وخسر أربعماية من رجاله في تلك المحلة[١].

ومن عودة إلى القول أنه لما استعاد الأمير أحمد المعني الامارة سنة ١٦٦٤ أخبروه بطلب الشيخ سرحال، فغضب واعتبره تحدياً وتطاولاً وعزم على الانتقام منه، فكان أن فتك به وبثمانية من أقاربه ولم يبق من آل العماد سوى رجل واحد هرب إلى قرية كامد اللوز وتخفى فيها تحت اسم مستعار (بعيزق)، وبعد مدة من الزمن علم المشايخ ــ نظراء آل العماد ــ بأمر بعيزق، فراحوا يضغطون على الأمير أحمد لقتله، في تلك الأثناء كان الأمير أحمد مستاء من نظراء بيت عماد مثل بني علوان وغيرهم، فرأى الإبقاء على حياة بعيزق وأرسل له إلى مخبئه خيلاً وملابساً وأسلحة ورجالاً وأحضره إليه معززاً مكرماً وجعله مدبراً عنده، ولنا عودة إلى هذا الموضوع في مكان آخر من هذا الكتاب.

لا العثمانيون نفدت مكائدهم..
ولا المعنيون شحت بطولاتهم!
الغدر بالأميرين أحمد وقرقماز سنة ١٦٦٠م:

في هذا التاريخ كان أحمد باشا الكوبرلي وال على دمشق، فكان من الطبيعي جداً أن يتابع سيرة سابقيه من الولاة العثمانيين مع أمراء لبنان، وبالإضافة لذلك كان أحمد باشا ناقماً على الأميرين علي ومنصور الشهابي ــ أمراء وادي التيم ــ ساعياً للتنكيل بهما مما اضطرهما للاختباء والتخفي عن أعين رقبائه، وأرسل الكوبرلي إلى الأميرين أحمد وقرقماز المعني يطلب إليهما

(١) أخبار الأعيان، ج ١ ص ١٧٦.

تسليمه الأميرين الشهابيين، فأجابا أن المطلوبين غير موجودين عندهما في الشوف، وتحسباً لما قد يحصل، انتقل الأميران المعنيان من بعقلين إلى عين زحلتا ومعهما سبعة آلاف شخص، فرجع إليهما جواب الكوبرلي يطلب منهما أربعماية ألف قرش نفقة العساكر وإلا فإنه سيطأ بلاد الشوف بخيله ورجاله ويخربها. فرضخ الأميران المعنيان لطلب الكوبرلي وتعهدا له بدفع مايتين وخمسين ألف قرش منجمة ـ مقسطة ـ على أربعة شهور، ووضعا عنده رهناً على ذلك المبلغ، الأمير قاسم الارسلاني من الشويفات، وكان هذا الأمير متزوجاً من أميرية شهابية من وادي التيم هي أسما ابنة الأمير علي الشهابي، والمقدم شرف الدين مزهر من حمانا، فرضي الباشا بذلك ورجع إلى دمشق، ولكن الأميرين أحمد وقرقماز عجزا عن أداء المتبقي من المبلغ، ثم جاء من يخبر الكوبرلي أن الأميرين الشهابيين المطلوبين موجودان في الشوف، فجهز الكوبرلي حملة عسكرية كبيرة وجاء بها إلى قب الياس، والتحق به هناك والي غزة ووالي طرابلس والأمراء آل علم الدين وآل طربيه، فتقوى بهم وكثر عسكره.

انتقل الأمراء المعنيون والشهابيون من الشوف إلى كسروان لعند المشايخ الحمادية وتدارسوا الوضع هناك، فرأوا أنه من الأنسب تحاشي الصدام مع عسكر الباشا، ففرقوا رجالهم واختبأوا في تلك الأماكن، عندها كتب الشيخ سرحال العماد وبعض وجهاء البلاد إلى الكوبرلي يخبرونه أن الأمراء المعنيين والشهابيين تركوا البلاد إلى جهة غير معروفة، ويطلبون إليه العفو عن البلاد، فأجابهم الكوبرلي إلى طلبهم مشترطاً عليهم أن يدفعوا له نفقة عساكره، فدفعوا له ما طلب، ثم ولى سرحال العماد امارة الشوف وأجرى تعيينات منها: تعيين علي باشا الدفتردار وال على صيدا. ويقول الشدياق(١): أنه منذ ذلك الحين جرت عليها الوزارة، أي أنه أصبح والي صيدا برتبة وزير، وصار يتدخل في شؤون امارة الشوف، وفي العام ١٦٦٢م عزل الدفتردار عن ولاية صيدا وعين محله وال آخر يدعى محمد باشا، فكتب هذا الوالي إلى الأميرين المعنيين أحمد

(١) أخبار الأعيان، ج ١ ص ٣٧٥ و ٣٧٦ و ٣٧٧.

وقرقماز المتخفيين عن الأنظار، يطلق لهما الأمان ويطلب أن يوفدا إليه مندوباً عنهما ليعقد لهما الصلح ويجدد لهما خلعة الولاية، فانطلت حيلة الوالي العثماني على الأميرين وأرسلا له مندوباً مصحوباً بالهدايا، فقبل الوالي بالهدايا وطلب إلى الأميرين ـ أيضاً بواسطة مندوبهما ـ أن يلتقي بمندوب من عنده على عين قرية مزبود من أعمال إقليم الخروب، لتسوية قضيتهما نهائياً، وحدد لهما موعداً لذلك. وفي الوقت المعين قدم الأميران أحمد وقرقماز مع بعض مرافقيهما إلى المكان المحدد، وهناك شاهدا مندوب الوالي ومعه جمع غفير من أنصاره وجنده، وما أن ترجل الأميران عن خيلهما حتى دهمهما جنود الوالي وأخذوا يعملون فيهما وفي من معهما السلاح، فقتل الأمير قرقماز وأسرع الأمير أحمد للهرب، فتصدى له أحد الجنود وضربه بالسيف أصاب رقبته، فانجرح جرحاً بليغاً وقاتل دونه مرافقوه حتى أخرجوه من بين القوم، فركب فرسه وانطلق ناجياً بنفسه بعد أن قُتل جميع من معه لدفاعهم عنه، وقد تأثر الأمير أحمد بتلك الضربة وبقي معظم حياته متشنج الرقبة لا يستطيع تحريكها. وفي السنة ١٦٦٤م تظاهر الأمير أحمد فالتف حوله أنصاره ومؤيدوه وخاض عدة معارك مع أعدائه انتصر فيها جميعها.

معركة برج الغلغول سنة ١٦٦٦م:

برج الغلغول: أحد أبراج بيروت القديمة، موقعه في المحلة المعروفة اليوم بباب ادريس، جرت في هذا الموقع سنة ١٦٦٦م معركة كبيرة بين القيسية واليمنية، تلك الحزبية التي امتازت بعنفها والتي كانت بمثابة تآكل مدمر في عصب البلاد، فلم تجن الناس منها إلا الخراب والدمار والتشتت والافتقار، استغلها ولاة العثمانيين الطغاة وأذكوا نارها للتلاعب بمصير البلاد والعباد، وفي معركة الغلغول هذه، انتصرت القيسية بقيادة الأمير أحمد المعني وأصيبت الجماعات اليمنية بهزيمة نكراء أسفرت عن مقتل مقدمهم ابن الصواف ونزوح آل علم الدين إلى دمشق واستيطانها(١). بعد هذه المعركة تقوى الأمير أحمد المعني واستعاد سلطته التامة على البلاد، وتذكر ـ وهو في غمرة انتصاره ـ حليفيه

(١) أخبار الأعيان، ج ١ ص .

الأميرين منصور وعلي الشهابـي اللاجئين في الجبل الأعلى من الديار الحلبية، فأرسل لهما يخبرهما بنصره ويدعوهما للعودة إلى البلاد، ولما وصلتهما رسالته جاءا بمن معهما إليه، فتلقاهما بالترحيب وأبقاهما في ضيافته عشرة أيام، ولما انصرفا زودهما بالخيل والسلاح والاقامات «وذهبا إلى بلادهما حاصبيا وراشيا».

كان للأمير أحمد المعني ولـد وحيـد اسمه ملحم على اسم جده، توفي سنة ١٦٧٩م عن اثني عشر سنة من عمره، فجاء من حاصبيا الأمير موسى ابن الأمير منصور الشهابـي للتعزية بوفاته، ثم خطب ابنة الأمير أحمد المعني، وفي العام ١٦٨٠م تزوجها، وفي سنة ١٦٨١م ولدت له ابنه الأمير حيدر، واستمر الأمير أحمد المعني حياً حتى سنة ١٦٩٧م، حيث توفي في دير القمر دون عقب، وانقطعت بموته سلالة الأمراء المعنيين، فاجتمعت أعيان البلاد ذلك الاجتماع المشهور في سهل السمقانية، وقرروا تولية الأمير بشير الشهابـي ـ بشير الأول ـ من أمراء وادي التيم في راشيا، كونه ابن أخت الأمير أحمد المتوفي، ثم حدث تعديل على هذا القرار بحيث اعتبر الأمير حيدر ابن بنت الأمير أحمد، الآنف ذكره، أحق من الأمير بشير، واعتبر الأمير بشير وصياً ريثما يبلغ الأمير حيدر سن الرشد، ويقال أن هذا التغيير جرى بإشارة من الأمـير حسين ابن الأمـير فخرالدين المعني، الذي سبق وأشرنا إلى نجاته من الإعدام.

أحداث هامة في وادي التيم
في الثلث الأخير من القرن السابع عشر:

أثناء حملة الكوبرلي على الأمير ملحم المعني نال الشهابيون في وادي التيم ضرراً كبيراً خاصة من بني حيمور سكان البقاع الذين كانوا يسيرون أمام عسكر الباشا في وادي التيم وقد قاموا بقطع أشجار الشهابيين وإتلاف مزروعاتهم وغير ذلك من الأعمال التي ظل الشهابيون يحفظونها لهم إلى أن كانت سنة ١٦٧١م وفيها أرسل الأمير علي الشهابي من راشيا عمه الأمير فارس الملقب بالكبير للاقتصاص من بني حيمور، فذهب الأمير فارس ودهم الجماعة بغتة وهزمهم

حتى دمشق[١] وهناك استغاثوا بواليها العثماني الذي كان يعطف عليهم مقابل عدائهم للمعنيين وحلفائهم الشهابيين، فأمدهم بعسكر من عنده ورافق العسكر الأميران الأخوان موسى ومنصور علم الدين، وجاء العسكر إلى وادي التيم فانهزم الأمراء الشهابيون لعدم قدرتهم على مجابهته ودخل العسكر راشيا وأحرق فيها بيوت الأمير علي والأمير فارس الشهابيين وبعد أن أنهى مهمته رجع إلى دمشق، ورجع بنو حيمور إلى البقاع، ويبدوا من مجريات الأحداث أن انتقام العسكر يومذاك اقتصر على وادي التيم الأعلى وعلى أملاك الشهابيين فيه بوجه خاص.

مصرع الأمير فارس الشهابي الملقب بالكبير،
مع خمسين شيخاً من شيوخ وادي التيم:

لا ندري لماذا سمي الأمير فارس الشهابي. بفارس الكبير، ما من شك أن لهذا اللقب العريض أسبابه ومبرراته وأن صفات معينة ممتازة تفرد بها الأمير فارس الشهابي صاحب هذا اللقب، وبالإضافة لما جرى بين الأمير فارس وبين بني حيمور، حدث أنه في العام ١٦٨٠م كان الأمير فارس متولياً بلاد بعلبك، والأرجح أنه كان متسلمها على طريقة الضمان المعتادة في ذلك الوقت وعلى كلا الحالين كان ذلك تحدياً للحرافشة أمراء بعلبك العريقين والأقوياء.

كان الأمير فارس الشهابي ومن معه في قرية نيحا القريبة من قـرية الفرزل[٢] وكان على رأس الحرافشة يومذاك الأمير عمر الحرفوش. وذات يوم هاجم الأمير عمر برجاله من آل حمادة الشيعة على طريقة الكبسة (الغارة المفاجأة) الأمير فارس الشهابي وجماعته في قرية نيحا المذكورة، وأسفرت الغارة عن مقتل الأمير فارس الشهابي ومقتل خمسين شيخ من شيوخ وادي التيم الذين معه وفر الباقون من رجاله، كانت ضربة موجعة أصابت الشهابيين في الصميم،

(١) أخبار الأعيان، ج ١، ص ٣٠٩.
(٢) أخبار الأعيان، ج ١، ص ٣٠٨.

فلما وصل الخبر إلى وادي التيم نهض الأمير موسى الشهابي من حاصبيا برجاله وكذلك فعل الأمير علي نجم الشهابي من راشيا وتشكلت من الجماعتين قوة كبيرة اتجهت إلى بلاد بعلبك لأخذ الثأر من الأمراء الحرافشة «وأخذوا يخرقون في أول بلاد بعلبك» رأى الأمير عمر الحرفوش أن لا قبل له بمواجهة الشهابيين، ففر إلى الأمير أحمد المعني طالباً إليه التوسط ملتمساً منه الصلح بينه وبين الشهابيين فجاء الأمير أحمد المعني إلى بلاد بعلبك وأجرى الصلح بين الشهابيين والحرافشة، بعد أن غرّم الحرافشة بدفع خمسة آلاف قرش وجوادين من أطايب الخيل يؤدونها كل سنة للشهابيين دية الأمير فارس الشهابي، وفي سنة ١٦٨٢م توفي الأمير علي نجم الشهابي في راشيا وكان له ولد حدث اسمه منصور وتولى راشيا بعده الأمير بشير ذلك الذي عرف باسم بشير الأول وهو الذي ولاّه الناس الإمارة في سهل السمقانية بعد وفاة خاله الأمير أحمد المعني. وما تجدر الإشارة إليه هنا أن الشدياق في أخبار الأعيان أشار إلى المكان الذي قتل فيه الأمير فارس الشهابي وجماعته بقوله «في قرية نيحا الواقعة فوق الفرزل» والواقع هو أن قرية نيحا على موازاة الفرزل وليست فوقها، وربما كان مقصود القول وهو الصحيح قلعة نيحا لا قرية نيحا لأنه يوجد فوق الفرزل قلعة قديمة تدعى من العامة حتى يومنا هذا باسم قلعة نيحا.

سنجقية وادي التيم:

منذ أن أجرى أحمد باشا الكوبرلي التشكيلات الإدارية سنة ١٦٦٠م. وجعل بموجبها والي صيدا برتبة وزير مساعد له. أخذ والي صيدا يتدخل أكثر من ذي قبل في شؤون الأمراء المعنيين والشهابيين، وحدث أن تولىّ على صيدا رجل يدعى خليل بن كيوان، وقد وصف هذا الوالي من قبل بعض المؤرخين أنه كان غشوماً ظالماً فاتفق سراً مع سيده والي الشام العثماني وقام بحملة عسكرية على وادي التيم ضد الأمراء الشهابيين فانتصر الوالي على الأمراء الذين تركوا وادي التيم لاجئين إلى جبل الشوف شأنهم في كل مرة يتعرضون فيها لغضب العثمانيين وولاتهم. وبعد هرب الأمراء صدر أمراً بأن يصبح وادي

التيم سنجقية، يتولاها سليمان آغا ابن تركمان، والمعنى الإداري لذلك هو إلغاء سلطة الشهابيين كأمراء على وادي التيم، لم يسبق أن حدث مثل هذا الأمر منذ أن نزل الشهابيون في الوادي في زمن الصليبيين، ولكن هذا التدبير لم يعش طويلاً ولم يطل الوقت حتى عادت الأوضاع إلى طبيعتها ويشار إلى هذه الأحداث أنها جرت حوالي العام ١٦٧٩م. يخبرنا البستاني[١] عن خليل ابن كيوان الآنف ذكره بما معناه أنه: خليل باشا المعروف بابن كيوان أمير الحاج الشامي ومن صدور دمشق المشهود لهم بإصابة الرأي والدولة الباهرة كان ذا ثروة واسعة وأملاك كثيرة ملأ صيته بر الشام توفي مسموماً بعد ثلاث سنوات من توليته عن ٦٠ سنة من عمره وكانت وفاته سنة ١٠٩٢هـ الموافقة للعام ١٦٨١ للميلاد ولم يشر البستاني إلى أن خليل باشا تسلّم ولاية صيدا بالذات. كما لم يشر إلى الجهة التي دست له السم.

ماذا عن القيسية واليمنية؟

القيسية واليمنية حزبية عربية تلبننت. وكانت امتداداً لحزبية سبقتها هي القحطانية والنزارية قامت هذه الحزبية بين الجماعات ذات الأصول اليمنية والأخرى ذات الأصول الشمالية (عرب الشمال) وقد حدثت فتنة كبيرة بين هاتين الفئتين العربيتين في عهد مروان بن عبدالملك، ولم يكن هذا التحزّب وقفاً على أهل لبنان. بل تناول العالم الإسلامي من خراسان إلى الأندلس[٢]. والتحزب القيسي ـ اليمني استغل على الساحة اللبنانية لأسباب سياسية بحتة ولو تتبعنا المسار التاريخي لهذا التعصب المدمّر لما كان عليه في الأصل، وما آل عليه آخر الأمر لثبت لنا ذلك بكل وضوح أن القيسية كان عمادها على الساحة اللبنانية: التنوخيون والمعنيون والشهابيون، وكان عماد اليمنية: آل هرموش وآل الصوّاف وآل العنداري وغيرهم وإذا علمنا أن آل علم الدين الذين تصدروا الحزبية اليمنية هم في أصلهم قيسيون زاد اقتناعنا أن

(١) دائرة المعارف، طبعة سنة ١٨٨٠، الجزء ٤، ص ٦٤٣.
(٢) نور الأندلس، الريحاني، ص ٨٧، ١٥٢، ١٥٣.

الانتساب القيسي واليمني على الأرض اللبنانية أملته ظروف سياسية مصلحية تأججت هذه الحزبية على الساحة اللبنانية وانتهت عليها، وكان من نتائجها البارزة والهامة أنها أضعفت الدروز وكسّرت سيوفهم.

كان شعار القيسيين عبارة (يا لهوبر) ومنها اشتقت كلمة (الهوبرة) التي لا يزال الناس يرددونها حتى يومنا هذا. وكان شعار اليمنيين عبارة (يا لمعروف) ولما نزحت جماعات لبنانية درزية من أصل يمني بعد معركة عين دارة الشهيرة إلى الأرض المعروفة اليوم بجبل الدروز وكان على رأس هذه الجماعة الحمدان من قرية كفرا الغرب القريبة من عالية استمر هذا الشعار بين الجماعات الدرزية في الجبل ثم أصبح مع الزمن شعار القيسيين واليمنيين من الدروز على حد سواء (بني معروف).

وادي التيم يعطي للبنان حكامه
أهم الأحداث التي مرت في البلاد
منذ وفاة الأمير أحمد المعني ١٦٩٧
إلى معركة عين دارة
بين القيسية واليمنية في ٢١ آذار سنة ١٧١١:

ذكرنا أن عهد المعنيين انتهى بموت آخر رجالهم الأمير أحمد المعني سنة ١٦٩٧، وقرر أعيان البلاد في مؤتمر عام عقدوه في سهل السمقانية، تولية الأمير بشير ابن الأمير حسين الشهابي من راشيا أميراً عليهم. وذهب وفد منهم إلى راشيا للمجيء بالأمير العتيد إلى لبنان، فجاؤوا به واستقبلته الناس بمظاهرات الفرح والابتهاج وجاء قاضي صيدا ومفتيها وأحصى التركة «متروكات الإمارة المعنية في دير القمر» فبلغت ٥٥ ألف قرشاً[1]. ثم رأت الدولة أن يولىّ الأمير حيدر ابن الأمير موسى الشهابي باعتباره ابن بنت الأمير أحمد بينما الأول ابن أخته، فكان أن أصبح الأول وصيّاً على الثاني ريثما يبلغ. وفي العام ١٧٠٦ توفي

(١) أخبار الأعيان، ج ٢، ص ٣١١ — ٣١٤.

الأمير بشير قيل دسّ له السم الأمير حيدر بينما كان في حاصبيا بزيارة للأمير نجم الشهابي فيها، وأرسلت أعيان البلاد وفداً إلى حاصبيا وجاؤوا بالأمير حيدر ليتولى الإمارة كانَ عمره ٢١ عاماً وفي العام التالي لتوليه قام بحملة عسكرية ضد زعماء بلاد بشارة الشيعة واليمنيي الحزبية فانتصر عليهم، وعينّ الشيخ محمود أبو هرموش متولياً في النبطية، فعقد الشيخ محمود وهو هناك صداقة مع والي صيدا بشير باشا، وسعى بشير باشا لدى الدولة بمنح الشيخ محمود أبو هرموش لقب باشا فوفق ومنح الشيخ الباشوية، وتواتر للأمير حيدر أن الشيخ أبو هرموش يظلم الرعية أو بعبارة أصح يقوّي مركزه هناك فطلبه لإجراء محاسبة معه فهرب إلى صديقه بشير باشا، ثم كانت حملة عسكرية من عدادها محمود باشا ضد الأمير حيدر نفسه اضطرته للهرب من البلاد والالتجاء إلى «مغارة فاطمة في بلاد الهرمل» وبقي متخفياً هناك مدة من الزمن ثم دعته الجماعات القيسية إليها فجاء والتف حوله مؤيدوه وتهيأ الجو في البلاد لمعركة كبرى بين اليمنية الحاكمة والمدعومة من الدولة وعلى رأسها محمود باشا أبو هرموش والجهات التي تحازبه خاصة آل علم الدين الذي كان قد تزوّج بإحدى بناتهم، وبين الجماعات القيسية القوّية الذي كان قد أرهقها أبو هرموش في حكمه وعلى رأسها الأمير حيدر، وكانت خطة محمود باشا تقضي بضرب التجمع القيسي في المتن بتوجيه عسكر باشا صيدا إلى بيت مري وعسكر الشام إلى محلة المغيثة وهو بمن معه إلى بلدة عين دارة، ثم تتجه القوى الثلاث في يوم واحد إلى المتن وتقاتل الأمير حيدر ومن معه في تلك الناحية.

كان الأمير حيدر يترقب تطورات الأحداث وعلى بيّنة من نوايا خصمه فاتخذ قراراً مع جماعته بأن يكونوا البادئين بالهجوم على طريقة «الهجوم أحسن وسائل الدفاع» وكان عماد قوته من اللمعيين «كانوا لا يزالون يومها دروزاً» والعماديين وآل الخازن حكام كسروان، ودهمت الجماعات القيسية ليلاً عين دارة ودارت هناك رحى معركة كبيرة فاجأ فيها القيسيون خصومهم وانتصروا عليهم انتصاراً ساحقاً قتل في هذه المعركة ابن الصواف كما قتل غيره كثيرون، وبعد نهاية المعركة اقتيد محمود باشا أبو هرموش والأسرى من جماعته

إلى الباروك وهناك أمر الأمير حيدر، بقطع إبهام رجليه ورأس لسانه ولم يقتله لأنه كان محذراً قتل الباشا على يد أمير. من نتائج هذه المعركة: تعززت القيسية وتركزت سلطة الأمير حيدر، أما نتائجها على صعيد آخر فكان:

- إضعاف الدروز ككل وتشتيت قدرتهم.
- تركيز سلطة الشهابيين ونشوء قيادات جديدة في البلاد.
- نشوء جبل الدروز على يد الحمدان وجماعته التي نزحت من قرية كفرا الغرب القريبة من عاليه لأنهم كانوا من الحزب اليمني.

تنازل الأمير حيدر عن الإمارة لولده الأمير ملحم في العام ١٧٢٩، وتوفي في العام ١٧٣٢ في دير القمر، فكان من شماتة أمراء بلاد بشارة أن خضبوا ذيول خيولهم بالحناء فحفظها لهم الأمير ملحم وعاقبهم عليها سنة ١٧٤٣، على حد قول صاحب أخبار الأعيان. كان الأمير ملحم من أقوى الأمراء الشهابيين وأشجعهم، وكانت تقول الناس يومذاك إن أقوى الرجال ثلاثة: «الأمير ملحم شهاب وضاهر العمر الزيداني وعبدالله الشتجي والي دمشق، عاصر الأمير ملحم أسعد باشا العظم والي دمشق وكان أسعد باشا يكنّ عداءً شديداً للأمير ملحم وكان من كرهه له أنه عندما كان يأتيه كتاب من الأمير يضع أصبعه على اسمه كي لا يقرأه(١) وقد جرد أسعد باشا حملتين عسكريتين كبيرتين بقصد النيل من الأمير ملحم وفشل في المرتين. في المرة الأولى بقي الأمير ملحم يطارد الباشا وعسكره إلى الشام وفي المرة الثانية تصادما قرب بر الياس فانتصر الأمير ملحم وانهزم أسعد باشا وبقي الأمير يلاحقه حتى سهل الجديدة وفي هذه المرة أوقع في صفوفه كثيراً.

في عهد الأمير ملحم جرت المناظرة الشهيرة بين الشيخين علي جنبلاط ويزبك العماد وأدت تلك المناظرة إلى التحزب المعروف باليزبكية والجنبلاطية. ضم الأمير ملحم بيروت لإمارته وسكنها وذلك بعد أن هيأ له احتلالها الشيخ شاهين تلحوق. وفي العام ١٧٥٤ تنّصر الأمراء اللمعيون الدروز باستثناء قلة

(١) أخبار الأعيان، الشدياق.

منهم، كما تنصّر كثيرون من أمراء بني شهاب السنيين، وتنازل الأمير ملحم لأخويه أحمد ومنصور بسبب حالته الصحية ثم توفي في العام ١٧٦١ وجرت منازعة على الولاية بين ابنه الأمير يوسف وأعمامه، وكان الأمير يوسف شاباً يافعاً لاقى عطفاً وتأييداً من الجماعات الدرزية بسبب ميله للشيخين علي جنبلاط وكليب النكدي، لم يعش هذا التعاطف كثيراً بين الفئتين وسرعان ما نزح المشايخ النكدية إلى وادي التيم تاركين بلدتهم دير القمر واستمروا حتى أصلح الحال بينهم وبين الأمير الحاكم.

ضريبة الشاشية
يفرضها الأمير يوسف سنة ١٧٨٤:

فرض الأمير يوسف ضريبة قيمتها قرشين على اللبنانيين أسماها ضريبة الشاشية وكلف الأمير مراد منصور أبو اللمع بتحصيلها. فكانت هذه الضريبة وكأنها مفروضة بشكل خاص على الدروز، لأن الشاشية هي لباس الرأس التقليدي لشبابهم وشيوخهم فرأوا بذلك إهانة فرضت عليهم دون مبرر من رجل هم جاؤوا به إلى الحكم، وأحدثت ردة فعل سيئة بينهم، ويشير الشدياق في أخبار الأعيان إلى أن الشيخ عبدالسلام العمادكان أبرز المعارضين لها، وأشار أيضاً إلى أن اجتماعاً عقد في محلة خان الحصين لمقاومة الضريبة والتحريض على إلغائها وأن أهالي الشويفات طردوا الجباة وتمنعوا عن الدفع، وأشار مؤرخون آخرون أن ردة الفعل القوية لمقاومة ضريبة الشاشية كانت من كفرسلوان وأن بني حاطوم فيها طردوا الجباة وضربوهم. رأى الأمير يوسف بعدها أنه مساق لحرب مع أهل البلاد بسبب ضريبته فألغاها.

الجزار باشا،
أو الكجك الجديد:

في سنة ١٧٧٠ قدم على الأمير يوسف الشهابي رجل بشناقي هارب من خدمة سيده في مصر يدعى أحمد الجزار فرحب به الأمير يوسف ووضعه بخدمته ثم جعله فيما بعد مدبره على مدينة بيروت، فأخذ الجزار يعمل على تحصين

المدينة وأخيراً أعلن عصيانه فيها وتمرد، فاضطر الأمير يوسف للاستعانة بالأسطول المسكوبي (الروسي) العامل في المتوسط بتصرف الشيخ ضاهر العمر الزيداني حليف الملكة كاترين ضد الدولة العثمانية، فتقدم الأسطول الروسي واصطفت مراكبه أمام بيروت وأخذ يطلق النار من مدافعه على المدينة مما اضطر الجزار للتسليم عن يد ضاهر العمر، ذهب الجزار بعدها إلى الآستانة ودخل في خدمة الدولة شأن سابقه الكجك تماماً. . . ، وأوفدته الدولة العلية والياً على صيدا بلقب باشا وبرتبة وزير، وكان الجزار عالماً بأحوال البلاد والعباد فاتبع سياسة ضرب الأمراء اللبنانيين بعضهم ببعض، وما لبث أن قام بحملة عسكرية على بيروت وانتزعها من يد الأمير يوسف الشهابي وصادر أملاك الشهابيين فيها، ثم ورده أمر بتركها ففعل وانسحب بحراً إلى عكا وأوفد دالاتيته براً، فأرسل الأمير يوسف مشايخ النكدية لنصب كمين في السعديات لدالاتية الجزار المنسحبين، فكان أن تغلب الدالاتية على المشايخ النكدية وقتلوا منهم ومن رجالهم، واستاقوا اثنين أسرى معهم إلى الجزار، فأمر بسجنهم بسجن عكا وتنصل الأمير يوسف من أمر الكمين فلم يقتنع الجزار، واستمر الشيخان النكديان في أسرهما حتى قيّض لهما رجل لبناني يعمل هناك يدعى حنا بيدر، أخرجهما من كوّة في سقف السجن وجاء بهما إلى لبنان فكافأه المشايخ النكدية بأن أعطوه قرية الديشانية له ولذريته من بعده[1].

كان الأمير بشير الشهابي شاباً يافعاً يعمل بخدمة عمه الأمير يوسف، أرسله عمه لتسوية قضية مع الجزار باشا في عكا قائلاً له إذهب يا بني فأجابه: أخاف أن أذهب إبنك وأعود ابن الجزار. وهكذا كان، رجع الأمير بشير والياً جديداً للبلاد بأمر من الجزار وأخذ يطارد عمه الأمير يوسف، ووقف الجزار باشا كالدّلال يبيع ولاية الشوف بمزايدة طوراً علنية وتارة سرية وهو يقبض الثمن من كل متقدم من الأمراء اللبنانيين واستمر يزايد. . والشعب اللبناني يدفع الثمن إرهاقاً وتنكيلاً، وانتهى الأمر بأن أعدم الجزار الأمير يوسف وبقي الأمير بشير والياً على البلاد.

---

(١) أخبار الأعيان، والغرر الحسان.

الفصل الرابع

حملة محمد علي باشا الكبير على سوريا ولبنان

أطل محمد علي باشا على السوريين واللبنانيين بوجه لا يختلف بشيء عن وجه السلطان العثماني، وكأن الغاية من حملته الكبيرة على بلادنا كانت: استبدال سلطان قديم بسلطان جديد، وإحلال نفوذ ناشىء محل نفوذ هرم، مع استمرارية سياسة الظلم والاستبداد التي درج عليها العثمانيون والتي كانت سبباً لنفور الناس منهم، وميزت عهدهم الثقيل بطابع التأخر والظلم[1]. وكانت اصطدامات مسلحة بين أهل البلاد وجيش العزيز نال الدروز منها حصة الأسد، وقد ركز محمد علي على الدروز بشكل خاص حتى غدت حملته وكأنها موجهة ضدهم لا ضد العثمانيين بالرغم من أن حليفه الأمير بشير الشهابي كان يعرف بأمير الدروز. أما من الوجهة العسكرية، فلم يكن للدروز بعض قدرة جيش العزيز وإمكانيته الكبيرة. لقد تمكن هذا الجيش القوي الناشىء من دحر العثمانيين، وأخذ يقرع أبواب عاصمتهم بقبضته الفولاذية قرعاً أثر في أعصاب أوروبا كلها، فوقفت ضده.

كانت حملة محمد علي مؤلفة من «١٨ آلاي من المشاة، وثمانية آلايات[1]

---

(١) ملاحظة: المقصود في القول هو الديكتاتورية في تطبيق نظام يخدم الحاكم وليس الشعب، وما تجدر الإشارة إليه أن محمد علي أوجد نظاماً إدارياً كان أفضل ألف مرة من نظام الإدارة العثماني الذي زاد في سوئه خلقية الحاكم. أما محمد علي، فقد حارب المحسوبية وحاكم المرتشي بالإعدام. بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣ ص ٩٨.

(٢) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٢ ص ٥٩.

خيالة، وآلاي واحد من المدفعية، ووحدات من المهندسين واللغامين» ما يبلغ عديده سبعين ألف جندي نظامي. أما الدروز فكانوا جماعة من المزارعين يعتمد المقاتل منهم على إمكانياته المحدودة لشراء ما يلزمه من عتاد وسلاح وذخيرة، ولما طلب العزيز من الأمير بشير تجنيد ألف ومائتي شاب درزي لبناني، قدر المؤرخون هذا العدد بأنه سبع عدد الدروز اللبنانيين[١].

تحاشى الدروز كثيراً إن في لبنان أو في حوران مجابهة جيش العزيز. ولتحاشي الصدام ودرءاً للخطر، ساهموا معه بمعارك نابلس وحمص وقدموا ألف شاب لبناني منهم للخدمة العسكرية، ثم قدموا ما لديهم من سلاح ٥١١٣ بندقية، ووعد دروز حوران بعد كل اتفاق بينهم وبين الدولة الجديدة تقديم غلة مائتي فدان إن هي بقيت عند وعدها لهم بخصوص التجنيد والتجريد. ولكن محمد علي وابنه إبراهيم وحاكم سوريا العام محمد شريف باشا أغلقوا في وجههم جميع الأبواب وسفهوا جميع الحلول ووضعوهم بالتالي أمام أحد أمرين لا ثالث لهما: إما التسليم المطلق لإرادة العزيز الذي كان يطمح على ما يبدو لاستثمار شجاعتهم[٢] بجعلهم جنوداً يحاربون تحت سنجقه لتتوسع امبراطوريته وتمتد إلى ما هو أبعد من حدود مصر والشام، وإما «الخراب وتشتيت الشمل»[٣] على حد قول العزيز لهم.

في تلك الفترة الحرجة والصعبة من تاريخ الدروز قابل القنصل البريطاني ـ الذي كان يدعي حماية الدروز ـ قابل بوغوص بك وكيل وزارة خارجية محمد علي وقال له: لماذا اغتصاب الدروز وهم قائمون بالخدمة في وقت عم به العصيان؟ فكان جواب العزيز على ذلك: لقد آن الأوان يا بوغوص لدك جبل الدروز دكاً حتى يعود قاعاً بلقعاً[٤].

(١) أخبار الأعيان، ج ٢ ص ٤٥٤.
(٢) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣ ص ١٣٣.
(٣) نفس المصدر، ص ١٣٠.
(٤) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣ ص ١٣٢.

من خلال ذلك نرى أنه لم يعد أمام الدروز من خيار، وفرض عليهم فرضاً أن يركبوا هذا المركب الصعب، فقاتلوا بشجاعة وتحملوا ما تحملوه من تقتيل وتشريد وتشتيت ثمناً لحريتهم وبقائهم، ولكن للأسف الشديد لم تستغل بطولاتهم ونتائج هذه الحرب لصالح الوطن يومذاك، بل استفاد منها أناس لا يستحقونها هم العثمانيون، فكان أن عاد وجودهم البغيض إلى بلادنا ثانية وعلى أسوأ مما كان، وكانت معارك اللجاة أولى المؤشرات العملية لفشل حملة محمد علي باشا على لبنان وسوريا.

وجه آخر أطل به محمد علي على السوريين واللبنانيين جعلهم يترحمون على الولاة الأتراك القساة، قدم لنا مخايل مشاقة وصفاً له ألا وهو محمد شريف باشا حاكم سوريا العسكري[١]، قال: كان محمد شريف باشا كلي القساوة على المذنبين لا يشفق ولا يرحم، أمات الكثيرين بضرب الكرباج فالذي يستحق ذنبه عشرين عصا يضربه خمسماية كرباج، وكل كرباج يساوي عشرين عصا، ويكون الضرب أمامه. وعنده لوظيفة الضرب شاب مصري كلي الرداة والقساوة اسمه (علي) يتفاخر بأنه يستطيع أن يخرج الدم من أرجل المضروب في رابع ضربة[٢]، انتهى.

كان العزيز قد أعفى دروز الجبل من التجنيد لأنهم على حدود البادية ولأن جيرانهم من الأعراب خارجون على الدولة متمردون على أوامرها، ثم عاد ورجع عن وعده وأوعز للحكمدار محمد شريف باشا بتجنيد الدروز وتجريدهم، فاستدعى الحكمدار إليه شيخ مشايخ الجبل الشيخ يحيى الحمدان ليبلغه الأمر، وجاء الشيخ يحيى إلى دمشق ليقابل الحكمدار، وكان موجوداً ساعتئذ في مجلسه مع أعيان دمشق وسراتها، فأبلغه أمر العزيز بهذا الخصوص فاسترحم الشيخ الحكمدار وذكّره بوعد الدولة للدروز، ثم عاد وشرح له الوضع الأمني مجدداً حول الجبل ووعده بأنه على أتم استعداد لتقديم غلة مائتي فدان للدولة

(١) منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، ج ٢ ص ١٢٠.
(٢) ذات المصدر.

المصرية إذا هي بقيت عند وعدها الأول، فنهض محمد شريف من مقعده غاضباً، وتقدم نحو ضيفه وصفعه على وجهه أمام كل من في المجلس[١]، فكان ثمن هذه الصفعة أحداث رهيبة هي الأحداث المعروفة بحرب اللجاة.

حرب اللجاة:

رجع الشيخ يحيى الحمدان إلى الجبل وأخبر قومه بكل ما وقع له مع محمد شريف باشا، وكان الشيخ أبو حسين إبراهيم الهجري أحد الكبار في الدروز يتوقع ذلك فلم يفاجأ به، وقال رحمه الله، لمن حوله: «لقد قربت المحنة...».

كان الشيخ أبو حسين إبراهيم الهجري من المتعبدين البررة وكان له من تقواه وصفاء نفسه ما يسمح له بالمكاشفة، أي بالاستشراق، والاستشراق أمر يقره العلم تماماً كما هو معلوم، ولا تزال الناس تتناقل أقوالاً عن أحداث كثيرة تنبأ الشيخ بها قبل وقوعها وكان صادقاً، وكان توقعه الصادق موضع تعجب الناس حتى أن المؤرخ المرحوم الدكتور أسد رستم اعتقد فيما كتبه أن معلومات الشيخ عن إبراهيم باشا وحملته كانت تأتيه من مصادر موثوقة من لبنان[٢]، والثابت أن الشيخ كان يكاشف.

وقف أعيان الدروز في الجبل إزاء هذا الخطر المحدق وقفة الرجل الواحد وشدوا أزر زعيمهم الشيخ يحيى الحمدان. من هؤلاء الزعماء: الشيخ فندي عامر، والشيخ إبراهيم الأطرش، والشيخ أبو حسين درويش وغيرهم ثم اتفقوا مع عرب السلط وهيأوا للأمر عدته.

... كان محمد شريف باشا يملك بعض القرى والمزارع في البلاد الحورانية، والقول للدكتور مشاقة، والعجيب في الأمر هو: متى تملك محمد شريف باشا وهو الحديث الوجود في هذه البلاد...

(١) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣ ص ١٣٦.

(٢) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣ ص ١٣٦.

فهاجم خيالة الدروز هذه القرى ونهبوها وقتلوا حراسها، ولما علم الحكمدار بما جرى ثارت ثائرته وأمر بإرسال حملة عسكرية لتأديب الدروز، وتكررت الحملات على النحو التالي[١]:

□ **الحملة الأولى**: أرسلها الحكمدار محمد شريف بقيادة علي آغا البوصيلي وكان قوامها ثلاثمائة خيال وعند دخولها البلاد انقض عليها الدروز ومزقوها شر ممزق وهرب علي آغا البوصيلي ناجياً بنفسه ورجع إلى دمشق يخبر سيده بما جرى. في هذه الآونة الحرجة من تاريخ دروز الجبل أشار الشيخ أبو حسين إبراهيم الهجري بوجوب قيام الجميع إلى اللجاة والاعتصام فيها ريثما تزول المحنة التي قال بصددها: «إنها قريبة الأجل»[٢].

□ **الحملة الثانية**: تاريخها أول كانون الأول من سنة ١٨٣٨ وبمحاولة منه لإنقاذ الموقف أرسل محمد شريف حملة جديدة قوامها ستة آلاف مقاتل بقيادة محمد باشا مفتش الجيش العام، تصدى الدروز لهذه الحملة في بصرى، فضربتهم بالمدافع وانسحبوا من أمامها فتابعت الحملة سيرها حتى وصلت إلى قرية عاهرة وعسكرت فيها حول النبع، ابتدأت المعركة في سويمط وبعد قتال ضار تمكن الدروز من الفتك بالحملة فتكاً ذريعاً وغنموا جميع ما لديها من أسلحة ومعدات، وقتل محمد باشا قائد الحملة، وانضم إلى الدروز ثمانماية مقاتل من دروز لبنان وشباب نابلس الذين كانوا مع الحملة.

□ **الحملة الثالثة (منتصف شهر شباط ١٨٣٨)**: لما علم الحكمدار محمد شريف باشا ما حل بالحملة. ركب حالاً وتوجه إلى حوران يجمع فلول الجيش ونزل في قرية تبنة ينتظر مدداً جديداً. جاء آلآي المشاة الغارديا الثاني من حماه، وآلآي المشاة الرابع عشر من أنطاكية إلى دمشق، ثم انتقلت هذه القوة من دمشق إلى حوران في العاشر من شهر شباط وتبعها أحمد منكلي باشا في اليوم التالي، أما إبراهيم باشا، فقد بقي في حمص لأسباب صحية «الدروز يقولون

(١) نفس المصدر.

(٢) نفس المصدر.

أنه كان موجود وأنه قاد الجيش بنفسه وأن تغييبه عن المعركة كان لحفظ ماء الوجه فقط من قبل بعض المؤرخين»[١]، ولما وصلت القوى إلى محمد شريف باشا كانت قد بلغت عشرين ألف مقاتل[٢]، فاتجه بها محمد شريف نحو اللجاة وتوغل مسافة يوم كامل دون أن يرى أحداً، ثم تابع سيره في اليوم التالي حتى الساعة الثالثة من النهار.

كان الجيش تحت مراقبة الدروز منذ دخوله اللجاة وكانوا يرصدون تحركه مرحلة مرحلة، وكانوا يدركون الخطر المحدق بهم وخطورة ما هم قادمون عليه، وهم قلة فقيرة أمام هذا الجحفل الجرار الغاضب المصمم على إبادتهم، ولما حددوا ساعة الهجوم على العسكر انطلقت أصواتهم تردد: «يا بو إبراهيم.. يا بو إبراهيم...» وانقضوا على الجيش انقضاض الأعصار الكاسح «وشوهد خيال يمرح بين الفراعنة كالنار المشتعلة والبرق الخاطف...»[٣] كانت المفاجأة كبيرة ومحكمة تساقطت العساكر بالمئات «وجرح أحمد منكلي باشا ثلاثة جروح وتقنطر محمد شريف باشا وكاد يهلك لولا معونة علي آغا البوصيلي»، وقتل وأسر من الجيش حسب الإحصاءات الرسمية للدولة ٤٧٥٨ بين قتيل وجريح ومفقود[٤] وخسر الدروز ثلاثمائة من أصل ألفين[٥]، جرت هذه المعركة قريباً من داما في اللجاة.

كانت ردة الفعل لهذه المعركة كبيرة جداً على الصعيدين العالمي والمحلي، واهتزت دولة محمد علي هزاً عنيفاً، وكان الشيخ يحيى الحمدان لا يزال يتذكر إهانته وصفعه على وجهه أمام أعيان الشام، فكتب إلى أصحاب الشأن فيهم رسائل يقول في بعض فقراتها: «بخصوص العساكر الذين فاتوا علينا..

(١) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣ ص ١٣٧.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر، ص ١٣٨، نقل الدكتور رستم هذا القول عن مخطوطة دينية وجدها في حوران.
(٤) نفس المصدر.
(٥) نفس المصدر.

بحياتكم البركة.. وقد فعلنا ما لم يفعله أحد قبلنا لا أكبر ولا أصغر». بعد الذي جرى، رأت الدولة رأيان: الأول يقول بإنهاء النزاع مع الدروز بالتي هي أحسن واستعادة الأسلحة التي غنموها من العسكر، والرأي الثاني يقول: بقيام حملة جديدة عليهم عند اقتراب فصل الصيف ـ فصل الجفاف والعطش في اللجاة: بمعنى أن من يسلم من السيف لا يسلم من الصيف ـ نفس المخطط الذي كان رسمه كسرى لضرب هاني بن مسعود والبكريين في ذيقار منذ أكثر من ألف ومايتي سنة ـ وانتصرت الفكرة القائلة باستعمال القوة مجدداً لدى إبراهيم باشا وأخذ يعد العدة ويجمع الجند من هنا وهناك مبدياً حرصه هذه المرة أن يكون جنوده من أبناء الجبال، فوقع اختياره على أهل جزيرة كريت، وأرسل إلى حاكم الجزيرة مصطفى باشا يطلب إليه إعداد الرجال وإرسالهم إلى بر الشام، كما طلب من الأمير بشير الشهابي تزويده بأربعة آلاف مقاتل.

بينما كان إبراهيم باشا يعد العدة ويستقدم المقاتلين، كان الدروز بدورهم يحسبون ويتدبرون للمواجهة المتوقعة بينهم وبين العزيز، فأوعزوا إلى شبلي العريان الذي كان يقاتل معهم، في اللجاة أن ينتقل إلى إقليم البلان ووادي التيم لمحاربة الدولة هناك بقصد التخفيف عن جبهة حوران، فجاء شبلي بمائتي خيال ونزل في قرية مجدل شمس متخذاً منها قاعدة لأعماله الحربية.

معركة دربل الفوقا، ٤ نيسان ١٨٣٨[١]:

كانت خطّة الدروز الجديدة القاضية بفتح جبهة ثانية في خاصرة جيش العزيز ـ خطة حربية رائعة ومن أكثر التدابير حكمة وواقعية ـ وكان الدروز في جميع أوطانهم يعيشون تلك الأيام بأعصاب مشدودة ويتسقطون أخبار حوران، وحكاية الشيخ أبو حسين علي شقير الذي ذهب من عيحا باتجاه حوران ينقل على راحلته باروداً ورصاصاً لمساعدة مقاتلي اللجاة، أحسن تعبير عن شعور الدروز في لبنان ووادي التيم وإقليم البلان. وكان انتصار اللجاة الذي انتشرت

(١) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣ ص ١٤١.

أخباره بسرعة البرق قد أعطى الدروز زخماً معنوياً واندفاعاً لمساعدة دروز الجبل، فتحركوا ضد الدولة وأنشبوا عليها الحرب في أماكن كثيرة.

كانت قوة من الدروز قدر عددها بسبعماية وخمسين مقاتل في الإقليم، فجرى صدام بينها وبين قوة مصرية مؤلفة من الآلاي السادس مشاة وعساكر السكبان بقيادة أحمد بك أحد قادة جيش العزيز، وكانت القوة قادمة إليهم عن طريق سعسع، حصل الصدام في قرية دربل الفوقا فتغلب جند الدولة على الدروز الذين خسروا عدداً غير معروف من رجالهم وخسر الجيش ١٣ قتيلاً و ٦٥ جريحاً(١)، ثم اصطدمت القوة ذاتها بشبلي العريان واضطرته للانكفاء باتجاه وادي التيم، فوصل إلى حاصبيا ومنها انتقل إلى بلدته راشيا فوصلها مع الفجر وقصد دار الحكومة فيها وذبح متسلمها ابن الجعفري. وأحدث وصول الشيخ شبلي إلى وادي التيم هياجاً بين الناس فتجمع لديه حوالي الأربعة آلاف مقاتل.

معركة راشيا:

كان لوصول الشيخ شبلي إلى راشيا صدى كبيراً في أسماع الدولة وخاصة لاجتماع هذا العدد الكبير من الناس لديه، فقرر إبراهيم باشا أن يستبق الأحداث بضرب هذا التجمع الجديد، فأرسل إلى راشيا ألف جندي وأرسل لدعمهم ماية مدفعي مع مدافعهم، وما إن وصلت هذه الحملة إلى راشيا حتى تلقاها شبلي بشدة وحاربها حتى هزمها وشتتها، فانهزم الناجون منهم باتجاه القلعة واعتصموا فيها، ثم وصل المدفعيون بوقت لاحق وتمركزوا في وعر يقع في أعالي البلدة ـ المنشار ـ صبر عليهم الدروز حتى جاء الليل، «ثم أفلتوا عليهم ثمانين ثوراً، فظن المدفعيون أنهم دروزاً والتهوا بهم، عندها أدركهم الدروز من الوراء فقتلوا معظمهم وأسروا الباقي» وشددوا الحصار على من في القلعة وقطعوا عنهم كل اتصال خارجي، فاضطر هؤلاء أن يأكلوا لحوم

(١) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣ ص ١٤١.

الخيل. وفي إحدى الليالي تركوا القلعة وانهزموا باتجاه البقاع، فلحقهم الدروز وظلوا يطاردونهم حتى قرية بر الياس فقتلوا قسماً وجاؤوا بالقسم الآخر أسرى إلى قرية المحيدثة، حيث قتلوهم فيها(١).

ماذا عن إبراهيم باشا المصري؟

«هو ابن محمد علي باشا عزيز مصر ولد في العام ١٧٨٩ في إحدى مدن رومانيا وباشر مهامه العسكرية في سن مبكرة، شارك في حرب المماليك وحارب الوهابيين في حملة كبيرة جردها عليهم إلى الحجاز فانتصر عليهم وأسر أميرهم عبدالله ابن سعود وقتل خمسماية من شيوخهم، هاجمه فارس نجدي وكاد يقتله لولا تدخل رجاله في الوقت المناسب، كان عمره يومذاك ٢٧ سنة، شارك في حروب المورة إلى جانب السلطان العثماني ضد الشعب اليوناني الذي أعلن الثورة على الأتراك في سبيل حريته واستقلاله، وانتصر إبراهيم باشا على اليونان وأجرى بينهم مجزرة كبيرة ثم تدخلت الدول الأوروبية لصالح اليونان ورجع ابراهيم باشا بعد أن خسر هناك ثلاثين ألف جندي، قاد الحملة التي جردها والده على الأتراك في بر الشام واحتل عكا التي كانت قد تمنعت على نابليون بونابرت ودخلها عنوة في ٢٧ أيار ١٨٣٢ وأحرز انتصارات كبيرة على العثمانيين في حمص وبيلان وتقدم إلى قونية فواجهه جيش عثماني كبير بقيادة السردار رشيد باشا فهزمه وأسر السردار نفسه وأرسله إلى مصر فتدخلت الدول الأوروبية للمرة الثانية ضد المصريين وعقدوا معاهدة كوتاهية وأجبروا العزيز على القبول بها.

قيل في إبراهيم باشا إنه «أعظم قائد عسكري أنجبه الإسلام في القرن التاسع عشر كان جندياً بكل معنى الكلمة شديد الهيبة شجاع حازم يمقت المداهنة وكان عمره يوم وفاته ٥٩ سنة»(٢).

(١) نفس المصدر، ص ١٤١ و١٤٢.
(٢) دائرة المعارف، البستاني، ج ١.

معركة وادي بكّا الكبرى..
أو معركة الأخوة (٨ أيلول سنة ١٨٣٨)[1]:

ها نحن نؤرخ هذه المعركة بعد مرور أكثر من ١٣٥ سنة على حدوثها معتمدين في ذلك على الأقوال المدوّنة بالدرجة الأولى، وبالدرجة الثانية على أقوال المتقدمين من بني معروف الذين توارثوا أخبارها عن سابقيهم، وبالرغم من مرور هذا الزمن الطويل على معركة وادي بكا المجزرة، يشعر المرء وكأن صداها لا يزال يتردد في سماء وادي التيم كما لا تزال أخبارها متواترة بين الناس حتى يومنا هذا.

كانت معركة وادي بكا من أهم وأقسى المعارك التي خاض الدروز غمارها ضد السر عسكر إبراهيم باشا بعد معركة اللجاة الكبيرة ولكن لم يكتب عنها بالقدر الذي تستحق، بالرغم من أن مؤرخي أحداث ذلك الزمان نوهوا بأهميتها وبما تميّزت به من قسوة وعنف مكتفين منها بالاختصار، اعتقد الدكتور أسد رستم الذي أطلع بنفسه على محفوظات الحكومة المصرية لذلك العصر أنه أشير إليها بتلك الوثائق باسم (معركة بره ده) وذلك بموجب بلاغ صار عن السر عسكر نفسه تاريخه الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٢٥٤هـ الموافقة للسادس من تموز سنة ١٨٣٨م ـ قلت ـ ربما المقصود هو نهر بردى الذي لا يبعد كثيراً عن تلك المحلة التي جرت فيها الواقعة الكبيرة، ولكن الفارق الزمني البالغ ٦٢ يوماً[2] يجعلنا نتسائل عن التاريخ الصحيح لمعركة وادي بكا التي نحن بصددها.

كان إبراهيم باشا بطريقه إلى وادي التيم عندما وصلته أخبار حملته في راشيا التي قضى عليها الدروز فقفل عائداً إلى دمشق واتخذ خطة حربية قرر بموجبها ضرب المنطقة المضطربة (وادي التيم) بقوة تطبق عليها على شكل فكّي كماشة من الشمال والجنوب، وجهز جيشاً كبيراً لهذا الغرض جعله مجموعتين:

(١) كتاب التنشئة الوطنية الإنسانية، ص٣٢٣.
(٢) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣، ص١٤٣.

□ المجموعة الأولى: ترسل إلى وادي التيم عن طريق دمشق بانياس حاصبيا (فك الكماشة الجنوبي).

□ **والمجموعة الثانية**: قادها بنفسه على طريق دمشق ـ الديماس ـ وادي بكا ـ عيحا. وأتذكر هنا قولاً سمعته في صغري من بعض المتقدمين في قريتنا ينطا أن إبراهيم باشا مر بجيشه على الطريق السلطاني الواقعة شرقي ينطا «وكانت النوبة عبتدق قدام العسكر».

وصل إبراهيم باشا إلى سهل عيحا ونزل هناك وقام بأعمال التحصين وتركيز المدافع فجاء الدروز وتحصنوا قبالته في حرش مواجه من شرقيه «وانتشبت الحرب بينهما فلم يفز منهم بطايل»[1].

كان الدروز قد أثاروا الاضطرابات ضد الدولة في إقليم البلان ووادي التيم في الوقت الذي كانت فيها جبهة اللجاة مشتعلة، ففي سعسع تصدوا للعسكر ونهبوا عشرين حمل جبخانة، واشتبكوا بقتال مع الأمير مجيد حفيد الأمير بشير الذي كان يقاتل إلى جانب إبراهيم باشا قرب بيت جن وكانت جماعتهم حوالي الألف راجل وأربعماية خيال فأرسل لقتالهم الآلاي السادس مشاة كما سبق ومر معنا. معركة دربل ـ وتعرضت خيالة المصلحة (الحكومية) «للسلب قرب قريتي عين قنيا وشويا»[2] «وعمد بعض المقاتلين الدروز من أهالي قريتي ينطا وحلوة وهما من قرى دمشق الدرزية إلى قطع طريق الشام بيروت»[3] والمقصود بكل هذه الأعمال كان تخفيف الضغط عن جبهة اللجاة المتوقع تأججها من جديد.

كانت أخبار معارك اللجاة والإقليم ووادي التيم بين إبراهيم باشا والدروز قد ألهبت الخواطر وأذكت المشاعر في جبل لبنان. فتنادوا فيما بينهم

(١) بشير بن السلطان والعزيز، ج ٣، ص١٤٢.
(٢) نفس المصدر، ص ١٤١.
(٣) نفس المصدر، ص ١٣٩ (وردت في المصدر) عبارة: الاشقياء.

للمشاركة بهذه الحرب إلى جانب أخوانهم، وجهزوا حملة عسكرية انتقلت إلى وادي التيم الذي كانت تتجمع في أفقه سحب الحرب متحولة عن حوران واللجاة.

ماذا عن الحملة اللبنانية؟

كان على رأس حملة رجال لبنان أو الحملة اللبنانية الشيخ حسن جنبلاط والشيخ نصر الدين العماد، أما عديدها فبلغ حوالي الألف وخمسين مقاتل بين فارس وراجل، وما تجدر الإشارة إليه أن إبراهيم باشا كان قد جمع السلاح من اللبنانيين منذ ثلاث سنوات خلت أي في العام ١٨٣٥. جمع حينذاك ٩٦٤٧ قطعة سلاح من مسيحيي الجبل. و٥١١٣ قطعة من دروزه[1]، وبالرغم من ذلك تمكن الدروز من تزويد حملتهم بكل ما تحتاجه من سلاح وما تعوزه من ذخيرة.

كان الشيخ نصر الدين العماد على غير ودّ مع الأمير بشير الشهابي «فجاء إليه قبيل ذهابه إلى وادي التيم وصالحه وقبض منه صلة. عربوناً من الأمير على صفاء خاطره» وليس هناك ما يشير إلى أن الأمير بشير اعترض على الحملة أو عرقل سيرها، ويبرر ذلك الدكتور رستم بقوله إن الأمير كان قد سئم سياسة إبراهيم باشا التي ساوت بين عدوّه وصديقه وآخرون قالو إنه كان على علم بالنتائج.

بعد مسيرة يوم كامل وصل رجال الشوف إلى وادي التيم وحطوا رحالهم على نبع منسيا القريب من قرية ينطا فاستراحوا على النبع ثم توزعوا في محلة قريبة منه تدعى (القلعة الصعبة) ووضعوا مراقبين باتجاه منافذ وادي بكا ووادي منسيا لرصد كل حركة عبر تلك الأودية التي كانت تشكل طرق التموين الرئيسية لإبراهيم باشا المعسكر في سهل عيحا.

جولة أفق:

ما دعي بالقلعة الصعبة، هو كناية عن موقع مرتفع عن سهل منسيا مليء بالأخاديد العميقة والصخور الكبيرة وباستطاعة من فيه التحكم في منافذ وادي

(١) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣، ص ١٣٣.

بكا ووادي منسيا، ثم السيطرة على مشارف وادي القرن الغربية بأقل من نصف ساعة. ومن قول متواتر إن رجال الحملة اتخذوا لهم هناك موقعين متقابلين: الأول في القلعة الصعبة الآنفة الذكر. والثاني في مرتفع مقابل لها يفصل بينهما سهل منسيا الضيق بعرض لا يزيد عن ألفي متر. ويفصل (الموقع الثاني) عن وادي القرن مرتفعٌ عالٍ. صخرّي القمة توجد على سطحه آثار لقلعة قديمة تدعى (قلعة إدريس) فيما أراه أن الشيخ نصر الدين العماد كان يعرف تلك الحزون جيداً عندما كان ملاحقاً من قبل عسكر الأمير بشير وكان قد تخفّى مدة في مكان دُعيَ (إحدى قرى دمشق الدرزية) وكنا قد رأينا أن هذه التسمية أعطيت لقريتي حلوة وينطا، كما أن كثيرين من رجال الحملة كانوا أيضاً يعرفون تلك الناحية من خلال سفرهم الدائم بين لبنان وحوران، وعلى كل حال كان تمركز الدروز في تلك الناحية مختاراً من قبل عارف خبير بتلك المحلة. في هذه الأثناء كان إبراهيم باشا في سهل عيحا وكانت حملة كريت التي كان قد أوصى عليها خصيصاً لحرب اللجاة في دمشق[1]. وكانت هذه التجريدة الغريبة مؤلفة من ثلاثة آلاف كريتي بقيادة مصطفى باشا حاكم الجزيرة الذي قال عنه العزيز «إنه يحسن القتال في الجبال».

وجاء إلى الدروز من يقول لهم: إن قافلة تنقل علف من الشام قادمة إلى حيث يقيم الباشا في سهل عيحا، وكان من المحتم على هذه القافلة أن تمر في وادي بكا ومن إشارة في كتاب «الحركات في لبنان» للأستاذ عارف أبو شقرا ما يفيد أن من نقل هذا الخبر إلى الدروز رجلان من عيثا الفخار قيل إنهما من بيت الغريب مدسوسين من قبل إبراهيم باشا والواقع أثبت أن حملة العلف كان بمثابة الطعم للمصيدة الرهيبة التي نصبها إبراهيم للدروز والتي عملت على النحو التالي:

جاءت حملة العلف وجاء خلفها مصطفى باشا والي جزيرة كريت برجاله الأشداء الذين استقدمهم إبراهيم باشا للقتال في حوران فأخفوا أمرهم عن

(١) وهناك قول إن هذه التجريدة كانت في سهل الجديدة آنذاك.

المراقبين من خلال تحرك القافلة. لأن المراقبين الدروز كانوا ساعتئذ يسمّون كل ما يشاهدونه من تحرك عسكري على طريق دمشق وادي بكا (قافلة العلايف) «الخطة هي عندما يصطدم الدروز بحرس القافلة الأمامي يتلاقاهم مصطفى باشا بمن معه من الكريتيين فيشاغلهم بالحرب ريثما يكون وصل إبراهيم باشا من سهل عيحا فيطبق عليهم من الخلف بمن معه وينهي أمرهم. على هذا النحو تقريباً سارت الأمور. من قول آخر إن الكريتين بقيادة مصطفى باشا كانوا ساعتئذ في سهل الجديدة الذي يبعد عن مكان تمركز الدروز لجهة الشمال مسيرة ساعة واحدة وكان دورهم في الخطة الحربية تطويق الدروز من الخلف.

تأكد المراقبون الدروز من عبور القافلة في أول وادي بكا من جهة الشرق فأفادوا عنها. وأرسلوا ثلاثمائة خيال للاستيلاء عليها عند منفذ الوادي الغربي لجهة ينطا، ولما وصلت القافلة إلى المكان المعينّ انقضت خيالة الدروز عليها وشتتوا عناصر المواكبة فشردت الجمال والبغال في الحقول نافرة من صدى الرصاص. في ذات الوقت وصل مصطفى باشا بمن معه، وهناك قول أن مصطفى باشا جاء عن طريق وادي منسيا والوسطاني. «فوادي بكا ووادي منسيا ينتهيان في الشرق معاً في واد واحد على غرار ما يحدث لدجلة والفرات في محلة شط العرب»، واصطدمت القوة الدرزية بالكريتيين (وعلقت الكاينة) في أول النهار تقريباً، ولما رأى الشيخان حسن جنبلاط ونصر الدين العماد أن الموضوع أكبر من قافلة علف انحدرا بمن معهما (٧٥٠) مقاتلاً) إلى حيث تدور المعركة وكان الدروز ينشدون:

برهوم ويشلك عندنا   حوران والوعرا لنا

صدّم الدروز الكريتيين وأزاحوهم شرقاً إلى ما بين الواديين في محلة تدعى الوسطاني وأرهقوهم تماماً بالرغم من تفوقهم عليهم بنسبة ٣ لواحد في هذه الأثناء وصل إبراهيم باشا بعسكره قادماً من سهل عيحا وتوقف قبل مكان الاشتباك ثم فصّل قوّة كبيرة لحماية مؤخرة الجبهة خوفاً من هجوم يقوم به شبلي العريان من الخلف ودفع بمن بقي لديه من جند إلى المعركة.

رأى الدروز أنفسهم بين نارين. نار من بقي من الكريتين يقاتل، ونار العسكر. فتصعدوا أرضاً صخرية تصلهم بـ(ضهور فتاح) وأخذوا مراكز قتال جيدة بحيث صاروا أعلى من العسكر فكانت جماعات الجند تتسلل عبر المنعطفات والخلالي لتقترب من الدروز وهي متدرئة بالصخور وعندماتظهر على السفح الأجرد. ينقض عليهم الدروز ويعيدوهم من حيث أتوا واستمر الحال على هذا المنوال إلى ما بعد الظهر، فرآى إبراهيم باشا أن يستفيد من كثرة عديد جنده فعمد إلى تطويق الدروز بأن أرسل قوة لغربيهم وقوة لشرقيهم لجهة حلوة وابتدأت القوتان تتقدمان على شكل فكي كلابة تضيق رويداً رويداً واستمر هو يهاجم من المكان الأول ليلهي الدروز عن عملية التطويق التي تجري خلفهم، شنّ الدروز هجومين كبيرين هزموا الجيش حتى السهل وكبدوه خسائر كبيرة الأمر الذي أخاف إبراهيم باشا واضطره للمشاركة بنفسه بالحرب. ونجح الفك الشرقي للكلابة بأن أصبح على موازات الدروز ثم دخل فيما بينهم فشطرهم إلى مجموعتين مجموعة في الجنوب المنخفض مع الشيخ نصرالدين العماد. ومجموعة في الشمال المرتفع مع الشيخ حسن جنبلاط وخرجت المجموعة الثانية من بين فكي الكلابة وتعلّت حتى قلعة إدريس، أما المجموعة الثانية فوقعت ضمن دائرة الحصار، كان يحيط بالمرتفع الذي انحصرت فيه مجموعة الشيخ نصر الدين من جهة الغرب جدار من الصخر الطبيعي يصعب اجتيازه من جهة العسكر وكأن الطبيعة أعدته خصيصاً لتلك الواقعة يمتد هذا الجدار عامودياً من مكان تمركز الشيخ نصر الدين إلى قرب قلعة إدريس.

أدرك الشيخ نصر الدين خطورة الموقف، فشنّ بمن بقي معه من الرجال هجوماً صاعقاً على العسكر كتلك الهجمات التي شنّها في ضهر الأحمر ومعذر والمختارة وحمص والتي كان يحوّل فيها اتجاه الحرب وسير المعارك من حال إلى حال.

انهزم العسكر باتجاه الشرق. وباتجاه الجنوب حتى سفح التل وهو مذعوراً لا يلوي على شيء فتقدم إبراهيم باشا وانتهر أغوات جيشه ثم استل سيفه هو ومصطفى باشا قائد الكريتيين ودفعوا الجنود أمامهم للهجوم مجدداً «وأطلق على

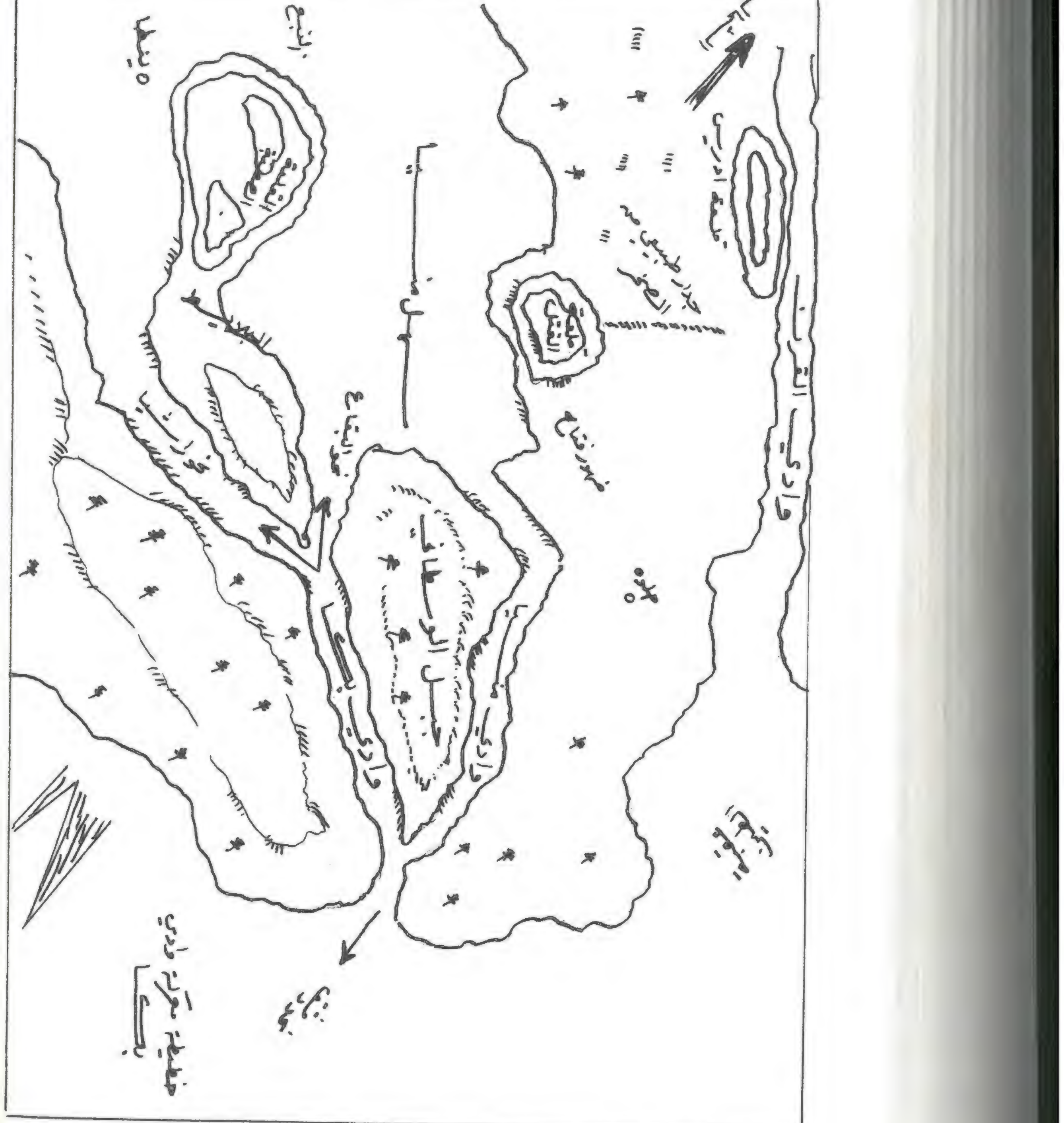

الدروز النار الدايمة»، وبالرغم من كل ذلك قاتل الدروز ببسالة مدهشة وكبدوّا المهاجمين خسائر كبيرة حتى نفذ منهم البارود والرصاص فصاح بهم الشيخ نصر الدين كلمته الخالدة: «اهجموا عالقوم بالجوارح» ففعلوا ودارت رحى معركة رهيبة بالسلاح الأبيض، ويقول مخايل مشاقة إن الدروز كانوا يضربون العسكر في آخر الأمر بالحجارة لنفاد الرصاص منهم.

يقول الشدياق[1]: «إن الوزيرين لما رآيا أن جيشهما أوشك أن ينهزم أمام الدروز. جردا البواتر وهجما بقوادهما...» لقد شارك الوزيران بنفسيهما بالهجوم وهذا قلما يحدث إلا في الساعات الحرجة والحاسمة في تقرير مصير معركة ما، وما كان الوزيران أن يفعلا ذلك لولا تأكدهما من تحول المعركة لصالح الدروز بالرغم من الوضع غير المتكافىء، ويقول الدكتور رستم[2]: ولما رآى الوزيران عسكرهما يوشك أن يوليّ الأدبار أمرا بهجوم معاكس مماثل فاستل الشيخ نصر الدين سيفه يفري به من يصل إليه حتى قتل خلقاً كثيراً من حواليه ثم قتل ولم ينج من أصحابه سوى خمسين رجلاً» وقال إبراهيم الأسود[3] «أشهر هذه الوقائع وقعة وادي بكا الذي قاوم بها خمسماية من الدروز بضعة عشر ألفاً أطبقوا عليهم من كل جانب تحت قيادة إبراهيم باشا ومصطفى الأرناؤوطي وذلك منذ الصباح إلى غياب الشمس حتى لم ينج منهم سوى عشرون رجلاً اخترطوا السيوف واخترقوا الصفوف وكانت نجاتهم إحدى الغرائب».

وقال مخائيل مشّاقة إن إبراهيم باشا في كتابه لمحمد شريف باشا قال إنه شاهد رجلاً واحداً قد نجى من الموت وكان يركض بعيداً وقال مشاقة إن أهالي ينطا أخبروه أن عدد الناجين كان أربعون شخصاً فقط[4]، ويقول حمود الينطاني من الباروك[5] أحد الناجين من المعركة «إنه لّما سدّت علينا الطرق انتضيت

(١) أخبار الأعيان، ج ٣، ص ٤٥٦.
(٢) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣، ص ١٤٣.
(٣) ذخائر لبنان، ص.
(٤) منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، ج ٢، ص ١٢٦.
(٥) الغرر الحسان، ص.

سيفي وضربت به يميناً وشمالاً فقتلت عدداً من العسكر وفتحت طريقاً لي وعدوت هارباً وهكذا خلص الباقون» ومن الأقوال المتواترة بين الناس عندنا حتى اليوم أن الذين نجوّا وخلصوا «مرقوا تحت بطون الخيل». وكان لوجود إبراهيم باشا في المعركة أثره الفعال وإلا لأُنهزم العسكر قبيل الظهر.

ماذا عن مصير الشيخ حسن جنبلاط؟

أشرنا إلى أن الشيخ حسن استقر في قلعة إدريس في الشمال العالي خارج حلقة التطويق، وقام بعدها بعدة هجمات بإتجاه الجنوب للإتصال برفيقه الشيخ نصر الدين، ولكن في الأخير لم تعد هجماته مؤثرة لأن العسكر رمى بثقله بين الجماعتين الدرزيتين ليسهل عليه القضاء عليهما كل واحدة بدورها، وبعد انتهاء المعركة انسحب الشيخ حسن بمن بقي معه باتجاه شبعا بعد أن فقد من رجاله ١٣٠ نفراً[١]، ثم عاد وشارك الشيخ حسن بالمعارك التي نشبت هناك.

بلغت خسارة الدروز في معركة وادي بكّا حوالي ٦٣٠ قتيلاً من بينهم أربعين جوز أخوة.

«قال الأمير شكيب أرسلان إن من يصغي السمع على بلاطة الشهداء التي ذبح عليها الإفرنج بضعة آلاف من الفرسان العرب المسلمين الذين خسروا معركة بواتييه أمام شارل مارتل في فرنسا، يسمع دوياً عميقاً، قلت ربما كان هذا القول من تخيّل الأمير المتأثر بالشعور الوطني، ونحن نقول الآن إنه في تلك المفازة الجرداء التي جرت عليها معركة وادي بكا هذه، وعلى وجه التحديد في محلة ضهور فتاح الآنف ذكرها يظهر خط مستقيم تماماً وأخضر على امتداد المكان وبشكل واضح وجليّ يشاهد من قرية ينطا نفسها خاصة في فصل الربيع. وكأن الطبيعة جعلته شارة تدل على مكان الموقعة. قلت ربما كان تفسير هذه الظاهرة الطبيعية، أن هذا الخط. هو عبارة عن الخندق الذي ووريت فيه جثث القتلى من الجيش بعد المعركة، لذلك نرى الأعشاب النابتة فوقه خضراء

(١) أخبار الأعيان، ج ٢، ص ٤٥٦.

زاهية. أما شهداء الدروز فقد كدست جثثهم في تجاويف صخرية في قلعة دعيت من يومها (قلعة القتل) بضم القاف ولا يزال هذا اسمها.

ماذا كان دور شبلي العريان في موقعة وادي بكا؟

أخذ بعض المؤرخين على شبلي العريان عدم مشاركته الفعالّة في معركة وادي بكا، قال الشدياق[١]: «أما العريان فلم ينجد الشيخين بل ظل متربصاً تجاه معسكر إبراهيم باشا»، في الواقع لم يكن لشبلي العريان دور في هذه الموقعة ولولا قول متواتر بيننا عن حادث وقع له هناك لقلنا إنه لم يكن موجوداً في هذه الموقعة، هذا مع العلم أنه بعد هذه المعركة بقليل برز اسم شبلي على مسرح الأحداث في معارك جنعم وشبعا كما سنرى، أما الحادث الذي وقع له مؤداه أنه كان يقوم بغارات على مؤخرة المصريين وفي إحدى المرات لحق به فارس وكاد يدركه لأن حصان شبلي كان قد تعب. وأثارت مطاردة الفارس لشبلي جميع من شاهدوها، منهم رجل درزي كان يقف على رجمة من الحجارة في محلة تدعى البلايط فرأى الفارسين مقبلين نحوه فتهيأ للدفاع عن صاحبه، فلما اجتازه شبلي ووصل الفارس الغريب ضربه الرجل بالبندقية ضرباً وكأنها عصا فأصابه ورماه أرضاً ثم انقض عليه وذبحه ولما التفت شبلي إلى الخلف ورآى ما حدث رجع إلى الرجل شاكراً حسن صنيعه، لم يكن للرجل متسعاً من الوقت لحشو بندقيته بالبارود فاستعملها كعصا ونجح، بقي شبلي باشا يتذكر فضل هذا الرجل ويتحدث عنه في مجالسه، ولما عينته الدولة في العراق بوظيفة الوالي أرسل إليه يقول إذا جئت إليّ فباستطاعتي مكافأتك على النحو الذي تستحقه ويبرىء ذمتي نحوك فجاءه الجواب: إن الرجل قد توفاه الله ولكن له أولاد، والمقول إن شبلي باشا أرسل لأولاده هدايا قيّمة وأموال.

(١) أخبار الأعيان، ج ٢، ص ٤٥٦، منشورات الجامعة.

من هو هذا الرجل؟

ليس لدينا في الواقع ما يؤكّد هوية هذا الرجل سوى القول إنه (شوفاني) أي من الشوف وأشارت بعض الأقوال القديمة التي تحرّيناها إلى أنه من بيت مرداس ومصدر هذا القول أحد شيوخ ينطا، ولكن الشيخ كامل ريدان (عينعنوب) قال لي أن هذا الرجل من بيت باز من بعذران، ونحن بدورنا نورد هذه الأقوال كما سمعناها.

هل كان هناك تنافس بين الشيخ نصر الدين العماد وشبلي باشا العريان، وانعكس هذا الواقع على العلاقات بينهما قبيل معركة وادي بكا؟

سمعت قولاً منذ أكثر من ٣٥ سنة من أحد الشيوخ الثقاة في قريتنا ينطا مؤداه: كانت جماعة من دروز الشوف في سهل منسيا وإذا بالعسكر أطلّ من (باب الوادي) وادي منسيا فارتفع الخيالة الدروز إلى الوعر كي لا يصطدموا بالعسكر باستثناء خيال واحد هو (ابن العماد) فطلب إليه رفاقه إخلاء الطريق حرصاً على سلامته فأبى وأصر على البقاء حيث هو وقال لهم «بدي حط على عين بيت العريان وعلمهم كيف المراجل» لسوء الحظ توفي محدثي الشيخ منذ زمن بعيد ولم يبق عالق بذهني من قوله هذا إلا ما ذكرته: ووضح لي بعد ذلك أن الرجل هو الشيخ نصر الدين العماد نفسه عندما كان مطارداً من قبل عسكر الأمير بشير مع الأمير سلمان الشهابي وأخيه في حدود العام ١٨٢١ في أعقاب المعارك الضارية التي نشبت في وادي التيم بين تلك الجماعات المتخاصمة تبعاً للخصام الذي ذر قرنه بين درويش باشا والي الشام وعبدالله باشا والي عكا، وسنأتي على ذكر تلك الأحداث في مكان آخر من هذا الكتاب.

ملاحظة: عرفت هذه المعركة بين أهالي الشوف باسم معركة مرج ينطا.

وفي رسالة من إبراهيم باشا للأمير بشير يقول انه حارب في الصعيد والسودان والمورة ولم ير في العالم أشد بأساً من أولئك الدروز ـ الحركات في لبنان، ص ٢٠.

بعد معركة وادي بكا..

معارك حاصبيا وجنعم وشبعا:

بعد موقعة وادي بكا رجع إبراهيم باشا إلى راشيا ونزح الدروز مع شبلي باشا العريان إلى شبعا وجنعم: والتقى هناك كثيرون من وادي التيم وإقليم البلّان، وقرر شبلي العريان الاعتصام في تلك الأماكن الجبلية التي يصعب اقتحامها. فرأى إبراهيم باشا أن يضرب هذا التجمع الجديد للدروز من ثلاث اتجاهات مختلفة وفي وقت واحد. من حاصبيا وبانياس وراشيا وطلب من الأمير بشير أن يمدّه بعسكر من عنده فأمدّه وكانوا بقيادة ابنه خليل وحفيده مسعود فجاؤوا هؤلاء إلى حاصبيا، ويقول الدكتور أسد رستم[١] إن إبراهيم باشا أرسل جرجس الدبس ليبلغ الخطّة لقادة الجيش في حاصبيا وبانياس فذهب الدبس وباح بالسر نفسه لشبلي العريان، فأخذ شبلي باشا يتأهب «فقسّم العريان رجاله إلى ثلاث فرق استعداداً لصد هذا الهجوم، وفي الوقت المعيّن قامت العساكر إلى جنعم فصدّ الدروز النابلسيين الذين أتوا من بانياس فانكسروا ناكصين على أعقابهم مذعورين وما فتئوا حتى وصلوا إلى نقطة إنطلاقهم، وردّ الدروز أيضاً الأمير خليل وجنوده مذعورين مشتتين وقتلوا منهم الشيخ فضل الخازن وسبعة عشر رجلاً آخرين ولكنهم لم يقووا على السر عسكر وجنوده في قرية شبعا، فتراجعوا أمامهم مغلوبين على أمرهم ودخل السر عسكر (إبراهيم باشا) هذه القرية منتصراً وأمر الشيخ جرجس الدبس أن يبلغ الدروز في جنعم وجوب تقديم السلاح وما أن همّ جرجس بالمسير حتى شاهد اثنين من عساكر الأرناؤوط ممسكين بإمرأة درزية لإرتكاب الفحشاء فأخبر الباشا بما رآى فطلب الباشا إلى البورجي أن يردهما عنها فلم يتمثلا وعندئذ ساق السر عسكر بغلته واتجه نحوهما وما أن وصل إليهما حتى قتلهما بيده»[٢].

أبلغ جرجس الدبس الدروز في جنعم أمر الباشا فوافق قسم كبير منهم

(١) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣، ص ١٤٣.
(٢) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣، ص ١٤٣.

على التسليم ورفض شبلي العريان وانسحب بماية خيال إلى حوران وفي اليوم التالي جاء موفد من الدروز إلى شبعا لعند الباشا وتم الاتفاق ثم عـادوا إلى أوطانهم وانتقل الباشا إلى قطنا، وفي هذه الحرب انتهبت خلوات البيّاضة وكان عددها خمسين خلوة.

ماذا عن حسن البيطار،
موفد الدروز إلى إبراهيم باشا؟

حسن البيطار هو أحد وجهاء راشيا في تلك الحقبة التي ابتلي فيها الدروز بإبراهيم باشا كان هذا الرجل على جانب من الذكاء والدهاء وحسن التصرف مما جعله موضع ثقة قومه فكانوا يوفدونه بمهمات منها مفاوضة إبراهيم باشا ويقول ميخائيل مشاقة: إن الدروز أرسلوا الشيخ حسن البيطار إلى شبعا يومذاك ليلتمس لهم الأمان من إبراهيم باشا فذهب الرجل وقابل الباشا وكان الباشا يستلطفه وينشرح لكلامه حيث سبق واجتمع به. ويكمل مشاقة قوله[1]:

كانت عباءة حسن البيطار ممزقة من الرصاص، فقال له إبراهيم باشا ألم تزل بقيد الحياة؟ أجابه: أنظر سعادتك خروق عباءتي بالرصاص والباري تعالى لم يسمح بقتلي وإذا شئت موتي فأنا بين يديك. فقال له الباشا أنا لا أريد موت أحد من الرعايا ولكن جماعتك يسعون في قتل أنفسهم فقال له حسن البيطار: الآن انتبهوا من غفلتهم ويطلبون الأمان عما سبق من خطاياهم. فقال الباشا لهم ذلك بشرط تقديم سلاحهم فقط. أجـاب حسن البيطار أنهم خاضعون لكل ما تأمرهم به فليصدر أمرك بمرسوم الأمان ويذهب معي مأمور لكي نجمع السلاح ونسلمه له، وهذا ما حصل، وسلّم الدروز أربعماية بندقية.

ومرة ثانية ذهب حسن البيطار مع جرجس الدبس الذي أوفده إبراهيم باشا إلى جبل الدروز لعند محمد شريف باشا في قيادته في قرية عاهرة، وأعطت

(١) منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب، ج ٢، ص ١٢٧.

تلك الوساطة نتائج طيبة ومرضية بحيث أنهت حالة الحرب التي ظلت قائمة هناك حوالي العام بين دروز الجبل والجيش المصري[1].

تسليم شبلي العريان للمصريين:

حكاية تسليم شبلي العريان لإبراهيم باشا تروى على وجهين: الوجه الأول ما ذكـره المؤرخون ومنهم الدكتور أسد رستم، بأنه تم على يد جرجس الدبس بعد أن نفض يده الأمير بشير. والوجه الآخر قول لا يزال متواتراً بين آل العريان أنفسهم حتى أيامنا الحاضرة حول هذا الموضوع.

يقول الدكتور رستم[1] «عاد العريان من حوران بغية التسليم عن يد الشهابي الكبير ولدى وصوله إلى صغبين في غربي البقاع أرسل مندوباً عنه إلى بتدين يطلب إلى الأمير اللبناني أن يسلّم عن يده فرفض الأمير لأنه لم يضمن النجاح فأقبل جرجس على العريان في صغبين وضمن له ما تمنى وأخذه إلى قطنا فقبل السر عسكر استسلامه وعيّنه رئيساً على خمسماية خيال غير نظامي».

أما الوجه الذي أخبرني إياه المتقدمون من آل العريان عن تسليم شبلي باشا فهو التالي:

كان شبلي باشا ـــ وكان يدعى يومذاك الشيخ شبلي ـــ ومعه خزاعي وستة وثلاثين خيالاً متوقفين على عين الصفصاف الواقعة بين قريتي رخلا ودير العشاير يوردون خيولهم وفجأة أطلت عليهم الخيالة من جهة رخلا وشاهدوا ما شاهدوه عليها، توقفوا ـــ وكان عددهم حوالي العشرين نفراً ـــ واقتربوا من راعي كان يرعى الماعز في تلك المحلة اسمه أحمد سيف الدين من قرية رخلا، وسألوه من هم الخيالة الذين على العين؟ فأجابهم: هذا الشيخ شبلي العريان وجماعته، فارتدت الخيالة إلى الوراء واختفوا في طريق فرعية، كان شبلي ورفاقه يراقبون الخيالة، فلما رأوهم تراجعوا، أقر رأيهم على مطاردتهم فانقسموا قسمين: ١٧ خيال مع شبلي، و١٨ مع خزاعي، وقال شبلي لخزاعي الملتقى

(١) بشير بين السلطان والعزيز، ج ٣، ص ١٤٤.

على بركة جوزا، بحيث يذهب الأول على طريق غربية والثاني على طريق شرقية ويلتقيان في وسط المسافة على البركة اعتقاداً منهم أنهما يطوقان طريق الخيالة الأعداء الذين قد يسلكون الطريق الغربي نحو بركة جوزا، والقصد قطع الطريق عليهم قبل أن ينزلوا من هناك نحو قطنا إلى معسكرهم، حيث يقيم إبراهيم باشا، وصل خزاعي إلى المكان المتفق عليه قبل شبلي وقطع الطريق، وبعد قليل وصلت الخيالة العدوة فأوقفهم طالباً إليهم التسليم فهرب قسم منهم باتجاه قطنا والتحقوا بالمعسكر والقسم الآخر استسلم.

كان قائد هذه المجموعة يدعى أمين آغا شحروري، فطلب من خزاعي حقن دمه ودم رجاله، فأجابه: الأمر منوط بصاحبه. وإلا بشبلي باشا قد وصل وطلب القائد المصري الأسير من شبلي باشا ما كان قد طلبه من خزاعي، فقال له: إذا الله عفى عنك نحن عفينا، فقال له أمين آغا: أنا على أتم استعداد لكل ما تطلبه مني، فشكره شبلي وأخلى سبيله وسبيل من معه.

الذين وصلوا إلى معسكر قطنا أفادوا أن الباقين من رفاقهم قتلهم شبلي العريان في الجبل، فثارت ثائرة إبراهيم باشا وأرسل حملة لتربط الطريق على شبلي الذي كان متوقعاً له أن يذهب إلى قرية بقعاسم حيث تقيم والدته، وكانت يومذاك والدة شبلي باشا موجودة في بقعاسم عند أصدقائهم بيت الكريدي، ربطت القوة الطريق عند عين البرج الواقعة بين قلعة جندل وبقعاسم وبعد قليل وصل شبلي باشا بمن معه وعلقت الكاينة بينه وبين العسكر.

لما وصل أمين آغا شحروري ومن معه إلى قطنا استغرب إبراهيم باشا ذلك فأخبره أمين آغا بكل ما حدث لهم ــ وفيما أراه أن حديثاً بالتسليم دار بين أمين آغا وسيده وكان إبراهيم باشا يسعى بشتى السبل لتهدئة الوضع وإنهاء خلافه مع الدروز ليتفرغ لمهمته الأساسية وتكفل أمين شحروري برد شبلي باشا للطابق بفعل المواجهة السلمية التي تمت بينهما.

أمر إبراهيم باشا بأن يتوجه أمين آغا فوراً ويلحق بالقوة الذي ذهبت لتنصب كميناً على عين البرج ويوقف الحرب مع العريان. وانطلق شحروري

مع خيالين في الاتجاه المحدد له، ولما وصل كانت الحرب على قدم وساق بين شبلي باشا والكمين فلم يستطع إيقاف القتال، وانسحب شبلي باتجاه الجنوب دون أن يعرج على بقعاسم.

كانت أصوات البارود تسمع بوضوح في بقعاسم، فأدركت الست (نوربارق) الخطر واعتقدت أن ابنها شبلي باشا وقع في الكمين فماتت لتوها، أما شبلي باشا فقد استمر بسيره والمعركة تلاحقه، حتى وصل إلى مكان يدعى (ريحانات دربل) في إقليم البلان، وهناك سقطت مخلاة[1] من أحد تابعيه ويدعى علي ذياب فايق من راشيا، فأبى شبلي باشا تركها كي لا يقال أنه منهزم أمام العسكر، وكانت هناك قوة للعسكر لم يصلها بعد أمين آغا رسول السلام، وتكفلت الرجال بإحضار المخلاة: فلم يوفقوا أول الأمر، واستمر أحمد العريان وحسين داوود يقومون بالغارة لاستعادتها حتى نفذوا ٣٥ غارة ــ ملكاد، ثم أحضروا المخلاة من بين العسكر وتابعوا سيرهم. وهناك أوقفوا خمسة خيالة من خيالة المصلحة وطلبوا إليهم التسليم بوجه شبلي العريان فسلموا، وبينما هم يستلمون الأسلحة منهم، قدم أحدهم بندقيته المحشوة إلى حسين داوود ليستلمها منه، فلما مد الأخير يده، أطلق عليه النار وأرداه قتيلاً، وحزن شبلي باشا كثيراً على هذا الرجل فقتل رجال الدورية انتقاماً، وبعد المعركة انسحب شبلي نحو عقبة الفرس باتجاه راشيا فاجتاز العقبة ووصل إلى الفاقعة وتوقف قريباً من قرية بكيفا وألقى القبض على ثلاثة خيالة مصريين وجدهم هناك، في هذه الأثناء وصل أمين آغا شحروري وتقدم من شبلي وسلم عليه وقال له: من عين البرج وأنا لاحقك فلم أوفق بالوصول إليك وعرض على شبلي الصلح مع إبراهيم باشا وطلب إليه العودة معه إلى قطنا وأبدى له رغبة السر عسكر بالصفح، كان شبلي متجاوباً تماماً مع عرض الصلح فقبل وقال لابن عمه

(١) ملاحظة: المخلاة هي وعاء للعلف من القماش، يعلق في رقبة الدابة يملأ عادة علفاً أثناء انتقال الخيالة لإطعام الخيل، وقد رأى العريان أن ترك هذا الوعاء الذي يخص حصانه بين أيدي العسكر المصري مهانة ومذلة له، فقام ومن معه بالهجوم لاسترداده منهم خمس وثلاثون مرة حتى استرده.

خزاعي: لا يصح أن نصالح دون أن يكون للأمير بشير علماً بذلك، وكلفه بالذهاب إليه، وذهب خزاعي إلى بيت الدين ولم يعد لأن الأتراك استاقوه أسيراً إلى استانبول، ثم أعادوه فيما بعد.

وصل شبلي ومعه ١٧ خيالاً من خيالته إلى قطنا، فلما وصلوا أخذوا عهداً من الباشا بالعفو، وكان إبراهيم باشا شديد الإعجاب بشبلي الذي يلتقيه لأول مرة، وبينما هم في المعسكر أمر الباشا حامل البرزان أن يدق اجتماع الجيش، ففعل، ثم أمر الجنود بأن يتوجه كل واحد منهم إلى خيمته، فسأله شبلي باشا عن السبب، فأجاب: قد يكون بين جنودي من قتل أخوه أو أبوه أو صديقه أثناء الحرب معك فينتقم منك ويقتلك فيضيع عهدي ويدنس شرفي ــ كان الباشا قد سمح لشبلي ورجاله بأن يحتفظوا بأسلحتهم، أما الذين دخلوا على الباشا هم: شبلي العريان، وابن عمه أحمد، والشيخ محمد تلحوق.

واتجه الركب نحو دمشق، وعلى الطريق إليها، طلب إبراهيم باشا من شبلي أن يقيم ميداناً للطعن والبراز كمناورة بينه وبين أحد خيالته، فنزل شبلي والشيخ محمد تلحوق، فتبارزا ولم يكن الشيخ محمد تلحوق ملمّاً بهذا الفن كثيراً، فاستبدله بابن عمه أحمد العريان، وقام كل من الفارسين بإبراز مواهبه بفنون الحرب والصدام مما أدهش الباشا، فتقدم بعد النهاية من شبلي ووضع يده على كتفه قائلاً: أنت كدع.

لما وصل الركب لضواحي دمشق أرسل الشيخ شبلي وفرض خوة قدرها خمسة آلاف قرش على أهالي قرى المعظمية وجديدة عرطوز، فأدوا له الطلب ولكنهم اشتكوا إلى إبراهيم باشا، فغضب الباشا وسأل شبلي عن سبب ذلك، فقال له: معي سبعة عشر خيالاً ونحن ذاهبون إلى دمشق وليس إلى بيوتنا، وتحتاج الرجال إلى مصروف، فقال له الباشا: معك الحق بذلك وأعطاه مبلغ خمسة عشر ألف قرشاً، فأعاد شبلي المال إلى أصحابه من القريتين المذكورتين.
وفي دمشق أمّر إبراهيم باشا شبلي على خمسماية خيال دالي باشي ــ وقيل على ثلاثماية من الهوارة ــ وعين حاكماً على حاصبيا محمد آغا سويدان.

ماذا عن شبلي باشا العريان:

هو شبلي ابن الشيخ علي العريان، والدته الست نوربارق، ولد في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي في راشيا موطن أسرته، وتوفي حوالي العام ١٨٧٠م في مدينة الرها[1] ــ وقيل في بغداد. بعد جلاء الحملة المصرية عن سوريا ولاه الأتراك العثمانيون في بلاد العراق ومنحوه لقب باشا مكافأة له على حروبه ضد إبراهيم باشا المصري، ومن جهة ثانية ابعـاده إلى تلك البلاد ليكونوا بمأمن منه في المستقبل نظراً لتعاظم نفوذه بين الجماعات الدرزية في مختلف مواطنها، وكان شبلي باشا رجل الدروز الكبير وفارسهم المجلى في تلك الحرب القاسية التي تعرضوا لها وفرضها عليهم عزيز مصر (محمد علي باشا)، وكان دوره يشبه إلى حد بعيد دور رافع أبـي الليل في الدفاع عن الدروز أثناء المحنة الكبيرة التي تعرضوا لها والمعروفة بمحنة انطاكية.

قاتل شبلي باشا في حوران واللجاة وإقليم البلان ووادي التيم وتصدى لعمر باشا النمساوي في لبنان عندما سجن هذا الأخير جماعة كبيرة من أعيان الدروز ووجهاءهم سنة ١٨٤٢م، فكان نجدة إذا تحرك، وطوارىء للساعات العصيبة إذا توقف، تزوج في حياته مرتين[2]: المرة الأولى من ابنة عم له تدعى (أم سعود) شقيقة صهره وابن عمه فارس العريان، وهي أم ابنته تركمان التي تزوجها الشيخ محمد تلحوق. وتزوج في المرّة الثانية من سيدة هي نايلي ابنة قاسم تمراز من ينطا، وهي أم ابنته فاطمة.

لا نعلم ما إذا كانت زوجته الأولى أم سعود توفيت أم طلقها حتى تزوج للمرة الثانية، ولكن الذي نعلمه أن شبلي توفي في حياة زوجته الثانية نايلي تمراز والتي كانت تدعى في أواخر أيامها (نايلي خانم)، لم تعش نايلي خانم طويلاً بعد زوجها، والقول أنها توفيت في دمشق، وكانت قد رافقته بمهمته البعيدة في بلاد

(١) عرفت هذه المدينة بثلاثة أسماء هي: الرها وأوديسا وأورفا ــ اسمها الحالي.
(٢) تحقيق هذه المعلومات التاريخية من مقابلة أجريتها مع شبلي آغا العريان وعمته بهية علي العريان زوجة الشيخ نسيب العريان المتوفية سنة ١٩٧٥ في عيحا.

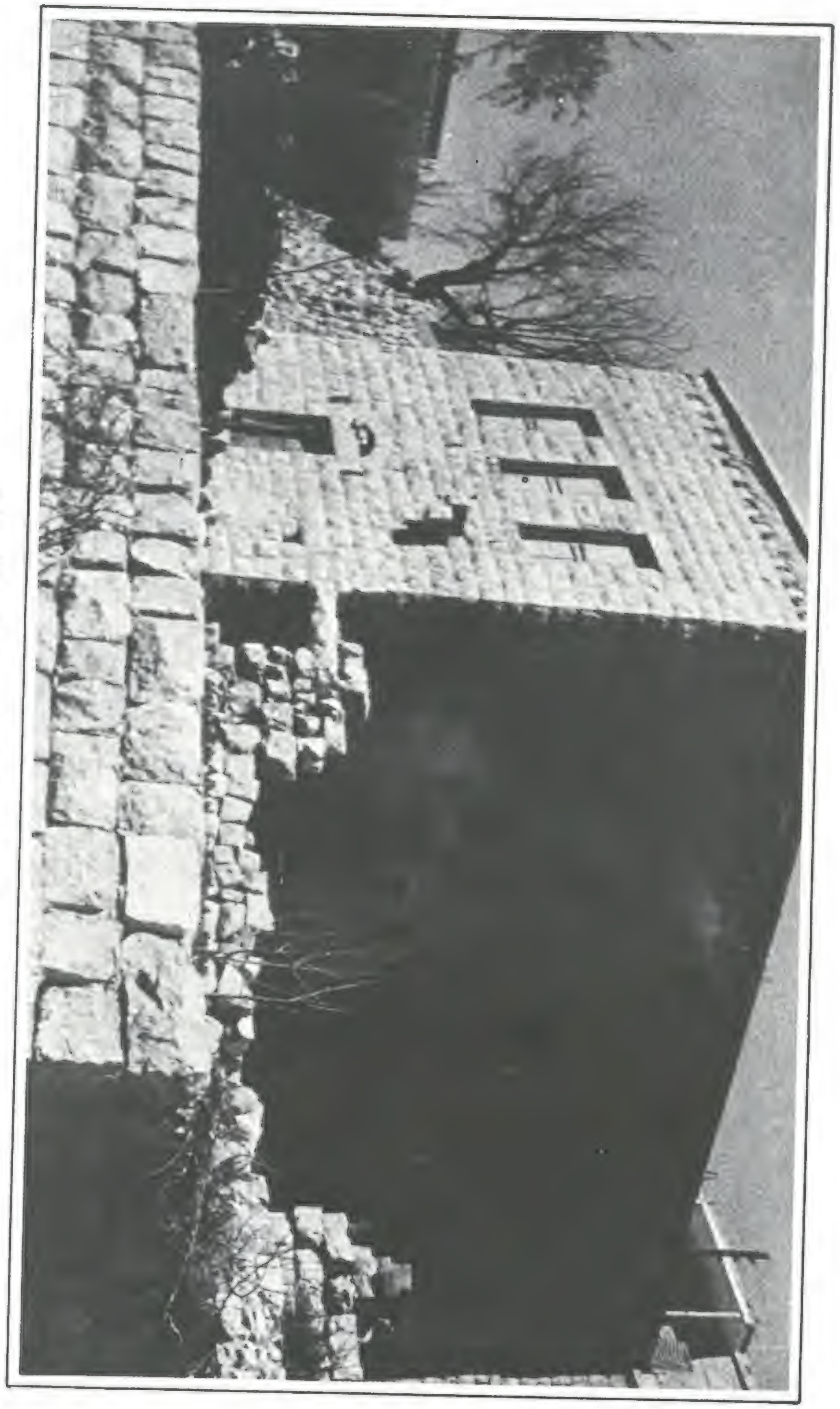

المنزل الذي ولد فيه شبلي باشا العريان في راشيا

الرافدين، وأثناء وجودها مع زوجها هناك، زارت النجف الأشرف وكربلاء ومشهد في إيران، وتأثرت بالمذهب الشيعي وهي في تلك البلاد.

تميزت تربية شبلي باشا بالتدين وبالفروسية، فكان هادىء الطبع رزيناً ذكياً يحفظ الجميل ويحترم الشجعان. صنديـد في المواقف الصعبة، أمضى ردحاً طويلاً من حياته في ساحة القتال، وكان متديناً لدرجة كبيرة. ومن الأقوال المتواترة عنه أنه كان يقرأ الفاتحة دائماً قبل أن يهم بركوب حصانه. تلك الفترة التي أمضاها في بلاد الرافدين كانت فترة شبه مجهولة من حياته، ذهب خلالها لزيارته مرة واحدة اثنان من أبناء عمومته هما حسين وأمين العريان، ويقول المؤرخ عيسى اسكندر المعلوف أن اثنين من آل المعلوف من زحلة التقاهما شبلي باشا في تلك البلاد[1]، وأبى إلا أن يكونا ضيوفه وأكرمهما غاية الإكرام، وهما بطرس بن نجم المعلوف وابن عمه مراد، ويبدو أن شبلي باشا كان يومذاك والياً في لواء العمارة، ومن قول: أنه عين حاكماً على بغداد والفرات الأوسط وحقق عدداً من المشاريع العمرانية والاجتماعية لا زالت آثارها حتى يومنا هذا، وقيل: أن الأتراك العثمانيين انتدبوا شبلي باشا للتصدي للحركة الكردية التي كانت تقلق الدولة، ولا تستبعد صحة هذا القول لأن شبلي باشا توفي في مدينة الرها.

دور شبلي العريان
على الساحة اللبنانية
قبيل أحداث ١٨٤٢:

لم يكن شبلي العريان داعية حرب طائفية كما صوره بعض المؤرخين بل على العكس كان الرجل على غاية من النبل والإدراك والوطنية هذا ما يظهر بوضوح من خلال تتبع حياته السياسية فالذين أشركوه في الحرب الطائفية وفي حرب زحلة خاصة، كانوا واحداً من اثنين إما أشكل عليهم الاسم «العريان» فاعتقدوه ابن عمه خزاعي. وإما قصدوا من ذلك إعطاء كتاباتهم التاريخية أهمية

---

(١) دواني القطوف، ص ٢٩٨.

وإثارة مستغلين اسم الرجل وشهرته فيما بعد، من خلال عملياته الحربية كان يفرّق تماماً بين أعدائه المصريين وبين الجماعات اللبنانية المساقة للقتال معهم سوقاً ضد الدروز فقبيل معركة حاصبيا أرسلت جماعته إلى اللبنانيين المتواجدين مع الجيش المصري تقول لهم: «حيدوا من الدرب بنا نهجم الليلي» وفي هذا القول ما يوضح كل خفي، والملاحظ أن العريان كانت تربطه بالأمير بشير علاقة ود وصداقة تبينت في المواقف التالية:

عندما لم يعد أمامه من سبيل إلّا التسليم لإبراهيم باشا، أرسل ابن عمه خزاعي إلى بيت الدين ليعلم الأمير بشير بذلك وفي هذه الرحلة ألقي القبض على خزاعي من قبل الأتراك وأرسلوه إلى المنفى ولم يلبث أن عاد، وإذا علمنا أن شهرة الأمير بشير وأهميته كانت قد بدأت تخبو لرأينا أن الدافع لإستشارته في هذا الأمر الهام كان مرده صداقة سابقة، وأكثر ما يظهر الرجل على حقيقته هو مواقفه حيال عمر باشا النمساوي الذي عينّ والياً على جبل لبنان في منتصف شهر كانون الثاني من سنة ١٨٤٢م وكان هدف العثمانيين من تعيينه هو التخلص من الإدارة الوطنية اللبنانية الممثلة بحكم آل شهاب وجعل لبنان ولاية عثمانية، وبمحاولة منه للوصول إلى هدفه قام عمر باشا بتوظيفات اعتبرها مرضية لكل من الدروز والنصارى على السواء فعّين الشيخ خطار العماد والشيخ منصور الدحداح برتبة مديرين، وجعل الشيخ فرنسيس الخازن على كسروان والشيخ ضاهر بن منصور الدحداح على الفتوح والمشايخ الحمادية على بلاد جبيل والبترون والكورة وأولاد الشيخ حمزة حبيش على غزير، أما المرحلة الثانية فقد بدأها عمر باشا بأن باشر بكتابة عرائض تهاجم الشهابيين والحكم الأميري وتطلب الدولة العثمانية.. ووقع البعض من أهل البلاد على هذه العرائض تحت الضغط(١) والإرهاب والرشوة والتزوير وقد رفض توقيعها آخرون ومنهم البطريرك الذي رأى الوقوف إلى جانب الأغلبية فنظم الوالي عملية خطف البطريرك بمعونة بعض اللبنانيين المتعاطفين معه وحددوا موعد العملية في ١٦

(١) Adel Ismail, Loc.cit. p. 178.

حزيران من السنة نفسها ولكن المؤامرة فشلت وأنكرها أخيراً الوالي. وفي الآستانة وضح تزوير العرائض كما وضح دور واضعيها من العثمانيين والكولونيل الانكليزي روز(١) ونظمت في البلاد عرائض معاكسة تطلب بقاء الشهابيين في الحكم فلما قدمت للوالي رفض استلامها، ولجأ عمر باشا للأسلوب القديم «ضرب أهل البلاد في بعضهم» فطلب إلى الشيخ حسين العماد إرسال عسكر من الدروز، ولما سأله الشيخ عن الغاية من ذلك: أجابه للحرب في زحلة وكسروان فرفض الشيخ هذا الطلب، فكان هذا الموقف العاقل والوطني للشيخ حسين سبباً للتباعد بين العثمانيين والدروز، فقرر الباشا تنظيم مكيدة لزعماء الدروز أولاً فاستدعاهم إليه في بيت الدين ولما وصلوا ألقى القبض عليهم وجردهم من سلاحهم وأرسلهم إلى السجن في بيروت بحراً عن طريق صيدا. وهما الأميران أحمد وأمين أرسلان والمشايخ نعمان(٢) وسعيد جنبلاط وداود ويوسف عبدالملك وحسين تلحوق وناصيف نكد وقد تمكن بعضهم من الهرب، وحدّت هذه الأحداث بين أبناء الوطن من دروز ونصارى فعظم الأمر على الباشا أن يحدث ذلك فأرسل مكاتيب إلى مقاطعات النصارى يحذرهم فيها من «مخالطة الدروز الأشرار...».

واجتمع من بقي من زعماء الدروز وأرسلوا إلى القنصل الفرنسي مسيو بوريه من يقول له: «من مصلحة المسيحيين والدروز. ولضمان السلم المشترك في لبنان نطلب مفاوضة البطرك للوصول إلى اتحاد وحده يمنع خرابنا المشترك اليوم وبالنسبة لنا نرضى بالأمير الذي يختاره المسيحيون». وحاول القنصل الفرنسي دفع المسيحيين إلى ذلك وإقامة حلف بينهم وبين أخوانهم الدروز ولكن بعض المسؤولين منهم رفضوا وفضلوا الوقوف على الحياد، فاستغل الباشا حيادهم ضد الدروز وكتب إلى الأمير اسماعيل أبو اللمع أن ينضم برجاله للجيش العثماني لمحاربة الدروز ولكن الموارنة رفضوا ذلك، في ذلك الوقت

(١) المحررات السياسية، اميل خوري وعادل إسماعيل، ص ٣٤.

(٢) اسماعيل حقي، ص ٢٩٨ Adel Ismail Loc.cit. page 187-188

كانت أخبار اعتقال زعماء الدروز في لبنان وصلت إلى حوران ووادي التيم فجاءت حملة درزية بقيادة شبلي العريان إلى الشوف واضطرب الوالي العثماني عندما علم بأمر الحملة ووصلته رسالة من شبلي يطلب منه ما يلي:

١ ـ الإفراج عن مشايخ الدروز المعتقلين في بيروت.

٢ ـ إعادة الوضع إلى ما كان عليه في لبنان وإعادة الشهابيين إلى الحكم...

وطلبه بإعادة الشهابيين يعني تبنيه لمطلب مسيحي لبناني وكأنه بذلك يقيم حلفاً بين نصارى الجبل ودروزه ولم يكن جواب الباشا مرضياً، فتابع شبلي طريقه إلى الشوف وباشر بحرق بيوت الدروز الموالين للباشا[1] العثماني، فاضطر الباشا لإرسال وفد لمفاوضة شبلي مؤلف من سعيد فتيحة ومحمد باشا وطلب الوفد من العريان الانسحاب من الشوف فاشترط شبلي لذلك ما يلي:

- الإفراج عن الزعماء الدروز.
- العدول عن جباية الضرائب لمدة ثلاث سنوات في الجبل.
- تحديد الميرة على الجبل بثلاثة آلاف قرش تدفع بعد انقضاء السنوات الثلاث.
- عدم تجريد الجبل من السلاح.
- إعادة الأسرة الشهابية إلى الحكم.

يومذاك كان الدروز يقاتلون العثمانيين في الجنوب والموارنة يقاتلون العثمانيين في الشمال وتوحدت البلاد في شكل عملي واتفق الطرفان على تولية الأمير أسعد قعدان الشهابي على البلاد وقد جاء في نداء هذا الأمير إلى أهل البلاد «... وبعد هذا المقدار من الشقاء النابع من الانقسام تعود البلاد إلى رشدها لقد اختارني الدروز والنصارى لأحكمهم وسأحترم وطني وأكون أميراً للجميع» فجن جنون الأتراك والإنكليز عندما رأوا أهل البلاد يتحدون، وابتدأ التخطيط لتنظيم فتنة طائفية بين اللبنانيين.

(١) Adel Ismail Loc.cit. page 197

رجحت كفّة رجال شبلي أثناء الصدام مع العثمانيين، الأمر الذي أضعف الباشا في ميدان القتال فلجأ للتفاوض، وقال شبلي للوفد التركي: «إن الدروز يعرفون أن الباب العالي لا يريد سوى تحطيمهم وكان لهم الحق أن يتوقعوا معاملة أحسن واتهم العريان سليم باشا صراحة أنه مدبر الفتن ومخططها بين اللبنانيين وقال: إن التعويضات المطلوبة من الدروز للمسيحيين يجب ألا يدفعها الدروز بل الذين أصبحت المنهوبات بين أيديهم فسليم باشا تسلم ستة آلاف كيس، والسر عسكر ستة عشر ألف كيس وعزت باشا أربعة آلاف كيس وعمر باشا ثلاثة آلاف كيس ورشيد باشا ألفي كيس فليرغم السلطان هؤلاء الباشوات على أن يرجعوا للمسيحيين ما قبضوه وكذلك قيمة الخيول والعطايا الأخرى التي اغتصبت من المشايخ الدروز وختم شبلي كلامه قائلاً: إن الدروز لا يمكنهم التفاوض مع الباب العالي إلا بعد استدعاء عمر باشا والإفراج عن المشايخ المعتقلين» وبالفعل تراجع العثمانيون وأفرجوا عن الزعماء الدروز واستدعي عمر باشا إلى الآستانة وعزل في نهاية السنة ١٨٤٢[1].

أصول يمنية في وادي التيم..

ذو الكلاع الحميري: الجدّ الأول لآل العريان التيامنة..

كثيرة هي الأسر التيمية التي تعود بأصولها إلى عرب اليمن، وأبرز هذه الجذور اليمنية ما يعود منها لذي الكلاع المجاهد في جيش أبي عبيدة بن الجرّاح. يقول البستاني[2] إن الأوزاع بطن من ذي الكلاع ومنهم الإمام الأوزاعي أعلم أهل الشام في زمانه ٨٨ ـ ١٥٧ للهجرة وفي كتابه المقتضب في أدب العرب يشير الدكتور يوسف محمود[3] نقلاً عن المتقدمين منهم أن آل العريان ينتمون إلى ذي الكلاع الحميري فمن هو ذو الكلاع الحميري؟

(١) مصادر المطالعة: الدكتور يوسف مزهر، الشدياق اسماعيل حقي، اميل الخوري وعادل إسماعيل.
— Loc.cit. pp. 198 et 199 Extrait d'un rapport de Bourrée en date du 19 Nov. 1842.

(٢) طبعة ١٨٨٠، ج ٤، ص ٦٤٣.

(٣) ص ٢٥٠ و ٢٥١، من المقتضب في أدب العرب طبعة يونيس أيرس.

يقول البستاني في دائرة المعارف إن ذي الكلاع اسم مضاف لعلم «لجماعة من ملوك اليمن» والمشار إليه على ما يبدو هو ما عرف بذي الكلاع الأكبر ابن النعمان ويقول ابن الأثير إن النعمان كان واحداً من اثنين بعثت بهما اليمن إلى الرسول الكريم عندما اعترفت برسالته، والنعمان هذا هو ابن إحاظة بن سعد بن عدي بن مالك بن زيد بن حمير، وعن أبي الفداء يقول الأب لويس شيخو اليسوعي في كتابه «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» شيئاً عن حمير في جاهليتها قوله «وصنف من العرب عبدوا الأصنام وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل فكان: ودّ لكلب وهو بدومة الجندل. وسوَاع لهذيل. ويغوث لمذحج ولقبائل من اليمن ونسر لذي الكلاع بأرض حمير. ويعوق لهمذان. واللات لثقيف. والعزى لقريش وبني كنانة. ومناة للأوس والخزرج».

ولما استجابت اليمن لدعوة الإسلام وأقرت بـه، أوفدت اثنين من رؤسائها إلى الرسول الكـريم، هما: الحـارث بن عبدكـلال والنعمان قيـل ذي رعين (ملك ذي رعين) وهمـذان، والنعمان في سلسلة نسب حمـير، هو والد ذي الكلاع الحميري، ويقول ابن الأثير[1] إن ذي الكلاع كان ممن نصروا النبي الكريم ضد الأسود العنسي أول مرتد في الإسلام وحدثت ردة الأسود في اليمن أيام الرسول الكريم، وأشار المؤرخون إلى مساهمة ذي الكلاع في حروب ردة اليمن الثانية التي حدثت بعد وفاة النبي وكان المرتد فيها قيس بن عبديغوث بن مكشوح. ارتد قيس لما علم بوفاة النبي، فكتب أبو بكر الصديق إلى ذي الكلاع مع من كتب إليهم يأمرهم بالتمسك بدينهم ومحاربة الردة. وقبيل الفتح قدم ذو الكلاع على أبي بكر (في أوائل مستنفري اليمن) وذلك في السنة الثالثة عشر للهجرة وحارب ذو الكلاع على رأس حمير بشجاعة وإخلاص في كل مكان أرسل إليه وفي كل مهمة انتدب لها، وكان دور هذا القائد العربي الكبير في ميادين الفتح والجهاد تحت راية الإسلام، لا يقل أهمية عن دوره في محاربة الردة، ويتضح لنا من أقوال الطبري دور ذي الكلاع الكبير في تلك

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج ١، ص ٤٢٠ و ٤٢١ وج ٢، ص ٣٣٨.

الأيام، ففي معركة اليرموك القاسية والحاسمة التي دارت رحاها بين جيش المسلمين الناشىء وجيش البيزنطيين العريق وأثناء احتدام المعركة ضغطت ميسرة الروم على ميمنة المسلمين فأزاحتها عن مواقعها واستمر المد الرومي يتصاعد لأنه حدث أثناء هجوم عام قام به جيشهم على جيش المسلمين. وأحدث الروم خرقاً نفذوا منه إلى مؤخرة الجيش وخشي المسلمون التطويق. وكان في ميمنتهم التي انكفأت، قبائل حضرموت والأزد وخولان ومذحج وزبيد وحمير، وبالرغم من صمود هذه القبائل وقتالها البطولي، لم تستطع وقف المدّ الرومي الطاغي فانكشف قلب جيش خالد من جهة اليمين. وتنادى القادة أمثال أبي هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعكرمة ابن أبي جهل والقعقاع بن عمرو وعمر بن يكرب الـزبيدي لـردم الثلم المميت في جبهة المسلمين وصاح عكرمة من يبايع على الموت؟ فبايعه ابنه عمرو وضرار ابن الأزور والحارث بن هشام وأربعماية من أبطال المسلمين وكـان دور النساء المسلمات في هذه المحنة مؤثر جداً ومفيد جداً وقد ابتدأن يرجمن المتراجعين بالحجارة وعمد البيوت ويدعونهم للدفاع عن أعراضهم وأطفالهم، فاشتدت عند ذلك قبائل حمير وحضرموت وخولان «وثاب الناس إلى رشدهم» وصمدوا ثم أخذوا المبادرة من جديد فاضطرب الروم لذلك وصاروا يدورون في مدى واحد كما تدور الرحى على حد قول أحد مشاهير المؤرخين. عند ذلك أمر خالد بالهجوم العام وتوغلت رجاله في ميسرة البيزنطيين حتى وصلوا إلى القـائد الروماني الذي يقود المـيسـرة وقتلوه، وتفكك الجيش البيزنطي الكبير تحت زخم البطولات وعظم التضحيات وانتصر المسلمون العرب.

كانت تلك المرحلة العبرة مهمة جداً من الناحية العسكرية. الميمنة الإسلامية تنكفىء تحت ضغط ميسرة الروم لجيش له خبرته وتجاربه وأسلحته الثقيلة القوية والمتفوقة. ثم تعود هذه الميمنة فتستعيد رشدها وتلتحم من جديد ثم تشن هجوماً صاعقاً على ميسرة الأعداء فتصل إلى القائد وتقتله وتنتزع النصر انتزاعاً من أعدائها، كان دور ذي الكلاع الحميري في هذه المعركة القاسية وتحولاتها دوراً هاماً. وبعد معركة فحل التي أعقبت معركة اليرموك

والتي انتصر فيها خالد أيضاً تهيأت الناس لمعركة جديدة. كانت تجري الاستعدادات لها على قدم وساق من كلا الطرفين، وهي ما عرف في ذلك الوقت بوقعة مرج الروم، وفيها أمر الخليفة عمر ابن الخطاب أبي عبيدة أن يتوجه مع خالد بن الوليد نحو حمص وألحق بهما ذي الكلاع الحميري مع فرقته التي كانت ترابط على طريق دمشق ـ حمص. ولما علم هرقل بمجيء أبي عبيدة عمد لملاقاته في منتصف الطريق وأعد لذلك جيشاً عظيًما بقيادة اثنين من كبار قادته هما: توذر وشنس، وعند وصول الجيشين إلى سهل البقاع بعد أن جاء جيش المسلمين عن طريق دمشق ـ بعلبك، وجاء جيش الروم عن طريق حمص ـ بعلبك. وحتى ذلك المساء لم يكن قد حصل صدام بين الجيشين وقرر القادة المسلمون أنه في صباح اليوم التالي ينازل خالد بن الوليد توذر وينازل أبي عبيدة شنس وعند الصباح لم يكن توذر موجوداً لقد غادر المكان، وفي حصار دمشق منع المسلمون الإمدادات عن المدينة من الخارج وكان أهم طريق لإمداد الحامية الرومية المحاصرة فيها. هو طريق دمشق ـ حمص ثم طريق دمشق ـ فلسطين، فعينّ خالد ذو الكلاع الحميري على رأس فرقة لمسك طريق دمشق ـ حمص وعينّ للمهمة الثانية مسروق العبسي، كان القائد البيزنطي المحاصر يتوقع وصول المدد إليه عن طريق دمشق ـ حمص وكان توقعه في محله، وأرسل هرقل نجدة للمدينة المحاصرة لتغيثها عن هذا الطريق، فتصدّى ذو الكلاع الحميري للنجدة الرومية وتمكنت خيالته من تشتيتها ودحرها ولم تصل النجدة لانسطاس المحاصر ففقد أمله بالنصر ولم يكتف ذو الكلاع بأن هزم النجدة الرومية. بل تتبعها واستمر يطاردها حتى حمص، وفتحت حمص على يده واستسلم له أهلها دون قتال والمعروف أن ذي الكلاع الحميري كان أول والٍ مسلم لمدينة حمص، أن من نكتب عنه هو من كبار قادة المسلمين الذين أغنوا الإسلام في فترة نشوءه بالتضحيات والانتصارات الرائعة، كما أغنى تاريخه بالمجد والفخار.

(١) الكامل في التاريخ ابن الأثير، معارك خالد بن الوليد، ياسين سويد.

ذو الكلاع الحميري وابنه يقاتلان في صفين
«قلوبهما مع علي وسيوفهما مع معاوية. . . »:

عن ابن الأثير: أن ذي الكلاع الحميري كان في حمص وأخذ من أهلها الجزية طبقاً للشروط التي قبل بها أهل حمص، ثم جاءه أمر الخليفة للانسحاب لغرض تجميع القوى العسكرية للمسلمين لأنهم كانوا على أبواب معركة اليرموك أو غيرها، فانسحب ذو الكلاع تاركاً حمص، وعلى الطريق فطن إلى أنه أخذ الجزية من الناس فرجع إلى حمص وصاح: يا أهل حمص، تعالوا استردوا ما دفعتموه من جزية لأنني منسحب إلى مكان آخر بعيد، وعاجز عن حفظ ذمة المسلمين بينكم، فتعجب أهل حمص من ذلك وأكبروا في ذي الكلاع عدله، فقالوا له: تبقى الجزية معك ونحن ندافع عن المدينة، وقالوا: والله إن ظلمكم أحب إلينا من عدل الروم...

في إحدى مراحل معركة صفين المريرة كره الناس أن يلتقي أهل العراق بأهل الشام[١] مخافة الهلاك والاستئصال، فأخذ الإمام علي يأمر أشراف قومه، فيخرج أحدهم ويخرج إليه من الجهة المقابلة فارس بحجمه ويتبارز الفارسان. فكان يخرج من جانب الإمام: الأشتر النخعي ـ وحجر بن عدي الكندي ـ وشبث بن ربعي ـ وخالد بن المعمر ـ وزياد بن النضر الحارثي ـ وزياد بن خصفة التميمي ـ وسعيد بن قيس الهمذاني ـ ومعقل بن قيس الرياحي ـ وقيس بن سعد الأنصاري، وكان يقابلهم من الجهة الثانية ـ جهة معاوية: عبيدالله بن عمر بن الخطاب ـ وابن ذي الكلاع الحميري ـ وأبا الأعور السلمي ـ وحبيب بن مسلمة الفهري ـ وشرحبيل بن السمط الكندي ـ وحُمرة بن مالك الهمذاني، وفي إحدى الاشتباكات الدامية بمرحلة من مراحل هذه المعركة المدمرة والتي لا يزال ثلمها واضح الأثر في جسم الأمة حتى يومنا هذا، اشتبكت حمير وعلى رأسها ذو الكلاع ـ من جانب معاوية ـ بربيعة وعلى

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج ٤ ص ٣١٠، ٣١١؛ ومن ٢٨٣ إلى ٢٨٧.

رأسها خالد بن المعمر ـ من جهة علي ـ واشتد القتال بين القبيلتين العربيتين الكبيرتين، ولقيت ربيعة الشديد من حمير ـ وربيعة، كما هو معروف، من بكر بن وائل، فلما قست الحرب عليها، جاء من يصرخ: يا عبدالقيس، لا بكر بعد اليوم. وكان هذا النداء تحريضاً لعبدالقيس لتقاتل إلى جانب ربيعة، وجاءت عبدالقيس وحاربت إلى جانب بكر ـ ربيعة ـ فقتل ذو الكلاع الحميري وعبيدالله بن عمر بن الخطاب، قتله محرز بن الصحصح من تيم الله بن ثعلبة من أهل البصرة، وفي هذه الحرب قتل الصحابي الكبير عمار بن ياسر، قتله من رهط معاوية أبو الغارية واحتز رأسه الطاهر بن حوي السكسكي. كان ذو الكلاع كغيره من المسلمين الأوائل يحبون عمار ويرون به وجهاً كريماً يذكرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمع ذو الكلاع عمرو بن العاص يقول أن رسول الله قال لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية وآخر شربة تشربها ضيّاح من اللبن»، فقال ذو الكلاع لعمر بن العاص: ويحك يا عمرو، بمعنى أن ذي الكلاع كان يستفظع أن يكون ضد عمار في تلك الحرب المشؤومة، فكان عمرو يقول له: إنه ـ أي عمار ـ سيعود إلينا، وكان أن قتل ذو الكلاع قبل عمار، وعلى أثر ذلك قال عمرو بن العاص لمعاوية بن أبي سفيان[1]: «ما أدري بقتل أيهما أنا أشد فرحاً، بقتل عمار أو بقتل ذي الكلاع، والله لو بقي ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام إلى علي».

وحول مقتل ذي الكلاع قال الحجاج بن غزية الأنصاري من معسكر علي مفتخراً على أخصامه من المعسكر الآخر:

فإن تفخروا ابن البديل وهاشم
فنحن قتلنا ذي الكلاع وحوشبا

ونحن تركنا عند معترك القنا
أخاك عبيدالله لحماً ملحبا

ونحن أحطنا بالبعير وأهله
ونحن سقيناكم سماماً مقشبا

ماذا عن الشيخ نصرالدين العماد بطل موقعة وادي بكا؟

هو الشيخ نصرالدين ابن أبي النصر بن بشير بن عماد ابن سيد أحمد ابن أبي عذرا بن نصرالدين بن بعيزق[1]، صاحب القصة الشهيرة مع الأمير أحمد المعني والتي ذكرناها فيما كتبناه عن المعنيين. ولد الشيخ نصرالدين العماد في سنة ١٧٨٨ في الباروك في عهد الأمير يوسف الشهابي، وفي سنة بلغ ارتفاع الثلج في شتائها نصف ذراع على شاطىء البحر[2]، واستشهد في موقعة وادي بكا سنة ١٨٣٨ فيكون قد عاش حوالي ٤٩ سنة، تخلف له ولدان هما: كنج وبشير، أما أسرته العمادية فتنتسب إلى جدها عماد الذي جاء من مدينة العمادية القريبة من الموصل في العراق إلى الجبل الأعلى قرب حلب، وانتقلوا من هناك إلى العرقوب وسكنوا الزنبقية التي اشتهرت بخلواتها العامرة ومعابدها الزاهرة، فكانت مضرب المثل بازدهارها، وهناك حصلت فتنة بينهم وبين الجنبلاطية انتقلوا بعدها إلى عين وزين، ثم إلى الباروك، وفي سنة ١٦٦٠ استلم كبيرهم الشيخ سرحال العماد امارة الشوف بأمر من أحمد باشا الكوبرلي بدلاً من الأمير أحمد المعني المتخفي عن أعين الدولة، وحدث بينهم وبين المعنيين ما سبق وأشرنا إلى حدوثه.

يقول صاحب أخبار الأعيان أن الشيخ نصرالدين كان من أشجع أهل زمانه، ويتضح من مجريات الأحداث التي عايشها الشيخ نصرالدين أنه كان بطلاً صنديداً، وفارساً مغواراً، ومغامراً واثقاً، ما ألقى بثقله في معركة إلا وعينّ نتائجها وقرر مصيرها، وتميز الشيخ نصرالدين بمواقفه البطولية التي جعلت منه جمرة الحرب المتقدة وإعصارها الكاسح، لم يكن بطلاً لمعركة واحدة، بل لمعارك عدة سنورد منها ما تمكنا من جمع أخباره.

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، ج ١ ص ١٧٤.
(٢) الغرر الحسان.

في سنة ١٨٠٧ عزم الأمير بشير على الغدر بالأخوين عبدالأحد وجرجس باز، وأوكل أمر تصفية عبدالأحد للشيخ نصرالدين العماد كان عمره يومذاك ١٩ سنة، وصدع الشيخ بالأمر، وقصد عبدالأحد إلى جبيل، وطارده. فأطلق عبدالأحد النار على مهاجميه، فقتل مرافق الشيخ المدعو خطار المصفي وأصاب الشيخ بجرح بليغ في كفه، ولم ينثن الشيخ عن مطاردته حتى أجبره على أن يلقي بنفسه من إحدى النوافذ إلى الأرض، حيث تلقته جلاوزة الأمير وقتلته.

أحداث في وادي التيم
يشارك فيها الشيخ نصرالدين العماد:

□ **معركة ضهر الأحمر (١٨٢١):**

ساءت العلاقات بين عبدالله باشا والي عكا، ودرويش باشا والي الشام ـ وكلاهما عثمانيان ـ ووصل الأمر بينهما لدرجة الحرب، فكان أن تشيع رجالات البلاد لكل منهما وانقسموا تبعاً لذلك، فكان الأمير بشير ومن معه مع عبدالله باشا، والأمير منصور من راشيا ومعه الشيخ نصرالدين العماد مع درويش باشا، يقول صاحب أخبار الأعيان ما معناه:

أرسل الأمير بشير ألف نفر من رجال الشوف، وخمسماية وخمسون من جند عكا إلى وادي التيم لقتال شهابيي راشيا حلفاء درويش باشا، وأرسل هذا الأخير من قبله قوة إلى وادي التيم، وتقابلت الجماعتان فيما بين راشيا وضهر الأحمر ـ في محلة تدعى النصب ـ وباشر الهجوم شهابيو راشيا. يقول صاحب أخبار الأعيان: «واصطدم الجحفلان وانصب على الفريقين الرصاص كالبرد... حتى استظهر الأميران ـ أمراء راشيا ـ على عسكر عكا وتبع أعقابهم الشيخ نصرالدين العماد، وفي هذه الأثناء كان الأمير سلمان الشهابي قادماً من دمشق، ولما وصل إلى كفرقوق سمع أصوات البارود، فأسرع للاشتراك بالمعركة، فلما وصل كانت قد انتهت دون حسم».

أعيد التجييش مجدداً لهذه الحرب التي لا معنى لها، فجاء الأمير بشير هذه المرة ومعه ألفا نفر من رجال الشوف والمشايخ: بشير جنبلاط وعلي العماد وحمود

النكدي وابن عمه ناصيف[١]، وطلب عبدالله باشا إلى جنده المقيم على جسر بنات يعقوب في فلسطين أن يذهبوا إلى الأمير بشير في وادي التيم «وبطلب من الأمير بشير أرسل عبدالله باشا الشعير من عكا إلى صور بحراً، وأمر متسلم هونين بنقله إلى خان حاصبيا على دواب يجمعها من أهل البلاد» ولما وصل الأمير بشير إلى وادي التيم وزع قواه على النحو التالي:

هو ومن معه في بيت لهيا ـ الأمير خليل والأمراء اللمعيين في بكيفا ـ عسكر عكا أرسله إلى ضهر الأحمر، وأرسل قوة ربطت وادي القرن لتسلب قوافل التموين لعسكر الشام الموجود في راشيا، وقد وفقت هذه القوة بمهمتها تماماً.

كان درويش باشا قد أرسل بالإضافة لما له من عسكر في راشيا سر عسكره إبراهيم آغا قبجي مع أربعماية فارس وصلوا أولاً إلى كفرقوق، وفي اليوم التالي علموا سلب المؤن الخاصة بهم في وادي القرن وكانوا قد أخذوا مراكزهم تحت راشيا عندما كان عسكر عكا ينتقل إلى ضهر الأحمر، فهجم عليه كبير دالاتية دمشق بمن معه، فأنجد الأمير خليل والأمراء اللمعيين عسكر عكا، ولكن عسكر راشيا لم ينجده كبير دالاتية دمشق كرهاً به، فانسحب هذا الأخير من المعركة وأخذ عسكر عكا يطارده ويلاحق جنوده. كان الشيخ نصرالدين العماد يراقب الوضع هو وجماعته من عل «وسقط الشيخ نصرالدين سقطة شاهين وتبعته جماعة من عسكر راشيا، وتجددت الحرب بين المتقاتلين وأخذوا في الطعن والضرب، ولم يزل الشيخ نصرالدين يدافع حتى كف عسكر عكا عن اللحاق»[٢]. هذا ما يقوله الشدياق في أخبار الأعيان عن الشيخ نصرالدين الذي حسم الموقف فتصدى للمنتصرين حتى ساواهم بالمنهزمين.

أرسل درويش باشا إلى ساحة المعركة قوة إضافية مؤلفة من أربعماية

---

(١) أخبار الأعيان، ج ٢ ص ٤١٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٤١٦.

خيال مع نائبه فيزو باشا، ولكن هذا الأخير لم يجرؤ على عبور وادي بكا أو غيره من الأودية المجاورة لأنها كانت مربوطة ـ ممسوكة عليه ـ فآثر العودة إلى قطنا وبقي فيها خارج المعركة. في هذه الأثناء جرت محاولة من عسكر راشيا لاحتلال بكيفا ولم تنجح. ويقول صاحب أخبار الأعيان أنه لولا الثلوج لدخل الأمير بشير راشيا.

كانت جبهة دمشق المؤلفة من درويش باشا وأمراء راشيا والشيخ نصرالدين العماد مفككة وكانت البغضاء تفعل فعلها بين قادتها العثمانيين، فرأى سر عسكر دمشق أن يسلك طريقاً آخر مع الأمير بشير، فأرسل يطلب منه الأمان والصلح ويذكره بصداقة قديمة بينهما، فأجاب الأمير طلبه بشرط أن يسلمه أمراء راشيا سلمان ومنصور وحسن الموالين لباشا دمشق للانتقام منهم، وفي ذات الوقت أرسل الشيخ بشير جنبلاط إلى كفرقوق ليقطع طريق دمشق عن راشيا. وفي هزيع من الليل انطلق الشيخ نصرالدين العماد وأمراء راشيا متجهين إلى دمشق عن طريق عقبة الفرس، وفي الصباح نزل عسكر عكا إلى ساحة الحرب، فلم يجد أحداً قبالته، كان قد سافر عسكر دمشق إلى بلاده وكان الثلج كثيراً جداً، فمات كثيرون من رجاله وخيله على الطريق بين كفرقوق والكنيسة ووادي بكا، وكتب الأمير بشير إلى عبدالله باشا يخبره النتائج ويقول: إن الأمراء الشهابيين الموالين لدرويش باشا والشيخ نصرالدين العماد، ذهبوا في طريق لا ترجى لهم السلامة منه.

وصل الشيخ نصرالدين والأمراء إلى قطنا ومنها ذهبوا برفقة متسلمها إلى دمشق، فأغلق درويش باشا الأبواب دونهم واتهمهم بالتخاذل وأسمعهم جارح الكلام، فرجعوا إلى قرية تل منين في وادي بردى، أما عسكر عكا الذي كان في دمشق فقد ذهب إلى القنيطرة فكبسها وأسر متسلمها، وغنم منها ٧٥ حصاناً.

□ معركة المزة:

في أواسط شهر أيار من سنة ١٨٢١ وصلت إلى دمشق أخبار تفيد أن عسكر عبدالله باشا وعسكر الأمير بشير الشهابي يقتربان من جديدة عرطوز

والمعظّمية، وخاف درويش باشا هذا الخطر المحدق به فأرسل الشيخ نصر الدين العماد والأميرين سلمان وحسن الشهابيين إلى المزة لتحصينها والدفاع عنها، وهناك لحق بهم الشيخ علي العماد فنظموا مراكز القتال على «الطريقة الهندسية» ثم التحق بعسكر درويش باشا كل من المشايخ حسين تلحوق وفاعور عبدالملك وحسين العماد تاركين عسكر الأمير بشير. ونهض الأمير بشير بمن معه إلى المزة وأرسل ابنه خليل بالأرناؤوط إلى الجبل الذي يقع فوق المزة ومعهم الشيخين حمود وناصيف النكدي، وقدر عديد هذه القوة بألفين من اللبنانيين والدالاتية والهوارة، فأطلق عليهم عسكر دمشق النار من المرتفع فقتل قائد الأرناؤوط وارتد باقي الجيش إلى حيث يوجد الأمير بشير، عندئذ قام الأمير بشن هجوم على المزة من الجهة الجنوبية فهدم أسوارها التي كانت مبنية من الطين فاحتلها وفرت عساكر درويش باشا إلى المدينة بعد أن فقدت مائتي قتيل وخمسماية أسير، وعلى أبواب المدينة جمع سر عسكر درويش باشا فلول جيشه وأعاد الهجوم على عسكر عكا واللبنانيين فصدهم ومنعهم من اللحاق بعناصره، ورجع الأمير بشير ظافراً إلى المعظمية. أما الشيخ ناصر الدين العماد ومن معه فقد اتهمهم سر عسكر دمشق بالخيانة وعلى أبواب المدينة أوقفهم وأطلق على الشيخ نصر الدين النار لمنعه الجنود من إطلاق النار في المزة على العدو، وجرح الشيخ نصر الدين جرحاً بليغاً، التحق بعد ذلك بجماعته في النبك وهو مجروح. ولا يزال القول للشدياق.

خطأ الشيخ نصر الدين في عدم إطلاق النار على المهاجين في المزة كان كبيراً ولكن كانت له مبرراته، وهي أن جماعة من اليزبكية كانت قد أرسلت للشيخ نصرالدين أنها ستترك معسكر الأمير بشير وتلتحق به وبينما كان عسكر عكا والأمير بشير هاجما صاحوا بالمدافعين لا تطلقوا النار علينا نحن أصحاب فاعتقد الشيخ نصر الدين أن الجماعة اليزبكية قد أتت للالتحاق، وأمر بعدم إطلاق النار فكان أن اجتاح المهاجمون الخطوط وانهزم عسكر درويش باشا. كان درويش باشا قد اشتكى لاستامبول على عبدالله باشا فجاء فرمان شاهاني إلى والي حلب لمساعدة والي دمشق وأرسل الولاة نسخة عن

الفرمان إلى الأمير بشير وأمروه بالعودة إلى بلاده فأذعن للأمر ورجع إلى المعظمية فالأشرفية.

وفي اليوم الثاني وصل إلى حرش يعفور وتابع في الصباح الانسحاب إلى لبنان، وجاء والي حلب ووالي دمشق ومعهما المشايخ العمادية والأمراء الشهابيين الموالين لهم بحملة جديدة على البلاد ونزلوا في قب إلياس فانهزم منها الأمراء اللمعيون وخيم على البلاد جوٌ من الخوف والترقب.

قام الشيخ بشير جنبلاط بمساع للصلح بين درويش باشا والأمير بشير وقد وفق لذلك بعد جهد جهيد وأرسل أحد أبنائه إلى دمشق رهناً على مبلغٍ من المال اتفق أن يدفعه الأمير بشير لدرويش باشا، وكان الاتفاق أن يتولى الحكم في البلاد الأمير عباس أسعد بدلاً من الأمير بشير الذي سافر لعند محمد علي باشا تحاشياً للصدام، ولاقى في مصر كل إكرام هو ومن معه من الحاشية، وبعد مدة من الزمن أرسل ولديه خليل وأمين إلى البلاد ووصلا إلى بيت الدين وكتب إلى الأمير عباس أسعد أن يبقى في الولاية وكتب إلى الشيخ بشير جنبلاط يطلب منه سبعماية وخمسون ألف قرشاً كمعونة له، ولكن في الواقع لم تكن معونة بقدر ما كانت غرامة لأنه كان يحقد على الشيخ.

اعتذر الشيخ بشير أول الأمر ثم عاد وارتضى، وكان الأمير بشير قد عاد من مصر إلى عكا وبقي فيها أربعين يوماً ثم انتقل منها إلى صيدا ثم إلى بيت الدين في موكب عظيم وعندما وصل توافدت عليه أعيان البلاد للتهنئة، وأرسل الشيخ بشير يطلب إعادة العلاقات إلى ما كانت عليه مع الأمير بشير، فطلب الأمير ثمناً لذلك ألف ألف قرش دفع الشيخ نصفها وبالرغم من كل ذلك بقيت العلاقات بينهما فاترة، وأدرك الشيخ أن الأمير بشير يدبر في الخفاء أمراً ما. فنزح إلى وادي التيم وظل الصراع بينهما خفياً حتى تفجر علانية في الأحداث المعروفة بأحداث المختارة.

معركة المختارة...

وادي التيم يدفع ثمن الصراع بين البشيرين:

اختار الشيخ بشير ومن معه راشيا في وادي التيم مكاناً لإقامتهم ريثما تنجلي الغمة، وكان قد جرى وساطة وسعي من عبدالله باشا والي عكا مع الأمير بشير للصلح بينه وبين الأمراء والشيخ على أن يعودوا إلى بلادهم واعتبار أن كل سوء تفاهم قد انتهى بين الجميع مقابل أربعماية كيس يدفعها الشيخ للوزير صاحب المبادرة الطيبة «لأجل انشراح خاطره...» ورجع الشيخ إلى المختارة وقام بعدها بزيارة للأمير في بيت الدين وكان أثناء هذه الزيارة كل واحد يحاول أن يرهب الآخر فالشيخ اصطحب معه وفداً قدر بحوالي الألفين من الناس، والأمير جمع ما عنده من الخدم والموالي وجعلهم صفين مر بينهما الشيخ وكأن الموضوع للتهديد أكثر منه للتكريم. وبالرغم من كل هذا طمأن الأمير الشيخ وأظهر له الودّ وخلع عليه فرواً ثميناً، وبعدها رجع الشيخ إلى المختارة، وجاء من يقول له إن الأمير مكدر الخاطر بسبب كبر الوفد الذي رافقك إلى بيت الدين، فذهب الشيخ بزيارة ثانية وبوفد أقل مما رافقه في الزيارة الأولى وطمأنه الأمير (على حاله وماله) وطلب إليه إرجاع من عنده من الناس إلى قراهم «لأنهم من رعايا حاكم البلاد». ولا يزال القول للشدياق.

أخذ والي عكا يطالب الشيخ بشير بالأربعماية كيس، فماطل الشيخ لأنه لم ير فائدة من هذا الابتزاز، في هذه الأثناء وردت كتابة من محمد علي باشا والي مصر إلى والي دمشق يطلب إليه طرد الشيخ بشير من أيالته «كان محمد علي يعتقد أن الشيخ بشير لا يزال في وادي التيم» دون سبب ولا مبرر إلا إرضاء للأمير بشير الذي كان محمد علي يهيئه ليجر له عربة أطماعه في البلاد السورية، ثم عمّم الأمير بشير على أهل البلاد خاصة الموجودين عند الشيخ في المختارة أن كل من يبقى عند الشيخ «يقع في الغضب» وداخل الخوف نفس الشيخ من هذا التدبير لأنه لم يكن واثقاً في الأساس من حسن نوايا الأمير

(١) عن الغرر الحسان.

نحوه، وترك الناس الشيخ إلا خدمه وبعض مؤيديه منهم أولاد الأمير عباس أرسلان وبيت أبو علوان، وصارت الناس تتحاشى الذهاب إليه فرأى أن ينزح تحسباً وتفادياً لأمور توقع حدوثها في البلاد ضده، وقد أثبتت الأحداث أن توقعه كان في محله. رحل هذه المرة إلى حوران ونزل هناك على عرب الفحيلة والسلط وكان معه مايتي رجل.

أخذ الأمير يضطهد الموالين للشيخ، فأرسل حوالة على المتن على بيت الأعور في قرنايل لأنهم كانوا بصحبة الشيخ أول مرة في وادي التيم، ثم طلب مال جريمة من أولاد الأمير نصر أبو اللمع لنفس السبب، كان هذا البيت من بيت أبي اللمع لا يزال على مذهب الدروز. وممن كان معه هذه المرة، بعض الأمراء الارسلانيين وجماعة من مقدمي حمانا، التقى الشيخ بشير سليمان باشا والي طرابلس الذي كان بملاقات الحج فاشتكى إليه ونفحه بعض الهدايا، فطلب الوالي إلى الشيخ الذهاب إلى عنده في طرابلس، وذهب الشيخ بمن معه من حوران إلى طرابلس ماراً في بلاد بعلبك ونزل في عكار ضيفاً على علي بك الأسعد في هذه الأثناء توفي سليمان باشا لسوء حظ الشيخ الذي استقر في المنيا. ثم تسلّم علي بك الأسعد ولاية طرابلس».

حاول الشيخ بشير إيجاد تكتل يقف بجانبه بصراعه مع الأمير بشير معتمداً بذلك على الأسر الدرزية الكبيرة والأمراء الشهابيين المناوئين للأمير بشير، فوفّق بمسعاه وتزعم هذا التجمع في غيابه الشيخ علي العماد، وكان أكثر ما يخيف الأمير هو اتحاد الفئتين اليزبكية والجنبلاطية في الشوف، وكان يضم هذا التجمع أكثر من ثمانية أمراء من بني شهاب كما كان يضم «معظم أهالي الشوف والغرب التحتاني» وآخرين من أهل البلاد، واجتمعت الناس في المختارة وأرسلوا إلى الشيخ يطلبون إليه الرجوع إلى البلاد فلبى طلبهم واتجه عائداً إلى المختارة. وضع عبدالله باشا عسكراً تحت تصرف الأمير بشير وأرسله إلى صيدا وأرسل مصطفى باشا والي دمشق إلى الأمير يخبره أنه مستعد لمساعدته عند أول طلب منه. وأرسل محمد علي باشا من مصر يقول للأمير إنه أرسل

عشرة آلاف مقاتل وأنه إذا لزم الأمر سيحول حملة كريت على لبنان... حتى أن علي باشا الأسعد أرسل للأمير بشير أنه مستعد لكل أمر يلزم. وراح الدروز الذين في معسكر الأمير بشير يسعون لدى اخوانهم في الجانب الآخر لترك الشيخ بشير والانسحاب من معسكره.

كانت جميع المؤشرات تدل على أن معسكر الأمير هو الأقوى وسينتصر إن عاجلاً أم آجلاً، وكان للأمير بشير عسكر في بلدة بعقلين. فهاجمه رجال الشيخ وكانت بعقلين فئتين: بيت حمادة مع الأمير بشير. وبيت عامر مع الشيخ بشير وداهم جماعة الشيخ البلدة وجرت معركة أسفرت عن وقوع ١٥ قتيلاً وأربعين أسيراً من جماعة الشيخ وعشر قتلى وثلاثين أسيراً من عسكر الأمير(١)، وفي الصباح نهض الأمير بشير بمن معه من العسكر إلى السمقانية، وكان قد أمر عسكر عكا الذي بتصرفه أن يعسكر في قرية السمقانية، فتصدت له جماعة الشيخ وجرت بين المتقاتلين معركة في كروم بقعاتا كانت كفة عسكر عكا هي الراجحة عندما جاء الأمير بشير بالعسكر إلى السمقانية أرسل قسماً من العسكر ليقيم باتجاه كفرنبرخ لمنع الشيخ نصر الدين العماد من نجدة المختارة ويقول الشدياق: «التقاهم الأمير بباقي العساكر إلى هناك وأضطرمت نار الحرب واشتد الكفاح والضرب ثم هجم عسكر الوزير وابن بربر على عقال الدروز المتحصنين في قلعة صخور هناك فانكسروا مدبرين أما الشيخ نصر الدين العماد فأبقى أناساً من جماعته في كفرنبرخ محافظين وشن الغارة على عسكر الأمير بمائة مقاتل. فلما أقبل على عسكر الوزير الظافر زأر كالأسد الغضنفر وصاح بجماعته صيحة عنتر وهجم على ذلك العسكر من جهة والأمير سلمان من جهة أخرى فانكسر عسكر الوزير وشيكاً وولىّ الأدبار إلى معسكر الأمير»(٢). ظاهرة غريبة جديرة بالاهتمام. جيش منتصر يزيد تعداده عن ألفي شخص وهو في غمرة انتصاره يتصّدى له

(١) الغرر الحسان، منشورات الجامعة اللبنانية، ج ٣، ص ٧٦٥ و ٧٦٦.
(٢) أخبار الأعيان، منشورات الجامعة أيضاً، ج ٢، ص ٤٣٤.

الشيخ نصر الدين العماد بماية فارس فينتزع النصر من يده ثم يهزمه، وكأن هذا القول منقول عن إحدى الملاحم اليونانية حول أبطالها الخرافيين.

يقول الأمير حيدر أن حركة المختارة استمرت ثلاثين يوماً: من ١٩ كانون الأول ١٨٢٤ إلى ١٩ كانون الثاني ١٨٢٥، وقد أسفرت هذه الحركة عن انتصار الأمير بشير بمن معه على الشيخ بشير ومن معه، فرأى الشيخ أن يترك البلاد للمرة الثالثة، ويقول صاحب أخبار الأعيان أن الشيخ اختار حوران من ايالة دمشق مستأنساً بواليها مصطفى باشا البيلاني الذي لم يسبق أن صدر عنه ما يغضب الوالي المذكور، وكان مع الشيخ لفيف كبير من النازحين منهم: الشيخ علي العماد وحلفائه من الأمراء الشهابيين، وأرسل الأمير بشير ابنه الأمير خليل يتعقبهم إلا أنه لم يدركهم، ولما وصلوا إلى قرية مجدل شمس، افترق عنهم هناك الأمراء الشهابيون وراحوا باتجاه عرنة، ورافقهم إليها علي ابن الشيخ حسن جنبلاط الذي كان قد جرح في معركة المختارة لعدم تمكنه من متابعة السير نحو حوران بسبب جرحه، وفي عرنة لجأ إلى مغارة قرب القرية وما لبث أن توفي فيها متأثراً بجراحه وكان عمره ٣٥ سنة.

ومن عرنة انتقل الأمراء الشهابيون إلى قرية برقش في جبل الشيخ، ومن برقش انتقلوا إلى جب جنين في البقاع، فوافاهم إليها الشيخ نصرالدين العماد، ومن جب جنين انتقلوا إلى مجدل عنجر وأخذوا ينتظرون هناك رسل لهم أوفدوهم إلى بعض أقاربهم من الأمراء الشهابيين ولمصطفى آغا بربر للتوسط لهم لدى الأمير بشير. أما الشيخ بشير والشيخ علي العماد ومن معهما فقد تابعا سيرهما باتجاه حوران، وكان عبدالله باشا والي عكا قد علم بالأمر من الأمير بشير، فأرسل إلى مصطفى باشا والي دمشق يطلب إليه مطاردة المشايخ وأسرهم، فأرسل مصطفى باشا كبير دالاتيته (كنج آغا) لهذه المهمة. أدركهم هذا الأخير في قرية نوى من أعمال الجيذور وطلب إليهم التسليم ووعدهم بالأمان، وكان للشيخ بشير فضلاً على كنج آغا في معركة ضهر الأحمر بحيث أنقذ رأسه، فوثق به وألبس كنج آغا الشيخ بشير والشيخ علي على رأسيهما لباس الدالاتية علامة الأمان. وبينما كانوا متجهين إلى دمشق غدر الآغا بالمشايخ وانتزع

منهم أسلحتهم وخيولهم، ولما وصلوا إلى الشام، أمر مصطفى باشا على الفور بإعدام الشيخ علي العماد لسبب سوء تفاهم كان قد حصل بينهما أثناء تولي الشيخ علي على مرجعيون، ووضع الباقين في سجن القلعة.

أرسل عبدالله باشا موفداً من عكا إلى دمشق يطلب إرسال المشايخ الأسرى إليه، فأُرسلوا له، وعندما وصلوا أمر بوضعهم في السجن، وبعد أيام أخرج الباشا الشيخ بشير جنبلاط من سجنه وطيب قلبه وعامله معاملة لائقة به، وكان الأمير بشير ــ على ما يبدو ــ يستطلع أخبار الجماعة باستمرار فأزعجه أن يرى الشيخ بشير يعامل معاملة حسنة عند رجل كان يتوقع منه أن يعدمه، فكتب إلى محمد علي باشا والي مصر يشكو إليه أمره، فأرسل هذا الأخير إلى عبدالله باشا يلومه ويطلب إليه إعدام أسيره الكبير، فصدع والي عكا بأمر محمد علي وأعدم الشيخ بشير جنبلاط والشيخ أمين العماد خنقاً وطرحت جثتاهما على أبواب سجن عكا.

يعدد الشدياق في كتابه أخبار الأعيان الكثير من مزايا الشيخ بشير الحميدة، لدرجة يعتقد فيها المرء أن الأمير بشير الذي لقبه المؤرخون بالكبير، كان نـدّاً صغيراً للشيخ بشير جنبلاط. ويقول الشدياق[١] أن الشيخ بشير «وزع في سنة واحدة على فقراء البلاد جميعاً ستماية وخمسين ألف قرشاً» وقد لقبته الناس بعمود السما، وكان الأمير بشير مدين بالكثير للشيخ خاصة في حياته الأولى. ويفهم من مجريات الأحداث التاريخية أن تلك الأحداث القاسية التي عاشتها البلاد كان مردها لذلك الصراع الحاد الذي ذر قرنه بين ذينك الرجلين الكبيرين اللذين وجدا بوقت واحد على رأس البلاد، فكانت تلك الأحداث المشؤومة من أقسى ما عاناه الوطن والمواطنون، وكانت تلك الأحداث على كل حال مقدمة لأحداث أتت بعدها على ما هو أقسى وأمر.

يقول الدكتور ميخائيل مشاقة الذي عاصر وعاش تلك الأحداث القاسية التي مرت بها البلاد، يقول في كتابه منتخبات في الجواب على اقتراح الأحباب:

---

(١) أخبار الأعيان، ج ١ ص ١٦٢.

أنه وقع على دروز حاصبيا إهانات كثيرة ومتنوعة، ويقول: أن الأمير بشير أوعز إلى الأمير سعدالدين الشهابي بهدم بيوت أنصار الشيخ بشير جنبلاط في حاصبيا، وكان من جملة البيوت التي تقرر هدمها بيت الشيخ بشير قيس قاضي البلاد، فسعى ميخائيل للحفاظ على هذا البيت وعدم هدمه لأنه على حد قوله: مضافة مجانية للغرباء. كان الشيخ بشير قيس يطعم الخبز مجاناً ويأوي الغريب، وكان ميخائيل مشاقة يومذاك في حاصبيا، وكان من مسموعي الكلمة عند الأمراء الشهابيين، فطلب منهم أن تخصص لسكناه دار الشيخ بشير قيس، فأجيب طلبه، وكان قصده حمايتها من الهدم ووفق لما أراده.

وفيما أراه، إن العلاقات ابتدأت تسوء بين دروز وادي التيم وبين أمرائه من بني شهاب منذ ذلك الوقت، أما الأمراء الشهابيون الذين كانوا مع الشيخ بشير: الأمير سلمان والأمير حسن، تركناهم مع الشيخ نصرالدين العماد في مجدل عنجر. وكان الأمير خليل ابن الأمير بشير في وادي التيم يقوم بالتنكيل بأمر من والده، فأخذ خبر الجماعة فلحقهم إلى مجدل عنجر وطردهم منها، فانتقلوا إلى بعلبك ومنها ذهبوا باتجاه حمص، ثم عادوا باتجاه البقاع، فانفصل عنهم الشيخ نصرالدين العماد وذهب إلى إحدى قرى دمشق الدرزية(١) وبقي فيها حتى أُعلن العفو قبيل معركة وادي بكا. أما الأمراء الشهابيون الآخرون، فقد رجعوا إلى قب الياس في البقاع، وهناك ألقي القبض عليهم واقتيدوا إلى الشبانية ومنها إلى بيت الدين، وهناك حكم عليهم الأمير بشير بقطع ألسنتهم وفقء عيونهم.

يقول مخائيل مشاقة أنه كان عند الأمير بشير راهب مختص بقطع الألسن، فكان يغرز سنارة في لسان المحكوم عليه ويسحبه إلى الخارج، ثم يقطعه ويكوي الجرح بقطعة من الفخار محماة على النار لمنع الالتهاب. أما فقء العيون فكان مختص بتنفيذها رجل آخر، وظل هذا الرجل يقوم بعملية كي أعين الأمراء المحكوم عليهم لمدة ثلاثة أيام متتالية حتى تأكد أنهم عميوا كلياً، ولكن

(١) في هذه المرة حدثت قصة الشيخ نصرالدين العماد مع العسكر في سهل منسياً.

الذي حدث أنه بعد مدة من الزمن شعر الأمير سلمان الشهابي بأن إحدى عينيه لم تطفأ تماماً لأنه كان أحولاً في الأساس، فطلب مسترحماً من الأمير بشير أن يؤذن له بفتح جفنها فسمح له.. فصار يقرأ ويكتب. وفي الغرر الحسان ما يفيد أن أغنية شعبية راجت يومذاك بين الناس لأولئك الأمراء التعساء الذين كانوا يسيروا وهم يتحسسون طريقهم بالعصا، تقول الأغنية:

يا بو العيون اللوازي   تذبح بحد الكازي
من بعد مشي الغندرا   تمشي على العكازي

ومما ذكره مخائيل مشاقة في كتابه «منتخبات» أنه أثناء معركة حمص الشهيرة بين الأتراك وبجانبهم العمادية والنكدية وغيرهم، وبين المصريين ومعهم الأمير بشير ورهطه، كان ميخائيل مع الأمير بشير هناك وكانا يراقبان الوضع بمنظار من فوق تل عال مشرف على الساحة، كانت كفة الجيش المصري هي الرابحة ولكن فجأة دخل عامل جديد على المعركة، فتراجع الجناح المصري تحت زخم هجوم صاعق من الجهة العثمانية، فصاحت الناس: إجت خيالة مرعش.. إجت خيالة مرعش... وخيالة مرعش هذه عناصر مقاتلة عثمانية مشهود لها ـ على ما يبدو ـ بالكفاءة والشجاعة، ولكن الأمير بشير قال لمرافقه: هوذي مش خيالة مرعش.. هوذي النكدية والعمادية، وهكذا كان، فتصور كم لهذه الجماعة من جرأة وبأس ومقدرة قتالية.

مستشرقون أجانب
ذكروا وادي التيم في كتاباتهم

كثيرون هم الرحالة والمستشرقون الذين زاروا بلادنا لغرض الاستكشاف والاستقصاء التاريخي وذكروا وادي التيم في كتاباتهم، من هؤلاء:

ـ السر موندفيل ورفيقه و. د. دنسل: بريطانيان، كانت رحلتهما في حدود العام ١٣٣٦ ميلادي.

ـ السر فوررفون هيموندورف: ألماني، صعد برحلته من الحولة إلى وادي التيم فالبقاع في حدود العام ١٥٦٦م.

ـ ساندیز: رحالة نشيط، ألف كتاباً عن رحلته أسماه «رحلات بين القبائل العربية»، ويقول أنه أثناء رحلته في ما حول حرمون كانت قلعة بانياس بيد الأمير فخرالدين المعني ـ كانت رحلته في حدود العام ١٦١١م.

ـ نورمبورغ: ألماني، قام برحلته سنة ١٦٤٦م.

ـ موندريل: قام هذا الرحالة النشيط برحلتين: الأولى سنة ١٦٧٧، والثانية سنة ١٦٩٧، وفيما قاله: أن نهراً يرفد الليطاني يدعى نهر ينثلو، معتقداً أن اسم النهر مأخوذ عن اسم ينطا التي ينبع من قربها، وقال أن محلة الآبلية المذكورة في الكتاب المقدس هي محلة وادي بردى اليوم واسمها مأخوذ عن النبي هابيل صاحب بيعة فيها، وأن قبر النبي هابيل لا يزال قائماً فوق صخر عظيم في تلك المحلة.

ـ المسترنو: قام برحلته سنة ١٦٧٤م.

ـ بوكوك: قام برحلته سنة ١٧٣٨م فيما ذكره أن دمشق كانت تتمون بالثلج صيفاً من جبل حرمون.

ـ سيتزن: زار هذا الرحالة النشيط قرية رخلا ووصف آثارها الرائعة وصفاً دقيقاً كما زار عيحا ووصف هيكلها، وعن دمشق قال أنه قاس المسافة بين البوابة الشرقية والبوابة الغربية فيها، فكانت نصف ساعة سير، ومن الشمالية إلى الجنوبية ساعة كاملة، قام برحلته سنة ١٨٠٦م.

ـ بركهاردت: زار رخلا أيضاً وكتب عنها واصفاً مشاهداته فيها بدقة، قام برحلته في العام ١٨١٢م.

ثم المستر بانكس ١٨٢٢م. الدكتور هوغ ١٨٣٣. تايبنغ ١٨٤٢م. الدكتور ويلسن ١٨٤٣م. القس تومسون، أشار إلى حيين كبيرين من الأعراب في وادي التيم هما عرب الصبّان وعرب الصبيح، وليس لهؤلاء من أثر في أيامنا الحاضرة. القس الدكتور سميث سنة ١٨٤٤م. الكبتن نيوبولد سنة ١٨٤٤م. شيلز وفيلي وولف سنة ١٨٤٧م. اللفتننت لينش ورفاقه سنة ١٨٤٨م. الدكتور اندرسون سنة ١٨٤٨م. بارنيت سنة ١٨٥١م. دي سولسي سنة ١٨٥١م. كرايمر سنة ١٨٥١م. روبنصون سنة ١٨٥١م. القس ج. ل. بورتر، زار ينطا وبكا ووصف الهيكل الموجود فيها وصفاً دقيقاً.

أما تومسون، فقد زار بلادنا في وقت كانت فيها الأوضاع الأمنية مضطربة كما يبدو، فتزود بتوصية من الشيخ محمد قيس من حاصبيا فيما يلي نصها[1]:

«إلى أصحاب السعادة مشايخ الشوف المحترمين والمقيمين الآن في هذه النواحي، حفظهم الله تعالى، أولاً بعد الأشواق الوفيرة لمشاهدتكم بخير وعافية، وبعده نفيدكم أن صديقنا المستر تومسون ذاهب من قبل الحكومة الإنكليزية لزيارة بعض الأماكن وينتظر منكم عدم مداخلة أحد معه أو اعتراض

(١) يوميات في لبنان، ترجمة أسد شيخاني، منشورات دار المكشوف.

طريقه، وخلاف ذلك لا لزوم لأن أشدد عليكم أو أصر على هذه المسألة وأطال الله بقاءكم، صديقكم المخلص، الإمضاء محمد قيس».

تاريخ هذه الرسالة ٦ شعبان سنة ١٢٦٨هـ= ٢٤ أيار سنة ١٨٥٢م، والذي حدث أنه بينما كان تومسون هذا برحلته التقاه في الجبل بين ينطا ودير العشائر اثنان من بيت القنطار، فأخافاه أول الأمر لأنهما كانا على حد قوله مدججين بالسلاح حتى أسنانهما، وقالا له أنهما كانا بغزوة ناحية القرعون، ولكنهما لم يتعرضا له بشر وعرضا عليه خدماتهما. . فشكرهما وانصرف مسروراً بفراقهما.

□ □ □

	المصدر	المؤلف
١	الكامل في التاريخ	ابن الأثير.
٢	البداية والنهاية، ج ١٢	ابن كثير.
٣	تاريخ اليعقوبي، ج ٣	اليعقوبي.
٤	ذيل تاريخ دمشق	ابن القلانسي.
٥	انساب العرب	القلقشندي.
٦	صبح الأعشى	القلقشندي.
٧	معجم ما استعجم	البكري.
٨	الملل والنحل	الشهرستاني.
٩	حسن التقاسيم في معرفة الأقاليم	المقدسي.
١٠	تاريخ بيروت	صالح بن يحيى.
١١	مروج الذهب	المسعودي.
١٢	تاريخ تيمورلنك	ابن عربشاه.
١٣	تاريخ مختصر الدول	ابن العبري.
١٤	امراء غسان	نولدكه.
١٥	الغرر الحسان	الأمير حيدر الشهابي.
١٦	خلاصة الأثر	المحبّي.
١٧	تاريخ ابن سباط	نسخة مكتبة الجامعة الأميركية.
١٨	ذخائر لبنان	إبراهيم الأسود.
١٩	أخبار الأعيان	الشدياق.

	المصـدر	المؤلـف
٢٠	تاريخ حمص	عيسى أسعد.
٢١	تاريخ الأمير فخرالدين المعني الثاني	مصطفى الخالدي الصفدي.
٢٢	دمشق	محمد كرد علي.
٢٣	خطط الشام	محمد كرد علي.
٢٤	النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية	لديس شيخو.
٢٥	تاريخ النصرانية في بلاد العرب	لديس شيخو.
٢٦	روض الشقيف	الأمير شكيب أرسلان.
٢٧	تاريخ الأزمنة	الدويهي.
٢٨	تاريخ سوريا	هزي لامنس.
٢٩	فتوح البلدان	البلاذري.
٣٠	دواني القطوف	عيسى اسكندر المعلوف.
٣١	تاريخ الأمير فخرالدين المعني الثاني الكبير	عيسى اسكندر المعلوف.
٣٢	فخرالدين ودولة توسكانا	بولس قرالي.
٣٣	منتخبات من الجواب على اقتراح الأحباب	مشاقة
٣٤	فخرالدين أمير الدروز الكبير	ماريتي
٣٥	تاريخ الشعوب الإسلامية	بروكلمان.
٣٦	تاريخ هنيبعل	جدرج مصروعة.
٣٧	قلب لبنان	الريحاني.
٣٨	النكبات	الريحاني.
٣٩	تاريخ الحضارات العام، ج ١ ـ ٣ ـ ٤	نسخة مكتبة الجيش.
٤٠	كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى	د. أسد رستم.
٤١	الروم	د. أسد رستم.
٤٢	لبنان في التاريخ	د. فيليب حتي.
٤٣	خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى	د. فيليب حتي.
٤٤	تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين	د. فيليب حتي.
٤٥	الجغرافيا والرحلات عند العرب	د. نقولا زيادة.
٤٦	أسماء المدن والقرى اللبنانية	د. أنيس فريحة.
٤٧	طائفة الدروز	د. كامل حسين.
٤٨	تاريخ الأمراء الشهابيين	د. سليم هشي.

	المصـدر	المؤلـف
٤٩	أسماء المدن والقرى اللبنانية	د. أنيس فريحة.
٥٠	المقتضب في أدب العرب	د. يوسف محمود.
٥١	تاريخ لبنان الحضاري	يوسف السودا.
٥٢	تاريخ لبنان والبلدان المجاورة	جواد بولس.
٥٣	تاريخ طرابلس	وجيه الزين.
٥٤	تاريخ لبنان العسكري	مدريس شهاب.
٥٥	القرامطة	عارف تامر.
٥٦	تاريخ الزراعة	عمر أبو النصر.
٥٧	أضواء على جغرافية التطور التاريخي	مسعود ضاهر.
٥٨	يوميات في لبنان	دار الكشوف.
٥٩	رحلة توراثية	دار الكشوف.
٦٠	كارن	دار الكشوف.
٦١	دراسة في تاريخ مدينة صيدا	د. عبدالعزيز سالم.
٦٢	تاريخ قلعة الشقيف	سليمان ضاهر.
٦٣	الدروز	سليم أبو اسماعيل.
٦٤	أبو جعفر المنصور	عجاج نويهض.
٦٥	التنوخي	عجاج نويهض.
٦٦	أوراق لبنانية	يوسف إبراهيم يزبك.
٦٧	تاريخ سوريا الديني والدينيوي	المطران الدبس.
٦٨	التنشئة الوطنية الإنسانية	الجيش اللبناني.
٦٩	معارك خالد ابن الوليد	العميد د. ياسين سويد.
٧٠	تاريخ اليونان ١٥	منشورات الجامعة اللبنانية.
٧١	مباحث علمية واجتماعية ١٨	منشورات الجامعة اللبنانية.
٧٢	معجم البلدان	ياقوت الحموي.
٧٣	معجم الأدباء	ياقوت الحموي.
٧٤	تاج العروس	الزبيدي.
٧٥	صيدا عبر حقب التاريخ	د. خوري.
٧٦	موقف امراء العرب	د. أمينة البيطار.
٧٧	وفيات الأعيان	الزركلي.

	المصدر	المؤلف
٧٨	الأعلام	الزركلي.
٧٩	رافع أبي الليل	د. سلي مكارم.
٨٠	تاريخ حلب	ابن العديم.
٨١	تاريخ افتتاح الأندلس	ابن القوطية القرطبي.
٨٢	دائرة معارف القرن العشرين	محمد فريد وجدي.
٨٣	دائرة المعارف اللبنانية	البستاني.
	Encyelopedia Universalis T.2	نسخة مكتبة الجيش.
٨٥	نور الأندلس	الريحاني.
٨٦	فخرالدين أمير الدروز	ويشنفيلد.
٨٧	المحررات السياسية	اميل خوري وعادل اسماعيل.
٨٨	بشير بن السلطان والوزير	د. أسد رستم.
٨٩	ديوان البحتري	
٩٠	ديوان المتنبي	
٩١	عمدة العارفين	الشيخ الأشرفاني.
٩٢	الكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد	
٩٣	مخطوطة آل الفقيه	

الدوريات

١	مجلة الآثار ١٩١١ و ١٩١٢	عيسى اسكندر المعلوف.
٢	المجلة السورية ١٩٢٨	الأب بولس قرألي.
٣	مجلة الاذاعة اللبنانية، كانون الأول ١٩٧٣ وكانون الثاني ١٩٧٤	الأب بولس قرألي
٤	مجلة جيش الشعب السورية ١٩٧٣/٥/١	الجيش العربي السوري.
٥	مجلة العربي الكويتية، ١٦١ ـ ٢٦٠	الكويت.
٦	مجلة المقتطف ١٩٠١ من تاريخ آل معن	يني.
٧	المشرق، ج ١ ـ ٢ ـ ٤ ـ ٥	يونس شيخو.
٨	مجلة الأرض المقدسة، ١٥ أيلول ١٨٩٤	
٩	مجلة درع الوطن	أبو ظبي من مقال اللواء محمود شيت خطاب.
١٠	مجلة الأخبار البيروتية من مقال	ماير سعد.
١١	جريدة النهار البيروتية ١٩٧٥/٢/٥	

فهرست الكتاب

الموضوع	رقم الصفحة
الجزء الأول	
الفصل الأول: وادي التيم موقع وواقع	١١
ـ وادي التيم منطقة غابات زاهرة	١٣
ـ وادي التيم جيب بقاعي	١٥
ـ مكان وادي التيم من التنظيمات الإدارية	٢٠
ـ هل كان وادي التيم يدعى إقليم زينودورس؟	٢٥
الفصل الثاني: حرمون من أبرز مظاهر الطبيعة في وادي التيم	٢٧
ـ حرمون أو جبل الشيخ	
ـ الآثار التاريخية على حرمون	٣٠
ـ التيميّ وحرمون	٣٥
ـ ثلوج حرمون ترطب موائد الملوك	٣٦
الفصل الثالث: سوريا وطن الإنسان القديم	٣٩
ـ موجز تاريخي لبعض الدول التي قامت على أرضنا من وطنية وأجنبية	٤٢
ـ الكنعانيون	
ـ الأموريون	٤٦
ـ الآراميون	٤٨
ـ الفينيقيون	٥٠
ـ الآشوريون	٥١

الفصل الرابع: الحرب الفارسية ـ اليونانية ٥٣
ـ ماذا عن الإسكندر الكبير ٥٤
ـ الورثة الأقوياء يتقاسمون المملكة ٦٤
ـ الدولة السلوقية ٦٤
ـ المملكة العربية الايطورية! ٦٨
ـ ماذا عن كلكيس؟ ٧٥
ـ الانباط في التاريخ ٧٨
ـ الصراع بين الأنباط والسلوقيين ٨٢
ـ ملوك الأنباط ٨٣
ـ انبساط تدمر ٨٧
ـ ماذا عن ملوك تدمر؟ ٨٨
ـ زينب وأوريليانوس والصراع غير المتكافىء ٩٢
ـ بماذا تكلم الانبساط؟ ٩٥
ـ التجمع السكاني في الحواضر النبطية وقومية الانبساط ٩٨
ـ الرومان ٩٩
ـ سيل العرم أو انفجار سد مأرب ١٠٧
ـ الإسلام ومتنصرة العرب ١١٠
ـ غسّان ١١٢
ـ يوم حليمة ١١٦
ـ يوم عين أباغ ١١٧
ـ عهد غسان عهد العرب الزاهر في سوريا قبل الإسلام ١٢٢

الفصل الخامس: تنوخ ١٢٥
ـ التكوين التنوخي الأول ١٢٨
ـ يوم ذيقار ١٣٠
ـ ماذا عن الحيرة ١٣٥
ـ لخم في لبنان ١٣٨
ـ من هي ماء السماء؟ ١٤١
ـ لأي تيم ينتسب وادي التيم؟ ١٤١

الجزء الثاني

الفصل الأول: القرامطة والحركات الباطنية وما أصاب وادي التيم من خيرهم ومن شرهم ١٤٧
ـ معركة وادي القرن بين القرامطة والعباسيين ١٥١
ـ الأخشيديون ١٥٤
ـ الفاطميون ١٥٤
ـ سجل من حمزة بن علي إلى بطريرك القدس ١٥٨

الفصل الثاني: وادي التيم ودعوة التوحيد ١٦٢
ـ ماذا عن مولاي الشريف بهاء الدين؟ ١٦٥
ـ ماذا عن الداعي الشهيد عمار؟ ١٧٤
ـ ماذا عن انوشتكين الدزبري؟ ١٧٨
ـ لخمي في وادي التيم ١٨١
ـ الأمير معضاد وصالحة ١٨١
ـ ماذا عن المرتد سكين وكيف انهى أمره؟ ١٨٢
ـ حاتم في البئر..! ١٨٩
ـ ماذا عن الأمير معضاد الفوارسي؟ ١٩٠
ـ ماذا عن غزوة بلدوين لغرب بيروت ١٩٤
ـ الجنادلة أصحاب أول إمارة في وادي التيم ١٩٥
ـ من هم الجنادلة؟ ١٩٧
ـ الحرب بين جنادلة وادي التيم وباطنيي بانياس ٢٠٠
ـ الضحاك رجل الجنادلة الكبير ٢٠٥
ـ مصرع الضحاك في بيت لهيا ٢٠٦
ـ ماذا عن قلعة جندل؟ ٢٠٧

الفصل الثالث: ....
ـ الأحداث المعروفة بذبحة عيحا ٢٠٩
ـ ماذا عن عيحا؟ ٢١٣
ـ المرحلة الثانية من الحرب بين عيحا والجنادلة ٢١٧
ـ القوى المتقابلة ٢١٨

ـ ماذا عن يذما؟ ٢٢١
ـ الحرب بين الدروز والنصيرية في وادي التيم ٢٢٥
ـ الدولة السلجوقية ٢٢٦

الفصل الرابع: ....

ـ الحروب الصليبية ٢٢٧
ـ ماذا عن طيروش؟ ٢٣٢
ـ وادي التيم بين الفرنجة والتنوخيين ٢٣٦
ـ الشهابيون أمراء وادي التيم ٢٣٨
ـ ماذا عن الشهابيين؟ ٢٣٩
ـ المغول في وادي التيم ٢٤٤
ـ معركة عين جالوت ٢٤٥
ـ التيميون يقاتلون المغول في حمص ٢٤٩
ـ حرب البقاعية وأهل وادي التيم ٢٥٠
ـ معركة سهل عيحا ٢٥٣
ـ تيمورلنك أو الطفرة المغولية الثانية إلى بلادنا ٢٥٦

الجزء الثالث

الفصل الأول: وادي التيم وطن العادات ومستودع العاديات ٢٦١

١ ـ في مجال الزراعة ٢٦١
٢ ـ الأزياء التراثية ٢٦٤
٣ ـ اجتماعيات وعلاقات عامة ٢٦٨
٤ ـ اللغة العربية الصحيحة موطنها وادي التيم ٢٧٢
٥ ـ مفاهيم وقيم ٢٧٣
٦ ـ من آثار الصابئة ٢٧٣
٧ ـ مظاهر الاحترام ٢٧٥
٨ ـ ملاهي تراثية ٢٧٦
٩ ـ انصاب ورموز ٢٧٨
١٠ ـ ملامح يمنية ٢٨١

الفصل الثاني: تاريخ بلدة الكنيسة ٢٨٣

ـ جولة أفق ٢٨٥
ـ مستشرق في الكنيسة ٢٩١
ـ الكنيسة والتاريخ المكتوب ٢٩١
ـ الأمير علم الدين سليمان الرموطي، يتزوج بأميرة من الكنيسة ٢٩٤
ـ اللقاء الثالث والآخر بين الكنية والتاريخ المكتوب ٢٩٧
ـ قصة خراب الكنيسة يرويها التاريخ غير المكتوب ٢٩٨
ـ يتيم بطل ينقذ الموقف ٣٠٢
ـ ماذا عن الشيخ عبدالقادر الريان؟ ٣٠٤
ـ العائلات النازحة من الكنيسة ٣٠٥
ـ الأمير أحمد الشهابي يعاصر أحداث الكنيسة ٣٠٧

الفصل الثالث: ....

ـ ماذا عن راشيا ٣١١
ـ ماذا عن حاصبيا ٣١٤
ـ الأتراك العثمانيون ٣١٥
ـ معركة برج دابق ٣١٦
ـ إمارة بني معن في لبنان ٣١٨
ـ قصة سلب الخزانة السلطانية ٣٢٠
ـ من هو إبراهيم باشا؟ ٣٢١
ـ الأميرة نسب التنوخية ٣٢٥
ـ الأمير فخرالدين المعني الثاني الكبير ٣٢٧
ـ الأمير يجزىء وادي التيم بين أميرين شهابيين ٣٣٤
ـ معركة عنجر ٣٣٥
ـ وفاة الأميرة نسب ٣٣٨
ـ الحرب بين فخرالدين والعثمانيين تبدأ في وادي التيم ٣٤١
ـ معركة سوق الخان ٣٤٢
ـ الشيخ الفاضل والكجك أحمد باشا ٣٤٦
ـ معركة وادي القرن ٣٤٩
ـ الأمير أحمد المعني ينتقم من العمادية ٣٥٠

الموضوع	رقم الصفحة
ـ لا العثمانيون نفذت مكائدهم ولا المعنيون نسخت بطولاتهم	٣٥١
معركة برج الغلغول	٣٥٣
ـ مصرع الأمير فارس الشهابي مع خمسين شيخاً من وادي التيم	٣٥٥
ـ مسنجقية وادي التيم	٣٥٦
ـ ماذا عن القيسية واليمنية؟	٣٥٧
ـ وادي التيم يعطي للبنان حكامه	٣٥٨
ـ ضريبة الشاشية بن فرضها والغائها	٣٦١
ـ الجزار باشا أو الكجك الجديد	٣٦١
الفصل الرابع:	
ـ حملة محمد علي باشا على لبنان وسوريا	٣٦٣
ـ صدام العزيز والدروز ـ هل كانت حرب اللجاة ثمناً لصفقة شيخ درزي؟	٣٦٦
ـ معركة دربل	٣٦٩
ـ معركة راشيا	٣٧٠
ـ ماذا عن إبراهيم باشا المصري؟	٣٧١
ـ معركة وادي بكا الكبرى	٣٧٢
ـ ماذا عن الحملة اللبنانية بقيادة الشيخين حسن جنبلاط ونصرالدين العماد؟	٣٧٤
ماذا عن دور شبلي العريان في معركة وادي بكا	٣٨١
ـ معارك: حاصبيا جنعم وراشيا..........................	٣٨٣
ـ ماذا عن حسن البيطار؟	٣٨٤
ـ استسلام شبلي العريان للمصريين.........................	٣٨٤
ـ شبلي العريان ودورة على الساحة اللبنانية قبيل أحداث ١٨٤٢	٣٩١
ـ أصول يمنية في وادي التيم	٣٩٥
ـ ذو الكلاع الحميري	٣٩٩
ـ ماذا عن الشيخ نصرالدين العماد بطل معركة وادي بكا	٤٠١
ـ دوره في معارك: ضهر الأحمر، المزة، المختارة.............	٤٠٢
ـ وادي التيم يدفع ثمن الصراع بين البشيرين	٤٠٧
ـ مستشرقون أجانب زاروا وادي التيم	٤١٤

للمؤلف قيد الطبع

ـ الملك العادل نور الدين محمود.

ـ أنوار لم تطفئها الرياح.